المصري

دنيا سنوحي

للكاتب الفنلندي

مايكا وولتاري

تعريب

حامد القصبي

وكيل وزارة الأشغال السابق

يقدمه

عميد الأدب العربي

الدكتور طه حسين

مطبعة لجنة البيان العربي

الجزء الأول

اهداءات ٢٠٠٣
الدكتور/ إبراهيم مصطفى إبراهيم
الإسكندرية

المصري
دنيا شنوحي

للكاتب الفنلندي

ميكا والتاري

تعريب

حامد القصبي

وكيل وزارة الأشغال السابق

يقدمه

عميد الأدب العربي

الدكتور طه حسين

مطبعة لجنة البيان العربي

الجزء الأول

تقديم الكتاب

لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين

هذا الكتاب قرأته مترجماً إلى اللغة الفرنسية منذ أكثر من عامين فأعجبت به أشد الإعجاب ، وكان من أشق الأشياء علىّ ، أن تقف القراءة بى فيه عند حد من هذه الحدود التى تفرضها ظروف الحياة المادية والاجتماعية على الناس .

فأنت تأخذ فى القراءة كلفاً بها ، مشوقا إليها ، تريد أن تفرغ لها ، وألا يشغلك عنها شىء ، ولكنك لا تكاد تمضى فيها ساعة أو ساعات ، حتى يصرفك عنها زائر جاء على موعد أو غير موعد ، أو زيارة وعدت بها قبل أن تأخذ فيما أنت آخذ فيه من القراءة ، وليس لك بد من أن تفى بالوعد ، أو عمل لا ترى سبيلا إلى إرجائه ، أو موعد الغداء أو العشاء أو النوم ، أو ما شئت من هذه الصوارف التى تصرف الناس عما يحبون إلى ما ليس لهم منه بد .

وقد كنت أكره الانصراف عن هذا الكتاب ، لأنى لم أكد أمضى فى قراءته حتى شغفت به أشد الشغف ، وأحببت أن أصل إلى غايته ، وتمنيت أن تكون هذه الغاية بعيدة أشد البعد .

ذلك أن الكتاب سحرنى واستأثر بنفسى ، نقلنى نقلة بعيدة جداً من بيئة الحياة الواقعية التى كنت غارقاً فيها ، ومن بيئة الدراسة الأدبية التى كنت مقبلاً عليها ، إلى بيئة غريبة بالقياس إلىّ أشد الغرابة ، هى هذه البيئة الشرقية القديمة التى عاش فيها « أخناتون » ومعاصروه من المصريين وغير المصريين فى ذلك العالم القديم .

فالكتاب لا يصور الحياة المصرية فى عصر « أخناتون » فحسب ، ولكنه يصور الحياة فى العالم الذى عرفه المصريون فى ذلك الوقت . فبطل الكتاب الذى يتحدث إليك حديثاً مباشراً لأنه يقص عليك حياته ، قد اضطر إلى أن يكون أخا سفر ، جواب آفاق . فهو يتنقل فى مصر ، ثم يتجاوز حدودها إلى فلسطين وسوريا ، ثم يمضى إلى « بابل » ثم إلى جزيرة أقريطش أو « كريت » .

وهو يعاشر حكام هذه البلاد كلها ، كما يتصل بأهلها اتصالا دقيقاً ، ويقص علينا من سير أولئك وهؤلاء ، وأنبائهم ، أطرافاً أيسر ما توصف به أنها تخلب وتروع .

ثم هو يتصل بالقصر المصرى ، فيصوره لنا أدق تصوير وأخلبه ، وهو طبيب قد طلب الطب فى معبد « آمون » ، فيصف لنا درس الطب وطلابه ، ودقائق حياة الكهنة فى معابدهم ، ودقائق الصلة بين الكهنة والقصر .. ولست أدرى ماذا يرى العلماء الاخصائيون فى كل ما يقص علينا الكاتب من تاريخ مصر والشرق فى ذلك العصر البعيد ؟ !

وليس يعنينى أن يرضى العلماء عن هذا كله أو يسخطوا ، ولا أن يعترفوا أو ينكروا لأنى لم أقرأ هذا الكتاب ملتمساً للعلم بالتاريخ ، فللعلم بالتاريخ مراجعه ومصادره وإنما قرأته ملتمساً للمتعة الفنية ، والروعة الأدبية ، والبراعة فى الاختراع والابتكار وفى الوصف والتصوير ، وفى القصص الذى يتنقل بك بين ألوان الفن فى غير مشقة ولا جهد ، كأنه يتنقل بك بين صور من الحياة التى تحياها دون تكلف أو تصنع ، إلا ما يأتى من أنه يصور لك عصراً بعيداً أشد البعد عن عصرك الذى تعيش فيه .

وما أكثر ما تمنيت أن أرى مثل هذه القصة مكتوبة فى لغتنا العربية ، مع أنى قرأت فى لغتنا لبعض أدبائنا قصصاً مختلفاً قيما عن عصر « أخناتون » ولكنه لم يبلغ من السعة والدقة والتفصيل والتنوع والروعة ما بلغت هذه القصة .

وهنالك تمنيت أن أرى هذه القصة نفسها مترجمة إلى العربية ، كما ترجمت إلى غيرها من اللغات الحية الكبرى .

ولكنى لم أطمع فى ذلك ، لأن صاحب القصة فنلندى ، قد كتبها فى لغته الخاصة وهى من اللغات الكثيرة التى لم يصل إلينا العلم بها .

ونحن قوم ، أرادت ظروف التعليم فى بلادنا أن نجهل أكثر اللغات الكبرى ، فكيف باللغات التى لا تتجاوز حدود بلادها إلا قليلا بين حين وحين ؟ !

لذلك كله ، دهشت حين أقبل علىّ ذات يوم ، الأستاذ « حامد القصبى » ومعه ترجمة عربية لهذه القصة ، نقلها من اللغة الانجليزية الأمريكية .

دهشت ، لأنى لم أكن أنتظر أن أراها فى لغتنا ، ودهشت لأن الذى يحمل إلىّ ترجمتها مهندس ، أنفق حياته فى فنون الهندسة على اختلافها ، وفى شئون وزارة الأشغال ، له مشاركة حسنة فى الأدب ، ولكنى لم أكن أنتظر أن يفرغ لكتاب طويل عسير كهذا الكتاب ، تحتاج ترجمته إلى الوقت وإلى الجهد العنيف الثقيل ، فليس أشد عسراً من ترجمة الكتب الأدبية الرائعة ..! وأسفت آخر الأمر لأن الكتاب لم ينقل عن لغته الأولى نقلا مباشراً ولكن شيئاً خير من لا شىء .

وكان أشد ما راعنى حين قرأت فصولا كثيرة من هذه القصة ، أن اللغة التى نقل إليها الكتاب ، ليست أقل جمالا ، وروعة أداء ، من التراجم الأخرى التى قرأت فيها الكتاب . وقد وفق المترجم إلى أن يحسن النقل إحساناً ، لا زيادة فيه لمستزيد ، وكأنه سبق المترجم الأمريكى إلى نفس الكاتب الفنلندى ، فعبر عما فيها تعبيراً صادقاً دقيقاً ، فى لغة جمعت إلى الجزالة والرصانة ، عذوبة ورقة ويسراً ، لا تجتمع لكثير من كتابنا المعاصرين .

فمن الحق — إذن — أن الأدب ليس مقصوراً على الذين يفرغون له ، ويقفون حياتهم وجهودهم كلها عليه ، وإنما هو شىء حر طلق ، يستطيع أن يتجاوز أصحابه

الذين أخلصوا له ذات نفوسهم ، إلى المهندسين والأطباء وأصحاب الفنون المختلفة إذا أتيح لهم أن يحبوا الجمال ويذوقوه ، وأن يجمعوا إلى حب الجمال وذوقه ، القدرة على أن يمنحوه من أوقاتهم وجهودهم بين حين وحين ما ينبغي له .

وقد أتيح هذا كله للاستاذ « حامد القصبي » ، فأهدى إليهم هذه الطرفة القيمة من الأدب الأجنبي ، الذي يصور عصراً من أعظم عصور تاريخهم خطراً . فحق له عليهم أجمل الشكر وأصدقه ، وما أراه يريد منهم جزاء ولا شكوراً أكثر من أن يقرأوا ويستمتعوا وينتفعوا ، عسى أن يكون لهم من ذلك ما يدعو بعضهم إلى أن يصنعوا مثل صنيعه ، ويمتعوا مواطنيهم بطرائف الأدب الأجنبي ، سواء أكان هذا الأدب قريباً منهم أم بعيداً عنهم ، فما أشد حاجة مصر إلى هذا النوع من الإنتاج الخصب .

طه حسين

كلمــــة المعرب

هذا الـكتاب ، الذى أقدمه لقراء العربية مترجماً بلغتهم ، من تأليف الـكاتب الفنلندى « مايكا وولتارى » ، وهو كاتب من أعلام مؤلفى القصة فى العصر الحديث وقد ذاعت شهرته فى بلاده وتجاوزتها إلى أوروبا وأمريكا ، وكانت لآثاره الأدبية فى كل مكان من دنيا الأدب الرفيع روعة أخاذة ، وجاءت قصته التى ينطوى عليها هذا الـكتاب من خير هذه الآثار ومن أجلاها دلالة على قوته وخصب بيانه ، ولهذا لم تـكد تظهر فى لغتها الفنلندية فى عام ١٩٤٩ حتى تدوولت تداولا سريعاً واسعاً فى مختلف المجتمعات الأدبية وتبارى فى ترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها من اللغات الحية الـكبرى مشاهير الـكتاب فى بلادهم حيث قرأها واستمتع بها ملايين القراء هنالك .

وقد أتيح لى أخيراً أن أقرأ هـذه القصة باللغة الإنجليزية ، فاستهوانى منها بادئ ذى بدء أن حوادثها تنبعث من مصر وتتدفق من ينـابيع تاريخها القديم الزاخر ، ثم استهوانى منها بعد ذلك تسلسلها الرائع الساحر ، فعكفت عليها قراءة ، ثم عكفت عليها ترجمة ، لأجلو بها لقراء العربيـة على العموم وللمصريين منهم على الخصوص ، صفحات مشرقة من تاريخ مصر العظيمة ، موشـاة بجمال الفن القصصى البديع .

ولئن كان يسرنى أنى قد وفقت بهـذا إلى استظهار بعض أمجادنا العريقة التى تجتذب قرائح الـكتاب الأجانب وتستثير نشاطهم وإعجابهم ، فإنه ليسرنى كذلك بل ليشرفنى ، أن أظفر على هذا الجهد المتواضع بذلك التقدير الـكريم ممثلا فى كلمة أستاذنا الجليل ، عميد الأدب العربى ، الدكتور طه حسين .

إن هذه الـكلمة التى تفضل بها مشكوراً لتقديم ترجمة هذه القصة ، تشعرنى بأنى قد فعلت شيئاً يرضى عنه الأدب ، ويرضى عنه الشعور الوطنى . وهذا خليق

أن يشعرنى أيضاً بأنى — وقد انقطعت صلتى بالخدمة العامة فى إطارها الرسمى - استطعت فى فترة فراغى أن أكون أوثق صلة بهذه الخدمة العامة فى أفقها الحر الرحيب . وحين يكون الأمر كذلك حقاً ، فإنى به لسعيد فخور .

* * *

وفى تقدمة هذا الكتاب ، يطيب لى — كمصرى — أن أقف حيال حوادثه القصصية الشائقة وقفة المتأمل فيما تنبىء به من عراقة مصر وسبقها فى تاريخ الحضارة البشرية ، فلا شك أن المؤلف قد استهدى بهذا التاريخ فى نسج الكتاب وما أراه إلا مؤرخاً صاغ عصراً من عصور التاريخ المصرى فى قالب قصصى ، فليس ثمة من شىء فى القصة إلا وله بالحقائق التاريخية صلة وارتباط . ومن هذا كانت أحداث القصة ومشاهدها تقريراً للحياة المصرية القديمة ، وتسجيلا لما استوى لمصر فى تلك الأزمان البعيدة من أمجاد عظيمة تقدمت بها على سائر الأمم والشعوب .

وقد أذكرنى هذا بما كنت قرأته — قراءة سريعة — منذ ربع قرن فى دائرة المعارف الإنجليزية للكاتب الإنجليزى المعروف « آرثر مى » ، فقد قرأت وقتئذ فى بعض فصول هذه الدائرة شيئاً عن مدنية المصريين القدماء مقارناً بما كان عليه إذ ذاك حال غيرهم من الأجناس البشرية المتناثرة فى أرجاء الدنيا .

ذكرت هذا ، وكانت قد أعجلتنى عنه شواغل العمل خلال تلك الفترة الطويلة فعدت إليه أقرأه مرة أخرى ، فرأيت فيه حديثاً يجدر بنا روايته فى عرض قصة الكاتب الفنلندى عن البطل المصرى « سنوحى » ، ولهذا فإنى ناقله فيما يلى لقراء القصة ، إبرازاً للحقيقة التاريخية الكبرى التى يستشف المصريون فى ثناياها صوراً جميلة من ماضيهم المجيد .

قال الكاتب الإنجليزى « آرثر مى » : —

« كانت جماعات وأقوام شتى من البشر تحيا ، قريباً من دجلة والفرات ، حياة ملؤها الخشونة ، فلم يكن بينها إلا ما يكون بين الجماعات المتنافرة من الضراوة

والتقاتل ، والشر المقيم المتصل » .

« وفى ذلك الحين كانت هناك ، فى مصر ، جماعة بشرية أخرى تحيا حياة إنسانية متوادعة متوادة ، ناعمة بالأمن والسلام » .

« هؤلاء المصريون كانوا فى ذلك الوقت مجتمعاً ممتازاً ، ففيهم تحرك العقل المنظم ، واندفع بهم إلى ممارسة الحياة على أسلوب إنسانى بعيد كل البعد عن وحشية الآخرين وهمجيتهم » .

« ويبدو أنهم كانوا كذلك لأن بلادهم كانت محصنة بالبحر والصحراء ، فآمنهم هذا من تطاول الأعداء عليهم ، وأغناهم عن الاستعداد للقتال والتفكير فى رد العدوان ، وبذلك شاع بينهم السلام ، وفى ظله نمت عقولهم وانحسرت عنها غواشى الظلمات ، فأخذوا يتأملون بها سر الوجود ، وينسقون أسباب العيش ومصادر الحياة ، وكانوا بذلك أقوى الأمم انبعاثاً للحضارة الإنسانية ، وأعرقها نسباً إليها » .

« فبوحى عقلهم البشرى المتحرك المدرك ، نثروا حبوب القمح على الطمى الذى كان يتخلف عن فيضان النيل فى مدى الشهور من يوليو إلى سبتمبر من كل عام ، وساقوا عليها قطعان الأغنام تمكيناً لها من الطمى الرخو ، فقويت عناصر نمائها وثمرها بما يختلط من أرواث هذه الأغنام بالطين ، فكانوا أول من اهتدى إلى النظام الزراعى على الأسس الكفيلة بوفرة الإنتاج » .

« ولقد زرعوا الفاكهة وصنعوا الحبال من البردى ، وانداحت أمام تفكيرهم آفاق الخلق والإبداع ، فنظموا وسائل الرى ، وأقاموا الحواجز والمعابر ، وأنشأوا لهم دوراً ومساكن ، وتوسعوا فى ذلك فكانت لهم أضخم البيوت والقصور مما لم يسبقهم إليه سابق » .

« وارتقى بهم العقل المستيقظ إلى البحث والتأمل فى مصدر الحياة وعلل وجودها ، والقوى المتفاعلة فيها . وكان أول ما اتجه إليه تفكيرهم هو « النيل » ذلك النهر العظيم ، فتساءلوا : كيف ومن أين يفيض ؟ ! وأية قوة هذه التى تدفعه

فى دورة زمنية منتظمة ، فيقبل عليهم جياشاً ، ويتدفق فى أرضهم غامراً حتى ليملأ الأودية ويعلو على الشطآن ؟ ! . . وقالوا إن هـذه معجزة تجاوز طاقة الرجل الواحد بل مجموعة الرجال ، فالواحد منهم يستنفد قوته فى رفع الماء فى دلاء صغيرة لجزء محدود من الأرض جد قريب ، فما بال هذا النهر يتعالى كأنه الجبال ، وينحط من بعيد على الوادى الفسيح فيغمره من جميع أقطاره بالماء فى لحظات ؟ ! فليس الذى يفعـل ذلك من البشر ، وليست قوته بالتى تقـاس بقوتهم ! . . وانتقلت تأملاتهم فى ظاهرة النيل إلى التأمل فى أنفسهم وفيما يتصل بأنفسهم من حيـاة وموت ، وصحة ومرض ، وشبع وجوع ، إلى غير ذلك مما لم يكونوا يفـكرون فيه من قبل ، وأسلمهم هذا التفتح الذهنى الجديد إلى الاعتقاد بأن من وراء هذا الـكون بكل ما فيه ومن فيه قوة خارقة ، هى فوق هذه القوى جميعاً » .

« وكان لا بد من أن يصطلحوا على تعريف هـذه القوة الخارقة ، فسموها إلهـاً ! . . ورسموا لصلتهم بهذا الإلـه طقوساً تعبدية ، سموها ديانة ! . . »

« فهم أول من اهتدوا إلى إلـه ، وأول من اشترعوا شريعة تقربهم إليه . وقد تساموا فى النظر إليه على الأرض ، فراحوا يلتمسونه فى السماء ، فـكانوا دائمـاً يرفعون رؤوسهم إلى أعلى ، ويديرون عيونهم فى الـكواكب والنجوم والأفلاك ، فزادهم إدمان النظر لها والتطلع إليها استنارة فـكر ، ويقظة عقل ، وقوة روح . وشيئاً فشيئاً ربطوا بين السماء بكواكبها ونجومها وأفلاكها وسائر ظواهرها ، وبين أحداث الأرض وتفاعلات الـكون والناس كافة . وخلصت لهم من ذلك معتقدات دينية تتباين فى مراسمها ومسمياتها ، ولـكنها آخر الأمر تتحد فى لبابها وجوهرها ، إذ ينتهى بها كل فريق منهم إلى إلـه يمثل القوة الخارقة المسيطرة على خلقه وأفعاله وحركاته » .

« ومن مظاهر تقريراتهم العقلية أنهم اعتقـدوا أن من وراء قوى الطبيعة الماثلة ، قوى أخرى أعظم منها ، تسيّرها وتؤثر فيها ، فسمّوا هذه القوى غير المنظورة بأسماء يتعارفون عليها للتأليه والعبادة والتمييز . فلقوة الخير عندهم إلـه اسمه

«أوزوريس» ، ولقوة الشر إلـه اسمه «ست» وجعلوا الإلـه الخير « أوزوريس » زوجة أسموها « إيزيس » وابنـاً أسموه « حوراس » . فمن شـاء منهم مرضاة « أوزوريس » وبلوغ الحظوة عنـده ، تقدم بالهدايا والقرابين إلى « إيزيس » وهكذا » . .

« وهذه وأمثالها مما زخرت به حياة المصريين القدماء ، قد لاتسلم من الخطأ لقيامها على الفروض والتخيلات ، ولـكنها — ويجب ألا ننسى هذا — كانت مقدمات التفتح العقلى ، واجتهاداً فى سبيل استكناه الحقيقة الـكبرى ، ولم يكن من سبيل سوى ذلك فى كشف سرها المجهول . ولم يشذ المصريون فى هذا عن سنة التطور ، كما أن معتقداتهم هذه المفترضة أو المتخيلة لم تـكن تبعد كثيراً عن الحقيقة المنشودة ، فقد كانت فى القليل إرهاصاً لها وتبشيرا بها . ونحن نرى أن قوانين العلوم الثابتة بدأت على فروض متعثرة ومحاولات تجريبية قائمة على محض الإلهامات الغامضة . ومن أمثلة ذلك علم الفلك ، فهو ثمرة النظر الشارد إلى النجوم ، وكذلك علم الـكيمياء ، فهو وليد السيمياء . وفى سائر الأحوال لاتخلص الحقائق مستـكملة العناصر إلا بعد محاولات شاقة يتخللها الشك والخطأ » .

«فمهما يكن من شأن معتقدات قدماء المصريين ، فإن ثمة أمرا لايمكن تجاهله وهو أنها كانت الطلقة الأولى فى اتجاه العقيدة الصحيحة التى انتبه إليها وسار فى طريقها من جاءوا بعد ذلك من عظماء البشرية . وقد استطاع عقل أولئك المصريين أن يرتبط مبكراً جداً بذلك العقل الـكبير الـكامن خلف قوى الـكون وأن يلهمهم بأن لهم حياة أخرى بعد هذه الحياة ، وأنهم محاسبون حسابا دقيقاً أمام ذلك العقل الـكبير عن أفعالهم فى حياتهم الأولى ، حينما تتجرد أرواحهم من هياكلها المـادية لتخلد هناك فى برازخ الأبدية ، حيث تجزى أرواحهم بالخير خيراً وبالشر شرا . وبهذه العقيدة خطا المصرى خطوة واسعة نحو المدنية الرشيدة التى جاءت مخاض إيمان صحيح وديانات سماوية قويمة » .

« وهذا الذى بلغه المصريون القدماء عن طريق العقل حينذاك ، كان بلا ريب

مشرق نور الحضارة الإنسانية فى عالم بدائى يعيش وسط ظلمات متراكمة ودياجير حالكة السواد ، وهو أمر رفعهم إلى القمة والصدارة من التاريخ البشرى المتحضر » .

« ومن الحق ، تبعاً لذلك ، أن يقال : إنه فى الوقت الذى كان أجدادنا يضطربون فى متاهات الهمجية والتوحش ، وكانت هذه الجزر البريطانية أدغالا أو كالأدغال ، تحيا على شريعة الغاب ، وقوانين الظفر والناب — فى ذلك الوقت كانت معابد المصريين وأهراماتهم الشاهقة ، وآثارهم الرائعة ، تنهض على عين الدنيا دليلا على مدنيتهم وحضارتهم ، وعلى أنهم كانوا الشمس التى قبست منها كل أمة شعاعاً من نور » .

« وكم هى جليلة مؤثرة تلك الإحساسات الروحية التى استشف بها أولئك المصريون القدماء قوة الإلــه ، واستظهروا بها صلة الكون به ، فاتخذوا منها ، كما ينبغى أن يكون ، منارة الحق والخير والسلام ، ثم تداعوا إليها ، وتنادوا بها ، فكان دعاؤهم وتناديهم حفزاً قويا إلى تخليص البشرية من الجهالة والبهيمية العمياء والتقدم بها خطوات واسعة إلى حظيرة الألوهية ، وإلى الإيمان بالحياة الخالدة بعد الموت » .

« من أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح ، أى من ضعف الزمن الطويل لحادث مولده السامى ، كان المصرى ينحنى حتى يمس بجبهته تراب الأرض أمام هرمه الأكبر ، متخشعاً لإلهه الذى يتمثله متجلياً فى هذا الأثر الرامز إلى القوة العتيدة . وكثيرا ما كان يفعل ذلك فى كل ما يهيئ له وسيلة التعبير عن إيمانه بهذا الإلــه الذى يراه فوق صور البشر وأفعالهم » .

« فهؤلاء المصريون قد تقدموا جميع من جاءوا بعدهم ، فسلكوا سبيلهم ، وإذا كان أولئك الذين جاءوا بعدهم قد حرروا آخر الأمر اتجاهات العقل الإنسانى من بقايا الخوف والخرافة ، فالواقع أنهم إنما أتموا بفعل التطور العقلى ما بدأ المصريون به . فالسبق لاينفك معقودا لهم — أى للمصريين — فى هذا المجال ، والعالم كله ، بلا مراء ، مدين بالفضل لهم فى ذلك » .

« ثم إنهم ، إلى هذا ، يمتازون بخصال إنسانية ، قلما توافرت لغيرهم ، منها الانبعاث للعمل والكفاح فى أنحاء الحياة الشتى ، فمهدوا الأرض وأثاروها واستنبتوا فيها الزروع المختلفة كالشعير والقمح والعدس والبصل والبقول والفاكهة ، وأحسنوا تربية الأنعام واستكثروا منها ، وغزلوا أصوافها ونسجوها واستعملوها لباساً لهم ، واصطنعوا الصيد وأجادوه ودربوا عليه كلابهم وقططهم ، وغير ذلك كثير مما أفاء عليهم رغادة العيش ونمّى فيهم ملكات الاستنباط والابتداع ، حتى أنهم أجادوا علم الحساب . وهذه أهراماتهم الخالدة التى تثير الإعجاب على وجه الزمان ، لم يكونوا ليستطيعوا تشييدها هذا التشييد العجيب المدهش ، لو لم يكونوا قد حذقوا جيداً علوم الرياضة . وكذلك مدنهم الكبيرة العظيمة وهيا كل معابدهم الهائلة التى تأخذ بألباب مكتشفيها ومشاهديها ، فإنها أيضاً من آثار أيديهم الصناع ، ومجالى عقلهم المنظم الخصيب » .

« وجماع القول إن مصر كانت ذائعة الشهرة بعيدة الصوت فى أقطار الدنيا جميعاً ، وكانت ملتقى أسواق العالم ، تتوافد عليها قوافل التجار والرحالة ومن إليهم من كل صوب وحدب ، كما كانت السفن المصرية تجوب البحار فى كل الأراضين والأصقاع ؛ وبهذا وبغيره من الثقافات والعلوم ، كان لها السبق والتقدم على سائر الأمم والشعوب » .

* * *

وبعد — فهذا إجمال ماسيراه القارئ مبسوطاً مفصلا فى سيرة بطل قصتنا « سنوحى » . ونحن معشر المصريين أحرياء بأن نعتز به لقوة دلالته على ماضينا البعيد الجليل ؟

فبراير ١٩٥٥ — عامر القصبى

وكيل وزارة الأشغال السابق

قارب الغـــــاب

— ١ —

أكتب هذا أنا « سنوحى » ابن « سنموت » وزوجته « كيبا » ، ولست أريد به تمجيداً لآلهة أرض « كيم » أو إشادة بأمجاد الفراعنة ، فقد أجدبت فى نفسى هذه المعانى ، فسئمت الآلهة ، وضقت ذرعا بأفاعيل الفراعنة .

ولا أكتبه عن خشية من حاضر ، أو بأمل فى مستقبل ، فقد عشت ماعشت من حياتى ، ورأيت وعرفت وفقدت الكثير ، وراح كل هـذا فريسة باطل طاغ مزعج .

إنما أكتب كتابى لنفسى وحدها ، لا تحدونى رغبة فى تخليد اسمى ، فقد برمت بالخلود مثلما برمت بالآلهة والملوك مخالفا بذلك ما اصطلح عليه الكتاب الذين تقدمونى ، والذين يجيئون بعدى .

وقد أخذت فى نظم حلقات هذا الكتاب بعد ثلاثة أعوام قضيتها بمنفاى على شاطىء البحر الشرقى (البحر الاحمر) حيث لا شىء غير سفن تروح عليه وتغدو إلى أرض « بنت » ، وغير هاتيك التلال المتراكمة يستخرجون منها أحجاراً يصنعون بها تماثيل الملوك الذاهبين .

والحق أن الكتابة الآن هى لذتى الوحيدة فى الحياة ، بعد إذ أصبح « النبيذ » مر المذاق على لسانى ، وزايلنى الهوى إلى النساء ، وعدت لا أحس متاعا فى النظر إلى الحدائق ريانة الزهر ، فواحة العبير ، أو إلى الأسماك الجميلة الملونة سابحة فى مسارب الماء ، كما لم أعد أستشعر شيئاً من الطرب للغناء ، فقد عافت أذناى نغم القيثار وألحان المزامير .

وهأنذا فى منفاى أجد من حولى ثرائى العريض ، وأكوابى الذهبية ،

وأدوات العاج والأبنوس ، وأعواد المسك نفاحة العطر ، وها هم الأرقاء والحراس يهابون سلطانى ويحنون بين يدىّ هاماتهم حتى لتكاد تلمس الأرض إجلالا لمكانتى واحتراما لقدرى ، ولكن ماذا أنا من هذا كله والقيود تحد خطاى وتغلل إرادتى ، ولا يؤذن لسفينة أن ترسو على شاطىء منفاى .

لقد استحال علىّ أن أتنسم ريح الأرض الطيبة السوداء ، ولو فى ليلة واحدة من ليالى الربيع ..

كان اسمى منقوشاً فى سجل فرعون الذهبى ، وكان مكانى دائماً إلى يمينه ، وآرائى تعلو فى أهميتها آراء الكبار المقدمين من أهل أرض « كيم » .

وكان النبلاء يجزلون لى عطاياهم وهداياهم ، كما كان عنقى يزدان بالقلائد الذهبية ذات البريق الأخاذ ، وكنت من هذا كمن أوتى أقصى ما تهفو إليه النفس ، ولكن طبيعة البشر مسرفة فى مطامعها تواعة إلى المزيد من شهواتها ، ومن هنا بقيت كما كنت ! ..

لقد أبعدت من « طيبة » إلى هذا المنفى فى السنة السادسة لحكم فرعون « حور محب » محكوما علىّ بالقتل إن جاوزت أو حاولت مجاوزة النطاق المحدد لإقامتى ، هكذا قضت مشيئة فرعون الملك الذى كان صديقى يوما ما .

وإنه حينما أبدأ فى شرح قصتى ، لتندّ عن قلبى صرخة الألم الممض الذى يغمرنى بالمنفى ، فان من ارتوي مرة من مياه نهر النيل ، ليظل دائم التحنان إليه والتلهف عليه . ولو انتهل أعذب مياه أنهار العالم ، لما ابتردت بذلك كبده الحرّى الظامئة .

وهذه ثروتى الطائلة ، أعطيها عن طواعية وكامل رضى ، لمن يمكّن لقدمى فى أن تعود فتطأ ، ولو مرة واحدة ، أرض (كيم) الطيبة . وإنى لأتمنى لو استبدلت بأثوابى التيلية التى يرفل فى مثلها النبلاء جلد عبد مسترق ، لقاء عودتى لأستمع إلى حفيف رياح الربيع وهى تهب رخاء على أعشاب النيل . .

كم كانت أيام شبابى موفقة صافية ؟
وكم كانت جميلة ممتعة ، حماقات الشباب ؟
ألا ليت الشباب يعود يوماً ، لأشكو إليه أفاعيل المشيب . .

وليت (آمون) يبحر من الغرب إلى الشرق ، ويخترق السموات العلى ، ليرد علىّ ما أدبر من شبابى . .

ولكننى ، مع هذا ، لن أستطيع أن أبدل مما فعلت فتيلا ، ولن أقدر على نقض شىء مما أبرمت .

إذن ، فهلم أيها القلم ، يا حليفى وصديقى ومؤنسى فى الشدائد ، لتعيد إلىّ على صفحات البردى الناعمة ، ذكريات شبابى وحماقاتى .

— ٢ —

كان « سنموت » الذى أدعوه أبى ، طبيباً لفقراء « طيبة » ولم يعقب من زوجته « كيفا » إلى أن وافيتهما وهما عجوزان ، ولفرط سذاجتهما حسبانى هبة من الآلهة ، غير مستشعرين شيئاً مما ستصيبهما به هذه الهبة فى المستقبل .

وقد أطلقت علىّ « كيفا » اسم « سنوحى » على اسم بطل إحدى الأساطير التى كانت مولعة بالاستماع إليها ؛ ظناً منها أنى جئت ناجياً من خطر ، كذلك البطل الذى سميت باسمه . ففيما ترويه الأساطير ، أنه قد تناهى إليه عرضاً ؛ وهو فى خيمة فرعون ، سر خطير ففر هارباً وعاش عدة أعوام حاشدة بالمغامرات فى بلاد أجنبية .

وكانت « كيفا » — فى براءتها — وهى تختار لى هذا الاسم تأمل أن أتخطى به الأخطار وأن يكون عاصمى من سوء الحظ . وقد كان كهنة « آمون » يتخذون من الاسم فألا لصاحبه . وما أدرانى فلعل هذه التسمية هى التى جرتنى إلى ما لقيت من الأخطار ودفعتنى إلى ألوان شتى من المغامرات ، وقذفت بى إلى بلاد بعيدة ، وربطت بينى وبين أسرار مخيفة تتصل بالملوك وزوجاتهم وتحمل لى الموت فى ثناياها حتى انتهت بى آخر الأمر إلى ما أعانى من النفى والشراد

على أنى كنت أحسب من البلاهة موافقة « كيفا » فى اعتقادها أن للاسم أثراً فى مقدرات الإنسان . أترى لو سميت « خفرع » أو « خفرو » أو « موسى » كان يحدث لى غير ما حدث ؟ ! لا أظن ذلك ؟ .

ومهما يكن من أمر الأسماء ومسمياتها فالواقع أن « سنوحى » أصبح طريداً منفياً ، فى حين قد توج « حب » الذى يدعى بابن الصقر تحت اسم « حورمحب » ملكا على المملكتين العليا والسفلى وحمل فوق رأسه التاج الأحمر والأبيض . فلندع ، إذن ، لكل إنسان تقديره الخاص للأسماء ومميزاتها وما قد ينطوى عليه هذا التقدير من عزاء فيما يقع من شرور الحياة ومفارقاتها .

ولقد ولدت فى عهد حكم الملك العظيم « أمنحوتب الثالث » مقدوراً أن أكون مجهول المنبت ، محروماً من الاستمتاع بحقوقى ، ثم يشاء القدر أن يقع بعد مولدى بقليل مولد آخر تهتز له جنبات القصر الملكى فرحاً وابتهاجاً ، فتقام له هنا وهناك معالم الزينات ومجالى الغبطة والسرور ، ويتقدم الملك من أجله بالقرابين إلى « آمون » فى معبده ، ويهرع الشعب ، متنافساً ، إلى مشاركة مليكه فى فرحه وابتهاجه ، ذلك لأن الملكة « تايا » التى ظلت اثنين وعشرين عاماً تتوسل إلى الآلهة أن ترزق مولوداً ذكراً ، قد وافاها أخيراً ذلك المولود المنشود ، فنودى به ولياً للعهد بعد إتمام مراسيم ختانه بواسطة الكهنة .

لم يكن هذا الولى للعهد قد ولد حتى الربيع وهو موسم الحصاد ، بينما ولدت أنا فى الخريف المتقدم عليه عند ما بلغ فيضان النيل ذروته ، وبقى يوم مولدى مجهولا لأننى وسدت قارباً من الغاب مطلياً بالقران ، ومضى به تيار نهر النيل ، حتى اكتشفته أمى « كيفا » وسط حشائش الشاطىء على مقربة من عتبة دارها ، وكانت الطيور ساعتئذ تهوم فوقى ، وقد بدوت لأمى ساكناً بلا حراك حتى ظنتنى ميتاً ، ولكنها عند ما نقلتنى داخل دارها أخذت توقد النار حولى لتمدنى بالدفء والحرارة وراحت تنفخ فى فمى حتى ظهرت علىّ أمارات الحياة من جديد .

وما لبث أبى « سنموت » أن رجع إلى داره بعد فراغه من زيارة مرضاه

حاملا معه بطتين ودقيقاً ، فسمع صراخاً خيل إليه أنه مولاء هرة جاءت بها زوجته فأوشك أن يؤنبها على ذلك لولا أن عاجلته ببشرى عثورها على المولود الذى بعثت به إليهما الآلهة .

ولم يبد أبى ارتياحاً لذلك بادىء الأمر ولكن « كيفا » حملتنى إليه فحركت فيه عاطفة الإشفاق على مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة ، ومن ثم اتفقا على أن يتخذانى ابناً لهما ، وأذاعا بين الجيران أن « كيفا » قد ولدتنى . ولست أدرى كيف جازت عليهم هذه الأكذوبة السافرة .

بيد أن « كيفا » حرصت على أن تحتفظ بالقارب الذى حملنى إليها ورفعته معلقاً بالسقف فوق فراشى . وذهب أبى لفوره إلى المعبد ، يحملنى على آنية نحاسية ليقيد اسمى هنالك فى سجل المواليد باعتبارى ابنه من زوجته « كيفا » . وتولى هو عملية ختانى ، لأنه ، كطبيب ، لا يطمئن إلى آلات الكهنة غير المعقمة والتى كثيراً ما تنشأ عنها جروح معدية ، ذلك إلى أنه قد وفر ما كان سيدفعه أجراً للكهنة وهو أحوج إليه منهم ، فطبيب الفقراء لا يمكن أن يكون إلا فقيراً كذلك .

كانت هذه المعلومات تتساقط على سمعى فى الفينة بعد الفينة ، خلال أحاديث وعبارات بريئة يدور بها لسان أبى أو أمى ، فى مناسبات مختلفة ، غير أنى فى طور طفولتى لم أكن أشك أبداً أن « سنموت » و « كيفا » أبواى حقاً ، فعشت تلك الفترة فى ظلهما سعيداً لا تكدر الأيام صفو حياتى .

وما كاد عود شبابى يزدهر ، وأصبح فتى يافعاً مقصوص الشعر ، حتى أخذ أبواى يظهرانى على حقيقة أمرى مجردة من الشك ، فهما يخشيان الآلهة ويقدسانها ،ولا يرى أبى — بخاصة — أن ثمة خيراً فى أن أعيش حياتى جاهلا هذه الحقيقة .

وحينئذ ساورنى القلق والحيرة ، فمن أنا ؟ ! ومن أين جئت ؟ ! ومن يكون أبى وأمى ؟ ! ذلك ما لم أتبين سره الدفين إلا فيما بعد .

ولم يغب عنى وأنا فى عراك الحيرة بينى وبين السر المجهول ، أننى لست الوحيد الذى ساقه القدر محمولا على قارب من الغاب يدفعه تيار مياه النهر . « فطيبة » بقصورها ومعابدها كانت مدينة عظيمة ، وكانت الأكواخ التافهة المبنية باللبن التى يسكنها الفقراء تنتشر بكثافة ملحوظة حول الأبنية الفخمة والدور المنيفة ، وكانت مصر أيام الفراعنة العظام تحكم بقوتها وثروتها عدة شعوب مختلفة العادات والتقاليد ، فكان التجار والصناع من أهل تلك الشعوب يقبلون على « طيبة » ويستقرون بها ويقيمون فيها المعابد لآلهتهم ، وفى هذا المجتمع الزاخر المتباين ، كان ثراء أصحاب القصور والمعابد ، يتحدى فى سعته وكثرته ، بؤس الفقراء والمساكين الذين كان الكثيرون منهم ، لشدة إملاقهم ، يتخففون من أطفالهم فيسلمونهم إلى النهر ، عند ولادتهم ، فى قوارب من الغاب . كما أن كثيرات من زوجات الأغنياء الذين تطول أسفارهم كن يتخلصن من خطيئاتهن بهذه الطريقة .

ربما كنت واحداً من هؤلاء الأطفال ، وقد أكون ضحية الفقر والإملاق ، وقد أكون خطيئة زوجة تمثلت طفلا ! . .

لقد وضعت « كيفا » خصائل شعرى المقصوص فى صندوق خشبى صغير ، وفى هذا الصندوق نفسه وضعت « الصندل » الذى كان فى قدمى يوم ساقتنى المقادير إليها .

إنى لأنظر كثيراً إلى قارب الغاب ، وأطيل النظر والتأمل فى دعاماته المحطمة وعقده المتشابكة ولونه الذى أعتمه دخان الوقد ، فلا يزيدنى ذلك إلا إبهاماً وحيرة ولا أجد فيه بصيصاً من نور أهتدى به إلى أبى وأمى ، وقومى وأهلى .

وكان هذا هو الجرح الأول الذى أصاب قلبى وأدماه .

— ٣ —

عند مايتقدم عمر الإنسان ، تحلق روحه كالطائر فى سماء طفولته البعيدة ، لتجمع إلى حاضره ذكريات ماضيه ، والناس جميعاً فى ذلك سواء ، لا فرق بين أغنياء

وفقراء ، وأحسبني راضياً عن حاضرى فيما عدا بدوات قليلة . كنت أتمنى ألا تكون ...

كان أبى « سنموت » يقطن فى حى كثير الأوساخ دائم الصخب والضجيج يقع بالجانب القبلى من أسوار المعبد ، ويقوم على مقربة من داره مرفأ السفن الجارية فى النيل حيث تلقى أحمالها . وتزدحم الأزقة الموصلة إليه بالحانات ودور المباذل واللهو الرخيص يرتادها البحارة ورجال التجارة ، ويفد عليها أصحاب الثراء من أقصى المدينة على محفاتهم التى يحملها الأرقاء ..

وجيراننا من جباة الضرائب ورباية السفن وضباط الصف والكهنة من المرتبة الخامسة كانوا كأبى يعتبرون من الطبقة المحترمة التى ترتفع عن عامة الشعب بمقدار ارتفاع الحائط عن سطح الماء .

أما دارنا فكانت رحبة فسيحة بالقياس إلى أكواخ الفقراء الطينية التى تتكاثف فى الأزقة الضيقة وتتغشاها الكآبة . ولهذه الدار حديقة صغيرة تتوسطها شجرة الجميز الذى يسمى « تين فرعون » وهى من غرس أبى ، ويحدد الحديقة من ناحية الطريق سور من أشجار السنط وبها حوض بنائى لايملأ بالماء إلا وقت الفيضان . ويتألف مبنى الدار من أربع غرف إحداها لطهو الطعام الذى كنا نتناوله فى شرفة متصلة بغرفة عيادة أبى الطبية وكانت تتردد علينا خادم مرتين خلال الأسبوع لتعاون أمى فى تنظيف البيت ، وفى يوم واحد من أيام الأسبوع كانت إحدى النساء توافينا لتحمل ملابسنا إلى شاطىء النيل لتغسلها بالمكان المخصص لذلك ..

وفى هذا الحى الذى يصطخب شغبا والذى كان مسرحاً لتفاهات الحياة التى يحياها أهله وبينهم أخلاط من الأجانب كان أبى وجيرانه يحرصون على التمسك بالتقاليد والعادات الكريمة حتى فى الوقت الذى جافت فيه الطبقة الراقية بالمدينة هذه التقاليد والعادات وانحرفت عن جادتها : ولعل أبى ورفاقه وأهل طبقته قد قصدوا من وراء ذلك إلى تمييز سلوكهم وسيرتهم عن أولئك الذين يتصلون بهم بأسباب الحياة والعمل .

ولكن مالى أعرض لهذه الأمور وهى التى كانت ترسم لى فى غمار طفولتى

صورا بلهاء ساذجة ، فلم أتبين مكنون أسرارها إلا بعد أن شببت عن الطوق واستوت عندي ملكة الفهم والإدراك ؟!

إن في ذكريات هذه الطفولة يطيب الآن حديثي ، أكثر من أي شيء آخر ، عن شجرة الجميز ذات العقد الكثيرة التي كنت أجلس إلى جذعها لأحتمي بوارف أغصانها من لفحات الشمس المتقدة ، وعن تلك اللعبة الخشبية الجميلة التي تصور تمساحا يفغر فاه ويلوح بين فكيه بلعومه الأحمر ، فأجره ورائي مسحوبا بخيط رفيع وأمضي به فرحا مزهوا على الطريق المرصوف ؟! لقد كان أترابي من أطفال جيرتنا لا يقلون عني ولعا بهذه اللعبة الطريفة التي تهيء لهم أن يعبثوا بالتمساح الذي يخشاه في دنيا الحقيقة أشداء الرجال . . ولم يكن باستطاعتهم أن يفوزوا بمثلها فقد كانت لعبة الأطفال من الطبقة الراقية ، وقد أهداها لأبي نجار القصر الملكي لقاء إبرائه من دمل كان يوجعه ويمنعه من الجلوس . . . وكنت أعرف ، لتفردي بها بينهم مقدار قيمتها عندهم ، فلم أكن أسمح لهم باستعمالها إلا إذا منحوني الكثير من الحلوى والأحجار اللامعة وقطع النحاس البراق .

لقد كانت أمي في الصباح تصحبني معها وهي ذاهبة إلى سوق الخضر ، وقد تعودت أن أراها تستعرض الأشياء وتطيل النظر إليها متأملة فاحصة ، حتى لتقضي ساعات في ابتياع حزمة من البصل ، فإن كان الأمر متعلقا بشراء حذاء جديد فلا أقل من أسبوع تقضي صباح كل يوم فيه متنقلة بين الحوانيت إلى أن يستقر رأيها على شرائه . وكانت تقول إن الناس يظنونها ثرية لا تشتري إلا القليل الذي ينال إعجابها . وطالما كانت تردد على سمعي أنها لا تحاول أن تقتني دائما كل مايروقها لتلهمني عادة الاعتدال في الحياة . . ومن رأيها على أي حال أن الغنى ليس بالمال وما إليه من مظاهر الثراء وإنما الغنى الحقيقي هو غنى النفس والرضى بالقليل ، وكانت تؤكد لي وهي تنظر إلى المنسوجات الزاهية الألوان المستوردة من «صيدا» و « بابل » أنها لا تعدل نسيج بلادها العادي ولا ترقى إلى مستواه جودة وأناقة ، وما أكثر ما كانت تصف بالغرور والسفه أولئك الذين ينفقون أموالهم في اقتناء

ريش النعام والأوانى العاجية . . . وهكذا كانت تذهب معى فى التعبير عن فلسفة القناعة والحث عليها . . ولكنّ فى سمع الطفولة صمما لا يصغى إلى تلك النصائح والتوجيهات بل إنه ليتمرد عليها ويجرى فى غير سبيلها . ولذلك طالما تمنيت لو أن لى قردا كذلك الذى يلف ذراعيه حول عنق صاحبه ، أو طائرا بريشه الجميل الزاهى الألوان يتصايح بكلمات من السورية حينا ومن المصرية حينا آخر ، ولماذا لا أحلى بالقلائد الذهبية وأنتعل الصنادل المطعمة بالذهب ؟ ! . ..

على أنى لم أعرف إلا أخيرا أن (كيفا) المسكينة كثيرا ما التاعت بحسرة العجز والحرمان وكثيرا ما تمنت الغنى والثراء ، بيد أنها كزوجة طبيب فقير كانت تخفف من حنينها إلى الثروة ، وتحد من تحسرها عليها ، بما كانت تدأب على روايته من القصص والأساطير إحياء للأمل فى المستقبل المجهول .

وفى المساء عند ما نأوى إلى فراشنا ، كانت لا تفتأ تردد على مسمعى ، بالصوت الخفيض ، قصص الأبطال والآلهة والملوك ، فسمعت منها قصص « سنوحى » الذى سميت باسمه ، والرجل الذى تحطمت سفينته فى اليم وعاد رغم ذلك بالثراء الطائل ، وقصص الآلهة والأرواح الشريرة والسحرة والفراعين القدماء . وكانت كلما أغربت فى هذا القصص وأوغلت فيه أشعر برغبة متجددة فى الاستماع والتكرار ، وكان هذا يروقها فتمضى فيــــه ، ولكن أبى فى بعض الأحيان كان يفجأنا باعتراضاته ، مبديا خشيته من أن تحشو زوجته رأسى بالخرافات . وكنت فى نفسى أنكر عليه هذه المداخلات لأنها كانت تقطع علينا ما كنت ألقاه فى قصص أمى من لذة وسلوى وبخاصة فى ليالى الصيف المؤرقة .

وإن أنس لا أنسى ذلك الحنان السخى الذى كانت تضفيه علىّ أمى « كيفا » ، وما أحسبنى كنت أظفر بمثله من أمى التى ولدتنى . . . حقا لقد كانت أمى « كيفا » امرأة عطوفا طيبة القلب ، حتى ما كانت لتبخل بعطفها وكرمها على أولئك الغرباء من القصاصين ورواة الأساطير الذين كانوا يتواردون عليهـــا ، فيجدون عندها عشاءً طيبا وتحيات لطافا . . .

وكما كانت أقاصيص أمى تسليني وترويني ، كانت الجلبة الدائمة فى الشارع ، والروائح الكريهة المتطايرة منه ، وأسراب الذباب المطوفة به ، تضايقني وتؤذيني وتكدر صفو خيالى .

غير أنه بين آونة وأخرى كانت تهب علينا رياح مقبلة من المرفأ حاملة عبق أشجار السدر وأعواد المسك وأنفاس العطور التى تتضمخ بها الغانيات السائحات بالشارع على محفاتهن فوق رؤوس الأرقاء ، فتتفتح بذلك نفسى المكظومة وينشرح صدرى المنقبض . .

وفى كل مساء حينما كان قارب «آمون» الذهبي يتوارى خلف التلال الغربية ، كانت تتصاعد من أكواخ الفقراء القريبة منا ريح شواء السمك والخبز الطازج ، وكنت فى طفولتى أستطيبها ، وإنى لأتشممها الآن ولا أزال أستروحها .

وقد تلقيت الومضة الأولى من ثقافتى التعليمية فى شرفة منزلنا حيث بدأ أبى يتعهدنى ويدارسنى بعد تناول الطعام ، ثم درجنا على ذلك .

وكان أبى يهل علينا من حديقة المنزل عائداً من زيارة مرضاه أو خارجا من غرفة عيادته ، ورائحة العقاقير الطبية النفاذة تنبعث من ملابسه ، فتخف أمى إلى لقائه ، وتصب الماء على يديه ، ونجلس معاً لتناول الطعام بينما تظل أمى ناهضة على قدميها لخدمتنا . وكثيراً ما كانت تمر أمامنا جماعات من البحارة الثملين فيضربون حوائط المنازل بعصيهم ويقف من يشتد بهم الثمل ليتجشأوا ما فى أجوافهم بجانب أشجار سور منزلنا . وكان أبى ، فى هدوئه ورزانته ، لا يقول شيئاً حتى يمضوا ، فيلتفت إلىّ ويقول : لا يمكن أن يكون هؤلاء إلا رعاعا ، فالمصرى المهذب يتخفف من جوفه المثقل بالخمر بعيداً فى إحدى الخرائب ، لا هكذا قريبا من الدور والأسوار ، والنبيذ هبة من الآلهة إذا اعتدلنا فى تعاطيه ، وقدح منه لا يضر أحدا ، وقدحان يحلان عقدة اللسان ، وأكثر من ذلك يضل شاربه ويستلب لبه ، ويلقى به على قارعة الطريق ، فإن أفاق بعد ذلك وجد نفسه مضروباً منهوباً .

وقد يحدث ونحن جالسون بشرفة منزلنا أن تتسلل إلى أنوفنا روائح معطرة

تنفضها حسناء تمشى بالشارع متثنية متدللة بملابسها الرقيقة التى تشف عن محاسنها وتجلو مفاتنها ، وعلى خديها وشفتيها وحاجبيها قشرة من التمويه الملون الدقيق ، وفى عينيها بريق أشد إثارة وفتنة ، وأبعد ما يكون عن معنى الفضيلة . فإذا ما وقع عليها نظرى أخذتنى من جمالها غشية المفتون ، فينبهنى أبى قائلا : إياك — يا ولدى — والمرأة التى تستميلك بمثل ماترى مشاعرك ، فحبائل المرأة مصيدة للرجال وجسمها يحرق أشد مما تحرق النار .

فلم يكن عجيباً بعد تلك التعاليم والنذر التى لقنتها فى طفولتى أن أشب وجلا من الخمر خائفاً من الحسان ، ولو أنهما كليهما ما برحا فى غمر من الغموض جملها أكثر إثارة للفكر وأقوى سيطرة على العاطفة .

وسمح لى أبى — وأنا ما أزال صغيراً — أن أشهد استشاراته الطبية وأستمع إلى تشخيصه لأدواء مرضاه ، ثم كشف لى عن آلاته الجراحيـة من مشارط وملاقيط وقوارير دواء شارحاً لى وسائل استعمالها ، وطاب لى أن أكون إلى جانبه وهو يفحص المرضى ويعالجهم ، فأناوله أوانى المياه الساخنة والضمادات والزيت والنبيذ ، ولم تكن أمى تطيق رؤية الجروح ، فكانت تعجب من هوايتى هذه ، ولكن الطفل عادة لا يقدر الآلام والأوجاع حتى يجربها بنفسه ، وكنت إذا أتيحت لى رؤية جراحة بسيطة لفتح دمل أو نحوه أروح أروى خبرها لرفاق فى فخار طمعاً فى نيل احترامهم .

وفى عناية واهتمام كنت أتابع أسئلة أبى لمرضاه وهو يتولى الفحص عما بهم ، فإذا انتهى من هذه المهمة سمعته يقول : هذا المرض قريب من الشفاء ، أو يعبر عن اطمئنانه قائلا لمريضه : سأتولى علاجك . . وفى حالات يأسه من برء المريض كان يكتب له بضعة أسطر على ورقة البردى ليذهب بها إلى « دار الحياة » بالمعبد . فإذا غاب هذا المريض عن نظره تنهد وهز رأسه وقال : مسكين هذا المخلوق !..

ولم يكن مرضى أبى كلهم من الفقراء المعوزين ، بل كثيراً ما كان يقدم عليه

رواد بيوت اللهو والباذل بملابسهم التيلية الفاخرة ليضمد لهم جراحاً أصيبوا بها خلال منافراتهم العابثة ، كما كان يقدم عليه أصحاب السفن من السوريين لعلاج أسنانهم ، وقد أقبلت على عيـادة أبى سيدة فى أبهى زينتها متحلية بحليها الذهبية وأحجارها الثمينة ، تلتمس عنده الشفاء من علتها التى كانت تشكو متوجعة منها ، وكان أبى يستمع إليها فى انتباه شديد ، ولما فرغ من تعرف ما بها تناول القـلم ليـكتب على ورقة البردى ، فعندئذ خاب أملى فى أن يعالجها بنفسه لتؤجره أجراً مجزياً ، وفى حركة غير إرادية تنهدت وهززت رأسى قائلا : مسكينة هذه المخلوقة ! فما كادت هى تسمع ذلك حتى ارتجفت وحدقت فى أبى قلقة ، غير أنه مضى يكتب سطوراً باللغة القديمة ثم جاء بوعاء خلط فيه الزيت بالنبيذ ، وألقى فى هذا المخلوط بورقة البردى وظل يديرها ويقلبها حتى اصطبغ السائل بلون المداد الذى كتب به السطور ، وبعد ذلك أفرغ السائل فى زجاجة ناولها إياها ، وطلب إليها أن تتجرع منه كلما أحست ألما فى رأسها أو أمعائها ، وعندما انصرفت السيدة نظرت إلى أبى الذى كان بادى الارتباك ، فتنحنح مرة أو اثنتين وقال : إن كـثيراً من الأدواء يعالج بالمداد ! ألسنا نـكتب به الأدعية المستجابة ؟ ثم استمر يتمتم كأنما يخاطب نفسه : على أية حال فإن هذا الدواء لن يحدث ضرراً .

ولـما بلغت السابعة من عمرى ألبستنى أمى مئزرى وأخذتنى معها إلى المعبـد لنشهد تقديم القرابين إلى الآلهة ، وكان معبد « آمون » فى (طيبـة) أهم معابد مصر كلها ، وكان الطريق المؤدى إليه من بحيرة إلهـة القمر يخترق المدينة وتقوم على جانبيه رؤوس الـكباش وتماثيل أبى الهول ، وكانت تحيط بالمعبد أسوار من الحوائط السميكة ، وهو يلوح كأنه مدينة داخل المدينة لـكثرة ما يعمره من بنايات وأبراج تخفق فوقها الأعلام الملونة ، وعلى أبوابه ومداخله النحاسية تقوم تمـاثيل الملوك الضخمة .

فلما اجتزنا الباب الذى دلفنا منه إلى الداخل أحاط بنـا بائعو كتب الموتى وأخذوا يعرضون علينا كتبهم فى إغراء حتى لقد كانوا يجذبون ثوب أمى إمعانا فى

رغبتهم الملحة لتشترى منهم شيئاً ، ولـكنها تخلصت منهم ومضت بى إلى حيث يصنع النجارون من الأخشاب تماثيل الأرقاء والخدم لتـكون، بعد رسامتها بواسطة الـكهنة ، فى خدمة أصحابها بالدار الثانية وليـكون لهم بها غناء عن خدمة أنفسهم بأنفسهم . .

ودفعت أمى الإتاوة المقررة لتشهد بعض الـكهنة وهم بملابسهم البيضاء يقدمون القرابين للآلهة . فرأيناهم حينئذ يذبحون بأيديهم الصناع الماهرة ثوراً ويشطرونه أربعا ، بعد أن ألصقت بين قرنيه ورقة بردى تشهد بأنه مبرأ من العيوب وليست به شعرة بيضاء واحدة ، وكانت أجسامهم مكتنزة وتعلو وجوههم سمات القداسة ، ورؤوسهم حليقة عارية اكتسبت بدهن الزيت لمانا ، وهم مسترسلون فى أحاديثهم الخاصة بعضهم مع بعض لا يعيروننا التفاتا ، نحن النظارة وشهود الاحتفال وكنا نحو مائة ، وكنت فى شغل بما يقع عليه نظرى خلال ذلك من الصور الحربيـة المنقوشة على الجدران . وقد هالتنى بخاصة ضخامة أعمدة المعبد ولم أفطن بعد هذا إلى السبب الذى حرك عواطف أمى وأعجلها لتأخذ بيدى عائدة إلى المنزل والدموع تنحدر على خديها .

— ٤ —

فور وصولنا إلى المنزل أبدلت أمى حذائى الذى كنت أحتذيه بصندل أتعبنى بادىء الأمر ثم ما لبث بالمران والاستعمال أن أصبح مريحا .

وبعد أن تناولنا غداءنا جمل أبى يمسح على رأسى بحنان وعطف وقال لى وعلى وجهه أمارات الجد : إنك الآن « يا سنوحى » فى السابعة من عمرك ، فعليك إذن أن تختار الحرفة التى تتعلمها ويكون عليها اعتمادك فى مستقبل أيامك .

فأجبت على الفور : أريد أن أكون محارباً . . قلتها عن رغبة صادقة متفاعلة فى نفسى ، فلم يـكن فى تقديرى ما هو أفضل من حياة المحارب . وقد كانت آثر الألعاب وأحبها عند رفاقى وعندى هى التى تمثل أدوات الحرب وتتصل بمعانيها . ولطالما شاهدت الجنود وهم يهيئون أنفسهم فى غبطة لحمل أسلحتهم أو التـدرب

عليها أمام ثكناتهم ، وكانت تبهجنى مشاهد العجلات الحربية وهى تتسابق إلى خارج المدينة للقيام بمناوراتها ، وأكثر من ذلك فى إيثار الجندية أنها لا تشترط فى الجندى أن يتعلم الكتابة ، وكنت أخشى هذا التعليم وأتهيبه ، فما أكثر ما كان الأولاد الذين يكبروننى سنا يذكرون الحكايات المخيفة عن صعوبة فن الكتابة وقسوة المعلمين فى شد شعر رؤوس التلاميذ الذين تنكسر ألواحهم الطينية أو أقلامهم التى لا يحسنون ضبطها بين أصابعهم .

وقد بدا على أبى أنه لا يوافقنى فى هذه الرغبة ، ولكنه كان يدرك مقدار تأثرى بأفكارى وإصرارى عليها ، فلم يشأ التعليق على رأيى ، وإن كنت أحسست بشىء من خيبة الأمل .

لقد كان أبى ذا تجربة أفاد منها الحنكة والحكمة ، ولعله لم يكن رجلا موهوبا ، وإلا فقد كان من الممكن أن يكون فى خير من مركز طبيب الفقراء . غير أنه رغم ذلك كان رجلا ممتازا بتجاربه وحسن قيامه بواجبه ، فهو وقد سكت دون أن يعقب على جواب سؤاله يبدو كأنه لا يوافق على رأيى ، وهذا ما لا يطمئن له خاطرى .

على أنه تناول وعاء فملأه نبيذاً رخيصاً يحتفظ به فى غرفة عيادته ، وطلب منى أن أتبعه ، فذهبنا معا إلى شاطىء النهر ووقف بى عند المرفأ ، فرأينا الحمالين يفرغون حمولة سفينة كبيرة على الرصيف .

كانت الشمس وقتها تنحدر إلى مغيبها خلف التلال الغربية حيث مدينة الموتى ، ولكن هؤلاء الحمالين كانوا مع ذلك يتفصدون عرقا للإجهاد المضنى الذى يكابدونه فى عملهم تحت السياط التى تنهال فوق ظهورهم من المشرف عليهم ، بينما كان الكاتب جالسا على مقعده يرصد فى الورق بيان البضائع التى يفرغونها .

وهنا التفت أبى إلىّ وسألنى قائلا : هل تحب أن تصبح واحداً من هؤلاء ؟

فحدجت النظر فى وجهه دون أن أقول شيئاً ، وخيل إلى أنه سؤال بالغ السخف ، فمن ذلك الأبله الذى يقبل راضيا أن يكون كهؤلاء الحمالين المعذبين ؟

ولكن أبى استطرد قائلا : لقد اخشوشنت جلودهم حتى صارت كجلد التمساح ، وتضخمت قبضات أيديهم حتى صارت كذلك كأقدام التمساح ، وهم يمنون أنفسهم بالعمل حتى تدركهم الظلمة المتكاثفة فينقلبون إلى أكواخهم الحقيرة زاحفين ، ليتبلغ كل منهم بكسيرة من الخبز الجاف وقطعة من البصل الحار ويبل فمه بشراب خفيف من الجعة كالعلقم مذاقاً . هذه هى حياة الحمالين ، وشبيه بها تماما حياة الفلاحين وغيرهم ممن يكسبون قوتهم بأيديهم الكادحة ، فهل تراها حياة يحسدون عليها ؟!..

فهززت رأسى مستغربا ، وظللت أنظر إليه فى دهشة ! . . فما هذا الذى يقول ؟ ! . .

لقد اخترت أن أكون جنديا . . . ولم أختر أن أكون حمالا أو زارعاً أو راعياً .

وفى طريقنا عائدين من المرفأ قلت له : يا أبت ، إن الجنود أسعد حالا ، إنهم يعيشون فى ثكنات نظيفة ، ويطعمون طعاما جيدا طيبا ، وإذا جن الليل انطلقوا إلى بيوت اللهو والتسلية يشربون بها النبيذ ، وتضاحكهم الغانيات ، ويتقلد رؤساؤهم القلائد الذهبية ، وهم لا يعرفون الكتابة ولم يتعلموها ، فإن كانت الحرب عادوا ومعهم الأسلاب والغنائم والأرقاء يستخدمونهم فى التجارة ويضاعفون بهم ثرواتهم ، فلماذا إذن لا أحاول أن أكون جنديا محاربا ؟ !

ومرة أخرى لم يجب أبى ، ولم يعقب على سؤالى ، ثم استحث الخطى إلى أن بلغنا مكانا تلقى فيه القمامة وتتغشاه أسراب الذباب ، فوقف أبى وانحنى ليدخل من باب كوخ حقير زرى ونادى قائلا : « عنتيب » يا صديقى : هل أنت هنا ؟ فبرز إلينا رجل هرم يدب على عصاً ، وذراعه اليمنى مقطوعة من أسفل الكوع وملابسه تشيع فيها الأوساخ ، ووجهه ضاوٍ ضامر ، وقد تداعت أسنانه وتعرَّى منها فمه ؟ !

هالتنى ، بل أرعبتنى هذه المفاجأة وقلت لنفسى : أهذا . . أهذا هو «عنتيب»

بطل معركة سوريا تحت قيادة « تحوتمس الثالث » أعظم فراعين مصر ؟ ! أهذا هو « عنتيب » الذى ترن فى الآذان قصص بسالته وبطولته والهدايا التى أغدقها عليه فرعون ؟ !

ورفع الرجل العجوز يده اليسرى فى حركة عسكرية محيياً ، وقدم له أبى زجاجة النبيذ ، ثم افترشنا الأرض خارج الكوخ ، فليس عنده مقاعد نجلس عليها ، وأخذ « عنتيب » يضع زجاجة النبيذ على فمه بيده المختلجة ، ولكن فى حذر شديد حتى لا تسقط نقطة واحدة منها فى غير جوفه الظامىء .

وقال له أبى مبتسما : إن ولدى يود أن يكون محاربا ، وقد جئت به إليك « يا عنتيب » لأنك آخر من بقى على قيد الحياة من أبطال الحروب الكبرى ، فأنت خير من يحدثه عن عظمة الجندية ونباهة قدرها وفخار البسالة فيها .

فأخذنى الرجل بنظرة صارمة نافذة وقال : بحق « ست » و « بعل » وكل الشياطين الأخرى . . إن هذا الولد لمجنون .

واشتد فزعى من الرجل بشفتيه المنفرجتين عن فم الخرب وعينيه المعتمتين وذراعه المهيضة ووجهه العبوس الصارم ، فتراجعت متعلقاً بذراع أبى لأحتمى به .

ولكن الرجل استطرد يقول : يا بنى . . إننى إذا أخذت قطرة من النبيذ عن كل لعنة صببتها على القدر الغاشم لأنه جعل منى محاربا ، ثم صببت هذه القطرات فى بحيرة فرعون التى أنشأها لزوجه العجوز ، لكانت كافية لاستحالتها إلى بحيرة من نبيذ خالص غير مخلوط بماء ، حقاً إننى لم أشهد هذه البحيرة لأنى لا أملك أجر عبور النهر إلى الشاطىء الآخر ، ولكنى على يقين من أن قطرات النبيذ بعدد اللعنات ستملؤها ويبقى منها بعد ذلك ما يسكر جيشاً بأكمله .

قلت وشفتاى ترتجفان فرقا : ولكن الجندية أشرف الوظائف العامة وأمجدها . .

فقال « عنتيب » بطل جيوش « تحوتمس » : قد تكون كما تقول ، بل لعلها خليقة أن تكون كما تقول ، ولكننى فيما أعانى منها الآن ، أراها على

النقيض من ذلك ، فاسمعها منى يا بنى كلمة حقة صريحة : إن الجندية فى زماننا هذا أتعس وظيفة ، والجندى أشقى من فى الوجود وأشدهم عناء فى حياته .. ولقد طالما خدعت الأغبياء من الناس وصورت لهم الجندى إنسانا سعيداً ، موفور الشرف والكرامة لأنهم كانوا يستطيبون هذا الحديث الملفق ويأجروننى عليه النبيذ . . ولكن أباك ليس عندى من هؤلاء ، فهو رجل طيب مستقيم وفيه فطنة فلا أستطيع أن أخدعه وأموه الحقيقة عليه .

وأخذت الخمر تشيع فى رأسه وبدنه فتراخت تجاعيد وجهه وشع البريق فى عينيه المعتمتين ثم انتفض واقفاً وأمسك رقبته بيده وقال : أنظر يا بنى إلى هذه الرقبة النحيلة الضامرة ، لكم حملت من القلائد الذهبية ، لقد وضع فرعون بنفسه خمساً منها ، إن أحداً لا يستطيع أن يحصى عدد القتلى الذين أطحت رؤوسهم وألقيت بها أكواماً مكدسة أمام خيمة فرعون . . ومن ذا الذى كان يا بنى أول من تسلق أسوار « قادش » ؟ ومن ذا الذى كان ينصب انصبابا على جحافل الأعداء فى المعارك فيفتك بهم فتك الأسد المصور بفرائسه ؟ إنه لم يكن أحداً غيرى ، إنه أنا ، أنا « عنتيب » البطل . . فأى جزاء ألقاه الآن ؟ ! لا شىء إلا أننى بعت قلائدى الذهبية لأعيش من ثمنها . وماذا أجدت على ذكرياتها المجيدة ؟ إن الذكريات لا تصلح طعاماً لجائع ولا كساء لعارٍ ولا شرابا لظامىء — وقد ذهب عنى أتباعى الذين عدت بهم من معامع الحروب ، ذهبوا عنى فرارا من حياة البؤس التى صرت أحياها ، بل لقد مات بعضهم جوعا ، وأين يا بنى ، ذراعى اليمنى ، لقد تركتها هناك فى أرض «ميتانى» ، وهل ترانى بعدها إلا إنسانا مشوها ، وكدت يا بنى أن أكون — لفرط عجزى وفاقتى — متسولا يستجدى الناس فى الطرقات لولا أن فى الناس من يحسبوننى لطول ما كابدت فى الحروب ، قاصا وراوية ومؤرخ حوادث ، فهم يقدمون لى السمك والنبيذ لأقص عليهم وعلى أطفالهم روايات الحروب المثيرة .

إننى أنا « عنتيب » البطل العظيم فانظر إلىَّ جيداً ... يا بنى : لقد فقدت

شبابى فى الصحراء ، سرقه منى الجوع والعوز والعناء الطويل ، وهناك — فى الصحراء — ذاب لحم أطرافى ، وخشن جلدى ، وتحجر قلبى . وأسوأ ما أورثتنيه حروب الصحراء جفاف فى الحلق واللسان وظمأ لا ينطفىء . وما كان شأنى فى ذلك غير شأن أى جندى يعود إلى بلاده حيا من حروب أجنبية .

لقد كانت الحياة عندى ، حينما فقدت ذراعى ، كوادى الموتى ، ولا أحتاج أن أصف ما كابدت من هول وألم عند ما وضع جراحو الجيش بقية ذراعى فى الزيت المغلى ليقفوا النزيف بعد بترها ، فذلك شىء يعرفه أبوك جيداً . ألا فليباركك الله يا « سنوحى » وكن ، كما أتوقع لك ، عاقلا فطنا .

وهنا كان « عنتيب » قد أفرغ آخر قطرة من وعاء النبيذ فى جوفه ، فران الصمت على الرجل العجوز ، وأخذ يلهث كمن أصيب بسعار ، وهو يقلب الوعاء فارغا بين يديه ويرمقه بحسرة وأسى ، وعيناه تلتمعان كأنما تمجان شرراً ثم أقعى متهالكا مكتئبا ، وحسبت الفرصة قد واتتنى لأتكلم ، فقلت له فى استحياء : ولكن المحارب يمكن أن يكون إنساناً لا يعرف القراءة والكتابة .

فهمهم همهمة من أصيب بخرس وألقى على أبى نظرة جانبية كأنه يريد شيئاً . وأدرك أبى إشارته فأخرج من جيبه على الفور قطعة نقود نحاسية وناوله إياها فهتف بفتى صغير قذر أقبل عليه مهرولا فأعطاه الوعاء وقطعة النقود وطلب إليه أن يشترى بها نبيذاً رخيصاً ليمتلىء به الوعاء . ثم بدت عليه علامات التفكير وهو يتجه إلىّ ليقول : حقاً إن الجندى يمكن أن يكون إنسانا لا يعرف القراءة والكتابة ، لأنه يحارب فحسب ، ولكنه إذا استطاع أن يكون قارئا أو كاتبا فستعقد له الزعامة على أقوى جنوده الذين يدفعهم إلى مقدمة المعارك ليتلقوا أهوال الحروب . أما الذى لا يعرف القراءة والكتابة فلن يزيد على أن يكون تحت إمرته مائة جندى . وأى مفخرة للجندى فى تحلية صدره بالقلائد الذهبية وشارات الشرف إذا كان زميله الذى يحمل القلم ويسطر به على أوراق البردى هو الذى يصدر إليه التعليمات والأوامر؟! فإذا شئت يابنى أن تكون جنديا نابها معقوداً لك

لواء الزعامة ، آمراً مطاعا نافذ الرأى والإرادة ، ينحنى أمامك حاملو القلائد الذهبية ويذهب بك الأرقاء محمولا فوق كرسيك على أكتافهم إلى ميدان القتال ، فينبغى أولا أن تتعلم القراءة والكتابة .

وعاد الفتى القذر يحمل إناء النبيذ مسرعا ، فلاح البشر على وجه الرجل وتناوله متلهفا ، ومضى قائلا : إن أباك « سنموت » رجل طيب ، وهو يعرف القراءة والكتابة ، وإن كان لا يستطيع أن يستعمل قوسا أو يطلق سهما ، فقد استطاع أن يكون طبيبا نافعا محترما ... لك شكرى الجزيل يا « سنموت » .

وفى عصبية وانفعال نظرت إلى وعاء الخمر الذى انصرف إليه « عنتيب » مهتما به وحده فيعب منه عبًّا متداركا. لقد أشفقت على بطل الحروب أن يلقى مصرعه هكذا بإسرافه فى هذا الشراب الرخيص القاتل ... وكذلك كان شعور أبى .

وبينما كنا نأخذ وجهينا إلى منزلنا كان الرجل يقف مختلجا متحاملا على نفسه منشداً بصوته المتهدج أغنية سورية ، بينما يقف قريبا منه ذلك الفتى العارى القذر الذى لفحت حرارة الشمس جسمه ، وهو مستغرق فى السخرية منه والضحك عليه .

وعندئذ دفنت فى صدرى آمالى العذبة فى الجندية ، ولم أبد أية معارضة عندما أخذنى أبى فى اليوم التالى إلى المدرسة .

— ٥ —

لم يكن أبى ثريا ليلحقنى بإحدى مدارس المعبد الكبير التى يتعلم فيها أبناء الأغنياء والنبلاء والكهان المشاهير — وفى بعض الأحيان بناتهم — فألحقنى بمدرسة الكاهن العجوز « أوخ » الذى يقع منزله غير بعيد من دارنا . وفى شرفة هذا المنزل المتداعية ، كان يجتمع تلاميذه ويتعهدهم بالدراسة . وكانوا من أبناء الصناع والتجار ورؤساء العمال وضباط الصف الذين كان كل مبتغاهم أن يفتحوا أبواب المستقبل لأبنائهم عن طريق هذا التعليم .

وكان « أونح » يعمل فى شبابه رئيساً للخدم فى معبد الإلهة « موت » ، فكان بهذا مؤهلا لتدريس الكتابة الأولية للأطفال الذين يراد أن يصبحوا كتاباً يسجلون حساب البضائع ومكاييل الحبوب وموازين السلع وإحصاء أعداد رؤوس المواشى ومؤن الجيش .

وكانت مدينة « طيبة » تزخر بالمئات من أمثال هذه المدرسة ، وكانت نفقات التعليم فيها يسيرة على طلابها ، إذ كان يكفى فيها أن يقدم التلاميذ لمعلمهم ، شيئاً مما يقع فى حرفة آبائهم . فابن تاجر الفحم يزود موقده بالفحم فى فصل الشتاء ، وابن النساج يقدم قطعة النسيج لملبسه ، وابن الزارع يقدم الدقيق ، وهكذا تتوافر لهذا المعلم حاجات معيشته دون مشقة على تلاميذه . أما أبى فكان يتولى علاج أمراضه وتخفيف آلامه بالنبيذ يقدمه إليه مخلوطاً بالمسكنات .

« وأونح » بهذا راض عن تلاميذه . مغض عن زلاتهم ، ما عرفوا السبيل إلى تقديم الهدايا إليه . فالذى ينام أثناء الدرس ينجو من العقاب ، إذا أقبل فى صباح اليوم التالى وفى يده الهدية التى ترتاح إليها نفسه ، وتكون نفسه أكثر ارتياحاً إذا ارتكب ابن تاجر الحبوب خطيئة ليقدم عليه فى الغد ومعه إناء من الجعة ... لقد كان أستاذنا « أونح » ممن يحبون هذا الشراب ويؤثرونه .

وفى تلك المدرسة كنا نصطنع الانتباه والإصغاء إلى ما يقصه علينا أستاذنا « أونح » من قصص الدنيا الثانية ، والإلهة « موت » والخالق العظيم « بتاح » ورفاقه من الآلهة ، ونحسب بيننا وبين أنفسنا أننا بالانتباه والإصغاء اللذين نصطنعهما اصطناعاً نغريه بالإفاضة والاسترسال فى هذا القصص لعلنا نشغله بذلك عن واجباتنا القاسية المتعبة فى تعلم الكتابة . ولكننى أخيراً أدركت أن أستاذنا إنما أراد ذلك عن قصد مرسوم ، وعن حكمة لم نكن يومذاك ندريها ، فقد عرفنا من قصصه ورواياته تقاليد مصر القديمة ، كما عرفنا أن الأعمال الشريرة لا يمكن أن تمضى بغير عقاب ينال مقترفيها . فقلب كل إنسان يوزن أمام عرش «أوزوريس» فى ميزان الإله الذى له رأس كرأس الذئب ، فمن ترجح كفة سيئاته كفة حسناته ،

يقذف به إلى الإلـه الذى له هيئة التمساح والوحش معاً ، لينال هنالك عقابه جزاءاً وفاقاً . . .

وكذلك كان « أونع » يحدثنا عن الإلـه ذى العينين الخلفيتين المثبتتين فى مؤخرة رأسه ، وكيف أن هذا الإلـه يعبر السماء بمركبه حاملا الصالحين والأطهار إلى الأرض المقدسة ، وهو فى تسياره بهم يجدّف إلى الخلف لا إلى الأمام كما يفعل البحارة فى النيل .

وتوسلا إلى بلوغ مكاننا عند هذا الإلـه كان « أونع » يستحثنا على حفظ واستذكار أدعية معينة تتقرب بها إليه ، ويطالبنا بأن نكتبها من الذاكرة ويصحح ما يقع من أخطائنا فى كتابتها ، مؤكداً أن تكرار الأخطاء على تفاهتها خليق أن يفقدنا الأمل فى حياة رغدة بالدنيا الثانية ، ويجعلنا نعيش فى دنيانا الأولى كالأشباح الضالة على ضفاف النيل القاتمة .

وقضيت بمدرسة « أونع » بضع سنوات وكان من بين رفاقى ومن أعز أصدقائى بها « تحوتمس » ، وهو يكبرنى بعام أو عامين . وكان أبوه رئيساً لكوكبة من عجلات الحرب ، ومن شارات مركزه النابه أنه يحمل فى يده سوطا مزينا بالنحاس ، وكان يطمع فى أن يصبح ابنه « تحوتمس » فى يوم ما ؛ ضابطا برتبة عالية . ولهذا الغرض كان يعلمه الكتابة ، ولكن الرياح أحياناً تأتى على غير ما تشتهى السفن ، فقد أخذت حياته بالمدرسة ترهص بأنه يسلك لمستقبله سبيلا غير هذا السبيل ، إذ كف بالمدرسة عما كان يتميز به قبلها من حب المصارعة وركوب الخيل ، وبدا عليه نشاط غير عادى فى تعلم الكتابة حتى بذّنا فيها إجادة وسرعة ، وعلى ألواحها كان يرسم صوراً متقنة للعربات والخيول الجامحة والجنود المتصارعين ، كما كان يحمل معه إلى المدرسة عجينة من الصلصال ليصنع منها صورة سافرة لإلـه الجحيم وهو فاغر فاه ليلتهم رجلا بدينا أصلع الرأس محدودب الظهر يشبه أستاذنا « أونع » شبها قريبا من الحقيقة . ولم نلحظ على أستاذنا أنه استاء أو امتعض من ذلك ، فإن « تحوتمس » كان سمحا رقيقا يحبه رفاقه وأستاذه

على السواء . وفى وجهه العريض وقامته القصيرة وساقيه الأملدين وعينيه المشعتين بالبريق ، فى هذا كله جاذبية مغناطيسية جمعت القلوب على حبه واستمالتها إليه . وكانت إلى ذلك ترفه عنا وتثير إعجابنا ، صور الطيور والحيوانات التى يرسمها بيديه الماهرتين . وقد سعيت إلى صداقته منذ شممت فيه الميل إلى الفروسية ،وتوثقت بيننا أواصر هذه الصداقة بالرغم من انصرافه عن هذا الميل بعد ذلك .

وخلال أيامى المدرسية حدثت مفاجأة ظننتها إلهاما أو معجزة ، ففى يوم ندى من أيام الربيع الجميلة ، حيث الطيور تملأ جو المدينة تغريداً ؛ ومياه النهر تجرى فى لين واسترخاء ، والحقول والحدائق محلاة بالنمو والازدهار ، خرجت من شرفة منزل « أوبخ » المتداعية ، مدفوعا بإغراء شديد إلى هذه الطبيعة الحانية الوديعة فى أفقها الرحيب ، ومن ثم مضيت بين مجاليها المونقة ، منتشيا بعبيرها الفواح ، إلى أن بلغت ، من حيث لا أقصد ، صخوراً تعلوها رموز منقوشة ، فرحت أتأملها فإذا بهذه الرموز حروف مكتوبة وإلى جانبها علامات توضحها . وهنا تواردت على ذاكرتى تعاليم « أوبخ » . وبحافز من داخل نفسى أخذت أقرأ ، وأنفخ الحياة فى هذه الحروف ، فانحسرت الصور عن كلمات ، ومن الكلمات تكونت المقاطع ، وأخيراً صارت المقاطع رسالة طويلة . وكلما ضممت صورة إلى أخرى خرجت بمعنى مختلف عن الرموز ، وقد بان لى أن صورة واحدة قد يتاح لمن يجهل الكتابة أن يفهمها ، أما ضم الصور بعضها إلى بعض ، واستخلاص المعانى منها ، فليس بالأمر المستطاع إلا للمتعلمين ، ولعل الذين درسوا الكتابة وتعلموا القراءة يفهمون هذا .

كانت تجربة القراءة هذه بالنسبة لى مثيرة للغاية . وكانت عندى أيسر تناولا كما لو مددت يدى إلى سلة الفاكهة لآخذ منها ثمرة ، وكانت فى شعورى أحلى مذاقاً من التمر ، وأشهى من الماء عند الظامىء الصادى . فلم أعد بعد ذلك محتاجاً إلى من يستحثنى للمثابرة على التعلم وأصبحت أتشرب إرشادات « أوبخ » وتعاليمه ، كما تتشرب الأرض الجافة مياه فيضان النيل . وسرعان ما حذقت فن الكتابة .

وبعد فترة قصيرة كنت أقرأ ما يكتبه غيرى ، وفى السنة الثالثة غدوت قادراً على أن أملى على الآخرين حكايات مطولة ليكتبوها .

ومنذ ذلك الحين بدأت أتكشف فى نفسى أشياء لايشبهنى فيها رفاق التلاميذ . فوجهى كان أكثر ضيقاً ، ولون بشرتى أكثر وسامة وتفتحاً ، وأطرافى دقيقة غير مرهلة ولا متضخمة ، ولولا غثاثة الملبس لحسبنى من يرانى واحداً من أبناء النبلاء الذين يروحون ويغدون على كراسيهم المحمولة على أعناق الأرقاء ، أو أولئك الذين يمشون على الأرض مرحاً متبوعين بخدمهم ؛ ولهذا كنت مرموقاً من الجميع .

وجاءنى مرة أحد التلاميذ ، وهو ابن تاجر حبوب ، فطوق عنقى بذراعه ، وجعل يخاطبنى كما يخاطب فتاة ، فوكزته بقلبى ودفعته بعيداً عنى ، متبرماً به وبرائحته الكريهة .

لم يكن من رفاق التلاميذ من هو عندى بمنزلة « تحوتمس » . لقد كان وحده الصديق الذى تطامنت إليه نفسى وعواطفى لإخلاصه ولطف معشره . وقد أقبل علىّ يوماً ليقول لى فى استحياء : إنه يستطيع أن يصنع لى تمثالا ، فاصطحبته إلى منزلنا وأخذت مكانى قبالته تحت شجرة الجميز ، فلم يمض غير قليل حتى استوى فى يده تمثال من الصلصال يصورنى تصويراً دقيقاً ، وبقلمه المدنى نقش اسمى على قاعدة التمثال . فلما جاءت أمى « كيفا » تحمل إلينا الكعك الذى صنعته ، ووقع نظرها عليه أصابتها رجفة واستعاذت بالآلهة من شر ذلك السحر الذى جعل من، من الطين إنساناً .

غير أن أبى حينما شاهد التمثال أعجب به وأثنى على « تحوتمس » ، وقال إن هذا ليبشر بمستقبله الباهر ، ولو أنه التحق بمدرسة المعبد فإنه يصبح يوماً فنان الحاشية الملكية . وهنا ابتسمت لصديق « تحوتمس » وتخيلت هذه البشرى قد تحققت . فانحنيت فى حركة تمثيلية أمامه ، ماداً ذراعى إلى قريب من الأرض محيياً فنان الحاشية الملكية العظيم . وبادلنى « تحوتمس » الابتسام قائلا : أحسب هذا مستحيلا ، فوالدى قد اختار لى الجندية وحياة الثكنات ، وسيلحقنى بمدرسة

صلاح العجلات . وها أنذا قطعت الرحلة الأولى التي عهد بها إلى ذلك . فأنا الآن أجيد القراءة والكتابة كأحسن ضابط .

وتركنا أبي لتأخذ أنا و « تحوتمس » في التهام الكعك في رضى وسعادة .

— ٦ —

وجاء اليوم الذي رآني فيه أبي أهلا للإلحاق بمعبد « آمون » العظيم ، فارتدى أفضل ما لديه من ثياب ، وأحاط رقبته بطوق أحسنت « كيفا » توشيته وتطريزه ، وأخذ وجهه شطر المعبد .

وأبي « سنموت » فيما بينه وبين نفسه لا يضمر حباً للكهان ، ولكن الواقع الذي لا بد من التسليم به أن الأمور جميعاً في « طيبة » بل في مصر كلها كانت لذلك العهد إلى هؤلاء الذين لا يحبهم ولا يؤمن بهم . فأحكام القضاء التي يصدرها قضاة فرعون تستأنف أمام الكهان وكان من حقهم أن ينقضوها ، وكذلك كان لهم الإشراف الفعال على الوظائف الإدارية العليا . وهم الذين يتنبأون بدرجات فيضان النيل المقبل ، ويقدرون محاصيل الزراعة ، ويفرضون على أساس هذا التقدير الضرائب لتجبى في سائر أنحاء مصر .

وكان يخيل لي أنه ليس من السهل على أبي أن يسعى إلى هؤلاء الكهان فضلا عن خضوعه لهم . فقد كان طبيب الفقراء في حي فقير بالمدينة ، وليست بينه وبين المعبد و « دار الحياة » القائمة به ، أسباب متصلة أو حاجات دافعة ، ولكنه كواحد من الآباء الفقراء كان عليه أن ينحني مثلهم بحكم التقاليد والطقوس واجبة الرعاية والتقديس .

وإني لأتمثل الآن في ذهني هؤلاء الآباء الفقراء وقد قفوا في أحسن أزيائهم صفوفاً متراصة أمام الهيئة الإدارية بالمعبد منتظرين أن يأذن بعض أولئك الكهنة القديسين باستقبالهم .

لقد امتلأ بهؤلاء الآباء المنتظرين فضاء المعبد الفسيح ، وأفكارهم ساعتئذ

تومض بالأمل فى مستقبل سعيد لأبنائهم .. إنهم أقبلوا من كل فج ، وكثير منهم جاءوا من أقاصى البلاد فى قوارب النيل مزودين بالطعام وببعض النقود لإرشاء حراس الأبواب أو الكتّاب حتى يمكنوا لهم من شرف الحظوة بلقاء كاهن مضمخ بالعطور متشح بالذهب ، ليلقى عليهم فى استعلاء وأنفة كلمات تتخللها القسوة والصرامة .. وهم يتقبلون هذا العناء ، بل يسعون إليه جاهدين، فى سبيل أن يقبل أبناؤهم خدما وأتباعا لآمون ، إذ كانوا يعدون هذا القبول منحة وشرفا جديرين بالتزاحم واستساغة المذلة أيضاً .. ذلك على الرغم من أن حقيقة الحال كانت لا تحتمل هذا كله ، فآمون من قوة السلطان واستفاضة الثراء وسعة الأعمال بحيث كان محتاجا إلى مزيد لا ينقطع من الأتباع والخدم والكتاب والنساخين وغيرهم . ولكن لهفة الآباء الفقراء على مصير أولادهم كانت تدفعهم دفعاً مضنيا إلى التماس هذا المصير عند الكهنة ، فإذا فازوا به اعتصروا أنفسهم ليقدموا لهم الهدايا الغالية ...

وكان أبى موفقا فى هذه الزيارة التى كنت أعتقد أنه ذهب إليها مكرها ، فإن النهار لم يكد ينتصف حتى لمح غير بعيد رفيق صباه بالدراسة « بتاحور » الذى أصبح على مرور الزمن جراح الجمجمة فى حاشية فرعون ، فهتف به ، وكانت تلك جرأة غير متوقعة ، وكان ثم لقاء على غير ميعاد بين الرفيقين القديمين ، وتحدث إليه أبى فى شأنى مهتما ، ولشد ما كانت غبطته حينما وعده بأن يزورنا فى منزلنا ليرانى .

واستعدادا لهذه الزيارة الكريمة اقتصد أبى ثمن أوزة وكمية من النبيذ الممتاز . ولما وافى الموعد شمرت « كيفا » عن ساعديها لتفتن فى الخبز والطهو . وقد فاحت فى الجو رائحة الطعام الشهى، فتجمع حول دارنا المتسولون وجعلوا يغنون ويرقصون ويلحون فى طلب نصيبهم من الوليمة ، فخرجت إليهم « كيفا » غضبى مزمجرة وألقت لكل منهم قطعة من الخبز عليها أدام من دهن الأوزة . ومازالت بهم حتى أقصتهم عن الدار .

وأخذت أنا ورفيقى « تحوتمس » فى كنس الطريق المائم الذى يربط بين المدينة

والمنزل ، وقد رغب أبى إلى « تحوتمس » أن يكون حاضراً زيارة الضيف العظيم عسى أن يكون له نصيب من عنايته والتفاته ، وشعرنا بالرهبة كأنما كنا فى المعبد حينما أشعل أبى حارقة البخور ليشيع فى جو المنزل ، بداخله وخارجه ، عبق العطور. وجئت أنا بقارورة الطيب لأنفح به المنسوج الكتانى الأبيض الذى كانت تدخره أمى ليكون كفنا لها عند موتها ، فقد تقرر فى برنامج الزيارة أن نتخذ من هذا المنسوج العزيز على أمى « منشفة » يجفف بها « بتاحور » يديه بعد غسلهما .

طال انتظارنا ، ومالت الشمس إلى الغروب ثم غابت ، وأخذت حرارة الجو تحور برداً ، وأوشك عبق البخور أن يتلاشى ، ووجه أمى « كيفا » يتحرك منفعلا بين انبساط وانقباض ، بينما تستعر عندى شهوة الطعام كلما نظرت إلى الأوزة وهى تتقلب فى شوائها المثير ، وأبى صامت لا ينبس ببنت شفة ، ولم يشأ أن يشعل المصباح لإنارة المنزل عندما رانت عليه الظلمة ، واحتوانا جميعا صمت أبى فبقينا جلوسا على مقاعدنا كالتماثيل الخرساء وكأن على رؤوسنا الطير ، يتحاشى كل منا أن ينظر إلى وجه الآخر . ولأول مرة فى حياتى ذقت مرارة الأسى وخيبة الأمل التى يلقاها الفقراء من الأغنياء ..

وأخيرا . . لاح ضوء المشعل بالطريق المؤدى إلى المنزل ، مؤذنا بقدوم الزائر الكبير . فانبعث أبى لفوره قفزاً ، ومضى مسرعا إلى المطبخ ، فجاء بقبس من النار وأشعل بها المصباحين ، وأمسكت أنا وعاء الماء بيدين مرتجفتين ، بينما وقف « تحوتمس » بجانبى مهتما متلهفا .

وأهلّ علينا (بتاحور) جراح الجمجمة الملكى مقتعداً كرسيا يحمله رقيقان زنجيان ويتقدمه حامل المشعل المكتنز الجسم الذى كان يبدو ثملا ، وهبط « بتاحور » من فوق كرسيه وسط التهليل والترحيب ، فحياه أبى منحنيا إلى مستوى ركبتيه ، ووضع الضيف العظيم يده على كتف أبى ، ولعله أراد بذلك أن يشعره بأن هذه المراسم التى تعنى الاحترام والتبجيل ليست ضرورية بينهما ، أو لعله أراد أن يتماسك ويحفظ توازنه . ثم التفت إلى حامل المشعل وأمره بإطفائه

والانتظار تحت شجرة الجميز ، أما الزنجيان فإنهما دون انتظار أوامر سيدهما قد وضعا الكرسى إلى جانب أشجار السنط وألقيا جسميهما فى استرخاء على الأرض.

ودلف « بتاحور » إلى داخل المنزل وهو لا يزال يعتمد كتف أبى ، فصببت الماء على يديه وهو يتأبى ويعترض ، وعندما قدمت إليه (المنشفة) قال لى : لقد بللت يدى فعليك أنت أن تجففهما ، ففعلت مغتبطاً ، وأعرب عن ارتياحه لذلك بقوله : إنك لولد ظريف .

ودعاه أبى إلى مقعد الشرف ، وهو كرسى مؤزر بظهر ، استعرناه من جارنا تاجر التوابل فاستوى عليه ، وفى ضوء المصابيح راح يدير عينيه الفاحصتين فيما حوله ، وبعد فترة صمت طلب شيئاً من الشراب ، لأن طول الرحلة جفف حلقه ، فأسرع أبى مبتهجاً إلى إناء النبيذ فصب منه فى كأسه ، وقبل أن يفرغه فى جوفه أخذ يشمه ويتذوقه فى شىء من التشكك ثم استساغه وتجرعه مبدياً ارتياحه .

كان (بتاحور) مقوس الساقين ، حليق شعر الرأس ، وتشف ملابسه الخفيفة عن ارتخاء صدره وبطنه ، وحول عنقه وشاح مرصع بالأحجار الكريمة ، ومن جسمه وملابسه معاً تفوح رائحة الطيب والنبيذ والعرق .

وفى احترام ، وضعت « كيفا » أمامه الكعك وقليلا من السمك المقلى فى الزيت والأوزة المشوية والفاكهة ، ولكنه كان على ما يظهر قد أتخم بطعام دسم قبل أن يقدم علينا ، فلم يكن يتناول من طعامنا إلا النزر اليسير ليتذوقه ، ومع ذلك أثنى عليه منوهاً بدقة طهوه ومهارة صنعه . وهنا ارتفع رأس « كيفا » زهواً وخيلاء .

وصدوعاً بأمره حملتُ طعاما وشرابا إلى خدمه خارج المنزل ، ولكنهم لم يحمدوا لى ذلك بل أخذوا يسبون ويلعنون ويقولون : ألم يحن الوقت بعد لخروج هذا العجوز ؟!

ومشى الوقت فى ألفاف من الغموض وأغشية من الإبهام ، فقد أكب « بتاحور» على شراب النبيذ يتناول كؤوسه مترعة متلاحقة ، وأبى يتناوله معه ،

مسرفاً مثله فى الشراب على غير مألوف عادته ، و « كيفا » ترى هذا فيزعجها ويحيرها ، وتجلس بالمطبخ قارعة كفا بكف . وفرغت جرة النبيذ التى أعدت لهذه المناسبة ، فجاء أبى بما فى عيادته من النبيذ الطبى ، فكرعاه وأتيا عليه كله ، وما تزال شهوة « بتاحور » إلى الشراب مضطرمة ، فأخذا يكرعان الجعة ، وقال « بتاحور » إن أنواع الشراب تستوى عنده .

وفعل الشراب فعله بهما ، فهما يتمايلان ، ويضم أحدهما صاحبه ، ويتذاكران أيام دراستهما فى « دار الحياة » و « بتاحور » يروى الكثير عن تجاربه كجراح للجمجمة ويقول إن هذا الفرع من صناعة الطب ينبغى أن يكون آخر ما يفكر فيه طبيب متخصص ، فعملياته الجراحية بالغة الخطورة ، وأولى بها أن تكون فى « دار الموتى » لا فى « دار الحياة » ، وقد آثره بالاختيار بادىء الأمر لميله إلى الكسل ، معتقداً أن العمل فيه قليل ويسير ، فرأس الإنسان — باستثناء الأسنان والأذن والأنف والحنجرة والعين التى لها متخصصوها — كانت فى تقديره ، من أيسر الدراسات تناولا .

واستطرد « بتاحور » قائلا : ولو كان لى أن أختار الآن لاخترت أن أكون طبيبا عاديا شريفا ، يتيح الحياة لمرضاه ، لا أن يتعامل مع الموت فى أشخاص المرضى الميؤوس من شفائهم الذين لا يأتى بهم أهلوهم إلى الطبيب إلا ضجراً منهم . . . كم كنت أتمنى يا صديقى « سنموت » لو بقيت طبيبا مثلك أعيش مع الفقر عيشة شريفة هادئة . . .

وهنا أدار أبى وجهه إلينا ليقول : لا تصدقوا هذا يا أطفالى ، فكم أنا فخور أن يكون جليسى ورفيق صفوى فى هذه اللحظات ، صديق « بتاحور » جراح الجمجمة الملكى ، إنه فى الحق أمهر أطباء مصر فى هذا الفرع من الطب ، وقد عرف له الناس فضله ودقته وبراعته فى العديد من العمليات الجراحية التى أنقذ بها حياة كثير من المرضى الأغنياء والفقراء على السواء . وكان بذلك ، ولا يزال ، موضع إعجاب العالم كله ، حسبه فضلا على الإنسانية أنه يخلص المرضى من

الأرواح الشريرة التى تنتهى بهم إلى الجنون ، فما ينفك يلاحقها بمهارته ودقة مبضعه فى خلايا الجماجم ولفائف الأدمغة ، حتى يقتلع جذورها جميعا ، وهو دائما يتلقى من القدرين والمعجبين المكافآت الجزلة ذهبا وفضة وقلائد وكؤوس شراب مذهبة . . .

وصاح « بتاحور » قائلا : ولك أن تضيف ياصديقى « سنموت » إلى ما ذكرت شيئاً آخر ، هو ابتهاج وثناء أقارب المرضى الذين يموتون تحت يدى . وما أكثر هؤلاء المرضى ، إن واحداً من كل عشرة أو من كل مائة ممن أدير مبضعى فى رؤوسهم هو الذى تكتب له الحياة وينجو من الموت ، أما الباقون ، وأكثرهم من الأغنياء ، فإن حبل حياتهم ينقطع ، وتكون النتيجة ، دائماً أو غالباً ، أن يرث أقاربهم ثرواتهم ، فهم الكاسبون الغانمون بموتهم . وإذن فأنت ترى أن يدى كما تخفف آلام المرضى ، توزع ثروات الموتى من أرض وأنعام وذهب ، على الأحياء من خلفائهم ، بل لطالما لعبت يدى هذه أدواراً فى إقامة فراعين جدد على عروشهم . فالجميع لذلك يهابوننى ولا يستطيعون نيلى بقالة سوء ، فإنهم ليعلمون أننى أعرف الكثير من أسرار وخفايا ، على أنه بقدر ما يعرف الإنسان من هذه الأسرار والخفايا يكون بؤسه وعذاب ضميره ، فلست فى الواقع سعيداً . . .

قال « بتاحور » ذلك ثم انفجر باكياً وجعل يمسح دموعه بالمنشفة التى أعدتها « كيفا » لتكون كفناً لها . . ثم التفت إلى أبى وقال : إنك فقير يا « سنموت » ولكنك شريف . ولهذا فإنى أحبك ، أما أنا فعلى ما تعلم من غناى وثرائى لست فى اعتبار نفسى جديراً بأن أكون إنساناً بالمعنى الصحيح .

وخلع « بتاحور » قلادته المرصعة بالجواهر وعلقها حول رقبة أبى ، وأخذا يغنيان معاً أغنيات لم أنفهمها ، وإن كان « تحوتمس » قد أخبرنى بعد أنها مما ينشد فى الثكنات .

وقد اشتدت مخاوف أمى « كيفا » عندما بلغت حال الضيف والمضيف هذا :

الحد ، ولم يغمض جفناها اللذان كانا يذرفان الدمع أسفاً على تلك الحال التي لا عهد لها بها .

واقتحم علينا مجلسنا أحد الخدم وطوق « بتاحور » بذراعيه ليحمله ويضمه على كرسيه ويعود به ، قائلا : إن موعد إيوائه إلى فراشه قد انقضى من وقت طويل ، ولكن « بتاحور » تأبى عليه وقاومه واستغاثنا بمنعه منه قائلا : إن هذا الخادم يريد أن يقتلني . . وكان أبي قد افتقد القدرة على نجدته ، فاستعنت « بتحوتمس » وأعملنا العصى في الخادم حتى فر هاربا وهو يسب ويلعن ، ولم يلبث أن اصطحب رفاقه والكرسي على كتفه خالياً من صاحبه وذهبوا . .

أما « بتاحور » فقد أخذ يفرغ ما بقي من الجعة على ملابسه ، ويطلب زيتاً عطرياً يمسح به وجهه ، ويعلن عن رغبته في الاستحمام بحوض الماء الموجود بالحديقة . وإذ ذاك مال « تحوتمس » على أذني ليقول في همس : لا علاج لهذه الحالة المتفاقمة إلا أن نحمل العجوزين المخمورين إلى الفراش، وقد كان ما أشار به ، ورقد جراح الجمجمة الملكي جنباً إلى جنب مع والدي على سرير « كيفا » ، وكل منهما يضع ذراعيه حول رقبة صاحبه ، ثم استسلما إلى نوم عميق طويل . .

و « كيفا » في جزعها المسترسل تبكي وتعفر رأسها بتراب الموقد ، في حين كنت أنا في غمر من عذاب التفكير فيما ستلوكه في الغداة ألسنة جيراننا ، فسوف لا نسلم من قالة السوء الساخرة عندما يتذكرون هذا الذي يحدث في دارنا على غير العادة ، من جلبة صاخبة يتردد صداها وسط سكون الليل ، ولكن « تحوتمس » ظل هادئا ، فقد اعتاد أن يرى أمثال هذه المشاهد في أماكن أخرى، وفي بيت أبيه على وجه خاص ، حينما كان يجتمع إليه سائقو العجلات الحربية ويتناقشون محتدين متنافسين في ذكريات الأيام المواضي التي كانت ترسل فيها الحملات التأديبية إلى سوريا وبلاد الكوش ، ولذلك فقد أخذ في تهدئة « كيفا » وهدهدة روعها ، حتى راضت نفسها على الأمر الواقع . وبعد أن تولى معي إزالة آثار هذه الوليمة وتنظيف المكان منها أوينا معا إلى فراشنا . وكان « تحوتمس »

قد أصاب شيئا من النبيذ فراح يحدثني عن الفتيات بعض الأحاديث ، ولكني لم أستطب هذا ، لأني كنت أصغر منه سناً واستغرقت في نومي .

واستيقظت في الصباح الباكر على حركة وصوت ينبعثان من الحجرة المجاورة فذهبت إليها ورأيت أبي لا يزال نائماً ، وحول عنقه قلادة « بتاحور » ، بينما كان « بتاحور » جالساً ورأسه بين يديه وهو يسائل نفسه : أين أنا ؟! فحييته باحترام وقلت له إنه هنا في حي الميناء بمنزل الطبيب « سنموت » ! فاطمأن قليلا وطلب مني بحق « آمون » أن آتيه بمزيد من الجعة ! فأنبأته أن ما كان باقياً منها قد أفرغه على ملابسه التي تشهد بذلك . وعندئذ هبّ من فراشه ليجر نفسه في وقار إلى خارج الغرفة ، وجئته بالماء وصببت منه على يديه ، وحتى رأسه الأصلع فصببت الماء عليه كذلك. وكان « تحوتمس » قد استيقظ هو الآخر ، فأقبل على « بتاحور » مقدماً إليه في إناء نحاسي ، اللبن المخضوض وسمكا مملحاً ، فطعم منها ، ثم غادرنا إلى شجرة الجميز وجعل يضرب بعصاه حامل المشعل الذي كان نائماً تحتها . فهب هذا مذعوراً وانتفض واقفاً ، وقد علقت بملابسه آثار تراب الأرض المنداة ، ومضى « بتاحور » يلهبه بعصاه قائلا له : أبمثل هـذه الهيئة الشوهاء — أيها القذر — تكون حامل المشعل أمام موكبي ؟! وأين الكرسي ؟ إني لا أكاد أراه !. وأين ردائي النظيف ؟ وأين حبوبي الطبية ؟ أغرب عن نظري أيها الحقير الأحمق . .

وراح الخادم مضطرباً يبحث عن الكرسي الذي يحمل سيده عليه .

وجلس « بتاحور » تحت الشجرة مسنداً ظهره إلى جذعها ، وجعل ينشد شعراً عن الصباح وزهر اللوتس وعن ملكة تستحم في النهر ، ويقص علينا قصصاً مما يهوى الأطفال سماعه .

وترامى إلينا بالحديقة صوت « كيفا » وهي تتحدث إلى أبي بصوت جهير . لقد استيقظت وشرعت في إيقاد النار واستيقظ هو كذلك ، ثم وافانا بعد قليل بملابسه النظيفة وعلى وجهه مسحة من كآبة . . . وبادره « بتاحور » بقوله :

إن ابنك هذا ظريف « ياسنموت » ، إنه يبدو فى مظهره كأمير وكأن عينيه لرقتهما عينا غزال .

ولم أحسبه جاداً فيما يقول ، وإنما حسبته يصطنع هذا المديح لتنسى أو تتناسى ماقعله على مشهد منا بالأمس . ولـكنه استطرد قائلا : فهل عين روحه ، ياترى، متفتحة كعينى رأسه ؟ !

عند ذلك أسرعت أنا و « تحوتمس » فحملنا إليه ألواحنا ، وفى سهوم أخذ جراح الجمجمة الملـكى يحدق بنظره فى فروع الشجرة الباسقة ثم أملى علينا شعراً قصيراً مازلت أذكره حتى الآن وهو : —

استمتع أيها الفتى بشبابك
فقناة العمر كثيرة السدود
والأجسام المحنطة لا تبتسم
فى ظلمة القبور الساكنة

وقد بذلت أقصى الجهد فى كتابة هذه الأبيات من الشعر بالحروف العادية وبالصور كذلك ، وتأملها « بتاحور » فأعجب بها لأنها كانت سليمة غير مشوبة بأى خطـأ . . وأحسست أن أبى كان فخوراً بذلك .

ونظر « بتاحور » إلى « تحوتمس » الذى كان جالساً بمبعدة منا يدير قلمه على لوحه ، وأشار إليه أن يعرض لوحه هو الآخر ، ليرى ماذا فعل ، فأقبل عليه وقدم له اللوح متردداً ، بينما كانت ترتسم الغبطة على وجهه . . ولشد مادهشنا حين رأيناه قد ملأ لوحه صوراً ، إحداها لبتاحور وهو يضع قلادته فى عنق أبى ، وثانيتها له وهو يصب الجعة على ملابسه . وثالثتها تمثل الاثنين « بتاحور » و « أبى » وهما يغنيان وأذرعتهما متشابكة حول عنقيهما . .

كانت صوراً متقنة معبرة ، تمثل « بتاحور » تمثيلا دقيقاً فى قصره وصلع رأسه واسترخاء بطنه واعوجاج ساقيه . . الخ .

وخشينا أن يغضب « بتاحور » لهذا الذى قد يراه سخرية به وزراية ، أو يراه فى القليل أمرا قد خلا من اللياقة وواجب المجاملة ..

ولكن « بتاحور » لاذ بالصمت فترة طويلة ، كانت عيناه الحادتان خلالها تتنقلان فى انفعال مستتر بين « تحوتمس » وبين صوره ، وأحس « تحوتمس » من ذلك بكثير من الحرج . ثم خرج « بتاحور » من صمته قائلا لتحوتمس : كم تطلب ثمنا لهذه الصور أيها الفتى ؟ إنى أريد أن أشتريها .

فاحمر وجه « تحوتمس » وقال : إنى لا أبيع صورى . ولكنى أهديها لصديق .

فافتر ثغر « بتاحور » وقال : حسناً إذن فلنكن صديقين ، وهذه الصور لى .

وعاد يتأملها بإمعان مرة أخرى ، ثم ألقى اللوح ضاحكا على حجر فتحطم وتناثر قطعا ، فاعترانا الوجوم جميعا ، وتقدم إليه « تحوتمس » معتذرا عما يكون قد وقع فيه من خطأ غير مقصود .

فقال « بتاحور » فى فتور : وهل أحنق على الماء إذا انعكست صورتى على صفحته ؟! إن عين هذا الرسام ويديه كانت كهذا الماء فى الصدق ودقة التعبير ، وقد عرفت من صوره كيف كانت حالى بالأمس ولولا حرصى على ألا ينكشف هذا السر لغيركم لما حطمت اللوح ، على أنى أعترف بأن هذا الفتى فنان ماهر .

فتهلل وجه « تحوتمس » بشرا لهذا الإطراء ، والتفت « بتاحور » إلى أبى وأشار إلىّ قائلا بتعبير الأطباء : إننى سأضطلع بعلاج حالة ابنك .. أما هذا الفتى فسأصنع له المستطاع .

ووضع أبى يده فوق رأسى وسألنى عما إذا كنت أريد أن أصبح طبيبا مثله . فانحدرت الدموع من عينى ، وامتنع علىّ الكلام ، فهززت رأسى علامة الموافقة ، وتخيلت أنى سوف أغادر دارنا الحبيبة فأخذت أنظر فيما حولى وأدير عينى فى الحديقة وشجرة الجميز وحوض الماء ، لقد كانت كلها عزيزة علىّ ، أثيرة عندى .

واسترسل أبى يقول : وهل تحب يا ولدى أن تكون طبيبا خيراً منى لتكون لك سيطرة على الحياة والموت معا وتفوز بثقة الأغنياء والفقراء على السواء .؟!

فقاطعه « بتاحور » قائلا : أحسب أنه سيكون خيرا منى ومنك ، فإنى أتوسم فيه الصدق والاستقامة ، وهما أقوى عدة للانسان فى الوجود ، وأمام مثل هذا الطبيب الصادق المستقيم ، يقف فرعون عاريا كما يقف الأغنياء والمتسولون ..

وقلت أنا فى خجل كأنى أهمس لنفسى : إننى إنما أريد أن أكون طبيبا حرا .. قلتها فى سذاجة الطفولة غير متفطن لما تدخره السنون للرجال فى مستقبلهم من آمال وآلام .

ومال « بتاحور » على « تحوتمس » ليريه خاتما فى إصبعه وقال له : اقرأ العبارة المنقوشة على هـذا الخاتم . . فقرأها بصوت مسموع : « كأس مترعة تبهج قلبى » .

وقد أضحكته هذه العبارة حين قرأها فقال « بتاحور » فى غضب : ليس فيها ما يضحك أيها الأبله ، وليست هى مجرد الإغراء بشراب النبيذ على إطلاقه فى سائر الناس ، وإنما هى تعنى منهم أصحاب المواهب الذين يفتقرون فى إجادة أعمالهم إلى النشوة ، وسترى عندما يتاح لك أن تـكون فنانا مبدعا ألاَّ غناء لك عن طلب الـكأس مترعة ، لتزداد إبداعا ، فالإلـه « بتاح » لايظهر نفسه كخالق عظيم إلا للفنان المبدع الذى يتقن فنه ، ولا يبلغ الفنان شأوه البعيد من ذلك إذا كان كل شأنه رسم المرئيات والمشاهد، إنه هنا لايعدو أن يكون ناقلا، تماما كصفحة الماء أو كصفحة المرآة ، وهما بغير عقل الإنسان وشعوره ، ولا يميزه منهما إلا إلهامات فـكرية وشعرية تنثال على قلمه وريشته فيجليها صورا قوية التعبير صادقة الملامح والسمات ، إن الفنان الموهوب هو الذى يشخص الأفـكار والمشاعر وليس هو الذى يعكس الشخوص ، ولن يكون كذلك إلا إذا كان له قلب مبتهج، وبهجة القلب حليفة الـكأس ، الـكأس المترعة ! . أفهمت الآن سر هذه الحـكمة المنقوشة على خاتمى ؟ ! إنى أنصح لك أن تـكون فنانا كبيرا ذا شهرة ومجد ، مرسلا فى الحياة على طبع الإنسان الشاعر الخالق ، لا أن تـكون فنانا آليا مقلدا أو ناقلا . ولا تقنع فى هذا السبيل بما قد تلق من رضى الناس وإعجابهم . فليس

لقناعة الفنان المبدع حدود .

وتوقف « بتاحور » قليلا ليقول لأبى إنه سيحاول بكل ما فى استطاعته مساعدة « تحوتمس » ليلتحق بمدرسة الفن بمعبد « بتاح » ، أما أنا فسأدعى قريباً للالتحاق (بدار الحياة) .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : أيها الفتيان . . انصتا جيدا لما سأقول لكما ، وانسياه بعد ذلك ، أو على الأقل انسيا أنكما سمعتماه من جراح الجمجمة الملكى : إن مستقبلكما سيكون فى أيدى الكهنة ، فعندما تصبحان بينهم كونا معهم فى حرص ابن آوى ومكر الثعبان ، وليكن لكما مظهر البراءة كالحمام ، ولا عليكما فى أن تصطنعا هذا حذرا من الضلال واتقاءا للشر ، واحتيالا على تحقيق الأمل وبلوغ الهدف ، ومن الخير للمرء فى سبيل ذلك أن يصانع وأن يبدو أحياناً على غير حقيقته .

وتشعب الحديث بيننا بعد ذلك ؛ إلى أن عاد حامل المشعل يحمل كرسيا آخر غير الذى ذهب به الرفيقان بالأمس ، وجاء به إلى سيده مع رداء نظيف ، فلما تساءل « بتاحور » عن كرسيه المفقود ، قيل له إن الرفيقين رهناه فى الماخور القريب ، وشربا به خمرا حتى فقدا وعيهما فناما هناك ، فأمر « بتاحور » خادمه أن يستخدم اسمه وسلطانه لاسترداد الكرسى واستعادة الرفيقين . ثم ودعنا مؤكدا صداقته لأبى ، وغادر دارنا بين مظاهر التكريم متجها إلى حى الطبقة الراقية بالمدينة .

وفى اليوم التالى بعث « بتاحور » إلى « كيفا » بهدية تتمثل فى جعران مقدس منحوت من حجر كريم لتضعه إلى جانب قلبها تحت الكفن فى قبرها ، ولشد مافرحت أمى بهذه الهدية ، وغفرت له ماتقدم من ذنبه . وكفت عن محاضراتها المسهبة فى لعنة النبيذ .

دار الحياة

— ١ —

كهنة « آمون » لذاك العهد هم أصحاب السيطرة البعيدة المدى على التعليم العالى كله فى « طيبة » فليس مستطاعا بغير إذنهم أو توصيتهم اللحاق بالدراسات التى تؤهل للمناصب العامة ، كما كانت لهم هذه السيطرة نفسها على « دار الحياة » و « دار الموت »، وهما تقومان منذ عهود متطاولة داخل أسوار المعبد. وكذلك كان شأنهم بالنسبة لمدارس اللاهوت التى يتخرج منها الكهنة ذوو الدرجات العليا ، وكانت تتبع هذه المدارسَ معاهدُ العلوم الرياضية والفلك ، على أنه كانت هناك مدارس أخرى لدراسة القانون وعلوم التجارة، وهى بطبيعتها ألصق بالشؤون المدنية التى تقع فى اختصاص فرعون وسلطة جباية الضرائب ، ولكن حتى هذه ، كان الكهنة لا يفلتونها من إشرافهم وسلطانهم . وقد أقلق ذلك بال المتنورين الذين أصابوا حظاً من الثقافة والرشد وأدركوا أن الكهنة إنما يريدون استغلال نفوذهم على هذه المدارس التى ليست لها الصفة اللاهوتية للتدخل فى الشئون العامة ، غير أنهم أدركوا أيضاً ألا مناص من هذا التدخل، فهناك حقيقة لا يستطيعون تجاهلها ، هى أن « آمون » يملك خمس أراضى القطر المصرى ، وتبعاً لهذا يقع فى حوزته خمس تجارة البلاد ، ومن هنا كان لابد لأولئك الذين يطلبون الدراسات القانونية والتجارية أن يبدأوا دراستهم فى مدارس الكهنوت ليتأهلوا بدرجاتها الكهنوتية الصغرى ، وليكونوا بها فى عداد الخدام المخلصين لآمون .

وكان مفروضاً قبل أن أضع قدمى فى « دار الحياة » أن أجتاز مرحلة الامتحان المقررة قبل لحاق بمدرسة اللاهوت لأصبح كاهنا من الدرجة الصغرى . وفى هذه المرحلة قضيت أكثر من عامين ، فقد كنت فى الوقت نفسه أرافق أبى فى زياراته لمرضاه لأفيد من تجاربه وأتزود بها لمستقبل حياتى العملية كطبيب

وكان المرشحون لدرجات الكهنوت الصغرى ينقسمون فى دراساتهم إلى مجموعات وفق التخصص المهنى الذى تتهيأ له كل مجموعة فيما بعد ، وبطبيعة الحال كانت لنا نحن الذين سننتسب إلى « دار الحياة » مجموعة خاصة متميزة بهذا الطابع المهنى . ولكنى لم أتخذ من رفاق صديقا مقربا ، فقد آثرت العزلة عملا بنصائح « بتاحوتب » الحكيمة ، واقتضانى تأثرى بهذه النصائح أن أعيش بينهم وكأنى لست معهم ، متجاهلا تجاهلا تاما كل ما يصدر عنهم من معابثات ومشاكسات .

وكان من هؤلاء الرفاق أبناء الأطباء ذوى الشهرة ، الذين تؤجر مشوراتهم وعلاجهم بالذهب ، كما كان معنا من أبناء أطباء الأقاليم من كانوا يكبروننا أسنانا وأبدانا ، وقد لفحت شمس الريف وجوههم ، وهؤلاء كانوا يحاولون إخفاء خجلهم بانكبابهم على دراساتهم انكبابا كليا ، وكان فى فرقتنا أيضاً أبناء الطبقات الدنيا الراغبون فى الارتفاع عن مستوى آبائهم المهنى والاجتماعى ، وكان ملحوظا عليهم الميل الشديد للاستزادة من المعرفة ، ولكنهم كانوا يلقون أقسى المعاملة من الكهنة الذين لم يكن يروقهم أن يوجد من هذه الطبقة الشعبية طامحون قد يغريهم طموحهم بالنشوز على الأوضاع القائمة .

وزادتنى حياتى فى هذا الجو اقتناعا بفائدة الحيطة والحذر ، فقد بدأت أكشف أن للكهنة علينا عيونا وأرصاداً . فكلمة طائشة فى حديث ، أو عبارة تساق فى مزاح ، كانت على الأثر تبلغ مسامع الكهنة وكثيراً ما يساء تأويلها ، فيستدعون قائلها ويستجوبونه ، ثم يعاقبونه ، وأحيانا كان العقاب جلداً بالسوط ، وأحيانا كان فصلا ، إلى الأبد ، من « دار الحياة » سواء أكانت فى « طيبة » أم فى أية مدينة أخرى بالقطر المصرى .

وقد منحتنى قدرتى على القراءة والكتابة مكاناً مرموقاً بين أقرانى جميعاً حتى الذين يكبروننى سناً وجسما ، وأصبحت أعتقد أنى بلغت مبلغ الصلاحية والإعداد للحاق « بدار الحياة » فلما تتابع الوقت دون أن يتقرر انتقالى إليه ، لم أجد عندى الشجاعة لاستيضاح الأسباب ، فقد كان ذلك يعد تمرداً على « آمون » .

وكنت أنشد تسليتي ومشغلة وقتي بنسخ كتب الموتى التي كانت تباع في ساحات المعبد الأمامية ، ولكن كثيراً ما كانت تمرونى الكآبة ويؤلمني الشعور بالظلم كلما رأيت غيرى ممن هم دونى موهبة واستعداداً قد سبقونى إلى «دار الحياة» . ولم يكن لى ثمة عزاء عن ذلك إلا ما كان أبى يؤكده من أن امتداد هذه المرحلة التعليمية والريث فيها خليق أن يجعلنى أكثر رسوخا فى العلم وتمكنا من لبابه ، وأكثر إحاطة بدقائقه وأسراره من أولئك الذين تعجلوا وتقدمونى .

وأخيراً ، انبئت بأن دورى قد حل لأبدأ الصلاة فى المعبد ، ومن ثم أدخلت إلى حجراته لأقيم بها أسبوعاً كاملا لا أبرحها ، آخذاً نفسى فيها بالصوم للتطهير والتنقية ، وسر أبى لهذا ، فقص شعرى وأقام لجيراننا وليمة احتفالا ببلوغى مبلغ الرشد ، ولم يكن هذا ليستحق الاحتفال ، ولكنى كنت فيما قد بلغته بموضع السابق الممتاز على أبناء جيراننا الذين هم فى مثل سنى ، ولهذا أقيمت الوليمة وبذلت « كيفا » أقصى الجهد فى إعدادها ، ولكنى لم أستسغ فى تلك الليلة شيئا مما طعمته كما لم تتفتح نفسى لشىء مما كان يدور بين الحضور من الملح والفكاهات ، ولاحظ أبى « سنموت » وأمى « كيفا » ما يعرونى من كآبة وانقباض . وكأنما وقع فى ذهن أبى أن مبعث هذا عندى هو القلق من غموض علاقتى البنوية بهما ، فرأى أن يضع حدا لذلك بمكاشفتى بالحقيقة ، ولهذا طفق يحدثنى فى أناة وهدوء عما لا أعلم من سر أمرى وخفى قصتى ، وكانت « كيفا » تتدخل فى الحديث لتضيف إليه ما لم يكن أبى يذكره عن سهو ونسيان ، وكنت أستمع إلى حديثهما مشدوها ، وأتطلع خلال ذلك بقلب متفطر إلى قارب الغاب الذى يعلو فراشى بعمده التداعية ولونه القاتم ، وقد ذهبت بى كل مذهب أفكار أشد قتاماً من لون القارب . إذن — فالحقيقة أنى مخلوق مقذوف إلى هذا العالم من شاطىء مجهول ، وأن الأقدار الظالمة قد حرمتنى نسباً صريحاً ، فليس لى أب ولا أم معروفان . فأنا فى هذه المدينة الكبيرة وفى هذا المجتمع الزاخر وتحت نجوم هذه السماء الرحيبة الأقطار أحيا وحيدا يتيما ، مشكوكا فى نسبى وأصلى ، فمن يدرى ؟ فلعلّى أن أكون فى حقيقتى

أجنبيا عن أرض « كيم » أو لعلى أن أكون قد جئت إلى الحياة عن طريق سر مخجل ؟ ! يا لها من حقيقة تظهر ليحتويها الغموض المتكاثف والشك المفجع .

وقضيتها ليلة ليس كمثلها فى الليالى السود .

وفى الصباح أخذت طريق مبكرا إلى المعبد ، وقلبي طافح بالأسى ، واضعاً فوق ملابسى رداء المعبد الذى حاكته لى « كيفا » بنفسها .

— ٢ —

كنا خمسة وعشرين صبيا وشابّا حينما تلاقينا فى ذلك اليوم ، استعدادا لحياتنا الجديدة بالمعبد ، وقد بدأنا مراسم الدخول إليه بالاستحمام فى بحيرته ، وشعورنا مقصوصة ، ثم ارتدينا ملابس خشنة . وكان الكاهن المعين للإشراف علينا أكثر من غيره تدقيقاً فى مراقبة أحوالنا ، وكان من حقه ، وفقاً للتقاليد ، أن يشتط ما يشاء فى معاملتنا ، باسم إخضاع النفس وإذلالها . على أن هذه المعاملة القاسية لم تكن تمتد إلى بعض الطلاب من أصحاب المكانة الخاصة ولا إلى غيرهم ممن أتموا دراسة القانون واجتازوا امتحانها ، وهم باستواء نموهم أقرب إلى الرجال منهم إلى الشباب ، وما رغبوا فى الانتساب لخدمة « آمون » إلا ليكون مستقبلهم أكثر أمناً . فهؤلاء وأولئك كانوا يبذخون فى تقديم هداياهم إلى الكاهن طعاماً ونبيذاً ، وبذلك كانت عيون المراقبة تغض عنهم وتطوع لهم فى كثير من الأمسيات أن يخرجوا من المعبد ليقضوها فى بيوت اللذات ، وما كان ذلك بالأمر الغريب عليهم ، فقلوبهم خواء من العقيدة الكهنوتية .

وما كنت أنا من هذا فى شىء ، فأفكارى المضطربة ومشاعرى الجريحة ، كانت تضغط على نفسى ضغطا شديدا ، فقنعت بكسرة الخبز وكوب الماء وهما غذاء الكهنوت ، مرتقبا فى أمل مشوب ، ورجاء يخالطه التشاؤم ، ذلك المستقبل الذى لا تتضح سماته ولا تبين معالمه .

لقد كنت فى سنى الصغيرة أشعر بالحنين إلى العقيدة ، وقد قيل لنا إن

« آمون » يظهر بنفسه فى محيط الكهنوت ، ويتحدث إلى كل طالب على انفراد كلما بلغ درجة معينة من الصفاء الروحى . وكنت ألتمس الراحة فيما أرجو أن يتاح لى من القدرة للتغلب على متاعبى النفسية والتحرر من ظروفى الاجتماعية . وقد أحسست فى هذا الجو الكهنوتى بأشياء لم أكن أحسها قبل انتقالى إليه . ذلك أنى لما كنت فى رفقة أبى وبحكم اتصالى بمهنته عرفت المرض والموت ، وبهذه المعرفة تميزت عمن كانوا فى مثل سنى ، على أن هذه المعرفة كانت كذلك قد قررت فى ذهنى أن الطبيب إنسان تتهاوى أمامه القداسات ، ففرعون على جلاله وخطره يقف أمام الطبيب عارياً كما ولدته أمه ، وينحنى له ، ويخضع لأوامره ، ويستجديه العافية ، بل الحياة نفسها . فالطبيب فى عالم الأحياء أقوى سلطاناً وأبعد نفوذاً ، ولا يطأطىء رأسه إلا أمام الموت وحده ، وهو أمر يتساوى فيه الجميع من غير تفاوت ولا استثناء . ومن هذا كانت نظرتى إلى المقدسات داخل المعبد نظرة ينقصها اليقين أو أنها كانت نظرة الاستعلاء ، إذ كنت فى سبيلى إلى أن أكون طبيباً ، له كل هذه الخصائص والمميزات . وباعد ذلك شيئاً فشيئاً ، بينى وبين ما كانت تلهمنى إياه حداثتى الأولى من الحنين إلى العقيدة ، وزادنى ما رأيته عن كثب بالمعبد خلال السنوات الثلاث التى قضيتها به استغراقاً فى هذا الشعور الذى يمكن أن يسمى إلحاداً ومروقاً .

على أنى مع هذا كنت أطمع فى أن أستكشف « المجهول » المتوارى خلف قدس الأقداس ، عسى أن يظهر لى « آمون » ليمنح قلبى السلام ، ويفيض الراحة على روحى المعذبة .

كانت هذه الأفكار الشوارد هى شغلى الشاغل وأنا أتجول بين الأعمدة التى يتقارب حولها العلمانيون ، وأدور بعينى على الصور المقدسة البديعة الرقوش والنقوش المعبرة فى وضوح عن عظمة الهدايا التى كان يقدمها الفراعين إلى «آمون» باعتبارها نصيب الآلهة من غنائم الحروب .

هنالك وقع نظرى صدفة على سيدة كأنها تمثال من جمال ، وهى تأخذنى

بنظراتها المثيرة ، فى فضول سافر ، وقد كانت كالغصن قواماً وكالصباح وجهاً ، ومع ذلك جملت تزيد من فتنتها ، فهى ترتدى ثوباً رقيقاً من الكتان يشف عما وراءه من أجزاء جسمها البض ، وجمالها الغض ، وقد طلت شفتيها وخديها وزججت حاجبيها بألوان تزيدها فتنة وإغراءاً ، وقبل أن يرتد طرفى عنها سمعتها تسألنى : ما اسمك أيها الفتى اللطيف ؟ !

وكانت وهى تفجأنى بهذا السؤال تحدق بنظرها فى ردائى الرمادى الذى ينبئها بأنى طالب فى سلك الكهنوت .

وأجبتها فى شيء من الخجل : اسمى « سنوحى » . وكادت عيناى لا تقويان على مواجهة نظراتها الأخاذة الفاتنة ، ولكننى فى الوقت نفسه وددت أن تدعونى لأكون رائدها فى مشاهدة المعبد ، فقد كان ذلك من عمل الكهان .

وقالت ، وهى تفكر وتردد اسمى ، وتنظر إلىّ من الرأس إلى القدم : سنوحى ؟ ! إذن فأنت ممن يسهل إزعاجهم ، ويكفى أن يفضى إليك إنسان بسر لتفر هارباً . . .

وكانت هذه تورية إلى اسم « سنوحى » وما اشتهرت به أسطورته ، فكأنما أضافت بذلك مضايقة جديدة إلى كثير من المضايقات التى أعانيها فى مكايدات زملائى بالمدرسة . غير أنى استجمعت شجاعتى لأقول لها ، وأنا أغالب سحر عينيها : وماذا يزعجنى أو يخيفنى يا سيدتى ؟ ! إن الذى يهيىء نفسه ليكون طبيباً لا يمكن ، أو لا ينبغى له ، أن يخاف الأسرار . . .

فتهلل وجهها وقالت : مرحى ... إن فيك لبشيراً بالنجابة . فخبرنى إذن : هل تعرف بين زملائك شاباً اسمه « متيوفر » ؟ ! إنه ابن رئيس البنائين من حاشية فرعون . . .

« متيوفر » ؟ كيف لا أعرفه ؟ ! إنه هو الذى غمر الكاهن عند قبوله بالمدرسة بالهدايا الطيبة ، نبيذ وسوار ذهبى ، ولكنى أحسست بشيء من الألم اللاذع حينما أجبتها بأنى أعرفه ... لقد طرأ على نفسى نحوها شعور غريب لم أتبينه تماماً ،

وخاصة عند ما طلبت مني أن أدعوه إليها ، فياله من فتى سعيد ! ..

وحاولت التجرد من هـذا الشعور الذى بدأت أدرك أن مصـدره الغيرة ، فتصورتها أخت «متيوفر» أو إحدى قريباته ، وأنها جاءت لتلق أخاها أوقريبها ، وهذا أمر لا غرابة فيه .

وقلت لها : ما اسم سـيدتى لأنبئه به ؟! فأجابت : إنه يعرف ... ودقت الأرض فى حركة عصبية ، بحذائها المحلى بالجواهر ، واستطردت تقول : إنه يعرف من أنا .. ولعلها استبانت فى وجهى أثر الشك فقالت : قد يكون مديناً لى فى شىء فجئت أتقاضاه ، وقد أكون زوجة رجل مرتحل طال غيابه فأقبلت لأدعو صاحبى « متيوفر » ليسليني عن وحدتى ؛ أو ليس هذا معقولا ؟!

وعاد الألم يحز فى أعصابى ، ولـكنى قلت على الفور : حسناً أيها الجميل المجهول!! سأبحث عن « متيوفر » وأخبره أن سيدة فى مثل جمال إلـهة القمر وفتنتها تدعوه إليها . وهو بالطبع سيعرف من أنت لأول وهلة ، فمن رآك مرة لا يستطيع أن ينساك . . .

وأدرت عنها وجهى ذاهباً إلى البحث عن صاحبها ، ولـكنها أمسكت بى قائلة : ولماذا تذهب هـكذا سريعاً ؟! إبق هنا بعض الوقت فإن لى معك حديثاً غير هذا .

وأخذت تتأملنى من جديد فـكأنما كانت تسدد من عينيها الفاتنتين سهاماً إلى قلبى ، حتى أنى كنت لديها وقتئذ كمن يذوب فى مصهر .

ولم تدعنى هذه الفاتنة فريسة الشعور المبهم ، فدنت منى ومدت يدها المثقلة بالخواتم والأساور الذهبية ، وأخذت تمر بها على رأسى قائلة فى حنو واسترخاء : إن هذا الرأس المقصوص حديثاً ليبدو جميلا !..

وفى رقة ودلال تساءلت : أكنت تقول حقاً حين وصفتنى بجمال إلـهة القمر وفتنتها ؟! أنظر إلىّ من قريب ...

ونظرتُ إليها فإذا هى تلوح لى فى ردائها الـكتانى أكثر فتنة وجمالاً ، لقد

كانت أجمل من رأيت من النساء ، وهى من تلقاء نفسها تعرض جمالها عرضاً صريحا لا تخفى منــه شيئاً ، فنسيت نفسى أو كدت أنســاها ، بل نسيت « آمون » و « دار الحياة » وانعقد لسانى فلم أُحر جوابا . .

وقالت فى حزن : إنك لا تجيب ... ولا أحتاج منك الآن إلى جواب ، لقد عرفت أن عينيك الحلوتين قد نظرتا إلىّ كما لو كنت عجوزاً شمطاء ... فاذهب إذن وادع إلىّ « متيوفر » ، فلعل فى ذلك ما يريحك منى .

لم أتحرك ، ولم أنطق ، ولــكنى أدركت أنها تقول ذلك لإثارتى . . وكانت الظلمة تنشر أجنحتها حينذاك بين أعمــدة المعبد ؛ لا يخالطها إلا شعاع من ضوء بعيد ينعكس على عيــنَىْ هذه السيدة الجميلة ... كنا وحدنا ، ولم يكن أحد يرانا..

قالت وهى تبتسم : أحسبك لا تريد أن تدعو رفيق « متيوفر » ،فإن كنت حقا لا تريد هذا فإنى راضية أن تحل بموضعه منى وأن تجيء معى لتسلينى ، هلم !

وقبل أن تستهوينى تماما هذه الدعوة العذبة ، أومضت فى ذهنى ذكرى أحاديث أبى « سنموت » عن النســاء اللوائى يغوين الشباب الموفورين بالفتوة والملاحة ، فتراجعت خطوة إلى الوراء لأبتعد عنها .

ولــكنها قالت وهى تزداد اقترابا منى : ألم أقل لك إن « سنوحى » إنسان مطبوع على الخوف ؟! وحاولت أن تمد يدها لتضعها فوق رأسى ، ولــكنى فى فزع نحّيتها قائلاً : الآن ، عرفت أى صنف من النساء تــكونين !! إن زوجك غائب ، وقلبك أحبولة صيد ، وجسمك يحرق أشد مما تحرق النار ...

كان ذلك منى جرأة متكلفة . فالحقيقة أننى مع هذا التأبى الظاهر لم أستطع أن أترك المــكان بعيداً عنها ، وعرفت هى ذلك منى ، فقاربتنى بعد مباعدة قليلة وقالت فى ابتســام ماكر : «أجادّ أنت فيما تقول ؟! أحسبك غير صادق فيه ، ولا مؤمن به ، فجسمى لا يحرق كالنار ، وإنما يمــكن أن يقال إن فيه إغراءاً . . ومع ذلك فما يمنعك أن تختبره بنفسك لتعلم ؟!

وفى حركة سريعة تناولت يدى ووضعتها على جسمها من فوق ملابسها الشفافة ، فسرت بى رجفة ، وعلت وجهى حمرة ، فقالت متخابثة كما لو كانت

تخشى خيبة الأمل : لا، هذا لا يكفى ... إن ردائى يحجب عنك الحقيقة فيما يظهر .

وأخذت تدير يدى على صدرها عارياً فأحسست بملامسته نعومة وطراوة ، وكأن نفسى تسربت فى جسمها . وهنا قالت : هلم يا «سنوحى» إلى منزلى لنشرب نبيذاً ونقضى وقتاً هانئاً .

قلت لها : لا أستطيع أن أبرح المعبد . قلتها فى خشية واستحياء ، فعلى فرط اشتهائى لها ورغبتى فيها كانت الشجاعة لا تواتينى لموافقتها فيما تدعونى إليه ، بل لقد أخذت أخافها كخوفى من الموت . ولهذا استطردت قائلا : يجب أن أظل مصوناً لا تلوثنى مأثمة حتى أنال هنا مرتبة الكاهن ، فأى انحراف عن هذه الجادة من شأنه أن يقصينى إلى الأبد من المعبد ومن « دار الحياة » ، وهذا ما لا يمكن أن يكون .

بهذه العبارات الصارمة كنت أدافع استسلامى لدعوتها إذا حاولت تكرارها ، ولكنها كانت امرأة لعوباً ، فلم تؤخذ بهذا الذى فهمت أنه تظاهر ملفق ، إنها كانت ترى وراء هذا التظاهر ، عواطفى التى تضطرب ملتاعة مهمومة فى داخل نفسى ، وكنا لا نزال وحيدين ، وإن كان الناس منا غير بعيد يروحون ويجيئون ، وعلى آذاننا يترامى صوت الدليل الذى يقود الزائرين شارحاً لهم غرائب المعبد أو طالباً منهم نقودا نحاسية ليريهم هذه الغرائب .

وفى هذه الوحدة التى ما زالت تحتوينا راحت تواصل إغراءها قائلة : لشدَّ ما أراك خجولا يا «سنوحى»، إنك يا فتى لا تعلم أن الأغنياء والعظماء يخفُّون إلىَّ سراعاً بأموالهم وهداياهم إذا ما أومأت إليهم بمثل ما أدعوك إليه . وأنت . . أنت تريد أن تظل مستعصماً . يا لها من حماقة !

قلت فى تخاذل : ألا تريدين أن أدعو لك « متيوفر » ؟ إنه لن يتردد فى استجابة دعوتك ، وفى وسعه أن يذهب إليك إذا ما جن الليل ولن يمنعه عنك أن عليه نوبة المراقبة فى هذه الليلة . إنه لا يبالى ولا يخشى ، لأنه ابن رئيس البنائين فى حاشية فرعون .

قالت : لم أعد فى حاجة إلى استدعاء « متيوفر » . حسبى أنى لقيتك ، وأوثر أن نفترق ، أنا وأنت ، صديقين ، وإنى لمخبرتك من أنا ، إننى « نفر نفر نفر » وهذا هو اسمى الذى يردده فى شغف المعجبون بجمالى ، المتغنون به ، وما أكثرهم !.. والآن وقد أصبحنا صديقين ، أسألك ما هى هديتك التى ستهديها إلىَّ قبل أن نفترق ؟ لقد جرى الأصدقاء على أن يتهادوا عند ما يفترقون ليتذكر بعضهم بعضاً بهذه الهدايا خلال فترة الغياب ؟

ووقعت كلماتها على قلبي موجعة ، واستبدت بى الحيرة فى موقفى منها . إنها تفرض صداقتها علىَّ فرضا وتأخذنى بها أخذا مفاجئا وتتقاضانى ضريبتها الأولى فى صورة « هدية » وأنا الفقير الذى لا يملك شيئا ، ولو أنى كنت أملك خاتما نحاسيا لما طوَّعت لى نفسى أن أقدمه هكذا قربانا لامرأة تعرض لى فى الطريق لأول وهلة . نعم إنى كنت قد أحسست بنشوة الميل إليها ، ميل الغريزة المتحكمة فى عواطف شاب إلى امرأة جياشة الأنوثة ثائرة الفتنة ، ولكنى كنت كملاح غير مدرب ، تلاطمت على قاربه الصغير بغتةً أمواج عاتية ، إن كل ما يفكر فيه هو كيف ينجو بنفسه . ولهذا خفضت رأسى حيرة أو خجلا ، دون أن أنبس بكلمة ..

ولكن المرأة الفاتنة عادت تقول : هيه ، أين الهدية ؟ عجل يا صديقى ، إن قلبي الظامئ يريد أن تنعشه هديتك . وفى حركة سريعة أقامت بيدها رأسى المطرق ، وسلطت على وجهى أشعة عينيها المتأججتين ، ثم قربت وجهها منى ففهمت ما أرادت ولمستُ شفتيها بشفتى .

فقالت وهى تتنهد : شكراً لك ، إن عبير هذه القبلة عندى خير من أثمن هدية ، وسأظل أتطيب به وأستروحه ما حييت . غير أنى إخالك غريبا عن هذه الديار ، فأنت لا تعرف كيف تقبِّل سيدة ، وكأنما عجزت فتيات « طيبة » عن أن يعلمنك هذا ، وأنت .. أنت بشعرك المقصوص تستشرف الرجولة وتدنو منها .

قالت هذا ، ثم نزعت من إبهام يدها خاتما من خالص الذهب ، يتوجه حجر كبير من غير نقش . وفى رفق وحنان وضعته فى إصبعى قائلة : هذا هو هديتى لك يا « سنوحى » ، فلعلك ذاكرى بها وإنى لأرجو حينما تجتاز طور الكهنوت وتنتقل إلى « دار الحياة » أن تنقش اسمك على هذا الحجر كما يفعل الأثرياء وأصحاب المراكز الرفيعة . ولا تنس أن لونه أخضر لأن اسمى « نفر نفر نفر » ، ولأن عينىّ ، كما يقولون ، خضراوان كلون مياه النيل فى حرارة الصيف .

وخرجت من صمتى المطبق لأقول : ولكنى لاأستطيع ، لاأستطيع أن آخذ خاتمك يانفر . وكررتُ « نفر نفر » ، فأحسست فى تكرار هذا الاسم لذة وارتياحا .

قالت : فاحتفظ به ، أيها الفتى الأحمق ، إننى أريد ذلك ، وقد تستطيع فى قابل أيامك أن تهدى لى شيئا يعدله ، واستطردت وهى تهز إصبعها فى وجهى قائلة : وتذكر دائماً أن تكون حذرا من النساء اللائى تحرق أجسامهن أشد مما تحرق النار ! ..

واستدارت مولية وجهها شطر الباب بعد أن أشارت بألاّ أتبعها ، ولكنى تابعتها بنظرى مشدوها ، فرأيتها من ثنايا باب المعبد ترقى كرسيا مزخرفا بالنقوش ، كان خدمها ينتظرونها به هناك بالساحة الأمامية ، ثم حملوه وهى من فوقه ، ومضوا بها وأمامهم واحد منهم يصيح فى الناس أن يفسحوا الطريق . فلما غابت عن نظرى شعرت بوحدة قاسية ، وكأنما انحدر رأسى إلى هوة سحيقة مظلمة .

وعندما لقيت « متيوفر » بعد ذلك بأيام ، استرعى نظره خاتم « نفر نفر نفر » فى إصبعى ، فأمسك بيدى ليتأمله فى إمعان ، وفى دهشة وشك ، قال : بحق قرود «أوزوريس» الأربعين، إنى لأكاد أشم ريحها فى هذا الخاتم ، ولكن كيف يمكن أن أصدق ذلك ؟!

كان لايقع فى تصوره أن مثلى فى رقة حاله يستطيع أن يبلغ من هذه المرأة موضع الآخرين الذين يتفردون عنى بالجاه والثراء ، ولكنه رغم ذلك وتأثرا

يظنون لم ترق إلى مرتبة اليقين ، كان ينظر إلىّ منذ ذلك الحين ، بما يشبه الاحترام ، حتى وهو يرانى مكبا على تنظيف أرض المعبد ، قائما بالأعمال التافهة التى كان يوجبها الكاهن علىّ ويلزمنى بها إلزاما ، لا لشىء ، سوى أنى عاجز عن تقديم الهدايا إليه .

وقد تأثرت أنا بهذا الشعور ، فتصورت احترام « متيوفر » لى لونا من النفاق الذى ينطوى على الحقد والكراهية ، وعلى توالى الأيام ، أخذ هذا التصور يقوى حتى صار فى قوة الحقيقة . ولقد كان يغلبنى الحنين إلى « نفر » ، فأهم حين ألاقيه بأن أسأله عنها ، ولكنى كنت أرد نفسى عن ذلك معجلا ، حفاظاً بالسر ، وتعللا بالحقائق المجهولة ، فكثيرا ما تجد النفس عزاءها فى الخيال ، وهناءتها فى الأحلام . وكم كانت الحقائق إذا نضت عنها القشرة المموهة مجلبة عذاب وآلام ، ومدعاة تعاسة وشقاء .

رضيت إذن بالحياة على ذكرى « نفر » اللفقة الغامضة ، وكنت بها سعيدا . وكان أكثر مايسعدنى منها هذا الحجر الأخضر الذى أنظر إليه فيذكرنى بعينيها الخضراوين ، تتألقان جمالا وتنفثان سحرا ! ..

كانت هذه الذكريات جدولا رقراقا أنتهل منه آمالى وأحلامى ؛ وخاصة بعد أن ظهر لى « آمون » وتحررت أو كدت من مظاهر التزمت التى كان لامعدى لى منها قبل ذلك .

— ٣ —

قلت إن « آمون » قد ظهر لى ، وهذه قصة يجمل بى الآن أن أرويها : فإنه بعد أربع ليال من لحاقى بالمعبد ، كنت أحد الذين نيطت بهم الرقابة والسهر على الأمن فى أرجائه ، وكان رفاقى فى هذه المهمة ستة ، هم « ماتا » و « موسى » و « بيك » و « سنوفر » و « نفرو » و « أحمس » . ولم أكن أعرف منهم إلا « موسى » و « بيك » ، لأنهما كانا يتأهلان مثلى لدخول « دار الحياة » . .

وكان علينا أن نمضى فى إثر الـكاهن فى وقار ، وهو يقودنا إلى الجانب المغلق من المعبد ، بينما كانت سفينة « آمون » (الشمس) فى ذاك الوقت ، قد أبحرت خلف التلال الغربية ، والحراس ينفخون فى أبواقهم الفضية إيذانا بإغـلاق الأبواب .

وسار الـكاهن أمامنا مكتنز الجسم بادى القوة لفرط ما يأكل من لحم القرابين والفاكهة والـكعك الحلو ، ووجهه يقطر عافيه ولمعانا وحمرة ، كأنه الوعاء البلورى الذى يشف عما أسرف فيه من الزيت المعطر والنبيذ المسكر .

وكنا ، وأنا بخاصة ، على النقيض من ذلك تماما . لقد كان الضعف والهزال يسريان فى أوصالنا ويهدان من قوانا ، لأن الصوم وتفاهة ما نتناوله من غذاء ، قد فعلا فينا فعلهما . ذلك إلى ما كان يساورنى وحدى من قلق فى هذه الحيـاة الجديدة .

وتقدم الـكاهن ، وهو يضحك لنفسه ، فرفع ستاراً على فراغ منحوت فى الصخر لنرى قدس الأقداس ، حيث يقف « آمون » وعلى رأسه غطاء منضد بالجواهر وحول عنقـه قلادة مرصعة بالأحجار الـكريمة ذات الألوان الخضراء والحمراء والزرقاء ، وهى جميعا تبدو شديدة التألق فى ضوء المصابيح المقدسة .

ولم تـكن هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها « آمون » . لقد رأيته قبل ذلك فى عيد الربيع محمولا على قاربه الذهبى فى ساحة المعبد الخارجية . وكان الناس جميعهم يخرون أمامه ساجدين . ثم رأيته كذلك عندما كان فيضان النيل يبلغ ذروته ، يمخر بالبحيرة المقدسة فوق سفينته المصنوعة من خشب السدر . ولـكنى حينذاك كنت تلميذاً تحت التمرين ، وكنت من رؤيته غير قريب . ولهذا لم يكن لردائه الأحمر مثل هـذا التأثير القوى على نفسى ، وأنا أراه الآن فى ضوء المصابيح وسط السكون الرهيب الذى يشع فى المحراب الطاهر . .

إن الأثواب الحمراء كانت الأردية التى يتفرد بها الآلهة والفراعين ، وقد أخذتنى الرهبة ، وأحسست كأن أحجاراً ثقيلة وضعت فوق صدرى عندما رأيت « آمون »

فى ثوبه الأحمر شامخاً برأسه المتألق بالجواهر .

وانتبهت على صوت الكاهن وهو يقول — مستنداً إلى قائمة الستار ليحفظ توازنه — أنظروا وصلوا لآمون ، واسألوه أن يدفع الشر عنكم ، فقد يستجيب لكم ، فمن عادته أن يكشف عن نفسه للطلاب ، ويناديهم بأسمائهم ، ويخاطبهم ، إذا كانوا يستحقون ذلك .

وبعد قليل رسم الكاهن علامات مقدسة متمتماً باسم « آمون » المقدس ، وأعاد الستار مسدولا كما كان ، وانصرف تاركا إيانا فى الظلمة الداجية بغرفة الانتظار الداخلية ، وكانت أقدامنا العارية تكاد تتقلص من شدة الرطوبة فى بلاط هذه الغرفة .

وما كاد الكاهن يغيب عن أنظارنا ، حتى أخرج « موسى » مصباحاً كان يخفيه تحت عباءته وقال : إن من الحماقة أن نظل هكذا فى الظلام طول الوقت ، وتسلل « أحمس » إلى المحراب ، فجاء بلهب قدسى وأشعل المصباح ، ثم حمل إلينا بعد ذلك خبزا ولحماً تناولناهما فى شىء من الطمأنينة . واستلقى « أحمس » على الأرض بعد فراغنا من الطعام وقد لفّ جسمه فى عباءته لينام، وتبعه رفاقه فأخذوا أمكنتهم بجواره متلاصقين ، وهم يتململون من صلابة الأرض ومن البرد القارس. أما أنا فقد بتيت مستيقظاً غير مستسلم لدواعى النوم ، ساهرا على الرقابة وإن كنت لا أخشى مفاجأة الكاهن بزيارته لنا ، فقد عرفت أنه تلقى من « متيوفر » إناء نبيذ ، وسمح له ولاثنين آخرين من الطلاب بأن يتناولوا النبيذ معه فى غرفته .

كنت مخلصاً لواجبى فى الرقابة ، فلم أتخل عنها كما فعلوا ، على الرغم من أن الطلبة كانوا يجعلون من أيام التلمذة طور لهو وعبث ، يقضونه موزعا بين طعام وشراب ، ولعب ونوم .

وخلال ليلى الطويل كان يساورنى الشوق إلى رؤية « آمون »منفردا، إذ كان رفاقى كلهم قد استغرقوا فى نومهم . وقد وجهت نفسى بجملتها إليه ، مكررا أسماءه المقدسة ، كبير الأمل فى أن يظهر لى ويناديني ، فقلبي عامر بالإخلاص له ، وروحى

قد صفاها الصيام وصدق التعبد ، ولـكن السكوت والصمت العميق كان يخيم على المعبد ، ولم ألحظ شيئاً سوى اختلاج ستار المحراب قليلا عند اقتراب الصباح ، ولم تـكن هـذه الحركة إلا أثر الهواء الذى أحسست به متساقطاً على المـكان فى ذاك الوقت .

وعلى ضوء النهار الذى أخذ ينساب فى القاعة أيقظت زملائى ، وفى اللحظة نفسها كان الجنود ينفخون فى أبواقهم ، وحراس الأسوار يتبادلون نوباتهم ، والساحات الأمامية بدأت تزخر بالناس الذين يضطربون فى جنباتها .

وأقبل علينا الـكاهن يرافقه « متيوفر » متأبطاً ذراعه ورائحة النبيذ تفوح فى أنفاسهما ، وبإحدى يديه المحراب المقدس ، وكان يتمتم بأدعية دينية خاصة . ثم سألنا نحن السبعة بعد أن حيانا ، عما إذا كنا قد أدينا واجب المراقبة والصلاة تقرباً إلى الإلـه العظيم « آمون » وتوسلا إلى نيل رعايته ورضاه . فأجبنا جميعاً ، وفى صوت واحد : نعم . لقد فعلنا . .

وكان هذا جواباً خالياً من الصدق بالنسبة لرفاق الستة . وعاد الـكاهن يسألنا وهو يحدق نظره فينا : وهل أظهر « آمون » نفسه لـكم ، برا بوعده لمن يستحقون ذلك ؟

فجعل كل منا ينظر إلى الآخر بجانب عينه كأنما يستوحيه الجواب عن هذا السؤال . وكان « موسى » أسرعنا إلى الجواب فقال : نعم . لقد أظهر نفسه لنا . وتابعه الرفاق ، واحدا بعد الآخر ، فـكرروا نفس مقالته . وكان « أحمس » أشد تحمسا فى تأكيد ذلك .

وكما أدهشتنى إجابتهم الأولى ، أدهشتنى إجابتهم الثانية ، فهم فى الحالين كاذبون . ووقف قلبى استهوالا لهذا الـكذب الجرىء المنافى لمبادىء الخلق القويم . وكان أعجب ماعجبت له ، تلك الفرية الضخمة التى قذف بها « متيوفر » فى وجوهنا وفى وجه الـكاهن على الأخص . فقد زعم أنه ، كذلك ، قد راقب وصلى فى مكان آخر ، مدعيا أن ضرورة عمل هام قد اضطرته لأداء هـذا الواجب بعيدا عنا ،

وأردف قائلا : ولقد ظهر لى « آمون » فى شكل إناء ضخم من النبيذ وأسرّ إلىّ أسرارا مقدسة تتعلق ببعض شؤون لا يليق ذكرها هنا ، وقد أنعشنى اتصاله بى مثلما أنعشنى النبيذ الذى ظللت أروى به نفسى الظامئة حتى مطلع الفجر .

وكان « متيوفر » فى أكذوبته الجريئة ينظر إلى الكاهن محملقا ، ويستشهد به على صدقه . ولم تخف علينا معانى هذا الاستشهاد ، فقد كنا نعلم أن «متيوفر» قضى ليلته مع الكاهن ، يسمران على أقداح النبيذ ،فلا رقابة ولاصلاة ولا تجليات « آمون » ولا شىء من أسراره المزعومة .

وأبى الرفاق أن يكون حظهم من ظهور « آمون » أقل من حظ هذا الرفيق «متيوفر» ، فراحوا يتزيدون فى إجاباتهم ، فقال «موسى» : لقد ظهر لى «آمون» فى صورة ابنه «حوراس» ووقف على كتفى كالصقر هاتفا : بورك فيك يا «موسى» وفى آلك ، وفى أفعالك ، إننى جد راضٍ عنك ، وبفضل رضائى هذا سيتحقق لك ثراء طويل عريض ويصبح لك منزل فخم ، لأسواره بوابتان ، وسيكون لك حاشية وخدم كثيرون .

وقال الآخرون مثل مقالة « موسى » بفارق يسير فى الشكل واللون وصيغة الأداء . وكلهم ينافس صاحبه فى الزيادة والتهويل ، بل فى الاختراع والتزوير . فقد أسرفوا جميعاً فى هذا ، وما كان يجول بخاطرى أن يأثموا بأكاذيبهم إلى هذا الحد ، فانعقد لسانى ولم أحر جوابا .

وكان الكاهن يستمع إليهم ، وهو يهز رأسه مبتسما راضيا ، فلما رآنى جامدا معقود اللسان، صرخ فى وجهى قائلا فى ضيق : وأنت يا « سنوحى » ! ألم تكن جديراً برؤية « آمون » ؟! قل . ألم تره فى صورة ما ؟ تذكر . . لعله ظهر لك فى صورة فأر صغير .. إنه يظهر نفسه فى صور وأشكال متعددة .

واستجمعت قوتى المشردة لأقول : بلى . . لقد رأيت ستار المحراب المقدس عند الفجر يتحرك قليلا ، ولكنى لم أر شيئا آخر ، وبالتالى لم يتحدث إلىّ « آمون » .

وهنا انفجر الجميع ضاحكين . وكان « متيوفر » أكثرهم استغراقا فى الضحك وقال للكاهن كما لو كان يعتذر عنى : إنه فتى ساذج .. ثم مال على أذنه ليهمس بكلام لم أسمعه ، فنظر إلىّ الكاهن بعده نظرة صارمة وقال محتدًّا : إذا لم تسمع صوت « آمون » فمن المستحيل أن تحصل على شهادة اللحاق « بدار الحياة » وأردف قائلا فى لهجة الرثاء والعطف : وعلى أى حال ، ينبغى أن نجد لذلك علاجاً فأنت على ما أعتقد شاب طيب ، تنزع إلى الأغراض الشريفة .

ومضى عنا الكاهن بعد ذلك إلى قدس الأقداس . وأقبل « متيوفر » نحوى وعلى ثغره ابتسامة ليقول لى : لا تخف . . قالها بلهجة تقطر حناناً ليسرى عنى الكآبة التى استفاضت على وجهى ، والأسى الذى ملأ جوانح نفسى .

ولم نلبث إلا قليلا حتى فجأنا صوت خارق للطبيعة لا يشبه صوت إنسان ، ينبعث فى القاعة ، متردداً فى كل جنباتها ، كأنه صادر من كل الأنحاء فى وقت واحد ، من السقف ، ومن الحوائط ، ومن بين الأعمدة ، وكان يقول : سنوحى ! ! سنوحى ! ! أيها الفتى البليد . . أين أنت ؟ ! أقبل معجلا وانحن أمامى ، فوقتى أغلى من أن أضيعه من أجلك .

ولكنى لم أحرك ساكناً ، فجذبنى « متيوفر » بكل قوته وأدنانى من ستار قدس الأقداس ، وضغط على رأسى من خلف فأحناه ، حتى كاد يبلغ موضع قدمى وكانت هذه هى التحية المفروضة للآلهة والفراعين ، على أنه حين رفع يده عنى عدت فرفعت رأسى على الفور ؛ فرأيت الضوء قد غمر قدس الأقداس ؛ وسمعت إذ ذاك الصوت كأنه يخرج من فم « آمون » فيقول : سنوحى ! ! سنوحى ! ! أيها القرد . . هل أعماك الشراب ؟ ! أو كنت نائماً عندما ناديتك ؟ ! حقا إنك لتستحق أن تلقى فى عين حمئة ؛ وتزدرد من طينها طوال أيامك ولكنى من أجل شبابك سأعفو عنك برغم غبائك وقذارتك وتراخيك ، وإنى لعطوف على من يثقون بى . أما أولئك الذين لم يمس نور الإيمان قلوبهم فمصيرهم إلى هوة سحيقة فى مملكة الموت .

واستطرد الصوت ؛ أو على الأصح صاحب الصوت ؛ يقول كلاماً كثيراً تتخلله عبارات السباب واللعنات التى لم أعد أتذكرها كلها ؛ ومن الخير ألا أتذكرها فقد ثقلت فى ذلك الوقت على روحى وشعرت منها بالمرارة والمهانة ؛ ولم يسترح عقلى إلى صدورها عن إله مقدس ؛ فشككت فى مصدرها وأرهفت سمعى إلى جرس الصوت ونبراته ، متفقداً ناقداً ، فتبينت أنه صوت الكاهن ، قد زاده التمثيل ورجع الصدى اتساعا وقوة رنين .

وتوقف الصوت ، فلم أبرح مكانى حتى أقبل الكاهن فتحانى عنه ، وتبادر رفاق فحملوا البخور والزيوت والعطور والملابس الحمراء ، وكان لزاماً على كل منا أن يؤدى عملا ، فمضيت إلى الساحة الأمامية وعدت منها بإناء الماء المقدس والمناشف المقدسة لغسل وجه الإله ويديه وقدميه ، واشمأزت نفسى حين رأيت الكاهن يبصق على وجه « آمون » ثم يمسح البصقة بكم قميصه القذر ، وأخذ « موسى » و « نفرو » يدهنان بالطلاء شفتيه وخديه وحاجبيه . أما « متيوفر » فكان يدلك جسمه بالزيت ، وعلى عادته من المرح والفكاهة كان كذلك يمسح بالزيت المقدس وجه الكاهن ووجهه هو .

كان تمثال « آمون » عارياً كله ليغسل وينظف ويضفى عليه قميص جديد أحمر ومن فوقه مئزر باللون نفسه .

وقد جمع الكاهن اللابس التى رفعت عن التمثال بعد استبدالها بأخرى ، واستولى معها على المياه التى غسل بها « آمون » ، وعلى المناشف التى مسح بها جسمه ، لتباع الملابس فى الساحة الخارجية للسياح الأغنياء ، وتستعمل المياه دواءاً للأمراض الجلدية .

وبعد أن فرغنا من هذه الواجبات ، انطلقنا أحراراً إلى ساحة المعبد ، حيث الشمس الساطعة هناك ، وقد أخذ إيمانى بالآلهة يخبو نوره وشيكافى قلبى وفكرى .

وأخيراً ، وبعد انقضاء أسبوع ، وضع الزيت فوق رأسى ، وأقسمت يمين الكهنوت ، وأعطيت شهادتى ، موسومة بخاتم معبد « آمون » ومكتوباً عليها

اسمى لأنتقل بها إلى « دار الحياة » .

ومن ثم أصبحنا ، أنا و « بيك » و « موسى » ، طلاباً بهذا المعهد : ونقش اسمى فى سجله كما نقش فيه من قبل اسم أبى « سنموت » واسم أبيه من قبله ، وكان ذلك حقيقاً أن يسعدنى ، ولكنى حينما اجتزت أبواب « دار الحياة » كنت قد فقدت سعادتى .

— ٤ —

« دار الحياة » جزء من معبد « آمون » العظيم ، وكان الإشراف الدراسى الفنى به موكولا إلى أطباء ملكيين، كلٌّ للفرع الذى تخصص فيه، وقليلا ما كنا نراهم ، فقد شغلتهم فى أكثر الوقت أعمالهم الطبية الخاصة خارج المعهد ، وكانت أعمالا واسعة النطاق ، يصيبون منها دخلا وفيراً وخاصة ما كان يتوافى إليهم من هدايا مرضاهم الأغنياء . وكانوا يتخذون مساكنهم بمبعدة من المدينة ومن المعبد ، على أنه إذا حدث أن وفد على « دار الحياة » مريض أنهكه المرض واستعصى علاجه على الأطباء العاديين ، فإن الطبيب الملكى المختص يُستدعى فيجيء لفوره ويأخذ فى تطبيب هذا المريض على مشهد من الطلبة التابعين لفرعه ؛ وقد يشهد عمله معهم الأطباء العاديون الذين عجزوا عن علاج المريض ليزدادوا علما . ومن هنا كان مفهوماً دائماً أن المرضى الفقراء لا يفقدون حظهم من عناية الطبيب الملكى . وقد ذهب هذا فى الناس مأثرة من مآثر « آمون » .

وكانت مرحلة التعليم طويلة حتى بالنسبة للموهوبين الأذكياء ، إذ كانت منهاجاً ذا حدود وآماد لا مجال فيها للسبق والتجاوز . وكان علينا أن ندرس العقاقير والأدوية السائلة ، ونتعلم أسماء وخصائص الأعشاب والنباتات ، والفصول والساعات التى تحصد أو تجنى فيها ، وكيفية تجفيفها واستنباط موادها . فالطبيب أو الطالب الذى سيكون طبيباً ، ينبغى أن يعرف دقائق الدواء الذى يصفه لعلاج مرضاه ،

وأن يمرن على تركيب عناصره بنفسه ، فقد يتطلب الأمر ذلك . وكنا نشعر بشيء من الضيق لهذا ، فقد كان الرأى عندنا إذ ذاك أن عمل الطبيب مقصور على تحرير تذكرة الدواء ، وفق ما تمليه عليه حالة المريض الذى قام بالفحص عن مرضه ، أما تحضير الدواء نفسه والمزاوجة بين أنواعه وما يقتضيه ذلك من تقطير وتصعيد وقياس ووزن ، فهذا من عمل القسم الخاص بالصيدلة فى « دار الحياة » . ولكن هذا الذى برمنا به وغابت عنا حكمته ، كان له بالنسبة لى أحسن الأثر فى مستقبل أيامى .

وكان علينا كذلك ، أن نتعرف — تعرفا دقيقا — أعضاء الجسم المختلفة وأسماءها وطبائعها ووظائفها وعلاقة بعضها ببعض وأن نتعلم كيف نكتشف أمراضها ونستشف ما خفى واستسر من عللها وكيف نستعمل المباضع والآلات والأجهزة لشتى الأمراض والأجسام ، وأن نمرن أيدينا على كثير من عمليات الجراحة وفصل الأعضاء . . إلى غير ذلك .

كما كان علينا أن نتعلم كيف نستظهر حقائق الأمراض فيما نسمعه من أفواه المرضى ونميز بين النفسى منها والعضوى وبين الصحيح منها والزائف ، وما هى الأسئلة التى نلقيها على المرضى لنستبين من الإجابة عليها نوع المرض وماهيته .

وقطعنا المرحلة المرسومة ، وفرغنا من منهجها المقرر ، وبلغنا من الدراسة الطبية مبلغ القادرين على التمرس بأعمال المهنة ومقتضياتها ، وشهر ذلك فى احتفال تقليدى يقام عادة فى ختام الدراسة . ومن ثم لبست ردائى الأبيض وأخذت فى مباشرة واجباتى الجديدة بقاعة استقبال المرضى . وقد تناول عملى كثيراً من صنوف العلاج لاقتلاع الأسنان المريضة ، وتضميد الجراح وتقويم العظام واستعمال المبضع فى فتح الدمامل والبثور ولم يكن شىء من هذا جديداً فى حياتى ، فقد ألفت ذلك وخبرته خلال مراقبتى لأبى ، وضاعفت الدراسة المنظمة علمى به وخبرتى فيه ، فنلت بهذا تفوقاً ملحوظاً على زملائى ، ومكن لى من حق الإشراف عليهم وإصدار التعليمات إليهم ، وفى بعض الأحيان كنت أتلقى من هدايا المرضى مثلما يتلقاه

الأطباء الأساتذة .

وكنت أكتب تذكرات الدواء للمرضى ، فطاب لى أن أنقش اسمى على الحجر الأخضر للخاتم الذى أهدته لى « نيفر نفر نفر » لأوقع به على هذه التذكرات .

وأُلقى على كاهلى كثير من الواجبات الهامة ، ونيط بى الإشراف على المرضى الميؤوس من شفائهم والذين يتولى علاجهم أشهر الأطباء ، سواء أكان ذلك بتناول الدواء أم بإجراء عمليات الجراحة ، وقلما كان يشفى واحد من كل عشرة منهم . وحينذاك أدركت أن الطبيب لا يخيفه إقبال الموت ، كما أن من المرضى من لا يرهبه الشعور بأنه فى طريقه وشيكا إليه ، بل إن منهم من يشغف بلقاء الموت مثل شغفه بلقاء صديق رحيم . لقد كانوا ، لطول ما عانوا من أوجاعهم ، يلتمسون فى الموت راحتهم ، حتى أننى قد رأيت منهم مرضى أفلتوا من الموت واستعادوا صحتهم ، ولكنهم كان يلوح عليهم أنهم غير راضين عن أنفسهم بهذه النتيجة ! . . ذلك لأنهم عائدون إلى ما كانوا عليه من مكابدة الشقاء فى حياتهم .

وإلى ذلك الحين كنت أعيش فيما يشبه الغفلة فى عماها وصممها ، غير أنى فى هذا الطور الجديد من حياتى بدأت أحس بحرارة اليقظة تنثال على ذهنى فجأة ، كما كان قد حدث فى طفولتى وأنا فى مدرسة « أوح » عندما انبعثت الحياة انبعاث المعجزات فى الصور والحروف والكلمات ، فتفتح بها ما كان مغلقاً من عقلى وتعلمت القراءة والكتابة ، وكنت أحسبهما شيئاً غير مستطاع ! . .

ولقد أصبحت فى يقظتى الجديدة لا أعرض لأمر إلا ساءلت نفسى : لماذا ؟ ! لم أعد أرانى فى هذا المحيط أداة جامدة تتحرك فى موضعها تحركا آليًّا ، فليس يجمل بى أن أبقى كذلك مادمت إنسانا ذا عقل وإرادة وبصر . .

وحدث بعد هذا أن جاءتنى امرأة لم تنجب أطفالا ، وقد بلغت الأربعين من عمرها ، فاستقر فى عقيدتها أنها عاقر واستنامت إلى الراحة فى اليأس ، ولكن حيضها تخلف أخيراً عن موعده ، وانتابتها لذلك آلام ، فأقبلت على « دار

الحياة » لعلها تجد فيها خلاصا من هـذا العارض الذى تخشى أن يكون روحا شريراً تسلل إليها ؛ لينفث السم فى جسمها . .

وعلى أساس ما تعلمناه موصوفا فى مثل هـذه الحالة ؛ ألقيت ببعض حبات القمح فى قطعة صغيرة من الأرض ، وشطرت القطعة شطرين ، وسقيت أحدها بماء النيل ، ودفعت إلى الآخر مقداراً من « بول » المرأة ، وطلبت منها أن تعود بعد يومين ، ففيهما ، وبفعل حرارة الشمس فى الأرض ، يظهر نبات القمح ، ويمكن عند ذاك إبداء الرأى .

وفى الموعد عادت المرأة ، ونظرنا إلى الأرض فإذا بالجزء الذى سقاه ماء النيل يبدو نباته ضئيلاً متهافتا ، أماالآخر فبدا نباته مزدهراً مخضوضراً قوى الاندفاع ، وهنا قلت للمرأة اليائسة القلقة : أبشرى ياسيدتى ، فقد منحك « آمون » المقدس بركته ونداه ، وستلدين طفلا كمن أنعم عليهن « آمون » من النساء . .

وتندَّت عينا المرأة بقطر من دموع الفرح فما كان يخطر ببالها أن تنال مثل هذه الحظوة من الإلـه المقدس فيحور يأسها الطويل أملا ، وتتبدل حياتها من صحراء ممحلة إلى واحة مزهرة ، هكذا فجأة . وكانت هذه بشرى حبيبة إلى نفسها رأت أن تجزينى عليها فى الحال ، فانتزعت السوار الذى كان يزين أحد معصميها وقدمته لى فى بسمة عريضة شاكرة ، وقالت وهى فى نشوة : لعلك مخبرى — أيها الصادق العليم — أيكون مابين أحشائى ولدا ؟ !.. وكانت فيما بدا من لهفة سؤالها ترجو أن يكون الجواب بشرى ثانية بأنها ستلد ذكراً ؛ فلم أشأ أن أقطع عليها سبيل الرجاء . فأجبتها غير متلبث : نعم سيكون ذلك .

وكنت حينما ارتجلت هذا الجواب أحس كأنى أتجاوب مع سر مولودها المغيب ، ففى تلك الأيام كان حظى يسعى بين يدى متفتحاً ، وكثيرا ما كنت أتنبأ بأمور غير منظورة ، فتقع كما تنبأت بها ، وهو شىء أدين به إلى الحظ وحده . ووثوقا منى بمحالفة هذا الحظ ، تنبأت لها بمولودها الذكر ، وأنا مطمئن إلى الحظ لا إلى العلم اليقينى . أما السيدة نفسها فقد لاحت سعيدة أكبر السعادة بهذه

البشرى الثانية ، ولفورها انتزعت سوارها الآخر من معصمها الثانى وقدمته لى متهللة ، لتضاعف به هديتها . وكان كل من السوارين يزن ست أوقيات ونصف أوقية من الفضة .

وعدت إلى نفسى ، بعد انصراف السيدة أسائلها : كيف أن حبة القمح تؤتى علما لم يؤته الطبيب ، فتنبىء بالحمل بينما لا يجد الطبيب بعينه وعلمه أمارة من أماراته ولا ظاهرة من ظواهره ؟ !

واستخفى السر على عقلى ، فسألت أستاذى ، مجترئا ، السؤال نفسه ، ولكنه رمقنى بالنظر الشزر ، وقال فى لهجة من يتهمنى بالغباء : هكذا قالت الكتب .

وطبعا لم يقنعنى جوابه . وفى « دار الأمومة » حركنى الشك ، فكررت سؤالى على الطبيب الملكى المولد ، فلعله أن يكون بطبيعة عمله وتجاربه أكثر علما ، ولكنه لم يزد سوى قوله : إن « آمون » إله الآلهة يعلم ما تحمل كل أنثى . . . وهو بعلمه هذا يمنح حب القمح قوة النماء فى معرض الإشارة إلى ما تجرى مشيئته فى خفاء عن علم الناس ، فما بالك لا تدرك هذا ؟ !

لكنى كذلك لم أقتنع . . ومن هذا وأمثال هذا ، أصبحت أعتقد أن أطباء « دار الحياة » لا يجاوزون فى عملهم حدود ما قرأوه نصوصا جامدة ، وما تلقوه ميراثاً من مصطلحات العرف والتقاليد ، بل إن العرف والتقاليد كانت أشد تحكما فى تصرفاتهم من نصوص الدراسة . فلو أننى سألت : لماذا يعالجون الجروح التى تنزف قيحاً وصديداً بالكى ولا يعالجونها بالتنظيف والتضميد ، فإن الإجابة لا تعدو قولهم : على هذا وجدنا آباءنا ! .

إن العمليات الجراحية وعمليات البتر المائة والاثنتين والثمانين المبسوطة فى كتب الطب ، كانت فى أيدى الأطباء مجرد أدوات يختلفون فيها اختلافاً آليا ، كلٌّ منهم بقدر ما أصاب من التجربة والمران ، والدقة والإهمال ، والسرعة والبطء ، وعلى ذلك لم يكونوا يزيدون عليها شيئا بالاجتهاد وطلاقة التفكير .

وأحيانا كان الطبيب إذا رأى مريضا مصفر الوجه ناحل الجسم لا يتحرى

العمق فى الـكشف عن العلة الـكمينة المسببة لذلك ، فيصف لعلاجه تناول الـكبد النيئة من حيوانات القرابين ؛ وهو علاج تمليه التقاليد ؛ ولا يمليه العلم المنظم القائم على الدراسة ؛ ولـكن المريض مع ذلك قد يشفى تماما بتناوله هـذه الـكبد التى يشتريها بالثمن الغالى ؛ ولا يجوز أن يسأل إنسان مثلى : لماذا يكون هذا هو العلاج الشافى ؟ ! .

وشبيه بهذا ما كان يعرض للأطباء من بعض أمراض المعدة الظاهرة ، إنهم كانوا من غير تدقيق وبدون مبالاة يعالجونها بالمسهلات أو المسكنات ، فمن المرضى من يبرأ ومنهم من ينتفخ بطنه ثم يموت ، ولا يعرف أحد لماذا برئ هذا ولماذا مات ذاك ، فما يفكر أحد فى نشدان المعرفة أو الجد فى طلبها . .

وضقت بهذه الحالة ذرعا ، فالشكوك فى نفسى تنمو وتلح ، والذين حولى قد سئموا منى تكرار الأسئلة والاستفسار ، وهم غير فاقهين دواعيها السليمة عندى ، وليس عندهم من الرشد وسعة الإحاطة العلمية ما يهيئهم لمسايرتى فى التعرف على الحقائق واستكناه العلل والأسباب ، وربط النتائج بالمقدمات ، فأثاروها شكوكا على عقيدتى ، وأنـكروا ذلك منى ، فتخلفت وسبقنى المتأخرون ، وعلا مكانهم على مكانى ، فلم أستطع المقام بينهم ، ومن ثم خلعت ردائى الأبيض ، وخرجت من « دار الحياة » حاملا معى السوارين الفضيين اللذين يزنان ثلاث عشرة أوقية .

— ٥ —

استرعى نظرى بعد خروجى من المعبد الذى أمضيت فيه بضع سنين ، أن مدينة « طيبة » قد تبدلت خلال هذه السنين تبدلا واضح المعالم ، وبخاصة على امتداد شارع « رامس » وفى الأسواق . . فهنا وهناك حركة جياشة ، والناس فى ملابسهم وأزيائهم قد بدوا أكثر أناقة ، ورقت الفوارق المميزة بين الرجال والنساء ، فهم جميعا يستعملون الشعر المستعار الذى صار يجلل رؤوسهم ، وكذلك النصف الأسفل من لباسهم متعدد الثنيات . وفى الحانات ودور المباذل كانت

تترامى على الأسماع نغمات الموسيقى السورية مجلجلة ، وفى الطرقات كان السوريون والزنوج والمصريون يغدون ويروحون جنبا إلى جنب وقد اختلطت فى أحاديثهم اللهجات المتباينة . .

رأيت هذا فلم أستغربه ، فقد بلغ القطر المصرى أقصى درجات القوة والثروة ، لأن قروناً مضت لم تطأ فيها أرضَه قدم عدو ، ومنذ بعيد سكنت الحروب ، التى كانت تفنى فيها أرواح وتضيع أموال ، وأكثر متوسطى الأعمار من المواطنين لم يدركوا حربا ، ولكننى مع ذلك كنت ألمح على وجوههم بعض سمات القلق كأنهم يرتقبون فى شىء من الوجل حدثا من الأحداث ، فهل تراهم حقا غير سعداء ؟!

وبقلب مفعم بالهموم بلغتُ دارنا ، فإذا أبى « سنموت » قد لاح عليه الكبر ، فظهره إلى انحناء ، وضوء بصره فى خفوت وذبول . وكذلك كان حال أمى « كيفا » فهى تلهث إذا تحركت قليلا ، وحديثها لا يكاد ينقطع عن المقبرة التى ستثوى بها . وكان أبى قد أراح بالها من هذه الناحية ، فقد اشترى ، بما استطاع أن يدخره ، مقبرة فى « مدينة الموتى » بالجانب الغربى للنهر ، وشهدت أنا بعد ذلك هذه المقبرة فألفيتها ذات رونق وجمال ، قد بنيت بالأحجار ، وعلى حوائطها نقوش وصور مما جرت به العادة ، وحولها من مثلها مئات وألوف باعها الكهنة للشرفاء والأثرياء بأثمان عالية ، طمعا فى الخلود . وبدافع من حبى لأبى وأمى أعددت كتابا عن الموت يتهديان به فى المقبرة خلال رحلتهما الطويلة ، وكان كتابا رائعاً تأنقت فى كتابته بخطى وإن لم يكن مزركشا أو ملون الصور ، كتلك الكتب التى تباع بمكتبة معبد « آمون » .

وعندما كانت أمى تقدم لى الطعام ، كان أبى يسألنى عن دراساتى ، وفيما عدا ذلك لم نجد حديثا نديره بيننا . كانت الدار كما كانت الشوارع ، وكما كان الناس الذين يضطربون فيها ، كان كل أولئك فى نظرى صوراً غريبة ، كأن لم تصلنى بها صلة من قبل . . .

إن أيامى الأخيرة فى « دار الحياة » قد أنشأت عندى شعوراً ساخطا ضجرا

ولهذا لم ألق ما كنت أرجوه ، بعيداً عنه ، من تسرية وتحرر وانتعاش روح :

وفى هذا الضيق المتصل ، ومَضت بخاطرى ذكرى صديق « تحوتمس » الذى التحق بمعهد « بتاح » ليكون فنانا ، فتعلقت بهذه الذكرى ، ووجدت فيها متنفسا من همومى الجائمة ، ثم صح عزمى آخر الأمر على ملاقاة صديق « تحوتمس » لأجدد معه عهد الطفولة وآنس بصحبته ، فلعلّى أنسى ما قاسيت من رفاق « دار الحياة » وأساتذتها وأطبائها ومسائلها المعقدة التى أعيانى السؤال عنها دون أن أجد جوابا ..

ومن ثم ودعت أبوىّ زاعما لهما أنى عائد إلى « دار الحياة » ، ومضيت متجها إلى معبد « بتاح » ، حاملا السوارين اللذين مازلت محتفظا بهما ، فبلغته قبل مغيب الشمس ، وأرشدنى الحارس إلى مقر مدرسة الفنون . وهناك وجدت الطلبة حول أستاذهم ، ولم أجد من بينهم صاحبى « تحوتمس » ، فسألتهم عنه ، فتجهموا وبصقوا على الأرض كأنما ذكرت لهم اسم نجس ، وقالوا إنه قد فصل من وقت طويل ..

وأزعجتنى المفاجأة . ولكن الطلبة حين خلا المكان من أستاذهم ، أسرّوا إلىّ أنى واجد صاحبى فى حانة « الجرة السورية » .

فرحت أستهدى الناس إليها حتى بلغتها فى مكان وسط بين الأحياء الفقيرة والأحياء الغنية ، وقد علت واجهتها لافتة تعلن عن خصائص النبيذ المستخرج من كرمة « آمون » ونبيذ المرفأ . وامتد بصرى إلى داخلها مستطلعا ، فرأيت فيها أشخاصاً أدركت لأول وهلة أنهم من الفنانين ، فقد كانوا ، وهم جلوس على الأرض ، مكبين على لوحات يرسمون فيها . وقريباً منهم رأيت إنساناً يرنو فى أسى إلى إناء بجانبه كان فارغا من النبيذ ، فما أن تلاقت نظراتنا حتى انبعث هاتفا باسمى ، وأقبل نحوى رافعا يديه فى دهشة ، وقد اكتشفت فيه ، بعد جهد ، صديقى « تحوتمس » ، وأنكرت حاله ، فقد صار هو الآخر شخصاً غير الذى كنت أعرفه . إنه الآن إنسان حائل متهالك ، تشيع فى وجهه تجعدات الشيخوخة ، ولم

تكن ملابسه بأقل من ذلك تشوها ، فهى رثة مهلهلة قذرة . على أن هذا الإنسان الذى تراءى هكذا ناحلا متلاشيا ، كان لا يزال فيه من « تحوتمس » نظراته النفاذة وروحه المرح . فما أن تلاقينا حتى طوقنى بذراعيه يضمنى إلى صدره ضم الحبيب المشوق ، ويقبلنى قبلات حارة متدافعة .

وسرنى منه أنه ما برح وفيا لعهد الصداقة وذكريات الصبا ، ولم أحفل إذ ذاك بما يغمره من مظاهر الحياة الواهنة ، فإنما كنت أبحث عن قلبه وروحه وشعوره ، وقد وجدته من ذلك فى عافية ، فما يعنينى منه شىء غير هذا .

وبادرته قائلا : هيا يا صديق « تحوتمس » نشرب نبيذاً ، ونسبح به فى أجواء الخيال ، فقد أمضتنى حقائق الناس ، وأشقانى العقل معهم ، إنهم يتسابقون سراعا إلى غير هدف معلوم ، فإذا أثارنى العقل لا سأل أحدهم فيم هـذا الأمر أو ذاك ، لوى وجهه عنى ساخراً ، ومضى فى سبيله متسابقاً مع الآخرين ، وانتهى أمرى إلى حيث وجدت نفسى وحيداً متخلفاً ، ولم أكن على باطل ولم يكونوا على حق ، فسئمتهم كما سئمونى ، وبادلتهم جفوة بمثلها ، وتركتهم لشأنهم ، وخرجت لشأنى باحثاً عنك يا صديق . . فإلى النبيذ إذن ، فليس فى سواه لنا عزاء .

ولكن صديق « تحوتمس » أومأ إلى إناء النبيذ الفارغ ، وألقى يده فى جيبه ليخرجها كذلك فارغة . ونظر إلىّ نظرة باهتة تعبر عن أسفه . فليس عنده نقود لما أدعوه إليه ، فعاجلته بقولى مبتسما : لا عليك من ذلك . . ثم أخرجت السوارين الفضيين من طيات ملابسى ولوحت بهما قائلا : أحسب فى هذين الكفاية ؟ !

ولم يجب « تحوتمس » ، إلا أنه أشار إلى رأسى المقصوص الشعر ، وفهمت المراد من إشارته ، فالناس يعدون صاحب الرأس المقصوص كاهنا ، وكنت من قبل أطمع فى أن أظهر بينهم بمثل هذه المرتبة العالية . ولكنى الآن كرهت ذلك وضقت به ، فهو مانعى من حق الجلوس فى حانة ، ومن شراب النبيذ على مشهد منهم ، وغمرنى شعور الأسف لأنى جردت رأسى من الشعر ولم أدعه ناميا مرسلا كما كان . على أن نفسى الثائرة على التقاليد المنافقة ، لم تأبه لذلك ، وقلت لصاحبى : لست

كاهنا ، ولـكننى طبيب ، ويجوز لى أن أشرب النبيذ فى الحانات ، وقد قرأت على لافتة الحانة إعلانا عن نبيذ المرفأ ، فادع لنا به إن كان جيداً . .

فهتف « تحوتمس » بالساقى . وطلب منه نبيذاً « مخلوطاً » وقال إنه يستطيبه لقوة تأثيره ، وجاء أحد الأرقاء فصب الماء على أيدينا ، ثم حمل إلينا طبقا به بعض التوابل المشهية ، بينما أقبل صاحب الحانة نفسه حاملا قدحين مترعين بالنبيـذ ، فوضعهما على المائدة ، فرفع « تحوتمس » قدحه وأفرغ منه قطرة على الأرض ، داعيا بحق (إلـه الخزف المقدس) أن يحل الطاعون ويهلك أساتذة مدرسة الفنون ، وراح يردد أسماءهم بترتيب كراهيته لهم ، فأغرانى هذا بمجاراته ، فما كانت نفسى أقل منه غيظا وسخطا على من تركتهم هناك داخل أسـوار المعبد فأملت قدحى مثله وصببت منه قطرة على الأرض قائلا : فلتثقب سفينة «آمون» ، ولتغرق إلى الأبد ولتنزل اللعنة على الـكهنة ، ولتبقر بطونهم ، وليفتك الوباء بأساتذة «دار الحياة».

قلت هذا فى صوت خفيض متلفتا ، حتى لا تتلقفه أذن شخص لا نعرفه . غير أن « تحوتمس » قال لى : لا تخف ، فآذان « آمون » بهذه الحانة قد أصابها الصمم لطول ما سمعته مكرراً ومعاداً من هذه اللعنات .

وأخذنا بأطراف الحديث بعد ذلك ، فقال وهو يقص علىّ بعض شـأنه : أترانى كنت أجد خبزا وجعة لو لم أكن وفقت إلى فـكرة وضع كتب مصورة لأطفال الأغنياء ! ؟

واستطرد : وهاك شيئاً مما يعجب به هؤلاء الأطفال ولا يرضى عنه الـكثيرون من الرجال ، ثم راح بضع تحت بصرى مجموعة كان يدير فيها ريشته قبيل مقدمى ، فاوسعنى إلا أن أضحك حين رأيت رسم قلعة تقوم هرة على حمايتها ، والهرة ترتجف فرقا أمام فأر يحاول الإغارة عليها ، وكذلك أضحـكنى رسم فرس البحر يشدو بالغناء على قمة شجرة بينما كانت حمامة تصعد إليه ، متثاقلة على درجات سلم مسند إلى جذع الشجرة .

وإنما ضحكت لأن صاحبى فى تصويره هذا يبرز الطبيعة المألوفة مقلوبة الأوضاع ،

فالهرة لا يمكن أن تحمى قلعة ، وهى تخيف الفأر ولا تخاف منه ، وفرس البحر لا يعلو قمم الأشجار ، وإنما تعلوها الحمامة التى صورها صاعدة متثاقلة ، وهى الخفيفة ذات الجناحين ، على درجات سلم .

وفى ابتسامة ساخرة ، طوى «تحوتمس» أوراق البردى التى تحمل هذه الصور لينشر أمامى لوحة أخرى رسم عليها كاهناً قصير القامة أصلع الرأس ، يقود فرعوناً ضخماً كأنه بهيمة القربان ، وهما يسيران معاً على حبل دقيق ، وثم لوحة غيرها صوّر عليها فرعوناً ضئيل الجسم وهو ينحنى أمام تمثال ضخم لآمون . .

وهنا لم أضحك ، فقد كان فى تصويره الأخير يهجم فى غير تقية أو حذر على مقدسات وعقائد لا يأمن المتطاول عليها خطر العقاب الصارم ، وأدرك هو ما يجيش بخاطرى فقال : وما فى هذا أيضاً من غرابة يا صديق ؟ ! أليس هو الواقع الذى نحسه ملموساً ونراه شائماً ! لماذا يدهشنا أن نرى فأراً يهاجم قطة ، ولا يدهشنا أن نرى فرعون يقوده كاهن ؟ ! مع أن الأمر الأخير أشد مطابقة لواقع الحال . .

وكأنه ذكر فجأة ما وراء هذه الصراحة الجريئة من خطر ، فبدا عليه شىء من الانزعاج وقال : غير بعيد على أى حال ، أن يلقانى الكهنة فى الطريق العام فيضربونى بهراواتهم حتى أموت ، ولا يجدينى عندئذ أن جوفى قد ملىء خبزاً وجعة . . .

فقلت مسرّياً عنه : دع هذه المخاوف ، ولا تكدر علينا صفو اللقاء ونشوة الشراب - ومضينا فى شرابنا ومفاكهاتنا . . .

ولكن قلبى كان لم يزل بعد غير مبتهج ، فإن تفكيرى فى « دار الحياة » - وفى العوامل التى طوعت لى الخروج منها ، كان يلاحقنى ولا يفلتنى . فقلت لصديقى « تحوتمس » : هل من الخطأ أن يسأل الإنسان : « لماذا ؟ ! » - فأجاب : نعم . فهذا خطأ ، ومن يجترىء عليه فجزاؤه الحرمان من الراحة والمأوى فى أرض « كيم » . هذه هى الحقيقة هنا يا صديق ، وعلى من يؤثر السلامة والعافية ، أن يرضى بما هو كائن ، ويسير مع القافلة وإلا تحطم تحت سنابك خيلها المسرعة . ولعلى

مثلك قد قارفت الخطأ نفسه ، فعندما التحقت بمدرسة الفنون كنت أكاد أطير فرحاً واغتباطا ، كنت كالظامىء وجد عيناً جارية ، أو كالجائع وقع على خبز دسم. وقد تعلمت أشياء كثيرة ، ودقيقة ، منها كيف أحسن استعمال القلم والريشة ، وأجيد استعمال الأزميل وصوغ نماذج الشمع لما ينحت في الصخر ، ونحت الحجر وصقله ، والنقش في المرمر والرخام . تعلمت هذا كله لقانة ودرساً ومرانا . فلما انتقلت من طور النظريات والتجارب ، إلى طور التطبيق العملي ، لم أجد أمامي إلا ألواحاً من الطين ، ولم يؤذن لي بالعمل في غيرها ، خضوعاً لحكم التقاليد . وللفنون كما للكتابة تقاليدها ، وهي المسيطرة المتحكمة . ومن يجاوز نطاقها أو يشذ على أحكامها فإنه الآبق المرتد الملعون ، ومن ثم يصبح غير صالح للبقاء في المعبد ، ويحال بينه وبين الأحجار والأزاميل والمراسم . وقد حيرني هذا ولم أفهمه ، فسألت مثل سؤالك : « لماذا ؟ ! » . وأظنك الآن قد فهمت السبب الذي أُلقي بي من أجله إلى هذه الحالة . فلقد طردت ، كما لا أحتاج أن أقول ، من المعبد ، بعد أن جعلوا وجهي ، بضرباتهم ، شائهاً كما ترى .

استمعت إلى حديث « تحوتمس » وتمثلت مأساته فاستراح قلبي ، فلم أعد وحيداً في الحياة ولا في الشقاء ، واستطرد هو قائلا : لقد ولدنا يا « سنوحي » في أوقات عجيبة ، وتلاقينا في أوقات عجيبة مثلها . والأقدار التي صنعت هذا لكلينا تريد أن توثق العلاقة بيننا ، وإرادتها هي الغالبة فلنمض على وجهها ، وليكن ما يكون بعد ذلك ، وما أرى الأمور إلا في سبيلها إلى التحرر والتحلل ، فالأزياء والكلمات والموروث من العادات ، وغير ذلك من طبائع الحياة وتقاليدها ، كل هذا قد شمله التغيير ، وتفاعلت فيه نزعات الفكر المستيقظ ، وما هي إلا نزعات الخلاص من أسر طال أمده ، واحتلك ليله : والناس قد وهنت عقائدهم في الآلهة ولكنهم يخافون الجهر بذلك ، وهم لا يخشونها وإنما يخشون على أنفسهم ومصالحهم من أصحاب السلطان الحاكمين باسمها . على أني ألمح — غير بعيد — مشرق يوم جديد ، ومن يدري يا صديقي ، فلعل أن تكون الأقدار قد هيأت لنا أن نشهد

مغيب عالمنا الذى نعيش فيه . والحق إنه لعالمَ شائخ يفتقد عناصر الحياة ، وهذه هى إثنا عشر قرناً قد مضت منذ شيدت الأهرام ، ومعاقل الآلهة ، وحصون الـكهنة ، ألست معى فى أنه عمر طويل ، ممعن فى الطول ؟ ! . .

وأردف « تحوتمس » إلى ذلك : ألا وإنى كلما تصورت حياتنا هذه التى تختلج اختلاج الاحتضار ، وتهتز اهتزاز الفناء ، هاجت نفسى حسرة ، وصرخت باكياً صراخ الأطفال ...

قالها « تحوتمس » ، ولـكنه لم يبك .. فقد كنا نشرب النبيذ المخلوط فى أقداحه الملونة ذات الصفاء الخالب ، وكان صاحب الحانة لا يكف عن الإلمام بنا ليملأها من جديد ، ومن لحظة إلى أخرى يجيء خادم الحانة ليصب الماء على أيدينا ، والجو يزداد فى شعورنا انتعاشاً ، فأحسست أن قلبي الذى كان مثقلا بهمومه ، قد أخذ يتحرك منتشياً ، ويخف حتى لـكأنه فى خفة العصفور فى مطلع الشتاء . وخيل إلىّ أنى أستطيع أن أنظم قصيداً وألقيه على الجماهير ، فأستولى به على مشاعرهم ، فإذا هم جميعا طوع إشارتى ... وكان « تحوتمس » يسبح معى ، بلا شك ، فى هذا البحر من الخيال والشاعرية ، فقد كان موفور البهجة ، ظاهر المرح ، متلاحق الضحكات ...

وقال « تحوتمس » : حسبنا من الحانة ذلك الوقت الذى قضيناه على هذه المائدة ، فهيا بنا إلى مكان آخر ، وليـكن بيتا من بيوت اللهو ، نستمع فيه إلى الموسيقى ، ونستمتع برقص فتياته ، ونقضى هناك لحظات أوفر سعادة ، وأكثر مرحا ، ولنـكف يا صديقى عن أن نسأل : « لماذا ؟ ! »

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب حين أخذنا سبيلنا إلى حى الملاهى . وهناك رأيت ليل « طيبة » قد استحال نهاراً ، ففى هذا الحى اللأج كانت المشاعل تسطع أمام بيوت اللذات ، والمصابيح المعلقة على الأعمدة فى زوايا الشوارع ترسل ضوءها فياضا ، والأرقاء فى غدو ورواح يتصايحون وعلى أكتافهم ورءوسهم مقاعد سادتهم ، وقد اختلطت بصيحاتهم موسيقى الملاهى وصخب الثملين والسكارى

ولم أكن حتى هـذه اللحظة قد غشيت بيتا من بيوت اللهو ، ولـكنى استسلمت إلى صديق «تحوتمس» وهو يقودنى إلى بيت منها يسمى بيت «القطة والأعناب» . وكان بيتا جميلا تزينه المصابيح المذهبة ، والوسائد الوثيرة ، وفيه القينات الجميلات يغنين على نفخ المزامير ، وضرب الأوتار ، وتوقيع المزاهر . فجلسنا إلى رواد الملهى وأدلينا بدلونا فى دلائهم ، وأرسلنا أنفسنا معهم . ولما فرغ القيان الجميلات من الغناء والعزف طفن حولنا ، ثم اتخذن مكانهن إلى جانبنا ، وفى تيه ودل ، وتمايل وإغراء ، يسألننا نبيذا يترطبن به ، فقد جفت ، كما يزعمن ، حلوقهن . وبعد قليل نهضت فتاتان شبه عاريتين وانسابتا بيننا انسياب الأفاعى ، فرقصتا على ضروب من الخفة والمهارة ودقة التثنى ، رقصا استهوى منا الأفئدة ، واستثار إعجابى بوجه خاص ، فلم أر من قبل ، على كثرة ما رأيت وأنا طبيب ، من أجسام النساء العارية ، مثلما رأيت الآن فى هاتين الراقصتين ، من امتشاق قد ، واتساق صدر ، إلى فتنة مشتهاة فى افترار الثغر ، وازدهار الوجه . على أنى لم أكد أسرح بخيالى فى هـذا الجو الذى ينفث المتعة والجمال حتى هبت عاصفة الموسيقى ، فارتدت خواطرى من حيث لا أدرى إلى شىء من الشجن والأسى ، كأنما كانت الموسيقى تنفض على أذنى لحنا جنائزيا . وفيما كنت كذلك اقتربت منى فتاة بادية الجمال والفتنة ، وراحت تصانع عواطفى ، ثم قالت لى وهى تطيل النظر فى عينى الجامدتين : إن فى عينيك بريق أعين الحكماء .

فنظرت إليها دون أن أجيب ، ذلك لأنى لم أتبين فى عينيها خضرة ماء النيل فى حرارة الصيف ، كما لو لم أر على أجزاء جسمها غير العارية لباسا من الكتان الملكى ، فلم أحفل بها . وعلى رغم إمعانها فى إغرائى لم أجد بى ميلا إلى مطاوعتها فى مجاذبة الحديث ، أو إلى مناداتها بكلمة : « يا أختى » ، كما يفعل الآخرون . وانصرفت عنها إلى النبيذ ، أتجرع كئوسه دراكا ، وظللت هكذا حتى غبت عن وعيى ، فما أدرى بعد ذلك إلا أننى أفقت فوجدت نفسى طريحاً فى الطريق ، وفى رأسى شجة عرفت بعد أنها نتيجة سقوطى على درج السلم مدفوعا من زنجى كان

بركلني ، فكان أول ما ذكرته وأنا فى تلك الحال ، أن أبى « سنموت » قال لى يوما إن هذا بعض ما ينتهى إليه المسرفون فى شراب الخمر ، وغاظنى أكثر من أى شىء آخر أنى وضعت يدى فى جيبى فلم أجد به شيئا متبقيا من المال . وبهذا بلغت المأساة أقسى حدتها ..

وعندما أهلّ الصباح كان رأيى قد استقر على عودتى إلى « دار الحياة » ، فما فى غيرها خير ، وليس عنها بعد مالقيت محيص . فأخذت وجهى إليها مقررا فى نفسى ألا أجرى على لسانى كلمة « لماذا ؟ ! » . إنها كلمة ، على رؤوس حروفها المتاعب . فمن الحماقة وخطل الرأى أن أظل متعلقا بها ، وأن أكون وحدى ناشزا بها على رأى الجماعة وأوضاعهم .

وكانت عيناى قد انتفختا ، وملابسى قد رانت عليها إثارة من قذارة ؛ فأسرعت فور وصولى إلى ملابسى البيضاء ، فارتديتها بعد أن أصلحت نفسى بقدر ما تهيأ لى من ذلك ، ولكن أستاذى لم يخف عليه أمرى ، فراح يقرعنى بكلمات لاذعة لا أنساها ، مستعملا فيها السؤال الذى طالما أضجرتهم به ؛ كقوله « لماذا » كنت تدور طول ليلك حول الملاهى ؟ ! « ولماذا » كان إسرافك فى شراب النبيذ ؟ ! « ولماذا » كان ارتيادك بيوت الملذات وتحطيمك أوانى الشراب على نحو لا يلائم المواطن الشريف ؟ !

وأردف أستاذى هذه الأسئلة بابتسامة عريضة تحمل معنى الرضى والتسامح واصطحبنى معه إلى حجرته ؛ وجرعنى دواءاً مليناً لتنظيف معدتى .

ومن هنا بدأت تسرى فى مشاعرى روح الانتعاش ؛ فقد أدركت أن « دار الحياة » تنضى عن مآثم الخمر وبيوت الملذات ؛ على أن يكف مرتكبها عن سؤاله « لماذا ؟ ! » .

— ٦ —

وأغرانى ما لقيت فى « دار الحياة » من التسامح واغتفار الزلات ؛ بلهو

« طيبة » ولياليها المرحة ؛ فشغلت بها حتى أصبحت مشاعلها المتألقة أحب إلى نفسى من ضوء الشمس . فما يقبل المساء إلا تعجلت الغدو عليها كأنها عندى بداية نهار . والواقع أن أذنىّ كانتا تحنان دائما إلى تهاليل الموسيقى السورية وإلى ذلك الجرْس الرقيق من نغمات القيان الحسان ولطائف غزلهن ؛ وكانتا من قبل لا تسمعان إلا أنين المرضى وشكاتهم . وقد دفعنى الحرص على أن أظل فى أمن من اعتراض أساتذتى ووقوفهم فى طريقى ، إلى أن أكون أشد محافظة على واجباتى ؛ وأمضى همة فى القيام بعملى ؛ وأكثر إقبالا على مرضاة الممتحنين بوجه خاص . وإلى حد بعيد تحقق لى ما أردت من ذلك ، وصار هؤلاء الذين كنت أخشاهم ؛ يرغّبوننى ؛ وإن لم يكن ترغيبا صريحا ؛ فى مطاوعة شهوات النفس ؛ والاستجابة إلى نداء الشباب ؛ فذلك يحيى القلب ويبهجه . وقد يجد الطالب فى هذا قوة دافعة ؛ أو إثارة نافعة ؛ أو ذلك هو المعنى الذى فهمته من إشارات الأساتذة .

وأرسلت نفسى على هواها فى غشيان ملاهى « طيبة » كلما أقبل الليل ؛ ومع ذلك لم أتجاوز العلاقة الخفيفة مع النساء ؛ حتى بعد أن تبينت أن أجسامهن لا تحرق أشد مما تحرق النار ! ! .

وفى هذه الأيام كان القلق شائعا فى الناس ، « ففرعون» العظيم كان مريضا ؛ وقد رأيته بوجهه العجوز المتجعد محمولا إلى المعبد فى عيد الخريف ؛ وكان ، فى أبراده المزينة بالذهب والأحجار الكريمة ، يبدو كأنه تمثال لا حركة فيه ؛ حانى الرأس تحت التاج المزدوج لفرط وهنه وضعفه ؛ وقد غلب اليأس فى علاجه ؛ فما عاد يجدى فى شفائه طب الأطباء ؛ ومن هنا تردد بين الناس أن أيامه باتت معدودة ؛ وأن رأس ولى عهده يقترب وشيكا من التاج ؛ وكان شابا فى سن المراهقة مثلى . .

وفرعون « أمنحوتب الثالث » كان يطمع من أبيه « آمون » فى أن يشفيه ؛ ويرد العافية إليه ؛ ويرى من حقه أن ينال ذلك منه ؛ فهو قد أقام له أعظم معبد لم تشهد مصر مثله فى سائر عهود تاريخها . ولكن هذا الرجاء أخذ يضمحل مع

اضمحلال بدنه ؛ ويتزايل مع تزايل قوته . وقد بلغ من يأسه وضعف رجائه فى المدد المنتظر من آلهة مصر ؛ أن ولى وجهه شطر صهره ملك « ميتانى » فى مدينة « نهاران » ليرسل إليه الإلهة « عشتروت » صاحبة الشهرة المدوية فى صنع المعجزات ، لتبرئه من علته ؛ وتخلصه من براثن الموت . ولكن أمله فى هذه المحاولة قد خاب ؛ كما خاب رجاؤه فى آلهته . وكان من حسن حظ الكهنة أن عجز الآلهة الأجانب عن شفائه !!..

ولم يبق من سبيل فى محيطنا الطبى إلا أن يستعان فى علاجه بالمحاولة الأخيرة ، وهى إجراء عملية فتح الجمجمة ، ولذلك استدعى إلى القصر جراح الرأس الملكى « بتاحور » . وكنت لم أره خلال عهدى الطويل فى « دار الحياة » ، إذ كانت عمليات جراحة الرأس عندنا نادرة ، فضلا عن أنه لم يكن مسموحا لى فى عهد الطلب بأن أحضر مع الإخصائيين فى علاجاتهم وعملياتهم . فها هو ذا الآن قد أقبل علينا فى « دار الحياة » ، وكان — على ما رأيته لأول مرة فى دارنا — أصلع نفاذ البصر ، فياض الحيوية ، وإن كان وجهه قد تجهم بالشيخوخة وبما أشاعته فيه من تجعدات . ولقد عرفنى فى الحال وقال مبتسما : إنه أنت يا « سنوحى » !.. هل تقدمت يا ابن « سنموت » ؟ ! ثم ناولنى صندقا خشبياً أسود اللون محتوياً على آلاته وأجهزة عمله ، ودعانى إلى مرافقته ، وكان ذلك شرفاً عظيما آثرنى به دون الآخرين ، وكنت به موضع الغبطة ، بل الحسد ، حتى من بعض الأطباء الملكيين.

وعرفت من « بتاحور » أنه يريد أن يتحقق ، قبل العملية التى سيقوم بها فى جمجمة فرعون ، من أن يده لم تزل تحتفظ بقوتها وثباتها ، ولهذا رغب فى تجربتها بفتح جمجمة أو اثنتين ، وكانت يده فعلا تختلج بعض الاختلاج ، ولعل هذا هو الذى أخافه منها . .

ودخلت معه غرفة المرضى المفلوجين والميؤوس من شفائهم ، فاستعرضهم وسبر حالاتهم ثم اختار رجلين منهم ، أحدهما عجوز استفحل مرضه حتى ليعد الموت راحة له ، وثانيهما رقيق من الأرقاء وثيق البناء قوى العضل ولكنه كان

فاقد النطق ، وأطرافه معطلة منذ جيء به مصاباً بضربة فى رأسه ، فأعطاهما مخدراً وأشار بحملهما إلى حجرة العمليات ، وعملا بإشارته قصصت شعر رأسيهما ، ونظفتهما غسلا بالماء ودلكا بالمرهم . ثم شرع « بتاحور » ،بعد تعقيم أسلحته، فى عمله مبتدئاً برأس المريض العجوز فسلخ فروته وأدار به ، بعد تعريته ، مثقاباً تداعت على إثره دائرة العظام فرفعها ، وأجال بصره فيما تحتها فاحصاً بينما كان الرجل المريض يئن أنيناً موجعاً ، وقد كسا وجهه اللون الأزرق ، وقال « بتاحور » بعد قليل من التأمل : لا أرى شيئاً هنا يمكن أن يكون سبباً فى مرضه . ثم أعاد دائرة العظام إلى موضعها من الرأس ولفهــا بالضمادات ليحبس الدماء التى كانت تتدفق منها غزيرة ، على أن الرجل المريض كان فى هذه اللحظة يسلم النفس الأخير من حياته . . .

وطلب « بتاحور » كأساً من النبيذ ليتماسك به ، فقد أحس بشىء من الإعياء وارتعاش اليد ، وكان يحيط به جمهرة من النظارة ، ومن بينهم أساتذة «دار الحياة» والطلبة الذين يمدون أنفسهم لجراحة الجمجمة . فلما استماد نشاطه بالنبيذ تحول إلى المريض الثانى مقيداً ، وكان ينظر إلينا نظرات مفزعة على الرغم من أنه كان تحت تأثير المخــدر . وقد أشار « بتاحور » بأن يزاد وثاقه وأن نضع رأسه بين فــكى منجلة مخافة أن يفلت .. وكما فعل بفروة رأس المريض الأول ، فعل بهذا المريض الثانى ، ولــكنه فى هذه المرة كان أكثر عناية بوقف نزف الدم ، فأدار على شرايين الفروة سفوداً محمى ليكويها ، ومسح عليها بالمرهم ، ثم أخذ يزيح قطعة من الجمجمة فى مكان الإصابة ، بقدر قبضة اليد ، مستعملا مثقاباً ومنشاراً وملقاطا . وعندئذ أومأ إلينا لننظر الدم متجمداً ، ومتجمعاً فى ثنية هذا الوضع من المخ . وفى كثير من العناية والدقة أزال هذا الدم المتجمد ذرة فى إثر أخرى ثم التقط كسرة من العظم كانت قد اندفعت فى مجرى المادة المخية . .

واستغرقت هذه العملية بعض الوقت ، فاستطاع الطلبة خلالها أن يعوا الــكثير من دقائق جهاز الرأس . وكان « بتاحور» نفسه يمنى بأن يفيدوا من هذا الدرس

العملى ، ولهذا أشرك معه فى العملية بعض أطباء « دار الحياة » ، ولو أننى فهمت وقتها أنه إنما استعان بهم عن قصد آخر ، هو إراحة يديه للعملية الكبرى المقبلة فى رأس فرعون .

وبعد أن فرغ « بتاحور » من استخراج كسرة العظم من مخ المريض ، وضع على فتحة الجمجمة صحيفة من الفضة كانت قد أعدت منذ قليل على مقاس الجزء المكشوف ، وثبتها فى مكانها بمشابك دقيقة خاصة ، وخاط الأطراف وأحاط الرأس بالضمادات ، ثم أمر بإيقاظ المريض الذى ظل فاقد الوعى وقتاً طويلا ، فحلوا وثاقه وصبوا فى حلقه نبيذاً ونشقوه بعض العقاقير المنبهة . وما أن فعلوا هذا حتى هب من مرقده ثائراً وهو يقذف من فمه الشتائم واللعنات . .

ولم يحوجنى « بتاحور » إلى أن أسأل لماذا تكلم هذا الذى كان منذ لحظات معقود اللسان ، أولماذا تحرك هذا الذى كان بيننا مشلول الأطراف معطل الحركة ؟! فقد أخذ من تلقاء نفسه يشرح لنا فى إبانة وتفصيل كيف أن شظية العظام التى تسربت إلى المخ وجمدت الدم من حوله هى العلة والسبب .

وقال « بتاحور » : إن هذا المريض سيزول عنه الخطر تماماً بعد ثلاثة أيام ، وبعد أسبوعين يستطيع أن يمصف بالرجل الذى ألقى الحجر على رأسه فكسره .

ثم وجه شكره إلى مساعديه فى العملية وذكرنى باسمى بينهم ، فزاد بذلك من غبطتى ، وشعرت بأنه يولينى اهتماماً أكثر منهم عندما دعانى إلى مساعدته فى عمليتين أخريين من عمليات الجراحة . وأخيراً قال لى : الآن يمكن الاطمئنان اليك فى ممارسة العملية الكبرى بجمجمة فرعون ، فهيئ نفسك لذلك .

فأسرعت مزهواً إلى رداء الطبيب المبتدئ فأفرغته على جسمى ، وأخذت مكانى إلى جانب « بتاحور » على محفته وبجوارى المساعد المختص بوقف نزف الدم ، وسارت بنا المحفة متهادية ، والخدم يتقدمونها ليوسعوا الطريق أمام حامليها ، إلى أن بلغنا المرفأ ، ومنه أبحرنا على سفينة فرعون التى كانت بانتظارنا وعلى ظهرها الرجال الأشداء الذين جعلوا يجدفون مسرعين بها إلى مرفأ فرعون ، ومن هناك

حملنا بنفس السرعة إلى قصره الذهبي ..

ولم أستغرب هذه الحركات السريعة فى قدومنا إلى القصر ، فإن المظاهر التى رأيناها ونحن نخترق شوارع « طيبة » كانت تنبيء بأن المدينة تتأهب لملاقاة حادث جلل . فالجنود متراصون على أهبة الاستعداد ، وأبواب المدينة مغلقة والتجار يتسابقون إلى إيداع بضائعهم فى مخازنهم ، وأبواب الدور قد أغلقت بالأرتاج والمزاليج ، كل هذا لأنهم عرفوا أن « فرعون » يصطرع مع الموت فى جولته الأخيرة . .

القلق فى « طيبة »

— ١ —

وفى مثل تدفع المياه من القمة العالية سرى بين الناس نبأ قدومنا إلى القصر الملكى ، وكانوا يتجمعون حواليه ويرصدون بعيون متلهفة ما يجرى بداخله ، وكذلك كانت صفحة الماء بين يدى مرفأ القصر تغشاها وتزحم أقطارها القوارب المصنوعة من الخشب والغاب ، قد توافت بأصحابها من الأغنياء والفقراء على السواء ليشتركوا فى تسمع آخر الأنباء . ولم يكن اقتراب السفن والقوارب من المرفأ قبل ذلك مباحاً لأحد ؛ لوقوعه بمنطقة القصر ذات القداسة . ولكن الأمر فى ذلك اليوم كان خاضعاً ؛ كغيره ؛ لسلطان العاطفة المضطربة ؛ ولا يفيده نظام قائم أو تقليد متبع . .

وكنا ونحن ماضون إلى القصر نرى فى وجوههم علامات مستفيضة من القلق والفزع ونستمع إليهم يلهجون بعبارات اليأس والقنوط . فقدوم جراح الجمجمة إيذان بخيبة الرجاء فى نجاة « فرعون » ذلك لأنهم يعلمون أنه ما من فرعون من فراعين مصر السابقين ؛ أجريت له جراحة فتح الجمجمة ؛ وهو فى مثل هذه الحالة

من إدمان العلة واستعصاء المرض ووهن القوة ، إلا لقى حتفه ؛ وتوارت عن هذا الوجود شمسه .

وبلغنا جناح الملك مجتازين إليه طريقاً تظلله أشجار السوسن ؛ وتلقانا الأمناء ورجال الحاشية فى احترام كبير ، وحفاوة بالغة . وتبادل « بتاحور » وطبيب الملك الخاص بعض عبارات ؛ تجهم لها وجه « بتاحور » فقد أدرك كما أدركنا أن الحالة من السوء بحيث لا يومض فى ناحيــة منها أمل ؛ ولـكنه راح يُعد تدابير العملية غير مكترث لنتيجتها ، وقد خصصت لها إحدى الحجرات ؛ ومن ثم أضيئت الأنوار المقدسة ؛ واتجهنا إلى مخدع الملك .

وكان فرعون مسجَّى على سريره الذهبى الذى يقوم على أعمدة من تماثيل الأسود ، منتفخ الجسم مجرداً من شارات الملك ، ورأسه مائل إلى جنبه ، فاقد الوعى والحركة إلا من زفرات خافتة . وهنا شهدنا فرعون المظيم الذى تحرسه الآلهة وتحميه ، قد زالت عنه مظاهر العظمة المميزة ، وأصبح على أبواب النهاية ، كأى مريض آخر من الفقراء الراقدين هناك فى « دار الحياة » . إنه الآن تحت أعيننا لا يستطيع أن يجد مسعفاً من ملـكه العريض ، وسلطانه القوى ، يتقى به القضاء النازل ! فليس ثمة فرق بينه وبين أعجز فرد من عامة رعاياه ومقدسيه ! . وماذا يجديه اليوم أن غرفته تتزين بلوحات تمثل قوته وشجاعته ومن بينها لوحة تمثله على عربة تجرها خيول مطهمة وتركض به ركضاً سريعاً وهو يريش السهام إلى الأسود فيرديها . لقد ذهب عنه كل شيء ، حتى مجرد النظر إلى ماضيه منقوشا على لوحات الرسم .

وانحنينا أمام مرقده احتراما للموت الذى يطل عليه بكل علاماته ، وكان الرأى عندنا أنه لا جدوى من فتح رأس فرعون فى هذه اللحظة التى تتلاشى فيها آخر قطرة من زيت المصباح . ولـكن كان لا مناص من إجراء العملية مهما يكن الرأى فيها ، فمنذ أقدم العصور كانت هى المحاولة الأخيرة ، ولهذا قرر « بتاحور » البدء فيها ، ومن ثم عكفت على تعقيم الأدوات فى لهب النار ، كما راح طبيب القصر

الخاص يحلق شعر رأس الملك ، بينما أشار « بتاحور » إلى رفيقنا المختص بوقف نزف الدم ليعلو السرير ويمسك رأس الملك بين يديه .

وفي هذه الآونة أقبلت علينا الملكة « تايا » واتجهت في عجل إلى السرير فنحّت الرجل عن رأس الملك قائلة : لا يجوز لمثل هذا أن يلمس إلـهاً ، فإن كان لا معدى من أن يمسك إنسان برأس الملك ، فإني لفاعلة ذلك بنفسي .

وكانت الملكة تبدو في أسى ظاهر ، ومن خلفها يقف وريث العرش الصغير « أمنحوتب » وأخته « با كت آمون » ، وقد عرفتهم ثلاثتهم بسيماهم بمجرد النظر إليهم ، فقد كانت تقوم لهم بالمعبد تماثيل تطابق صورهم أشد المطابقة . أما ولي العهد فكان في مثل سني وإن كان أطول مني قامة ، وأما أخته الأميرة فكانت ترتسم على وجهها سمات الجمال والنبل ، وأما أمهما الملكة فكانت أميل إلى القصر ، في شيء من البدانة الملحوظة ، وفي بشرة وجهها سمرة واضحة ، وبخديها سعة ونتوء عظام . وقد ذكرت حين رأيتها ما كان يقال عن الأصل الذي انحدرت منه . لقد كان يقال إنها من بنات الشعب ، وفي عروقها يجري دم الزنوج . على أنه مهما يكن أمر مولدها ونسبها ، فإنها قد تراءت لنا مهيبة جليلة المظهر ، يبرق الذكاء وتلتمع القوة في عينيها النفاذتين .

وكانت في تنحيتها الرجل عن رأس فرعون تعرب عن شعورها المستعلي بالنسبة لفرد من العامة في مثل هوانه شأنا . والحق إنها ، بهذه الحركة ، قد دلت على قوة ذكائها وفطنتها ، فالرجل أصلا من طبقة الرعاع ، وكان راعي ثيران لا يعرف القراءة والكتابة ، ولم يكن اختياره لعملية وقف النزف راجعا إلى مواهب خاصة يمتاز بها ، وإنما كان اختياراً عاديا لا يتطلب شيئا من الامتياز . وقد انقطع لهذا العمل ومرن عليه لقاء أجر معين وكان من الممكن أن يقع الاختيار على غيره من بيئته نفسها . فالأمر في ذلك يجيء اتفاقا لا أكثر . على أن حاله تغيرت بطبيعة لصوقه بصناعة الطب ، من أحد أطرافها ، فصار على شيء غير قليل من النظافة وصفاء المنظر بالقياس إلى ما كان عليه قبلا من الخشونة والغلظة .

ولم يسترح « بتاحور » إلى تدخل الملكة على هذه الصورة ، فالرجل الذى لا تأذن له بمباشرة عمله ، لا تستطيع الملكة أن تقوم فى العملية مقامه . وقد وجه نظرها إلى ذلك قائلا إن العملية جراحة ونزف دماء ولا تحتمل أعصابها أن تشترك فيها ، فكيف وهى تحمل بين يديها رأسا عزيزاً عليها هو رأس زوجها الملك ؟ . ولكن الملكة لم تحفل بهذا الاعتراض وتقدمت فى رباطة جأش وجلست على طرف السرير وحملت على كفيها ، فى عناية بالغة ، رأس فرعون ، وكان لعابه يسيل من فمه فيبلل يديها وملابسها ، ونظرت إلينا قائلة : إنه زوجى ومليكى ، ولا يحق لأحد غيرى أن يقعد منه الآن هذا المقعد ، ومن بين ذراعىّ هاتين ينبغى أن يدخل إلى مملكة الموتى .

ورأى « بتاحور » أن يصرف أفكار الملكة عن العملية الجراحية المثيرة للأعصاب فقال مسايراً اتجاه ذهنها إلى مملكة الموتى : إنه سيرحل على سفينة أبيه إله الشمس ، فمن الشمس جاء ، وإليها يعود ، وسيبقى اسمه مذكوراً بين الناس بالإكبار والتمجيد على وجه الزمان الخالد .

قال ذلك وهو يحرك أسلحته فى الرأس الذى تحمله الملكة ، فتفجر الدم غزيراً على يديها وأصيبت من ذلك بذهول أشاع فى وجهها ظلالا صفراء . وهنا انتبه الرجل البعد عن عمله بأمر الملكة ، وفطن إلى واجبه فاقترب من سرير الملك وتولى عملية وقف الدم المتدفق، وقمت فى إثره بتنظيف الرأس من آثاره ، ومضى « بتاحور » فى عمله وهو يكرر للملكة عبارات التهدئة كقوله : إن الملك فى طريقه إلى أبيه على السفينة الذهبية مرتحلا إلى عالم الشمس حيث النور والضياء ، مزوداً ببركات « آمون » . على أنه لم يكد يذكر بركات « آمون » حتى قاطعه ولىّ العهد قائلا ووجهه يختلج انفعالا : لا . . بل نحن نلتمس له بركات « رع هيرختى » الذى يتمثل فى « آتون » وليس فى « آمون » .. فهمهم « بتاحور » وقال متكلفا : حقا .. لقد نسيت ، أنه « آتون » وليس « آمون » .. واستطرد قائلا : وإنى لأذكر أن الملك بوحى حكمته المقدسة أقام معبداً لآتون عقب مولد ولى العهد ،

وأحسبك تعرفين ذلك جيداً ياسيدتى الملكة « تايا » ؟ ! ..

وفى هذه الأثناء أحس « بتاحور » بالظمأ إلى النبيذ ، فاستأذن الأمير فى قليل منه قائلا : إنه ينفث النشاط فى يده ويجعلها كالسلاح المشحوذ ، ثم أكب على على رأس فرعون ماضياً فى جراحته ، ففصل قطعة من سياجها العظمى ، وراح يتأمل مادة المخ تحت الأضواء المسلطة عليها ، وكانت أطراف فرعون قد تحركت قليلا ثم سكنت ، واستغرق فى غيبوبة عميقة ، وعند ذلك هز « بتاحور » رأسه وقال : لقد أدينا واجبنا . أما ماوراء ذلك فمتروك إلى « آتون » فذلك أمر يرجع إلى مشيئة الآلهة ، ولا حيلة فيه للبشر . . وأعاد الحجاب العظمى للجمجمة إلى مكانه وغطاها بفروة الرأس جامعاً أطرافها ، بعضها إلى بعض ، ولفها بالضمادات . وأسندت الملكة رأس فرعون إلى تكأة وثيرة ونظرت إلى « بتاحور » مستطلعة، فقال لها : إنه قد يبقى فى عداد الأحياء إلى الفجر ، إلا أن يشاء إلـهه غير ذلك ، ثم رفع يديه علامة اليأس الغالب والجزع الغامر . وقد تابعته فى هذه الحركة متأثراً بالحقيقة التى يمليها الموقف ، ولـكنه عند ما أعاد الحركة نفسها للتعبير عن حزنه وأسفه ، لم أشاركه فى ذلك لأنى لم أر فيه إلا صورة من نفاق ، فما نحن والملك ، وماذا يضيرنا إذا خلت منه دنيانا ! .

وتشاغلت عنهم بتعقيم أدوات الجراحة بينما كانت الملكة تعد « بتاحور » بالمكافأة السخية على ما تجشم من عناء ، ثم دعتنا إلى تناول الطعام فى غرفة مجاورة. فانتقلنا على الفور إليها ، وفيها وجدنا مائدة حافلة بأطايب الأطعمة . وكان « بتاحور » أكثر ابتهاجاً بما احتشد على جوانبها من قوارير النبيذ الفاخر .

فلما طاب مجلسنا على المائدة أخذ « بتاحور » يشرح لى شيئاً مما أحس أنى مستوضحه إياه عن « رع هيرختى » متمثلا فى « آتون » ، الالـه الذى قال ولى العهد إنه يستمد البركات منه ! !

قال : إن « رع هير ختى » يعتبر إلـها قديماً ، بل أقدم من « آمون » ، وكان هو إلـه « أمنحوتب الثالث » متخذاً لنفسه شكل « آتون » . ومما يروى

أن ولى العهد هو الابن المقدس لهذا الإلـه (آتون) ، ذلك أن الملـكة « تايا » أُلقيت إليها بشرى مولده فى رؤيا سنحت لها فى نومها ، وكانت خلال هذه الرؤيا كأنها فى معبد « رع هير ختى » ؛ فلما جاءها المخاض وولدت ولى العهد ؛ اعتبر منسوبا إلى هذا الإلـه بالبنوة ؛ لأنه بـشّر به من قبل مولده ؛ فما كانت الرؤيا التى رأتها الملـكة إلا وحياً منه ؛ وإلا فما معنى أن تقع فى معبده ؟! وما معنى أن يجىء الميلاد مطابقاً لها ؟! وكان فى خدمة الملـكة بعد مولد ولى العهد كاهن اسمه « آى» وكان طموحا فطنا بلغ بطموحه وفطنته مكانا أثيراً من نفسها فاختار زوجته مرضعا لولى العهد ؛ وكانت هذه الزوجة ترضع فى الوقت عينه ابنتها واسمها « نفرتيتى » ؛ وقد شبت وترعرعت فى القصر إلى جانب ولى العهد ؛ وكانا يلهوان معا ؛ باعتبارهما أخوين ؛ فتوثقت العلاقة بينهما من هذا الطريق ، ويستطيع أى إنسان أن يتصور فى غير مشقة ما عسى أن تؤدى إليه هذه العلاقة من نتائج !! ..

ومضى « بتاحور » يعب من كؤوس النبيذ حتى إذا بدا كأنه أراح أعصابه وأطفأ سعاره ؛ واصل حديثه قائلا : ليس ثم شىء أفضل من النبيذ بالنسبة لرجل عجوز مثلى يتحدث فيما لا يعنيه . . آه لو تعرف يا « سنوحى » أية أسرار تنطوى خلف هذه الجبهة المجعدة ؟! قد لا تعلم أن الناس طالما تساءلوا : لماذا لم يولد مولود ذكر وفيه حياة ؛ فى جناح الحريم بقصر هـذا الملك الراقد هناك بالغرفة الأخرى مفتوح الجمجمة ؟! إنهم كانوا دائما يستغربون ذلك ويتساءلون عن سره ! .. وظل هكذا الحال حتى ظهرت « تايا » فى حياته ؛ هذه الملـكة القربة وأم ولى العهد قالوا إنه وجدها فى رحلة صيد ؛ وإنها ابنة صائد طيور كانت تعيش بين أعشاب النيل ؛ رآها الملك وتحدث إليها فأعجب بذكائها ورجاحة عقلها ؛ ومن ثم اتخذها زوجة وأضفى على أبويها تـكريما سابغاً بأن ملأ قبريهما بالهدايا الغالية ؛ وازدادت على الأيام قربا من قلبه بدماثة خلقها وسعة حيلتها ولطف مدخلها ؛ حتى أنهـا لم تـكن لتبدى اعتراضاً على استرساله فى الملذات مع نساء القصر الأخريات ؛ فما تبالى هذا ولا تخشاه ؛ لأنها تعلم أنهن لا يلدن مولوداً ذكراً !! ونظر إلىّ «بتاحور»

نظرة ذات معنى ؛ وتلفت حواليه وقال فى عجلة كأنما يتقى أذنا تسمعنا من قريب : هذه أقاصيص نسجها خيال ذوى النية السيئة والقلوب المريضة ؛ فلا تصدق شيئاً منها يا « سنوحى » . أما الحقيقة التى يؤمن بها سائر الناس فهى أن الملكة « تايا » تتحلى بأعلى ما فى النساء من فضائل الحكمة وعذوبة الأخلاق وحسن التقدير للرجال النافعين المخلصين ؛ ولهذا فهم يلتفون حولها عن إعجاب بمواهبها ؛ وإكبار لفضائلها ..

وأمسك « بتاحور » عن الكلام وإن لم يكن قد أمسك عن شراب النبيذ ، فأخذت بيده إلى الشرفة لنستروح فيها الهواء النقى الذى يسرى فى حناياها لطيفا منعشاً ممتزجاً بأرج الأزهار الفواحة التى تزدان بها حديقة القصر ، وكان الليل قد أقبل فاعتادنى بإقباله شعور القلق الذى يغمر « طيبة » ، ولكن أضواء المدينة أخذت تتلاقى مع تألق النجوم ، فهدهد هذا المنظر أعصابى وأراحها وأشاع فيها نشوة جميلة فقلت ، وكأنى أناجى نفسى : ما ألطف هذا الجو الشاعرى ! ! إنه ليحرك بى أحاسيس الحب !! .. وسمع « بتاحور » هذه العبارة ، فرفع رأسه وعلق عليها قائلا : ليس صحيحاً أن فى الدنيا شيئاً اسمه الحب ، إن الرجل ليأسى عندما لا يجد المرأة بجانبه ، فإن وجدها أصبح أشد أسى . إنه لشقى بها بعيدة عنه ، وشقى بها قريبة منه ولا يحتاج الإنسان الرشيد أن يسأل لماذا كان الأمر هكذا فى الحالتين !. ذلك لأنها قضية أزلية لا يتغير الحكم فيها بتغير الأزمان ، فكف أيها الأحمق عن حديث الحب ، وإلا فأنت ، من حيث لا تدرى ، تضع جمجمتك بين يدىّ لأفتحها ، وإنى لعلى استعداد أن أفعل ذلك بلا مقابل ، لأدفع عنك شر هذا المرض الخبيث الذى يتنزى منها ! !

وأثقل النبيذ رأس « بتاحور » وهو بعد مسترسل فيه . فخشيت عليه مغبة هذا الإسراف ، وحملته بين ذراعى ووضعته على سريره بالغرفة التى أعدت لنومنا ، ودثرته بغطاء سميك إذ كان الجو مشبعاً بالرطوبة ، وقد كان يترنح ترنح المخمورين ويطالب فى كلمات متقطعة مزيداً من النبيذ ، ثم غلبه النوم فاستغرق فيه ، وعندئذ

إلى الشرفة لأسبح فى خيال الشباب وأملأ صدرى بأرج الأزهار ، وكانت تهدر فى مسمعى أصوات أولئك الذين يقضون ليلهم ساهرين على مشارف القصر . إنهم قد آلوا على أنفسهم ألا يبرحوا أماكنهم وألا يناموا ، ارتقاباً للنبأ الأخير عن « فرعون » الذى يحتضر ! ! ولكنى لم ألق لهم بالا ؛ فقد كنت وقتئذ فى شغل عنهم بهذا الصفاء العاطفى الذى أحيا فى ذهنى ذكريات عذبة كانت لى فى هذه الوحدة أنساً ومتاعا ، وإنى لكذلك إذ لاح بالشرفة شبح لم أتبينه تماما لأول وهلة ، وقبل أن أسأل من هو ، سمعته يقول بصوت فيه صرصرة الطفولة ، وفيه كذلك رنين الاستعلاء : أهذا أنت أيها الوحيد ؟ !

وهنا استجليت وجهه ، وعرفت أنه الأمير ولى العهد بجسمه الضامر الناحل ، فانحنيت لديه ، دون أن أتكلم ، فوكزنى قائلا : انهض أيها الفتى ، إن أحداً لا يرانا الآن ، فلاحاجة بنا إلى هذه المراسم التى يجب أن نحتفظ بها للإله الأعظم الواحد الأحد ، الذى أعتبر نفسى ابنا له ، فليس يوجد إله سواه وجميع الآلهة صور له ، ماعدا « آمون » فإنه إله زائف ...

وأخافنى منه هذا الحديث الصريح المفاجئ ، فأومأت إيماء المعترض المشفق ، ولكنه استطرد قائلا : دعنا من هذا . . لقد رأيتك إلى جانب أبى الملك وأنت وحدك ، تقدم آلات الجراحة إلى ذلك الرجل المخبول العجوز « بتاحور » فأطلقت عليك اسم « الوحيد » ، كما أطلقت أمى على « بتاحور » اسم « القرد العجوز » فاذكر هذه التسمية جيداً ، إلى أن يحين حينك ، فمن يدرى ، فلعلك ملاق حتفك فى هذا القصر ولا يتاح لك أن تغادره حياً ! .

وفزعت أكثر من أى شىء آخر لإشارته إلى هذا المصير المفجع ، فقد تذكرت لفورى قول « بتاحور » إنه إذا مات فرعون فإننا مائتون كذلك . وقد وقف وقتذاك شعر رأسى فرقاً من هذا الموت الذى لا أريده ، ولكنى بعد هذا أقصيت الفكرة عن ذهنى إذ تصورتها لا تتصل بسبب من الحقيقة ، فلماذا يقضى علينا بالموت إذا مات فرعون ؟ . ذلك مالا يستقيم مع المنطق ولا مع الفهم الصحيح ،

فنحن إنما جئنا لنحاول إنقاذه من الموت المحقق ، وهى محاولة أخيرة فى حالة يتغشاها اليأس فى أدق معانيه وأجلى صوره ، ولسنا صانعى معجزات ، فذلك شأن الآلهة كما قال بحق « بتاحور » ، وقد فعلنا أقصى مافى طوقنا كبشر ، فلا علينا بعد هذا أن يموت فرعون ..

ونظرت إلى الأمير فإذا به يلهث ، كالمجهد ويداه تختلجان كالفلوج ، وهو يتمتم : إنى لقلق ، سأكون بعد قليل فى مكان آخر . . فلتبق معى أيها الوحيد ..

قال ذلك وجذبنى بقوة مشيراً بحركة آمرة أن أتبعه ، فانعقد لسانى رهبة وخوفاً ، ورجح فى رأيى أنه مجنون ولا حيلة لى معه ، فتبعته كارهاً ، وهبطنا إلى بحيرة فرعون ، وركبنا أول قارب لقيناه ، وأخذنا نجدف به خلال مياه البحيرة ، ولم نر أحداً يمنعنا من ذلك ، مع أن القارب ليس قارب الأمير ، وكنا كمن سرق شيئاً أمام أعين الجماهير على الشاطئ ، الساهرة طول ليلها بقربة من القصر ، ولكن أمور الناس فى تلك الليلة كان يسودها الاضطراب ، والقوارب رائحة غادية فى حركة غير عادية ، فلما بلغنا الشاطئ الآخر صعدنا فيه ، وسار الأمير وأنا فى إثره ، على طريق بدا أنه يعرفه معرفة تامة ، فقد كان لاينحرف عنه يميناً أو شمالا وكان يوسع الخطى مشدود الجسم ، وضوء القمر يرسل أشعته عليه فيبدو منه وجه صافى البشرة ، ولكنه صفاء مشوب بانفعالات غامضة . وقد لقيت فى مسايرته غير قليل من العناء ، فقد كان كأنما تدفعه فى تسياره السريع قوة خفية تجاوز كثيراً قدرة مخلوق مثله بادى الهزال على ساقين رخوتين .

ولم نكن وحدنا فى الطريق ، فإن آخرين كانوا يسيرون عليه فى ذلك الوقت ولكن الأمير مضى فى سبيله غير مكترث ولا مبال ، وكان الجو بارداً غير أنى كنت أتفصد عرقاً لفرط ما نالنى من تعب ، ومازلنا نسرع فى السير حتى جاوزنا الوادى إلى الصحراء وصارت « طيبة » خلفنا ، والتلال الثلاثة التى تقوم عادة بالجانب الشرقى تطل علينا بظلالها المتكاثفة كأنها موكلة بحراستنا .

وفجأة تهاوى الأمير على الرمال وهو يلهث ، وقال فى ذعر : خذ بيدى

يا «سنوحي» فإنهما ترجفان ، وقلبي مثلهما يرجف بين ضلوعي ، إنني أقترب وشيكا من لقاء الإلـه العظيم ، إن لحظة اللقاء مني قاب قوسين ، يا له من لقاء ! .

وأمسكت بيديه وكان جسمه ينتفض كالمقرور ، مبللا بالعرق كما لو كان يسبح في الماء ، ولم أدر ماذا عسى أن أصنع ونحن في هذا القفر النائي ، وليس في الصحراء من حولنا دليل على الحياة إلا عواء ابن آوى يترامى على آذاننا منذراً بالشر ، وحتى هذا الوميض الذي كان يؤنسنا من إشماع النجوم ، قد أخذ يتوارى ، ويلفنا الليل في سواد حالك رهيب ، على أن الأمير هب واقفاً نازعاً يديه من يدي ، وأدار وجهه إلى الشرق ، إلى التلال ؛ وهو يقول في شرود : إن الإلـه مقبل ؛ إن الإلـه آت . . ثم انفجر صوته عاليا مدويا في أرجاء الصحراء ؛ وهو يكرر هذه العبارة ..

وشيئاً فشيئاً .. أخذت ظلمة الليل ترق وتتمزق وتنساب فيها إشماعات ذهبية إيذاناً بمقدم الشمس . فما أن أشرقت الشمس نفسها حتى انطلقت من الأمير صرخة أشد دوياً وقع على إثرها مغشياً عليه ، وقد اشتد وجيب قلبه وارتماش معارف وجهه واختلاج فمه وأطرافه جميعاً ، ولم يكن هـذا المنظر بالغريب عليّ ، فكثيراً ما شاهدت مثله في « دار الحياة » . وكان من مقتضيات الوقاية العاجلة في هذه الحالة أن نضع مروداً من الخشب بين فكي المصاب لتحول بين اللسان واصطكاك الأسنان ، ولـكني في مكاني من الصحراء الآن لا أجد هذا المرود ، وفتقت الحاجة ذهني فاقتطفت في الحال قطعة من قماش ثوبي ولففتها لفاً محكماً ودسستها بين فكيه ورحت أمسح بيدي على جسمه وأريحه بالتدليك . وفي هـذه الأثناء سمعت صوتاً يتساقط فوق آذاننا من عل ، فرفعت إليه بصري ، فرأيت صقراً يتراءى كأنه خارج من قرص الشمس وهو يصيح محلقاً في شبه قوس ، ثم أخذ يهبط على اتجاه جبهة الأمير ، حتى أيقنت أنه سيحط عليها ، ففي حركة غير إرادية اندفعت أؤدي بيدي مراسم التقـديس « لآمون » ووقع في وهمي أن الأمير قد تخيل « حوراس » في ذاكرته وهو يحيي إلهـه ، فأهل عليه في صورة هذا الطائر ..

وانحنيت على الأمير الذى كان يتوجع ويئن أنيناً مشيراً ، فلما رفعت رأسى لم أجد الطائر ولكنى وجدت إنساناً ، غض الشباب ، متألقا فى أشعة الشمس ، يحمل حربة . وعلى كتفيه عباءة خشنة مما يلبسه الفقراء ، ومع إنى لا أومن بالآلهة فى صورة البشر ، انحنيت له ، طلباً للسلامة ، انحناءة التقديس ، فسألنى بلهجة أهل المملكة السفلى ما هذا ؟ ! أهذا الفتى مريض ؟ !

فقلت له : نعم . إنه مريض ، وليس معنا شىء مما يطمع فيه سارق ، وإن الآلهة لتباركك إذا ساعدتنى فى أمر هذا الفتى المريض ..

وهنا صرخ الشاب الغريب صرخة حادة لها رنة الصقر وجرسه ، فما هى لمحة الطرف حتى رأيت الصقر الطائر يعود ويحط فوق كتفه .

ومن ثم أخذ الشاب الغريب يقول فى كبرياء : أنا « حورمحب » ابن الصقر ، وقد جئت للدنيا من أبوين يصنعان الجبن ، ولكن نبوءة وقعت فى مولدى بأنى سأكون زعيما وسأتولى حكم الكثيرين ، وقد قدمت إلى هنا تابعاً للصقر الذى يقودنى لأغدو على « طيبة » مبكراً ، وكل ما أرجوه أن أدخل فى خدمة فرعون ، فإنى لَقوىٌّ متين . وقد قيل إن فرعون مريض ، وأكبر الظن أن سلطانه يحتاج الآن إلى السواعد الصلاب لتحميه وتؤازره ...

وتأوه الأمير محركا ساقيه ، ومارًّا بيديه على وجهه ، فانتزعت من فمه قطعة القماش ، وتمنيت لو أنى أستطيع أن أجد ماء لأسقيه ، فقد بدا كأنه يتلظى بسعير الظمأ . وحدق فيه «حورمحب» وعاد يسألنى : أهو فى حالة احتضار ؟ ! فأجبته : إنه لا يحتضر ، ولكنه يعانى من المرض المقدس ...

وقال « حورمحب » وهو يمسك بحربته ويتأملها : إذا كنت ترانى على صورة الفقراء الحفاة فى هذه الأسمال التافهة ، فحذار أن تهوّن من شأنى ، فإنى أجيد القراءة وسأكون حاكما وصاحب سلطان.... ثم قل لى : أىُّ إله يعبد هذا الفتى؟! إن الناس يعتقدون أن الذين تتقمص الآلهة أجسامهم يستطيعون أن يجيبوا عن الأسئلة التى توجه إليهم ، فلنسأله ، فلعله يجيب ! .

قلت : إن له إلَـهاً خاصًّـا ، وأغلب ظنى أن بعقله لوثة !!..

قال : إنه يرتعش ، وخلع عباءته فألقاها على الأمير واستمر يقول : إن صباح « طيبة » مشحون بالبرودة ، ولـكن الدماء الحارة التى تجرى فى عروق تدفئنى وتمنعنى من هذا البرد ، ويلوح لى أن هذا الفتى ابن رجل من الأثرياء ، فبشرته بيضاء فى نعومة ، ويداه تبدوان رخصتين كأنهما لا تتحركان فى عمل . . والتفت إلىَّ قائلا : ومن تـكون أنت ؟! قلت : إننى طبيب وكاهن من المرتبة الأولى فى معبد « آمون » بطيبة . .

ونهض ولى العهد لينظر فيما حوله بذهول ، ثم يقول : لقد تراءى لى الإلـه فى فيض نوره ، ورأيته رأى العين المجردة ، وكانت اللحظة قصيرة ولـكنها كانت كأنها جيل من الزمن ، وكنت مشفياً على الموت ، فرأيته يمد إلىَّ ألف يد ، مرت كلهـا فوق رأسى لتباركنى ، وفى كل يد منها رمز لحياة دائمة ، أفلا ينبغى لى بعد ذلك أن أومن وأن أشـكر ؟ !

وعندما وقع نظره على « حورمحب » برقت عيناه بشعاع من الدهشة وقال : أهذا أنت ؟ ! أنت الذى بعثك الإلـه الأوحد « آتون » ؟ !

وقال « حورمحب » : لا أدرى سوى أن الصـقر طار أمامى فتبعته حتى صرت إليـكما . .

وأربد وجه الأمير حين رأى الحربة فى يد « حورمحب » . وقال له متبرما : أتحمل حربة أيها الرجل ؟ ! فشرع « حورمحب » الحربة فى يده وقال : إن قبضتها من لباب أخشاب منتقاة ، ونصـلها النحاسى متعطش إلى دماء خصوم فرعون ، إن اسمها « قاطعة الرقاب » .

فصاح الأمير : لا تذكر الدماء ... إنها منـكر ينهى عنه « آتون » . وليس فى الدنيا شىء أشد نـكراً وإزعاجاً من إسالة الدماء . . .

قال « حورمحب » : بل إن الدماء تطهر الناس وتصهرهم فتزكو معادنهم ، وتنفث فيهم القوة فتـكون لهم الغلبة والسـطوة والشأو البعيـد . . والحروب

فى هذه الدنيا جزء من طبيعتها ، فالحياة بين الناس وبين الأمم ، صراع لا ينتهى ، وتدافع لا يسكن . ومادامت هناك حروب ، فلا معدى من دماء تهدر ، وأرواح تزهق ، وسيوف مرهفة ، وحراب مشرعة !

قال ولى العهد : كلا . إن السلام هو أصل الحياة وجوهرها ، وهو الصلة بين الأرض والسماء ، وقد خرج الناس باختلافهم وحروبهم على أسمى مبادئ الحياة ، وارتدوا بها إلى طبائع الغابات ، حيث لا أمن ولا اطمئنان ، وقد آن أن يتحرروا من هذه الوحشية ، فهذا هو الإلــه الفرد الرحيم ، « قال هذا متطلعاً إلى إلى الشمس » ، يتجلى برحماته عليهم ليلهمهم الخير ، ويجردهم من منازع الشر ، ويجمعهم على صفاء من الأخوة الإنسانية . فالناس كافة أبناؤه ، وهم عنده سواسية وسائر اللغات والألوان ، على تباينها واختلافها ، كلها لديه عقد منظوم متساوى الحبات ، فلا تفرقة ولا تفاضل ، وإنى لصادع بأمره ، منفذ مشيئته ، عامل على نهجه . فمنه ولدت ، وإليه أعود .

وأخذ ولى العهد يحيى الشمس مظهر الإلــه « آتون » رافعاً إليها يديه فى ضراعة وابتهال ، ووجهه عندئذ يطفح ابتهاجاً ونوراً وإيماناً .

وهمس « حورمحب » فى أذنى قائلا : إن صاحبك لمريض بالجنون ، وأراه محتاجاً إلى طبيب .

وأتم الأمير صلواته الحارة ، فاتجهنا به عائدين إلى « طيبة » وقد نالت منه نيلا شديداً نوبة التشنج ، فسار معنا متهالكا متزايل الأعصاب ، فمددنا إليه ، أنا و « حورمحب » ، ذراعينا ليعتمد عليها فى مشيته المتهافتة ، وكان الصقر يتقدمنا محلقاً ، فحين بلغنا الوادى الأخضر والأرض السوداء ، رأينا محفة ملكية وأرقاء يجثمون على الأرض ، وكاهناً يعلو المحفة ويطل منها برأسه المقصوص الشعر ووجهه المربد فى رصانة ، وقد لمحت فيه سمات الكاهن « آى » الذى حدثنى عنه « بتاحور » وكان على ما وصفه لى بديناً عريض الضواحى ، فتقدمت إليه منحنيا مرخيا ذراعى إلى الركبتين ، لكنه لم يحفل بى ، وتقدم إلى الأمير فحياه فى احترام مسنداً إليه

لقب الملك ، فأدركت أن « أمنحوتب الثالث » قد انتقل إلى عالم الموتى . ثم تبادر الأرقاء إلى خدمة فرعون الجديد ، فغسلوا أطرافه ومسحوها بالزيت ، وألبسوه الرداء الكتانى الملكى ، ووضعوا التاج على رأسه .

وفيما هم كذلك ، خاطبنى « آى » متسائلا : هل قابل إلـهه ياسنوحى ؟ . .

فأجبت : نعم . وقد حرصت فى رفقتى له على ألا يصاب بسوء فى ذلك القفر المنقطع . واستطردت أقول : ولـكن كيف عرفت اسمى ؟ فابتسم وقال : إنه لا تخفى علىّ خافية مما يدور بين جدران القصر . وإنى لأعرف اسمك ، كما أعرف أنك طبيب ، وأنك من كهنة « آمون » الذين أقسموا يمين الولاء له . ولهذا فإنى على ثقة من أنك معنىّ بالملك .

قال ذلك فى إشارة معبرة عما يقصد إليه من ذكر يمين الولاء « لآمون » والعناية بالملك . فمددت يدى ورسمت بهما مراسم الولاء الذى يعنيه . . فبدا عليه الاطمئنان . ونظر إلى « حورمحب » الذى كان يقلب حربته كما لو كان يجربها والصقر رابض على كتفه ، وقال : ومن يكون حامل الحربة هذا ؟ ! ألا ترى من الخير أن يبعد بالموت عن أسرار فرعون التى يجب أن تظل بمنأى عن أمثاله ؟ .

قلت : لعله أن يكون حيا أنفع منه ميتا ، وقد أعرب عن استعداده لتمزيق أعداء فرعون بحربته ، وكان بادى التعطف على فرعون حين كان يرتعد تحت وطأة البرد فنضا عباءته وألقاها عليه . وهنا انتزع الـكاهن سواراً ذهبيا من ذراعه وألقاه إلى « حورمحب » قائلا له فى غير اكتراث : تستطيع أيها الرجل أن تسعى إلىّ يوما لتلقانى بالقصر الذهبى .

ولـكن «حورمحب» لم يمد يداً إلى السوار ، فسقط على الأرض عند قدميه ، ونظر فى ازدراء إلى الـكاهن وقال له : إنى لا أتلقى أمراً إلا من « فرعون » ، وإذا لم أكن مخطئا فهو الذى يحمل الآن التاج على رأسه . واستعاد الكاهن سواره وهو يكتم غيظه ، وخاطب « حورمحب » قائلا : إن الذهب شىء ثمين ، وهو نافع دائما ، وعلى أى حال فعليك أن تـكون إلى آخر حياتك شديد المحافظة على الطاعة

والولاء لفرعون ، على أنه لا يجمل بك أن تظهر فى حضرته حاملا مثل هذا السلاح .

والتفت إلينا « فرعون » فى لباسه الملكى الجديد ، وكانت تلتمع فى وجهه أضواء قدسية شعرت بأنها تبعث الحرارة إلى قلبى ، فدعانا إلى مرافقته بالمحفة قائلا : فلنبدأ السير فى الطريق السوى ، طريق الحقيقة والصدق . فتبعناه بينما كان « حورمحب » يتحسس حربته ويقول : إن الحقيقة والصدق ليسكنان ها هنا ! .

وسارت بنا المحفة حتى بلغنا الشاطئ ، فهبطنا إلى قارب كان بانتظارنا عند المرسى ، ومن طريقنا الأول نفسه مضى بنا القارب إلى مرفأ القصر ، وكان الناس لا يزالون فى تجمعهم واحتشادهم خارج أسواره ، على أن أحداً منهم لم يعرنا التفاتا .

وبعد صعودنا فى القصر ، أذن لنا الأمير « فرعون الجديد » بالدخول عليه فى غرفته الخاصة ، وكانت ملأى بجرار مصنوعة فى جزيرة « كريت » وقد نقشت عليها رسوم أسماك وحيوانات مختلفة . وإذ كنا نجيل فيها النظر معجبين ، أُنبئنا بأن الملكة الوالدة فى طريقها الآن لتقديم التهنئة والطاعة لفرعون الجديد ، فأذن لنا فى الانصراف ؛ بعد أن حيانا ، أنا و « حورمحب » ، قائلا : إنه سيذكرنا بالخير دائماً ولن ينسانا ..

وعند ما صرنا خارج الغرفة قال « حورمحب » فى قلق : إلى أين أذهب ؟ ! إنى طارئ على هذه المدينة ، ولا أعرف فيها أحداً ولا مكانا ؟ ! . فأشرت عليه بأن يبقى فى القصر مستريح البال ، ففرعون قال إنه سيذكره ولن ينساه ، ومن الخير أن يكون بمقربة منه ليراه ، فذلك أكفل لتذكره إياه ..

ولكن « حورمحب » تساءل : وهل أبقى هنا لأكون كهؤلاء الخدم والندامى الذين يترامون محتشدين كأسراب الذباب على باب الملك ؟ ! وما يكون مصيرى ، إذا كان سيدى ومليكى يخاف الدماء ويفزع منها ويعتقد أن سائر الناس والأمم

واللغات والألوان سواسية فى المراتب والحقوق ؟ ! لقد خلقت محاربا ، وبشعور المحارب لا أرى لى مكانا فى هذا القصر ..

قال هذا ومد إلىَّ يده مودعا .. فقلت له ، إنه يستطيع أن يلقانى فى « دار الحياة » كلما رأى نفسه بحاجة إلى صديق ، وعلى ذلك افترقنا ..

وذهبت إلى « بتاحور » فى غرفته ، وكان ينتظر مقدمى ، فما رآنى حتى سألنى أين كنت ؟ ! ثم أردف قائلا : فى غيبتك عن القصر ، وفى أثناء نومى ، لفظ « فرعون » أنفاسه الأخيرة فلم يكن كلانا هناك لنرى روحه تطير من أنفه صاعدة إلى الشمس .

فلما قصصت عليه ما حدث ، قلب كفيه دهشا وقال : فليحفظنا « آمون » فإن فرعون الجديد ليبدو مدخولا فى عقله.

ولكنى ، بعد الذى رأيت وأحسست ، لا أرانى أطاوعه على مثل هذا الرأى فى عقل «فرعون» . فقلت : غالب الظن أن ثمة اتصالا قويا بينه وبين إلـه جديد ، وما أحسبه إلا وعاءً صافيا لتموجات روحية مقدسة ، وقد ترى أرض « كيم » فى عهده كثيراً من أعاجيب لم تألف وقوعها فيما سلف من عهود .

قال « بتاحور » : إنها أفكار ونزعات ينكرها « آمون » وينهى عنها ، ولا خير فى أن نشغل أنفسنا بها . . ثم دعا بنبيذ ليشربه ، لأن حلقه — على ما يقول — قد صار جافاً كتراب الطريق .

وبعد قليل قادنا الحراس إلى أحد الأبهاء الفساح فى « دار العدل » ، فتلا علينا حامل خاتم الملك نصوصاً من القانون تقضى بقتلنا ، لأن فرعون لم ينج من المرض ومن الموت بعد أن قمنا بفتح جمجمته . فأفزعنى هذا الذى كنت قد حسبته خيالا ، ونظرت إلى « بتاحور » مأخوذاً ، فأدهشنى أنه كان يبتسم ، بينما كان يقترب منه حامل السيف شاهراً إياه ليطيح برأسه تنفيذاً لهذا القانون العجيب ! . وأشار « بتاحور » إلى رفيقنا الفلاح الذى كان مختصاً بعملية وقف نزف الدم ، وقال لحامل السيف : فلتبدأ بهذا ، فإنه لأكثر منا لهفة على الرحيل . إن أمه ، هناك

فى مدينة الموتى ، قد أعدت له طعاماً شهياً وهى ترجو ألا يبطئ قدومه عليها .

فشهق الفلاح جزعاً ، وخر على ركبتيه راكعاً ليصلى «لآمون» صلاة الموت » وهز السياف سيفه ثم لمس به طرفاً من عنق الرجل ؛ وكان لمساً خفيفاً ، رفيقاً . ولكن الرجل مع ذلك سقط على الأرض مغمى عليه ، ولم يخطر ببالنا إلا أنه سيفيق بعد قليل ، فإن السيف لم ينل منه منالا ولم يحدث به خدشاً .

وجاء دورى ، فركعت ماداً عنقى للسيف وقد زايلنى الخوف ، وكان السياف وهو يلمس عنقى أكثر خفة ورفقاً ، حتى لا يصيبنى ما أصاب رفيقى الأول .. وبالطريقة نفسها نفذ الحكم فى « بتاحور » .

وهكذا تم تطبيق القانون ، وقيدت أسماؤنا فى سجل الموتى ، وخلعت علينا أسماء جديدة محفورة فى أطواق مذهبة ، فكان اسم « بتاحور » الجديد هو : « القرد العجوز » . أما اسمى فكان كما أنبئت به على لسان ولى العهد « الوحيد » ثم سيقت إلينا أعطيات جزلة وهدايا ذهبية ثمينة ، وألبسنا ثيابا جديدة . ولأول مرة أضع على جسمى ثوبا من الكتان الملكى متعدد الثنايا ، وأتزين بقلادة من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة ..

وتفقدنا رفيقنا الفلاح فإذا به لا يزال ممدداً على الأرض .. وعندما حاول الخدم إيقاظه وجدوه بلا حراك ، فلقد مات حقاً ، ولكنه مات بغير السيف ، مات بالوهم والخوف ! .

وأصبح اسمى منذ ذلك الحين « سنوحى الوحيد » ، فلا أكتبه إلا كذلك ولا أنادى فى القصر إلا به .

عدت إلى « دار الحياة » رافلا فى ملابسى الجديدة ، وذراعى تلتمع بالسوار الذهبى ، فقوبلت من أساتذتى بالحفاوة ، وأعظموا شأنى ، أنا الذى ما زلت فى عهد الطلب ، فقد كنت فى نظرهم جديراً بذلك الجلال المهيب التى ندبت لها فى قصر فرعون ، ولمظاهر التقدير التى أضفيت علىّ بسببها . وكان من واجبى أن أكتب تقريراً عن العملية الجراحية التى أجريت لفرعون ، وعن موته كذلك ، فمكثت

على كتابتـه وقتاً طويلا ، وقد جاء فى النهاية تقريراً وافيا ، تضمن وصفا دقيقا للعملية ، ووصفاً شائقاً لتسلل روح فرعون من أنفه ثم صعودها محلقة كالطائر إلى الشمس رأساً ، وكنت أشـعر بلذة كبرى كلـا سمعت هذا التقرير مقروءا على الناس طوال السبعين يوماً التى كان يجرى فيها إعداد جسم فرعون للخلود فى الحياة الثانية .

وكانت « طيبة » فى تلـكم الأيام السبعين تحيا حياة حزينة ، فبيوت اللهو مغلقة ومواخير النبيذ موصـدة ، وليس من حق إنسان أن يلهو أو أن يشرب نبيذا ، ومن كان لا يستطيع صبرا على ذلك فهو يخالس الأعين الراصدة ويتسلل إلى هذا الملهى أو ذاك الماخور من الباب الخلفى ،على غير قليل من الخشية والحذر!

وأنبئت بعد انقضاء السبعين يوما أننى أصبحت طبيبا مؤهلا ، وفى وسعى أن أستعمل تجاربى الطبية حرًّا فى أى حى من أحياء المدينة ، ولا يمنعنى هذا — إذا شئت — من متابعة الدراسة للتخصص فى أى فرع من فروع الطب الأربعة عشر التى كانت تدرس فى « دار الحياة » ، كطب الأسنان أو الأذن أو الولادة أو الجراحة الخ .. وكان تيسير هذه الدراسة مع إجازة العمل خارج « دار الحياة » يعد فضلا من « آمون » على المنتسبين إلى خدمته . .

ولـكننى لم أشعر بميل إلى مزيد من الدراسة فى « دار الحياة » ، فقد كانت الحياة فى « طيبة » تستهوينى وتصرفنى عما عداها ، وكنت أكثر ميلا إلى عاجل الثراء والشهرة ، وقد شاعت لى بين الناس فى هذه الظروف شهرة طيبة ، فآثرت الإفادة منها ، قبل أن يعفى عليها الزمن .

ومن ثم خرجت إلى الحياة الطليقة مدفوعا إليها بنزعات الشباب الطامح ، واشتريت ببعض ما توافر لدى من المـال منزلا صغيرا فى طرف الحى الراقى من المدينة وزودته بقدر ما فى الطاقة من أثاث وأدوات ، واشتريت إنسانا من الرقيق لخدمتى اسمه « كابتاح » ، وكان ناحل الجسم وله عين واحدة وقد خيل إليه أننى ربما تشاءمت من عينه العوراء ، فقال لى إن عينه الواحـدة ستكون فألا حسنا

وعلامة خير لمستقبل عيادتى ، فسيزعم للمرضى المترددين عليها أنه كان أعمى محروما من البصر فى عينيه معا ، فاستطعت بمهارتى وسعة علمى أن أعيدله نصف بصره ، وهذه لهم آية ومعجزة .. !

وعنيت أكثر ماعنيت بتجميل الغرفة التى أعددتها لاستقبال المرضى ، فزينت جدرانها بلوحات زيتية ، تصورنى إحداها واقفا بجسمى الضئيل أمام « أمحوتب» الحكيم بجسمه الفاره الجليل ، لأتلقى منه التعاليم والتوجيهات ، على ماجرت به التقاليد ، وكان منقوشا على هذه اللوحة فى جزئها الأدنى ، هذه العبارة : أحكم وأمهر الحواريين سنوحى ابن سنموت الوحيد .

وتصورنى لوحة أخرى متقدما إلى « آمون » بالقرابين ، أما اللوحة الثالثة فكانت تمثل فرعون العظيم وهو ينظر إلىّ راضياً من السموات العُلى فى شكل طائر ، بينما يحف بى خدمه ، يقدم لى بعضهم ذهبا ، ويلبسنى بعضهم ثيابا جددا ..

كانت هذه اللوحات خليقه أن تكسبنى ثقة المرضى واطمئنانهم ، ففيها تعبيرات عن معان محببة إليهم · فصلتى بالحكيم « أمحوتب » شهادة تقدير لعلمى ، وصلتى بالإله « آمون » شهادة تقدير لإيمانى ، وصلتى بفرعون فى حياة الخلود شهادة تقدير لإخلاصى . وهذه كلها صفات إذا اجتمعت لإنسان فى مثل عملى ، كانت كافية للظفر بمرضاة الناس ، وبخاصة منهم المرضى !

ولا بد لى هنا من أن أذكر أن هذه اللوحات الجميلة البديعة الصنع كانت من عمل صديقى « تحوتمس » ، وهو حتى ذاك الوقت لم يحصل على إجازته العلمية من مدرسة الفنون ، كما أن اسمه لم يدرج فى سجل معبد « بتاح » رب الفنون والصناعات ..

وتهيأت بعد هذا الاستعداد لاستقبال المرضى ، ولكن اليوم انتهى دون أن يلم بى واحد منهم .. وكانت لا تزال عندى بقية من الذهب والفضة ، فرأيت أن أقضى شطراً من مساء ذلك اليوم بإحدى حانات النبيذ ، لأسرى عن نفسى بعض ما يثقلها من الضيق ، فلقد ساءنى أن يمضى النهار كله فى انتظار ممل على غير

جدوى ، ولكنى ، بعد ، لم أبلغ مبلغ اليأس فى المستقبل الحسن . وقد رافقنى فى شراب النبيذ تلك الليلة صديق « تحوتمس » ، وما أسعدنى به رفيقا . وكان أكثر حديثنا جدلا ونقاشا فى الشؤون العامة بالمملكتين ، فذلك كان أهم ما تدور عليه أحاديث الناس فى سائر المجتمعات والأوساط .

والواقع أن الشئون العامة كانت فى ذاك الحين مثيرة ، مغرية بالخوض فيها والتحدث عنها ، فقد امتحنت بالتغيير والتقلقل والتشعب على غير المألوف بين الناس . وكنت كلما عرض الحديث فيها أذكر ما كان يقوله حامل خاتم الملك العجوز : « إن الدنيا تقبل لتدبر » . . فهكذا كانت الحال ، بين إقبال وإدبار .

فإنه بعد أن تم تحصين جثة فرعون العظيم ضد الفناء ، ونقل إلى مقر راحته الأبدية بوادى الملوك ، وأوصدت أبواب القبر وختمت بخاتم الملك . بعد هذا ارتقت الملكة عرش فرعون حاملة فى يديها السوط وعصا الراعى ، واضعة على طرف وجهها الأسفل لحية سيادة الدولة ، متمنطقة بذيل الأسد . وكان هذا لأن ولىّ العهد « فرعون الجديد » لم يتوج بعد للجلوس على العرش . وقيل فى تعليل ذلك إنه منصرف إلى تطهير نفسه ، مشغول بالتعبد للآلهة ، استعدادا لولاية السلطان وحمل أعباء الملك . وقد فصلت الملكة الوالدة حامل أختام الملك السابق ، وأحلت محله الكاهن المجهول « آى » وأدنت مكانه منها ، فكان يقف عن يمينها علامة التشريف ورفعة القدر ، فعز بذلك مكانه ، وعلت على كبار الدولة منزلته ، ولم يكن هذا أمرا يستراح له أو يقابل بالرضى ، وكان معبد « آمون » مجال الانفعال لذلك . فالكهنة هناك يرون فى التصرفات الملكية نذير شر يتهدد سلطانهم ، فراحوا يجاهدونها بوسائلهم . فإذا جاءهم الناس يستفسرونهم أحلاما رأوها فى منامهم أغربوا فى التفسير وأفزعوا به . وإذا هبت الرياح عاصفة قالوا إنها ثورة الطبيعة فى أوان دعتها وهدوئها ، وإذا هطلت الأمطار ، كما يقع أحيانا ، فى غير موسمها ، أذاعوا أنها مظهر غضب الآلهة ، ويهولون فى هذا حتى ليقال إن مياه البحيرات والبرك بأرباض « طيبة » قد تحولت إلى دماء ، واختلفت آراء الناس

فى ذلك اختلافاً شديداً ، والقليل منهم من كان يعلم أن الـكهنة ، لا الآلهة ، هم الغضاب الساخطون ! .

أما الملكة فقد أخذت من ناحيتها تمكن لعرشها باستمالة الجيش ، فأغدقت عطاياها على الجنود وخاصة منهم جنود الثكنات من مصريين وسوريين وغيرهم ، فتوافر لها بذلك ما أرادت من توطد النظام والأمن ، ولم يكن يساورها شىء من القلق على حاميات الجيش المصرى فى الخارج ، فهى هناك ممسكة بالزمام وقابضة على ناصية الحال ، كما أن أمراء « بابل » و « أزمير » و « صيدا » » و « غزة » لا يتطرق الشك إلى إخلاصهم ، فقد أمضوا طفولتهم فى خدمة فرعون وشبوا فى بيته الذهبى ، وحين أنبئوا بوفاته بعثوا بكتبهم إلى الملكة يبايعونها على الولاء ويعربون عن بالغ حزنهم كما لو كانوا قد فقدوا آباءهم ، وبادر ملك أرض « ميتانى » فى « نهارانى » إلى توكيد علاقته بعرشها ، فأرسل ابنته الأميرة « تادوخيبا » عروسا لفرعون الجديد ، كما فعل أبوه من قبل ، ووفاءاً بعهد كان قد عاهد عليه فرعون المقدس قبل وفاته . وقد قدمت هذه الأميرة التى لم تجاوز السادسة من عمرها ، على « طيبة » فى قافلة كبيرة من الخدم والأرقاء ، والدواب تحمل الهدايا الـكثيرة الفاخرة . وقد ارتضاها الأمير زوجة له ، تحقيقا لأهداف سياسية تتعلق بسلطان بلاده ، واتساع رقعة نفوذه ، فقد كانت مملكة « ميتانى » تقوم سدا بين ثروة « سوريا » والأراضى التى تقع فى شمالها ، كما كانت بحكم موقعها ، بمثابة الحارس القوى لطرق القوافل على مدى بعيد من أرض بلاد مابين النهرين إلى شاطىء البحر ، وفى الوقت نفسه كان كهنة « سيخمت » الابنة المقدسة لآمون ، قد أعلنوا الحداد لوفاة فرعون فأغلقوا أبواب معبدها إعرابا عن حزنها الشديد . .

فى هذا ، كانت أحاديث الناس ومجادلاتهم ، وقد أخذت أنا و « تحوتمس » بأطراف من هذه الشئون ، إلى أن خلى بيننا وبينها شراب النبيذ وألحان الموسيقى ورقص الغانيات ! . .

وأصبحت بعد هذا أحيا على نظام مرسوم فى منزلى وعيادتى ، فإذا كان الصباح ،

استيقظت على صوت خادمى الأعور ، وهو يهفو باحترام إلى جانب فراشى ، واضعاً أمامى الخبز والسمك المملح وقدح الجعة ، فأنال من ذلك حاجتى ثم أستحم بالماء مجدداً نشاطى ، وأنتقل إلى غرفة المرضى لأنتظرهم أو أعالج ما بهم .

— ٣ —

أقبل النيل جياش الفيضان مصطخب الموج حتى بلغ فى فيضانه أسوار معبد « آمون » ثم عاد موادعا هادئاً ، يجرى سلسلا ليمنح الناس الخير ، ويمنح حقولهم الخصب والنماء ، ويضفى على الزروع والورود والأشجار نضرة الشباب وازدهار الحيـاة . .

ففى يوم من أيام ذلك الفصل الذى يثور فيه النيل ثم يهدأ ، ويجزع فيه الناس ثم يأمنون ، كنت بمنزلى خالياً إلى نفسى أستعرض فى ذهنى هـذا الصراع الدائم بين الأرض والسماء وبين الإنسان والإنسان ، وعلى حين فجأة رأيت « حورمحب » ماثلا أمامى ، مرتديا الملابس الكتانية الملـكية ومتقلداً قلادة ذهبية ، وحاملا فى يده سوطاً ، إشارة إلى أنه أصبح ضابطاً فى حاشية فرعون ، فحيانى قائلا : ها أنذا قد جئتك يا صديقى «سنوحى الوحيد» لتعالج أمرى !.. فقلت له مفاكهاً : ولـكن فيم العلاج ؟ ! إنى لأراك ريان العافية موفور الصحة ، وما أحسبك محتاجا إلى طبيب ! . .

فاستوى على مقعد قريب وقال : إنما جئتك صديقاً لا مريضاً ! ..

فشعرت بارتياح للقائه ، وهفت نفسى إلى حديثه وتوقعت منه الجديد والطريف من أنباء القصر وأسراره .. وجاء الخادم « كابتاح » فصب الماء على يديه ، وقدمت له كعكا كانت أمى « كيفا » قد صنعته وبعثت به إلىّ ، وسقيته أقداحا من نبيذ المرفأ وقلت له : لقد رقيت إذن ، فأنت الآن ضابط فى الحاشية الملـكية ، ولا شك أنك بهجة عيون السيدات ومهوى قلوبهن !.. فهذا الشباب المشرق فى هيئة الحلة الموشاة خليق أن يستأثر منهن بالعيون والقلوب وربما قد يكون أكثر من ذلك ! :

قال فى كآبة : إن هذا الذى تراه بعين خيالك عظيما فخما ، لا يساوى فى دنيا الحقيقة شيئاً ، ولا ترجح به كفة ميزان . وأنا — كما ترى — ضابط فى الحرس ، وهذا مكانى الطبيعى ، ولكن هنالك أيضاً ضباط صغار أحداث لا يزيد سن الواحد منهم على عشر سنوات ، قد أقحموا إقحاما ، وفرضوا على هذه الوظيفة فرضاً ، لشفاعة من أحسابهم وأنسابهم ، وهم من أقل الناس جدارة للجندية فى معانيها الصحيحة، لحداثتهم وضعف سواعدهم ، فلا يستطيع أحدهم أن يريش سهما أو يرمى به عن قوس . وقد بلغ من السخرية بوظائفهم أن كانت السيوف التى يتقلدونها لعباً من الفضة والذهب ، قد تصلح فى تقطيع اللحم عند تقديمه للطهو ، ولكنها لا يمكن أن تستعمل فى مصارعة أعداء ، أو مدافعة غزاة ، فالأمر لا يعدو أن يكونوا قد جيىء بهم أدوات زينة لا جنود حرب ، وشبيه بهم الهررة فى صور الأسود ! .. ويؤلمنى أكثر من كل شىء أن الغرور ركبهم فيطاولوننى بالحظوة التى ظفروا بها ، ويعدونها سبقاً وامتيازاً ، ويعيروننى بأن ليس لى مثل مكانتهم . وكان هـذا حال الجنود من مختلف الرتب ، فهم جميعاً منصرفون إلى شراب الخمر والخلوة الآثمة بالفتيات الرقيقات فى الحاشية ، لا يصدهم عن ذلك نظام ولا يمنعهم منه خلق . وليست الحال بالمدرسة الحربية أقل سوءاً وفساداً ، فهم فيها لايتدارسون إلا فنوناً قديمة من مخلفات بالية لا تلائم عصرنا ولا تساوق زماننا ، وضباطها المقدمون لم يشهدوا حربا ، فهم يأخذون علوم الجندية نقلا ولقانة ، ولا يعرفون منها إلا نصوصاً ونظريات ، وأمثال هؤلاء لا يثبتون أمام عـدو ولا يصبرون على ما تفرضه حقائق الحروب ، من عناء ونصب وجوع وظمأ ، ومكابدة أهوال ، فى ليل ونهار . .

قال «حورمحب» ذلك ، ونظر إلى قلادته فى ازدراء وسخط ثم استطرد قائلا : ما قيمة القلائد وعلامات الشرف إذا لم تكن تقديراً لحسن بلاء فى معركة قتال ! . وأى شىء تكون هى إذا كانت لا تعطى إلا لمجرد الانحناء بهـا أمام فرعون ؟ ! لقد انقلبت المعانى إلى نقيضها ، وسميت الأشياء بأضدادها . وهذا هو الهوان الذى

لا يقبله رجل شريف . وهذه الملكة قد بدأت بنفسها فى هذه الحياة القائمة على التمويه والابتداع ، فاقتعدت مكان فرعون ولفقت صورتها بلحية مستعارة وتمنطقت بذيل أسد ، لتبدو فى صورة رجل ، ولكن الناس جميعاً يعلمون أنها امرأة ، وأنها هى التى تحكم ، فكيف يستطيع الرجل الشجاع المحارب أن يتلقى أمراً يصدر إليه من سيدة تتهرب من مظاهر أنوثتها ، وكيف يمكن أن يوليها كل احترامه وهو يعلم أنها هى نفسها تشعر بالفرق الكبير بينها وبين الرجال ؟ ! .. فما كانت لتمسخ أنوثتها تحت أشكال الرجولة المستعارة إلا لأنها موقنة أن الرجال يرضون عن صاحب السلطان إلا إذا كان رجلا منهم . . لقد كان الجندى المحارب فى عهود الفراعنة العظام بموضع التمجيد والتكريم ، فأصبح اليوم بموضع الزراية والاحتقار . كان الناس يعجبون برجولته وقوة بأسه ، ويرهبونه فيكبرونه ، فأصبحوا لا يرون فيه شيئاً من الرجولة وقوة البأس ، فاستحالت رهبتهم منه زراية عليه ، وإكبارهم له استهانة به . ولهذا افتقدت الرغبة فى بقائى بينهم ، فإنى لأشعر أن شبابى وقوتى يضيعان عبثاً مع أولئك الضباط الأحداث الذين يلهون ولا يتعلمون ، ويهزلون ولا يجدون . وبحق الصقر ، طائرى القدس ، إن الجندى لا يكون جندياً حقاً إلا فى ميادين الحروب وبين قعقعة الأسلحة . . فهناك ، يتعلم وينصهر ويخشوشن ، ويصبح مواطناً نافعاً لبلاده ، مؤهلا للذود عن حياضها .

قال « حورمحب » ذلك ، ثم ضرب المنضدة بسوطه منفعلا ، فأطاح بكأس النبيذ .. وكان خادمى قريباً منا فأصابه من هذه الحركة العصبية ذعر شديد ، ولاذ بالهرب خائفا . .

فقلت : يا صديقى « حورمحب » إنك بلا شك مريض ، فى عينيك علامات حمى ، وهذا جسمك يتفصد عرقاً . .

قال : لا . لست مريضاً ، بل إنى رجل موفور العافيــة . وفى استطاعة يدىّ هاتين أن تحمل كل منهما رقيقاً مفرط البــدانة والثقل ويصطفقان بهما فيتحطم رأساهما معاً فى وقت واحد ... وفى وسعى أن أحمل على كتفى أحمالاً أشد ثقلاً من

ذلك وأعدو بها إلى أبعد المسافات دون أن يعتريني كلال أو تعب ، فأنا جندي ذو بأس يقدم على الهول ولا يخشاه ، وفي أي ميدان أعرف واجبي جيداً وأؤديه كاملا لا يصدني عنه جوع ولا ظمأ ، وحتى شمس الصحراء المحرقة لا تستطيع أن تفل همتي وعزمي . ولكن ذلك كله غير مطلوب في الحاشية الملكية ولا مرغوب فيه من القادة ورؤساء الأجناد في هذا العهد ، حتى أن سيدات البيت الذهبي قد استحال تقديرهن للرجولة إلى النقيض مماهو مألوف في طبيعة المرأة ، فهن يترنحن حباً وإعجاباً بأولئك الشبان الرقعاء متأودي الأعواد ، المتزينين زينة النساء ، صبغاً للشفاة وحملا للمظلات وتعرية للصدور ، المتناشدين الأغاني والألحان ، إثارة لأخس العواطف وأحقر المشاعر ... وإن هذا لهو العجب العاجب ، فكيف جاز للمرأة أن تؤثر بحبها وإعجابها ، فتى لا يفترق عنها طراوة ورخاوة ، وهي التي كانت لا تحب في الرجل إلا قوته وصرامته وشدة بأسه ، ولا ينال إعجابها منه إلا هذه الخصائص الجنسية الفوارة التي تنثال عليها دائماً نزعات المرأة ؟ ! . . فالأمور ياسيدي تجري هنا مقلوبة متضاربة المعاني ، متضادة الطباع . فالحظوة والتشريف ، والإعجاب والحب ، إنما هي لمن ذكرت من أشباه النساء . أما أنا . أنا « حورمحب » فمنبوذ محتقر ، لأني قوي البناء ، مفتول الساعد بادي الشجاعة ، صارم المظهر ، أي لأني ... رجل ! . .

وسكت « حورمحب » سارحاً ببصره في فضاء الحجرة ، كأنما يستذكر في صمته شيئاً آخر ، وفي هذه اللحظة قدمت له كأساً من نبيذ فأفرغها عجلا في جوفه وعاد يقول : كلانا وحيد يا « سنوحي » وإني أنظر فأرى أحداثاً وشيكة الوقوع ، وأرى أن المملكتين العليا والسفلى ستحتاجان في يوم غير بعيد إلى رجل في مثل شجاعتي ، أنا الذي أشعر بأنني خلقت لأكون قائداً عظيما ، ولكنني مع هذا لا أطيق البقاء على ما أعانيه من هذه الوحدة القاتلة إلى أن تقع الأحداث وتغشى الغاشية ، فينبغي أن أبرح « طيبة » ، هذه المدينة التي أفرخ فيها الفساد وتفاقم الشر ، وذل فيها الكريم الحر .

وتمهل قليلا ليستأنف الحديث قائلا : ولكن قل لى يا « سنوحى » : إنك طبيب ، وعندك يلتمس المرضى الشفاء ، فهل لى أن أجد لديك الدواء الذى يشفى قلبى من مرض الحب ؟!..

قلت باسماً : ذلك شيء يسير ، إن بضعة حبات أعطيكها فتذيبها بالنبيذ وتشربها ، تمنحك القوة التى تختلب بها إعجاب أى امرأة ، وتقذف بها قذفا إلى شبكة حبك !..

قال : لم تفطن إلى ما أريد ، فما تنقصنى القوة حتى أطلبها فى دوائك ، بل إن هذه القوة لتعذبنى وتشقينى ، وإنما أردت دواءاً يطفىء ثورة القلب ويروى ظمأه المستعر .

قلت له : لا أعرف لمثل هذا علاجا إلا أن تأخذ بالمثل الذى يقول : إدفع الشر بالشر ، فلعله يصلح لك ، وإن كنت لا أراه مما يدخل فى فنون الطب التى تعلمناها .

قال : وكيف يكون دفع الشر بالشر علاجا ، مع أن معناه ، بكل بساطة ، هو الخلاص من الشر للوقوع فى مثله ، وربما كان الشر الدافع أسوأ أثراً من الشر المدفوع ؟ . .

قلت : قد يكون هذا صحيحاً ، وقد لا يكون . على أن ظاهر أمرك يوحى بألا خوف من استعمال وسيلة من هذا النوع ، فإن ذهب الشر بالشر فقد خف عناؤك وانطفأت وقدة النار التى تؤرقك ، وإن حدث غير ذلك ، فما أحسبك قد خسرت شيئاً ، والغريق لا يفزعه البلل . .

قال : ماذا تعنى ؟ أوضح ، فقد سئمت هذه العبارات المبهمة . .

قلت : أعنى أنه من الممكن أن تحتفظ بقلبك حيًّا . فإن كانت امرأة قد ثغرت ثغرة فيه ، فأنت واجد أخرى تبرئه وتشفيه ، و « طيبة » زاخرة بالنساء الجميلات النواضر ، الرافلات فى الحلل الهفهافة البواهر ، فاختر منهن التى تؤنس وحدتك وتنفى وحشتك ، بالبسمة العذبة والعشرة الممتعة . وفى شبابك الفياض بالحيوية ، وقلادتك البراقة الذهبية ، ما يجذبها إليك ويلقى بها بين يديك . على أنى لا أدرى

ما الذى يحول بينك وبين تلك التى تعلق بها فؤادك ، وانصرف إليها هواك ؟ . -
إنه لا شىء يحول بين الرجل والمرأة التى يحبها حتى لو كانت زوجة لرجل سواه - فالحب يتسلق الجدران ويتخطى الحواجز والأسداد ، وتتهاوى أمام قوته الحصون ، وقد تبدو المرأة المحبوبة فى عين الرجل المحب أسكن منه عاطفة وأهدأ بالا ، فيساوره اليأس ويحسبها بعيدة المنال ، ولكنه لو استطاع أن ينفذ إلى خفايا نفسها ، لعلم أنها تبادله العاطفة نفسها والشعور نفسه ، وكل ما بينهما من فرق أنها تأخذ الأمر بالريث والحذر ، بينما هو يندفع فيه اندفاع اللهب المحرق ، ويطيب للمرأة فى مثل هذه الحالة أن تتخذ من سكونها وهدوئها سلاحا تؤجج به وقدة ناره ، فهذه طبيعتها. ولكنها ما تلبث أن تلقى هذا السلاح استسلاما إذا ما طغت عليها عاطفة الحب ، وهى لا محالة طاغية . ما من امرأة تشعر أن رجلا يحبها أو يفكر فيها تفكير المحبين ، إلا اجنحت إليه ، وأقبلت بقلبها عليه . وقد قيل إن المرأة حين تحب تروض نفسها أول الأمر على السكون ، ولكنه السكون الذى يسبق العاصفة ، فإن عصفت فهى متقلبة فى اتجاهاتها متموجة فى اندفاعاتها ، والرجل يستطيع دائماً أن يحرك فى حياتها الرياح ويثير العواصف ، ويقال فى ذلك إنه كما تذيب الحرارة الشمع ، فكذلك لا يتسلط رجل على امرأة بحرارة حبه إلا أذابها ذوبان الشمعة .

قال : « حور محب » : إن ثرثرتك هذه تبعد كثيراً عن نقطة البحث الرئيسية ، فالمرأة التى ملكت لبي واستوت على قلبي ليست متزوجة وليست فى شىء مما تذكره عن النساء . فهى لا تكاد ترانى ، مع أنى تحت نظرها ، ولا تكاد تلمس يدى مع أنى أهيىء لها مقعدها وأساعدها فى الجلوس عليه .. أرأيت كيف أن أمرى معها جد مختلف عن تصورك وتقديرك ؟

قلت له : لا شك أنها من سيدات الطبقة العالية .

قال : أرى الكلام عنها غير مجد ، إنها فى صورة القمر جمالا ، وهى مثله علوا وارتفاعا ، فليس إلى اللقاء بها من سبيل ؛ ولهذا كان الرأى عندى أن آخذ نفسى بنسيانها ، ولا يتحقق لى ذلك إلا بعيدا عن «طيبة» ، فلو بقيت قريبا منها . فإنى ملاقٍ

حتى كمداً ويأساً .

قلت له فى خبث : على أى حال ، لا أظنك صريع جمال الملكة الوالدة ، فهى أكثر بدانة وأكبر سناً من أن يعلق بها قلب شاب مثلك متين البناء مفتول العضل ؟ .

فقال بازدراء : ويمكنك أن تضيف إلى هذا التخمين البارع أن لديها كاهنها المفضل الذى تصله بها صلة الرجل بالمرأة فى أدق ما يكون بين الزوج وزوجه ؟ فرفعت يدى مقاطعاً ، وقلت له : حسبك يا هذا ، لا تسترسل هكذا فى الحديث عنها . إنى ليغلب على ظنى أنك شربت من آبار كثيرة مسمومة منذ قدومك إلى « طيبة » .

فمضى يقول وكأنه لم يسمع : إن مالكة قلبى ليس كمثلها فى النساء نضارة وبهاءً ، واعتدال قوام ، وسحر عيون ، إنها عذراء لم يمسسها بشر . إنها « با كيت آمون » ، ابنة فرعون ، فهل عرفت الآن لماذا صرت مجنوناً أو كالمجنون؟! لقد كشفت لك عن سرى الدفين الذى لم أبح به لأحد ، وحذار أن يجرى على لسانك ، وحاول دائما ألا تذكره بينك وبين نفسك ، فإن لم تفعل فلن أتردد فى إطاحة رأسك عن جسدك ! .

وهنا اعترانى الفزع ، ولم أر فى « حورمحب » إلا أنه قد استحال مخلوقا مسلوب العقل حقا ، فلا يمكن أن يخطر بالخيال والتصور أن رجلا فى مثل تفاهة شأنه ووضاعة أصله ، يرتفع ببصره ، بله غرامه ، إلى ابنة فرعون ، ثم يشغل نفسه بها كما لو كان يجوز أن يبلغ منها مبلغ الرجل العاشق من المرأة العاشقة ، فتلك جرأة لا تصدر إلا عن إنسان مخبول .

وقلت له مستغربا : أنسيت أن ابنة فرعون لا يحق لمخلوق من عامة الناس أن يضع قلبه فى طريقها إلا إذا كان قد أراد أن تسحقه تحت قدميها ، إنها حينما تشاء أن تتزوج من إنسان ، فلن يكون ذلك الزوج إلا أخاها ولى العهد ، ليرفعها إلى مكان الملكة شريكته فى الملك ! وسيقع هذا ، فقد كانت ونحن إلى جانب فراش

أبيها وهو يحتضر ، تضع نظرها على أخيها فلا ترفعه عنه ، ثم هي فتاة رهينة . يجتمع الموت والفراغ فى نظراتها ، فأين أنت منها يا صديقى ؟ ! وأخيراً فإن تكن جاداً فيما تقول ، فليس ثم من وسيلة إلا أن تأخذ سبيلك هربا ، راحلا عن « طيبة » التي لم تعد بلداً يطيب لك المقام فيه .

قال « حورمحب » : أعرف هذا كله ولا أجهله ، وما كان أمرى ، على ماتقول ، جرأة وتطاولا فيما لا يجوز فيه الجرأة والتطاول ، إنما كان خفقة قلب لا سلطان للعقل عليه ، قلب لا يؤمن بالفوارق الإنسانية لأنه لا يعرفها ، إن للقلوب عيونا غير عيوننا ، وهى تضطرب فى صدورنا اضطراب الضال فى الصحراء ، قد تعلقت عينه بالأنجم الساطعة فى جوف السماء ، وكثيراً ما يدركها الردى وهى لا تدرى ، فلا حيلة لى فيما كان ولا تدبير ، وإنى لأوثر أن نعود إلى ما كنا بسبيله من حديث الشر الذى يدفع الشر ، فما فى سواه يكون عزائى وسلوتى . إن امرأة أخرى ، آية امرأة ، يمكن أن أخادع بها قلبي الحائر الضال ، على أن تكون فى صورة فتاة القصر ، مرتدية مثلها ثوبا من الكتان الملكى ، وعلى شفتيها وخديها الطلاء الفاتن اللون ، ويعلو رأسها الشعر المستعار مصففا لامعا .

فقلت له وعلى وجهى ابتسامة مشرقة : حسنا ، إنك الآن تتكلم كما يتكلم العقلاء .

قال : إصغ إلىَّ يا « سنوحى » ، إن من بين زملائى الضباط واحداً اسمه « كيفتا » من أهل جزيرة « كريت » كنت قد اشتبكت معه فى شجار ، ثم تصافينا وأصبح يولينى الكثير من الاحترام ، وقد دعانى لأصاحبه اليوم إلى حفلة استقبال بمنزل قريب من معبد لأحد آلهة رؤوس القطط ، ولا أذكر الآن اسم ذلك الإلـه ، لأنى لم أكن راغبا فى تلبية الدعوة .

فاستدركت قائلا : لعلك تقصد الإلـه «باست» ، وإنى لأعرف معبده ، وهو مكان لا يخلو أبداً من النساء الجميلات ، فهن يتواردن عليه دائما ويقدمن القرابين لهذا الإلـه ويصلين له صلوات حارة ليسر لهن اقتناص المحبين والعشاق من السراة

والأثرياء . وإنك لواجد فيه الدواء والشفاء .

قال : فلنذهب معا . فما أستطيع أن أذهب وحدى : إنى أجهل سلوك أهل « طيبة » وبخاصة نساؤها ، وأنت ، الذى ولدت ونشأت هنا ، أعلم منى بذلك وأوسع إحاطة ، ولهذا أرجو أن تكون رفيقى .

وكان « حورمحب » ، فى دعوته إياى على أساس معرفتى بأحوال النساء ومجتمعاتهن ، يجهل بلا شك أننى فى ذلك لا أزيد على معرفته شيئا ، ولكنى وقد أثملنى النبيذ ، خجلت ألا أجيب دعوته . فأمرت خادمى « كاپتاح » أن يعد لنا محفة ويستأجر حامليها ، فجاء بهم وحملونا عليها إلى معبد « باست » ، فلما دنونا منه تراءت أضواء المشاعل والمصابيح متوهجة ساطعة أمام المنزل الذى نقصد إليه . وعند ذاك أدرك حملة المحفة أنهم قادمون بنا إلى مكان يطمعون أن ينالوا عنده أجراً مضاعفاً ، فهو المثابة التى يتوافد عليها الأغنياء وطلاب اللذات ، فصاحوا مطالبين بذلك . ولكن « حورمحب » واجههم بسوطه مهدداً ، فلزموا الصمت خائفين .

ودلفنا إلى داخل المنزل فتلقانا الخدم متهللين ، وصبوا الماء على أيدينا ، ورشقوا الزهور على صدورنا . وكان جو المكان يتنفح برائحة الطعوم الشهية ممتزجة برائحة الزهور العطرة . وفى خطوات متئدة رصينة انتهينا إلى البهو الكبير ، وكان حاشداً بمن سبقنا إليه من رجال ونساء ، يجالس بعضهم بعضاً ، ويتساقون النبيذ فى لذة وإمتاع ، وعلى وجوههم جميعاً فيض من الصفو والانشراح . وإنى لأطوف بنظرى فى هذه الوجوه المتضرة قبل أن نجاوز مدخل البهو ، إذا به يقع فجأة على وجه السيدة التى خفت لاستقبالنا ، فيقف على هذا الوجه الطافح بهاءاً وجمالا ولا يتحرك ، إنها ترتدى ثوباً كتانياً ملكيا رقيقا يشف عن أعضاء جسمها اللطاف الفاتنة ، فتلوح فيه كأنها إلهة ، وعلى رأسها شعر مستعار كثيف أزرق اللون ، وقد افتنت فى زينتها ، فحاجباها مزججان بالسواد ، وطرفا عينيها مصطبغان باللون الأخضر ، واللآلئ الباهرة المتكاثرة بها كان أكثرها من اللون الأحمر ،

فكانت بهذه الزينة كأنها باقة من زهور الربيع الريانة ، تبدت فى ألوانها الزاهية ذلك إلى عينيها الخضراوين خضرة مياه النيل تحت حرارة شمس الصيف .

نظرت مبهوراً إليها ، وأدركت لفورى أننى أقف وجها لوجه من السيدة الرشيقة الجميلة التى كنت قد لقيتها فيما مضى بين أعمدة معبد « آمون » ! نعم : إنها هى « نفر نفر نفر » بلا ريب . لقد عرفتها ، فإن صورتها لمطبوعة على صفحة ذهنى لم تمحها الأيام ولا الأحداث ، ولكنها بدت كأنها لا تعرفنى ، ولا تذكرنى . فقد اختصت « حورمحب » بحفاوتها وابتسامها ، ولم تمنحنى شيئا منهما : وحياها هو برفع سوطه ثم شغل عنها بصديقه الضابط « كيفتا » الذى أسرع إليه ليضمه إلى صدره ويبالغ فى الترحيب به . .

وأخذ كل منا مكانه فى هذا المنتدى الزاخر بفنون اللهو والطرب ، وقد لعب الشراب دوره فى رؤوس كل من فيه ، فأوانى النبيذ متناثرة على الموائد ، والزهور مبعثرة على الأرض ، والجميع يتصايحون ويتضاحكون ويخلطون فى أحاديثهم ، وآلات الموسيقى مشدودة الأوتار تضرب عليها أيدى العازفين السوريين ، فتجلجل أنغامها وتعلو على أصوات النشاوى والمخمورين . .

وكدت أكون وحدى لولا أن هتف « حورمحب » باسمى ، فأقبل علي « كيفتا » ، فضمنى كذلك إلى صدره واحتفل بى كصديق ، وهنا التفتت تلك السيدة التى لم أشك فى أنها « نفر نفر نفر » ، وقالت : سنوحى ؟ . لقد عرفت مرة ، واحداً هذا اسمه . . كان يتعلم الطب ليصبح طبيبا . . فقلت وأنا أنظر إليها وجسمى يختلج اختلاج المحموم : نعم . أنا هو « سنوحى » .

قالت متخابثة أو متنكرة . لا : لست إياه ! . . إن « سنوحى » الذى عرفته يومذاك كان شابا صغيراً ذا عينين صافيتين كعينى الغزال . . أما أنت فرجل تشوب جبهتك بعض التجاعيد ، وليس فى وجهك من وجه « سنوحى » هدوؤه وبساطته . .

فمددت يدى مشيراً إلى الخاتم ذى الحجر الأخضر الذى أزين به إصبعى ، ثم

معتقداً أن فيه الدليل الذى يقنعها ولا يجدى فيه الإنكار والمراء ، ولكنها هزت رأسها متظاهرة بالشك والتردد ، وقالت : يمكننى الآن أن أقول إننى أستقبل بمنزلى لصاً ، قتل « سنوحى » الذى عرفته ذات يوم ، واستلب منه هذا الخاتم الذى كنت قد أهديته إليه علامة صداقة ، وتذكار محبة ، ويمكننى كذلك أن أقول إنك سرقت مع خاتمه اسمه ، وجئتنا الليلة بالاثنين معاً ! ..

ثم أتبعت قولها بحركة معبرة عن أسفها على « سنوحى » الذى تحسبه قد فارق الحياة مقتولا بيدى ، أنا الذى سرق خاتمه واسمه ! ..

وشعرت بحرارة قاسية فى هذا الموقف الغريب ، فلم يسعنى إلا أن أنزع الخاتم من إصبعى وأقدمه إليها قائلا : هذا هو خاتمك فخذيه ، وسأذهب عنك لساعتى حتى لاأثير فى نفسك ألما أو أسبب لك ضيقا ! ..

ولكنها عاجلتنى قائلة : كلا .. لاتذهب ..

وأدارت يدها بخفة على رأسى ، كما فعلت مرة منذ سنوات .. وعادت تقول فى حنان وتلطف : نعم . إبق هنا ..

ومن غير وعى ، بقيت ، فلم أجد الشجاعة لأبرح المكان ، فقد كان قلبى ، الذى تسيطر عليه هذه المرأة ، هو المسيطر على إرادتى وحركاتى . وقد رضيت عن نفسى كثيراً بهذا البقاء ، ليمتد به قربى من المرأة التى أحببتها بكل جارحة من جوارحى ، وكنت أعرف مع ذلك أن جسمها قد يحرقنى أشد مما تحرق النار .

وأخذ الخدم يدورون علينا بالنبيذ ويصبونه فى كؤوسنا ، ولم يكن النبيذ ألذ وألطف مذاقاً فى فمى منه فى تلك اللحظات ، وكان رفاق اللهى قد أطالوا وأسرفوا فى تعاطيه ، فأخذ القيء إحدى السيدات ، فأسرع أحد الخدم إليها بوعاء تتجشأ فيه ، ولكنها كانت قد أفرغت مافى جوفها قبل أن يصل إليها ، فسال على ردائها ، وتضاحك الحاضرون عليها .. ولكنها عندما أفاقت من غشيتها غادرت المكان فأبدلت ثيابها وعادت لتواصل شرب النبيذ ، وتتنقل بيننا وهى تتثنى وتمايل وتغنى وتهلل ، حتى انتهت إلى « حورمحب » فناولته كأساً وجلست إلى جانبه .

وأخذنا يتبادلان الحديث فى نشوة وإيناس ، وقد خيل إلىّ أنها بلغت من نفسه مبلغا أحاله إنسانا آخر أقرب إلى الرقة منه إلى الغلظة ، وإلى الرجاء منه إلى اليأس ، فاسترحت إلى ذلك ، وتمنيت أن يكون قد وجد فى صاحبته الدواء المنشود .

وعدت إلى نفسى لأحلق بها فى آفاق السعادة التى وافتنى على غير ميعاد ، فى وجه « نفر نفر نفر » ..

كنت سعيداً بهذا اللقاء المفاجىء الذى أيقظ بين جنبى قلبا عاشقا كان قد أغفى ..

ولكنها سعادة لم يطلع نجمها إلا ليأفل ، ولم أتنسمها عبيراً منعشا إلا لأتلقاها بعد إعصاراً مدمراً .. فليتها لم تكن ! . .

— ٤ —

نظرتُ إلى « نفر نفر نفر » وهى جالسة إلى جانبى ، وأطلت فيها النظر . لقد كانت أكبر سنا مما رأيتها لأول مرة ، وكانت ابتسامتها تتلألأ على فمها ، ولكن عينيها الخضراوين كانتا قليلتى الابتسام ، بل لعلهما كانتا جامدتين ، على غير ما كنت قد شِمته فيهما من قبل . إن السنوات التى باعدت بيننا قد أحدثت فى حياتها شيئا ، ولكنها على التحقيق قد زادتها فى عينى وفى قلبى بهاءاً وسحراً .

قلت لها متسائلا : أهذه دارك ؟ ! .

أجابت : إنها دارى ، وهؤلاء ضيوفى ، فإنى لأستضيف الكثيرين كل مساء فراراً من الوحدة .

وشعرت كأن هاتفاً من أعماق نفسى يستحثنى لمساءلتها عن أمور أخرى قد يكون العلم بحقائقها مؤلماً ، ولكننى آثرت القصد فى ذلك بقدر ما يسمح به الموقف ، وبدأت بسؤالها عن « متيوفر » فأجابت وهى عابسة الوجه : لقد مات ! . . مات « متيوفر » بعد أن أساء التصرف فى أموال فرعون التى أعطاها أباه ليقيم بها معبدا .. أجل . لقد مات ، ولم يعد أبوه رئيساً للبنائين فى القصر الملكى .. كيف لم تعرف هذا ياسنوحى ؟! . .

قلت مبتسما : إن كان ذلك صحيحاً ، فقد انتقم «آمون» منه .. إن « متيوفر» كان يسخر من اسم « آمون » ولا يخشى لعنته وغضبه ! ..

ثم ذكرت لها بعض ما أذكره من تصرفاته ، كبصقه هو والكاهن على تمثال « آمون » عندما كانا يقومان بتنظيفه ، واستباحتهما عطوره المقدسة باستعمالها فى تطييب جسميهما ، إلى غير هذا مما يدل على ضعف الإيمان والاستخفاف بالمقدسات الإلـهية ! . .

فافتر ثغرها عن ابتسامة باهتة . وراحت تحدجنى بنظراتها الغامضة فى صمت . وفجأة قالت : إذا كنت لم تزل تفكر بى حقا ، فلماذا لم تسع إلى زيارتى قبل الآن ؟ ! . ألا ترى أنك قد أخطأت إذ ترسل نفسك على هواها مع نساء أخريات ، وفى إصبعك خاتمى الذى أهديته لك لتذكرنى ، فنسيتنى لتذكر غيرى ..

قلت لها : كنت صبياً يوم لقائنا الأول ، وقد شغفت بك حباً ، ولكننى خشيتك وخفت منك ، ولازمنى هذا الشعور بعد ذلك ، فكنت لا أذكرك إلا فى رهبة ، ولا أفكر فيك إلا فى وجل .. وقد لا تصدقيننى إذا قلت لك إنك المرأة الوحيدة التى تعيش فيها ، منذ ذلك الحين وإلى الأبد ، أحلامى وأفكارى ومشاعرى جميعاً .. وكانت أمنيتى العزيزة التى أمسى وأصبح عليها ، هى أن تتاح لى فرصة لقائك مرة ثانية ، وهاقد تحققت أمنيتى ، وإننى بها لجدُّ سعيد ..

فبدت كأنها فى ريب مما أقول ، وعقبت قائلة : أكبر ظنى أنك تبعد كثيراً عن الحقيقة ، فما أنا فى عينيك الآن إلا المرأة التى انفصلت عن شبابها وجمالها ، واعتصرتها السنون فلم تبق منها إلا آثار ربيع زائل ، وشباب حائل . . قل إنك تصانعنى لترضينى ، فذلك أدنى إلى الحق الذى يظاهره منطق سلوكك طوال هاتيك السنين ! . وإلا فكيف أبحت لنفسك أيها العاشق الواله أن تداول بين النساء ، ولا تحاول مرة أن تفتش عن المرأة التى تزعم أنك تعيش فى ذكراها ؟ ! المرأة التى يجمعك بها الليلة محض الصدفة والاتفاق ! . . أو أنك كنت قد تقصيت أنباءها فقالوا لك إنها ماتت ، فرحتَ تنشد السلوى فى أحضان غيرها ؟ . ما أسوأ

شأن الرجال حين يكذبون ويلفقون !..

قالت ذلك ، وعيناها تلمعان ببريقهما الساحر الذى افتقدته فيهما منذ حين . وتجلّت فى نظرى أكثر جمالا وأشد إغراءاً ، فقلت لها وقلبي يخفق خفقا متلاحقا: أقسم لك بالآلهة ومقدساتها جميعا ، أننى قد صدقتُك القول ، فلم أعرف من النساء إلا اللواتى يترددن على عيادتى ، وهن يختلفن وجوها وأعماراً وعقولا ، ولكنهن جميعا مريضات جئن فى طلب الشفاء ، لا لشيء غيره . وكنت بطبيعة عملي وطبيعة واجبي أنظر إليهن نظرة واحدة بلاخلاف ، نظرة الطبيب إلى المريض... ولعل من بينهن من حاولَت أن تحرك قلبى ، ولكنه ، وأقسم لك مرة أخرى ؛ كان كالأصم الذى لايسمع ، وكالجماد الذى لايتحرك . .

قالت : ربما كنت فى صباك الراحل ، نافراً من الناس ، فطاب لك المقام فى عزلة عنهم ، وأتيح لك بذلك أن تكتشف فضائل العيش وحيداً ! . . ثم ضحكت ، ولمستنى بيدها لمساً أجج اللهيب فى قلبي ، وقالت : هيا بنا نشرب النبيذ معا ، فإنى لأشعر بأنك مؤنسي يا سنوحى !..

فأخذنا نتبادل الكؤوس والأحاديث ، وليس على وجه الأرض من هو أسعد منى قلباً فى ذلك الوقت . .

وآذن الليل بالرحيل ، فانصرف الضيوف تباعا على محفاتهم.. وكان «حورمحب» قد استغرق فى متعة جلوسه إلى السيدة التى اختارته رفيقا دون الآخرين ، وبدا أنها استهوت فؤاده الشارد ، وأروت نفسه الصادية .. فعند ما نهضت لتنصرف ، خلع قلادته ليقلدها بها ولكنها أبت عليه ذلك قائلة : إنها سيدة شريفة وليست من بنات الهوى ، وخرجت ومضى فى إثرها ، ولم أعرف ماذا كان من شأنهما بعد هذا . .

وخلت الدار من جميع الرفاق ، وأومأت « نفر نفر نفر » إلى خدمها فجعلوا يطفئون بعض المصابيح ، ويرتبون المقاعد وينظفون القاعة ، ولم يبق إلا أن أنصرف بدورى ، فقد كانت هذه الحركة إعلانا بهذا ودعوة إليه ، فوقفت لأقول

لها : ينبغي أن أنصرف أنا أيضاً ؟ . .

قلتها ، وقلبي يضطرب جزعا ، فقد كنت أرجو ألا يكون لهذا الليل آخر ، ولا لهذا اللقاء نهاية ! . .

وسألتني وهي تصطنع الدهشة : وإلى أين يكون منصرفك الآن ؟! .

قلت لها : لن أبعد عن هذا المكان كثيراً ، فسأقيم من نفسي حارسا بالطريق على باب دارك .. فإذا انبلج الصباح ذهبت الى كل معبد في « طيبة » لأقدم القرابين للآلهة شكراً لها على لقائنا بعد يأس ، ثم أمضي إلى الحدائق فأقطف الزهور والورود ، وأنثرها فوق الطريق الذى تسيرين عليه ، ثم أبتاع العطور لأعطر بها أعمدة هذه الدار الفيحاء .. الدار التي تضم معبودتي المقدسة ! . .

فهشت وقالت : أما الزهور والعطور فعندى منها الكثير ، ولا أرى إلا أن تبقى ، فأنت وحيد وقد أسرفت فى شراب النبيذ ، فإذا خرجت مخموراً فإن قدميك من حيث لا تدرى قد تدفعان بك إلى نساء أخريات ، وهذا مالا أرضاه لك ، ولا أسمح به ! .

كانت كلماتها إشماعات تنثال على نفسي الداجية فتملأها نوراً ، وفى بهجة غامرة هممت بضمها إلى صدرى ، ولكنها دفعتني عنها قائلة : إن عيون الخدم تتلصص علينا !. وقادتني إلى حديقة الدار ، إلى الزهور يفوح عبيرها منعشا ،وإلى القمر يكسوا خمائلها حلة فضية رائعة البهاء . . . ويالها من حديقة ، لم أر مثلها أزدهاراً وجمال تنسيق !. .

كانت زهرات « اللوتس » تتدلى حانية على حفافى بركة الماء السلسل ، كأنها قلوب العاشقين تنهل من نهر الحب ، أو أرواح المؤمنين تصلى خاشعة أمام هيكل مقدس... وكان الماء يترسل فى حنايا البركة ترسل الأمل فى هذه القلوب الولهى ، أو ينعكس صافيا على جنباتها المزركشة بالأحجار الملونة ، كأنها المرآة ينعكس عليها الشباب زيان الحيوية ، عذب الأحلام ! .

إلى هذا الفردوس الجميل ، قادتني « نفر نفر نفر » ، لنأخذ منه مجلسنا بعيداً

عن عيون الرقباء والمتلصصين ؟ .. وبإشارة منها ، أقبل الخدم فصبُّوا المـاء على أيدينا وحملوا إلينا أوزة مشوية ، وفواكه معسولة ، ودعتني إلى مشاركتها هـذا الطعام الشهي ، فلبيت دعوتها مسروراً ، ولـكن حلقى فى تلك اللحظة كان جافا فلم أزدرد من الطعام إلا قليلا ، ولعلِّي كنت موفور السعادة ، فلم أجد فى نفسي حاجة لشيء آخر ! .. ولـكن « نفر » راحت تلتهم طعامها كما لو كان الجوع قد استبد بها أياما ، وكانت تنظر إلىَّ خلال ذلك نظرات تزيدنى شغفا وهياما ، فأدنو منها لأحتضنها فتنحيني برفق قائلة : لماذا كانت « باست » إلهـة الحب على صورة قطة ؟!.

قات : ليس يعنيني الآن أمر القطط أو الآلهة !.. وإنما الذى يعنينى هو أنت ، أنت وحدك . وبسطتُ يدى على كتفها ، فنحَّتها كذلك وقالت : قد تستطيع عاجلا أن تلمسنى ، وقد تضع يدك على صدرى ، فيهدئ ذلك من روعك ، ولـكن يجب ، قبل كل شيء ، أن تستمع إلىَّ لتعلم لماذا كانت القطة رمزاً لحب المرأة ؟!.. لقد كان ذلك لأن كف القطة ناعمة لينة ، ولـكنها تخفى تحت نعومتها مخالب حادة ، تنشبها فتجرح وتدمى وتميت .. وإن المرأة لعلى هذا المثال ، نعومة مظهر ، وقسوة مخبر ، فكلتاهما تشعر باللذة فى تعذيب فرائسها ، والقضاء عليها ! .. هـذه هى الحقيقة أصارحك بها ، لتأخذ حذرك ، فما أريد لك إلا الخير والسلامة ! .. ثم أخذت إحدى يدىَّ وحركتها على صدرها ووضعت الثانية على بطنها ، فارتجفتُ وطفرت الدموع من عينى ! . فدفعتنى عنها مرة ثانية ، ومدت يدها لتصافحنى قائلة : ويمكنك الآن أن تذهب على ألا تعود ، فإنك إنْ بقيت ، أو عدت وأبيت إلا أن تندفع فى مجرى حياتى ، غير مستفيد بنصيحتى ، فإنما تسلم نفسك إلى الأخطار ، وتلقى بها فى أتون النار ، وعندئذ تندم حيث لا يجدى ندم ! ..

قالت هذا وتركتنى لأنصرف ، ولـكننى لم أفعل ، فقد تسمَّرت فى مكانى ، كأنى إحدى شجرات الحديقة قد امتد جذعها إلى غور بعيد من الأرض ، وكان حديثها عن القطة والمرأة خليقا أن يخيفنى منها ، ولـكننى لم أشعر بخوف وإنما

شعرت بعكسه ، شعرت بالطمأنينة والثقة والرغبة الملحة فى التعلق بها ، وقلت لنفسى : إذا كانت صادقة فى تحذيرى منها كامرأة ، لها مخالب القطة القاتلة ، فهى إذن تحبنى ، وإلا فلماذا تجنبنى موارد الهلكة ، ولماذا لا تخدعنى كما تخدع أية امرأة ، أى رجل !؟.. إنها تقول : فما أريد لك إلا الخير والسلامة — وهى عبارة تحمل كل معانى الحب والإيثار ، وإذ كانت هذه منزلتى عندها ، فكيف أستطيع أن أحيا بعيدة منها ؟ ! ومتى كان للخوف واتقاء الخطر مكان فى دنيا الحب الصادق ؟ ! .

تجاوبت هذه الخواطر متدافعة فى كل مسالك تفكيرى ، ومن ثمّ كان القرار الذى لم يكن منه مهرب ، وهو أن أبقى متصلا بها أقوى ما يكون الاتصال ، وليكن بعد ذلك ما يكون ...

وأعربت لها عن هذا القرار الحاسم ، وعينى مبللة بالدمع ، تأثراً بهذا الموقف الرهيب !..

فقالت : إذن ، فليكن ما تريد ! .. ولكنى أرى الجو هنا شديد البرودة ، ثم صحبتنى إلى غرفتها ، حيث سريرها المصنوع من العاج والأبنوس ، وخلعت رداءها وفتحت لى ذراعيها ، وكنت كأن جسمى كله قد أصبح رمادا من حرارة جسمها ، وتثاءبت متراخية واستسلمت . .

وعدنا إلى ما كنا فيه ، نتبادل أعذب الأحاديث ، إلى أن بدأت تتراخى مجهدة ، وتترنح ترنح المتعب ، فأشفقت عليها ، ونهضت مستأذنا فى الانصراف ، وقفلت عائداً إلى منزلى موفور السعادة والهناءة . .

— ٥ —

ولم تغمض لى عين حتى الصباح ! .. كنت أدفع النوم وأغالبه حتى لا يحول بينى وبين ذكرى هذه الأمسية التى كانت كأنها الحلم الممتع الذى أخشى أن يمضى فلا يعود ...

وأمرت خادمى « كاپتاح » أن ينبئ المرضى بأنى لا أستطيع أن أباشر اليوم عملاً ، وفى وسعهم — إذا شاءوا — أن يذهبوا إلى غيرى من الأطباء ..

فتلقى « كاپتاح » هذا الأمر مشدوها مغيظا ، فما تعوّد أن يرانى متثاقلا فى لقاء المرضى ولا مصروفا عنهم ولا زاهداً فيهم على هذه الصورة من قبل ، ذلك إلى أنه كان يحرص حرصاً شديداً على أن يزداد عددهم ، ليزداد اطمئنانا على دخل العيادة وعلى فائدته منها ، ولكننى لم أحفل بهذا ، وطلبت منه أن يدعو فى الحال « حلاقا » فجاء وأصلح من شعرى ، وانتقلت إلى « الحمّام » فقضيت به بعض الوقت مغتسلا ، ثم ارتديت فى عجل أجمل ملابسى ، وأفرغت عليها أزكى العطور وأطيبها ، واستدعيت محفة وطلبت من حامليها الإسراع بى إلى بيت « نفر نفر نفر » ...

لقد كانت هى كل شئ فى حياتى ، فلأمض إليها مسرعا فى هذا الوقت الباكر ، لتكون أول زهرة أتنسم عبيرها ، ولأكون أول سعيد يحظى بلقياها ..

واستقبلنى خادمها ، وسار أمامى إلى داخل الدار وأشار إلى حجرتها الخاصة ، فاجتزت بابها ، وكانت وقتذاك تجلس إلى المرآة تنسق زينتها ، فما أن رأتنى حتى أخذتنى بنظرة بادية الصرامة والقسوة ، وقالت : لماذا جئت الآن يا سنوحى ؟ . . إنك لتضجرنى بهذا . .

قلت لها : لم أطق صبراً على البعد عنك ياسيدتى ...

وخطوت لأقترب منها ، فقالت مغلظة : مكانك .. ليس وجودك اليوم بالأمر المرغوب فيه ، فإن لى حياتى الخاصة التى لا ينبغى لك أن تقتحمها وتتدخل فيها على هذا النحو ! . . أما وقد جهلت هذا أو تجاهلته ، فمن حقى أن أنبهك إليه لتلزم حدك ، وأزيد على ذلك فأخبرك بأن تاجراً من « صيدا » قدم على « طيبة » أخيراً ، يحمل جوهرة ثمينة لإحدى الملكات عثر عليها فى أحد القبور ، وإنى لأتزين كما ترانى ، استعداداً للقائه فثمة موعد بيننا على ذلك فى هذا النهار ، وسأفرغ له وحده لأنال هذه الدرة الغالية التى سيجيئنى بها والتى طالما تمنيت أن يكون

لى مثلها ؟.. أرأيت كيف أنه من الحماقة — إلى حد بعيد — أن أجعل لك مكانة عندى فى هذا اليوم ؟..

وتركت مكانها من المرآة لتجلس متمددة على مقعد مستطيل ، وجاءت خادمتها لتدلك أطرافها ، بينما وقفت أنا ، غير بعيد منها ، مبهوراً والوجد يقيم قلبي ويقعده .. فلما انصرفت الخادم ، التفتت نحوى وقالت . فيم البقاء يا سنوحى ؟ لماذا لم تذهب ؟ إننى أريد أن أبدل ملابسى ؟ . .

إنها تدعونى إلى الخروج ، بل تأمرنى به ، ولكنى بقيت جامدا فى مكانى كأنى لم أسمع ، ولم أحتمل آخر الأمر قسوة الموقف ، فقلت لها : لا أستطيع أن أخرج ، كما لا أستطيع أن أرى شخصاً آخر يغلبنى عليك وينتزعك منى ، فلن يكون هذا ولو لقيت حتفى فى سبيله ؟ ..

قالت : أتمنعنى من الاتصال بالناس ، وتريدنى لك وحدك ؟ . هذا مالا قدرة لك عليه ، ولأفرض أنى أبحتك نفسى هذا اليوم كله ، فقضيناه معاً فى شراب ومتعة ، فأى شىء أظفر به منك بعد ذلك ؟ .

قلت لها ، وأنا مأخوذ بفتنتها الساحرة : حقًّا . لا أملك شيئاً مما ينبغى أن أقدمه إليك ، ولقد تمنيت لو أنى استطعت أن أشترى لك الجوهرة التى رفعت شأن صاحبها عندك ، وجعلته اليوم بالمحل الأثير لديك ، لا . بل إننى لأتمنى لو استطعت أن أحمل إليك كل ما فى كنوز الدنيا من جواهر ولآلىء وذهب ؟ . تمنيت أنى أملك هذا كله لأضعه بين يديك قرباناً إلى مرضاتك وحبك ، ولكن وا أسفاه ...ما كل ما يتمنى المرء يدركه . .

واتجهتُ إلى الباب لأخرج ، فاستوقفتنى قائلة فى شىء من الرقة : إنى راثية لحالك ، آسفة عليك ، والواقع أنك أعطيتنى أعز ما فى الوجود على إنسان ، وهو القلب والحب ، وهما لا يوزنان بمال ولا يقدران بثمن ، ولا يرجحهما جبال من ذهب . . على أنهما مع هذا لا يقضيان حوائج الناس ، ولا يحققان مطامعهم فى الحياة ، وما أراك على أى حال فقيراً ، فأنت طبيب تملك بيتاً وعيادة ، ولك من

عملك معين لا ينضب ! ...

قلت لها فى غير تردد : فليكن لك كل هذا يا « نفر » إذا شئت ، وإن كان بالنسبة إليك يعد شيئاً تافهاً ، إن بيتى ليحتوى على الكثير النافع مما يحتاج إليه الأطباء ، ومن الممكن أن تجد فى « دار الحياة » طالبا من أبناء الأثرياء ، يدفع فيه ثمنا حسنا ، فليس إلا أن تأمرى بأن أفعل ، فيتم الأمر على ما تشاءين .

قالت فى زهو : لايسعنى إلا القبول مادمت أنت راضيا عن هذا ، وعليك إذن أن تمضى إلى مسجل العقود لينقل هذه الأشياء إلى اسمى ، فإننى كما تعلم أعيش وحيدة وأخشى المستقبل المجهول ، ويهمنى أن أتزود له ، فمن يدرى فقد تتخلى عنى يوما ياسنوحى ؟.

ووقع هذا من نفسى موقع الاغتباط ، كأنما قد أزجت إلىَّ به ثراءً عريضا ، وغنى سابغا ، فانطلقت لفورى دون أن أتكلم ، فقد جمد لسانى فى حلقى لفرط سرورى ، وقصدت إلى المسجل القانونى الذى قام بحصر الأمتعة والأدوات ، وأعدَّ الوثيقة الناقلة لملكيتها إلى « نفر نفر نفر » وأثبتها فى سجل المحفوظات الملكية ، وحملتها فى خفة الطير وسرعته عائداً بها إليها . . . وكانت على مدخل الدار محفة تنتظرها ، فدخلت عليها معجلا وقدمت إليها الوثيقة قائلا ، إن كل شىء أملكه قد سجل لها فيها حتى الملابس التى أرتديها ، وسألتها أن تجعل لى يومها هذا كله ؟ . .

فتناولت « نفر » الوثيقة فى غير اكتراث ، وألقتها فى صندوق من الأبنوس وقالت إن أمراً طارئا يدعوها إلى مغادرة بيتها الآن ، وإنها ستدعونى يوما عند ما تكون مستعدة لاستقبالى .

فكأنما قد رمتنى فى كلماتها هذه بسهم مسموم ، وأذهلتنى المفاجأة ، فلم أنبس بكلمة ، وخيل إلىَّ أننى أواجه الموت حين سمعتها تقول فى انفعال : دعنى . دعنى فإنى أتعجل الخروج . .

فلم يسعنى إلا أن أدعها كما أرادت ، وخرجتُ وصدرى مثقل بالهم والأسى ،

وعدت إلى المنزل الذى لم أعد أملكه منذ لحظات ، ورحت أرتب محتوياته وأعدها لمالكه الجديد .وكان خادمى « كابتاح » يلاحقنى فى كل خطوة ، ويهز رأسه استغرابا ، فقلت له فى ضيق : لا تقتف أثرى هكذا ، فلم أعد سيدك . . لقد أصبح سيدك شخصا غيري . وعليك عند ما يجيء ، أن تخلص فى خدمته وطاعته فلا تسرق منه كثيراً كما كنت تفعل ، فربما كانت عصاه أكثر إيلاما وأشد إيجاعا . .

فهوى « كابتاح » على الأرض كالمغشىّ عليه وأمسك رأسه بيديه كأنما يحس بأنه سيطير ، ثم قال وهو ينتحب كالأطفال : لا تتركنى ياسيدى ، فقلبي العجوز يتمزق لامحالة إذا انفصلت عنك ؟ وأؤكد لك بأني لم أسرق منك شيئا كما تتصور، فما كنت آخذ إلا ما أعتقد أنه جزائى الحق عن جهود كنت أعتصر فيها نفسى ، سيراً فى الطرقات تحت وهج الشمس المحرق ، على ساقىّ هاتين الشاحبتين ، هاتفاً باسمك ، ومشيدا بشهرتك ، وقد أسخط هذا الأطباء وأحفظ قلوب خدمهم ، فكانوا كلما رأونى قذفونى بالحجارة ، وضربونى بالعصىّ ، فلا تتخلَّ عني ياسيدى ، فإنى لك المخلص الأمين ...

وآلمنى أشد الألم موقف « كابتاح » وتوسلاته ، وما كنت بقادر على أن أحقق له رجاءه ، فقد أفلت الزمام من يدى ، فأخذت بيده متأثراً ، وقلت له : انهض يا « كابتاح » فليس يجدى بكاؤك وحزنك ، وثق بأنى ما تخليت عنك كارهاً لك ، أو غاضبا منك ، فإنى لأقدر إخلاصك حق قدره ، كما أقدر نشاطك وأمانتك فى خدمتى على الرغم مما كان يعتريك من الاضطراب العصبي فى بعض الأحيان ، فتنفعل وتثور وتحطم الأطباق وغير الأطباق مما يلقيه سوء الحظ بين يديك أو قريبا منهما ! . وقد اضطرتنى أسباب قاهرة إلى النزول عن دارى وكل مافيها ومن فيها إلى شخص آخر ، حتى ملابسى هذه التى أرتديها قد صارت ملكا له ، فلا تبتئس وارض بالأمر الواقع ، واحفظ عليك دموعك ، فما هى بمجديتك شيئا بعد .

ولكن « كاپتاح » استرسل فى أنينه ونشيجه وقال وهو يشد شعر رأسه هذا يوم أسود مشئوم !.. وسكت قليلا كمن يفكر ثم انتفض قائلا : اسمع ياسيدى : إنك طبيب نابه عظيم ، ولم تزل شابا ، والمستقبل يفتح ذراعيه أمامك باسماً ، فمن الخير أن نخرج بليل من هذه المدينة حاملين معنا بعض ما نحتاج إليه من محتويات هذا المنزل ذات القيمة ، شادّين رحالنا فى غفلة الأعين إلى الأراضى الحمراء حيث لايعرفنا هناك أحد ، أو نمضى إلى بعض جزر البحر حيث النبيذ موفور والحياة رغدة ، أو نجعل هجرتنا إلى أرض « ميتانى » أو « بابل » حيث الأنهار تجرى متعاكسة الاتجاهات ، وهم هناك يقدرون فن الأطباء المصريين ويثقون بعلمهم ومهارتهم ، فلا يمضى طويل وقت حتى يقبل عليك الثراء ، وتسترد مافقدته هنا أضعافا مضاعفة ، ولا أنفك أنا الخادم الأمين للسيد الكريم . . . فخذ ياسيدى برأيى ومشورتى وعجل فليس فى الوقت متسع ...

فقلت له : ذلك مستحيل يا « كاپتاح » ، فكما أنى لا أملك شيئا الآن فى دارى هذه ، فإنى كذلك لاأملك من قلبى وجسمى وفكرى شيئا ، فلست حرًّا كما تظن ، وإنما أنا رهين قيود أشد صلابة من السلاسل النحاسية ، ولا يدهشنك أنك لاتراها فهى ليست فى شىء من المواد المجسدة التى تراها الأبصار ، وإنها لتشدنى شدًّا إلى « طيبة » فلا أستطيع منها فكاكا ولا هربا ! ..

فاقتعد « كاپتاح » الأرض متوجعا ، إذ كان لا يقوى على الوقوف طويلا لمرض فى قدميه كنت أعالجه فى أوقات فراغى ، وقال فى يأس : يظهر أن « آمون » قد انصرف عنا برحمته ، وإنك يا سيدى لمسؤول عن ذلك ، فأنت لا تذهب إلا فى القليل النادر لتقدم إليه القرابين ! .. أما أنا فإنه ليعلم أنى كنت أبذل راضيا خمس ما أسرقه منك شكراً له على أن أتاح لى سيداً مثلك ، طيب القلب ، على أنه مهما يكن من أمر فإن « آمون » قد تخلى عنا ! . . فعلينا أن نتجه إلى آلهة غيره ، نتقرب إليها ، ونضحى فى سبيل مرضاتها ، فقد تدفع عنا هذا الشر الجائع ، وتعيد إلينا الأمن واليسار !

قلت له : هـذا هراء كله . . وهل فى أيدينا الآن شىء نقدمه قربانا لآلهة أخرى ؟ ! .. إن كل شىء ، أيها الأحمق ، قد صار ملكا لغيرنا .. أفهمت ؟!..

فقال مستسلما : والمالك الجديد ! .. أرجل هو أو امرأة ؟!..

ولم أشأ أن أخفى عنه حقيقة سيعرفها عما قليل ، فقلت له : إنها امرأة . .

وهنا ارتطمت فى وجهه موجة من الأسى والتحسر ، وقال فزعا : امرأة ؟! . ليت أمى لم تلدنى أو ليتنى مت قبل هذا !.. فما أقسى القدر الذى يضع رقيقا تحت إمرة امرأة لا قلب لها . نعم ، لا قلب لها ، فإن التى صنعت بك هذا يا سيدى ، لأشد قسوة وضراوة من وحش الغابة !..

فقلت وأنا أشعر بالأسف لتعجلى فى إفشاء السر له : لا تخف ، فهى ذات قلب كالنسيم رقة ، وذات وجه كالقمر بهاءا ، وستكون فى خدمتها سعيداً محسودا.

فصاح « كاپتاح » : بل الحق أنها ستبيعنى لحمّال أو حجّار ، أو تعذبنى حتى أموت ميتة حمار !..

وبينى وبين نفسى كنت أشعر بأنه صادق فى مخاوفه ، فإن « نفر نفر نفر » لا يجد مثله عندها إلا الذلة والهوان ، فتساقطت دموعى أسفا وحزنا ، واعتمدت رأسى بين يدى مسترسلا فى البكاء . فمدّ « كاپتاح » يده العريضة ليربت بها على يدى وهو يقول : إننى أنا الذى جلبت عليك هذا الشقاء ، فقد كان من واجبى أن أشدد الرقابة عليك ، ولكننى لم أكن أتصور أن قلبك ساذج يقع صيداً سهلا لأول صائد ، ولقد كنت أراك تعود من الحانة فى المساء ثملا ، فأعرف أنك لم تعد من أصحاب القلوب الشبيهة بالقماش الأبيض الذى يغسل لأول مرة ، وأنك بهذا فى منعة من إغراء النساء الخادعات . ولقد كنت أدهش حين لا تطلب منى أن آتيك بامرأة تطفئ فى أحضانها حرارة الشباب ، يعود متوقداً من حانة النبيذ . ولكنى كنت راضيا عن هذا ، معتقدا ، لقصور فهمى ، أن الآلهة قد صرفتك عن النساء حتى لا تتزوج وتجىء لى بسيدة تؤذينى وتعذبنى ، ولم أكن أدرى أن الصاعقة ستنقض مرة واحدة على هذا العش الهانئ فتنثره وتذروه !..

وقال « كابتاح » غير هذا كلاما كثيرا ، ولـكنه كان يطن فى أذنى طنين الذباب ؛ فلم أع منه شيئا . وأخيراً انتهى من محاضرته وراح فأعد طعاما ؛ ولـكننى لم أتناوله ، فقد كان جسمى إذ ذاك يحترق أسى والتياعا .

نفر نفر نفر

— ١ —

بتُّ ليلتى مؤرق الجفن تراودنى أفـكار مزعجة إلى أن استقرت فى ذهنى فـكرة معينة سيطرت ؛ دون سواها ، على جميع حواسى .

فلما أهلَّ الصباح أخـذت طريقى إلى بيت « نفر نفر نفر » وكانت لا تزال نائمة ، وكذلك كان خدمها نياما ؛ فطرقت الباب فاستيقظوا ولـكنهم لم يفتحوه وترامت على سمعى شتائمهم ، لاعنين هذا الطارق الذى يقتحم عليهم مبكراً سياج راحتهم ، فلزمت البـاب كما لو كنت متسولا حتى انبعثت من الداخل حركة استيقاظهم استيقاظاً عاديا ، وانفتح الباب فدلفت منه مسرعا إلى حجرة « نفر » فألفيتها ممددة على سريرها نصف صاحية ، وكان وجهها يبدو ضئيلا وأكثر بياضا ، وعيناها الخضروان مشوبتان بسواد لـكثرة ما شربت من نبيذ . .

وحين رأتنى بادرتنى قائلة فى امتعاض : إنك لا تزال تضايقنى . فماذا تريد منى ؟ .

فأجبت فى تثاقل : أريد أن أجلسَ إليك ، وأقاسمك الطعام والشراب . ألسنا قد تحالفنا على هذا ؟..

قالت : كان ذلك بالأمس . ونحن الآن فى يوم جديد . ولـكل يوم حكمه .

وأقبلت خادمتها فجعلت تدلك جسمها الغض الفـاتن حتى إذا ما شعرت بالحيوية تسرى فى جميع أقطاره نهضت من فراشها ووضعت فوق رأسها طاقية الشعر المستعار وفتحت صندوق جواهرها ، فتناولت منه الجوهرة الجديدة ووضعتها

على جبينها . ونظرت إلىّ قائلة : أليست هذه الجوهرة جميلة رائعة ؟. ألا تراها تعدل الثمن الذى اشتريتها به ؟.

فقلت لها : إذن فقد كنت بالأمس تكذبين علىّ وتلفقين وعداً وعدتنيه ...

قالت وهى تبتسم فى سخرية : أشعر بأننى أخطأت بإخلافى هـذا الوعد ، وأرجو أن أكفر لك عن خطأى هذا ، فلا تحزن ...

قلت : وهذه الجوهرة !.. أهى التى حدثتنى عنها ؟ ! أو مصدقة أنت أنها أحضرت من أحد القبور الملكية فى سوريا ؟ !

قالت : الذى أعلمه يقينا أنها وجدت تحت وسادة تاجر سورى ، ولا يسخطك هذا ، فقد كان رجـلا بدينا أفطس كالخنزير ، ذا كرش منتفخ ، ينفض جسمه ريحاً كريها ، وما يعنينى من أمره إلا أننى أصبت منه ما أريد ، ولن أراه مرة ثانية . . .

وخلعت طاقية الشعر والجوهرة والجواهر الأخرى التى كانت قد تزينت بها وألقت بها جانبا ، وجعلت ترق فى حديثها وتتلطف قائلة : إننى متعبة يا «سنوحى» ، وأنت تعرف مواضع ضعفى فتنالنى منها غير مشفق ، وإنك لتنظر إلىّ نظرات حادة كأنما تريش بها سهاما فى صدرى ! .. لا تحتقرنى هكذا يا صاحبى فإنى على وحدتى وضعفى لا أقبل أن أكون سيدة مطعونة فى كرامتها ..

فقلت لها : إنك لتعرفين جيداً أننى قد خرجت لك عن كل ما أملك ، فلم يبق عندى شىء أعطيه .

فوضعت يدها فى حنان على رأسى ثم استردتها معجلة وهى تقول : ما أقدركم على الخداع وما أيسره لـكم ، أيها الرجال !.. حتى أنت يا « سنوحى » تخفى عنى الحقيقة مستغلا إعـانى بصدق غرامك . ولـكن .. كلا فقد عرفت ما شئت أن تخفيه ، وما أحب أن أتعامل مع الغشاشين المخادعين !.. كيف لا تنبئنى بأن لأبيك « سنموت » منزلا فى حى الفقراء قريباً من الميناء ؟ ! قد لا يكون للبناء فى ذاته قيمة تثير اهتمامى ، ولـكن الأرض التى يقوم عليها غالية الثمن بلا ريب ، لقربها

من المرفأ ، وكذلك الأثاث الذى يشتمل عليه ، فإن أكبر الظن أننا واجدون بالسوق من يدفع فيه ثمناً طيباً . أرأيت كيف مكرت بى وخدعتنى ؟!..

على أنى أتجاوز لك عن هذا السلوك ، وأجدد وعدى أن أكون لك وحدك إذا أضفت إلى ماأملك ، هذا المنزل بمحتوياته مسجلا كما فعلت بالأمس . ولا تحسبنى طامعة فيك ولا مسرفة عليك ، فإنما أريد أن أقف منك على أرض صلبة حتى لاتعصف بنا أعاصير الغد المحجب . إنه ضرب من الاستيثاق والحفاظ يفرضه منطق الحياة ، ويوحى به الرأى الرشيد .

قلت لها محتداً : ولكنه ملك أبى ، وليس من حقى التصرف فيه ، فلا يجوز لك يا « نفر » أن تسأليني ما ليس لى . .

فأمالت رأسها وغمزت بعينيها الخضراوين وقالت : إن ما يملكه أبوك هو ملكك قانوناً بحكم الميراث، هذا إلى أن أباك فاقد البصر ، وقد عهد إليك بالإشراف على أملاكه ، فلك حق التصرف فيها مطلقاً من كل قيد كما لو كانت مالك الخاص ... لقد أخفيت عنى هذا أيضاً بالأمس ، فهأنذا أواجهك به لتعلم أنى أقص أثرك وأتتبع خطواتك ! ..

وكان الذى قالته « نفر » هو الحقيقة التى كنت أعتقد أنها لا تعلمها ، فإن أبى حينما فقد بصره أقامنى على أملاكه لأشرف على شئونها وأديرها ، وأعطانى خاتمه، لأنه قد استحال عليه أن يوقع بخطه على الأوراق ، وكان أبى « سنموت »، وأمى « كيفا » يقولان دائماً إنهما يرغبان فى بيع منزلها ليشتريا ببعض ثمنه بيتاً صغيراً خارج المدينة يقيمان به ويزودان مقبرتهما بما يعينهما فى رحلتهما إلى حياة الخلود ...

وقد انعقد لسانى حيال هذا الطلب الجديد الذي تفاجئنى به « نفر » فاستـ ـستطيع أن أطيعها فيه . ولو أنى فعلت ما تريد لكنت خائناً مفرطاً فى أمانة أبوىَّ عابثاً بحقهما المقدس .

ولكن « نفر » عاجلتنى قائلة وفى عينيها فتور مغرٍ : خذ رأسى بين يديك،

يا « سنوحي » فإني متعبة . وجعلت تردد على مسمعي عبارات رتيبة مؤثرة عن ضعفها ووحدتها وخوفها من المستقبل وحاجتها إلى الاستعداد له ، فأمنتُ خوفها من هذه الناحية ووعدتها بأن أصنع لها ما تشاء .

فقالت : حبذا لو عجلت يا « سنوحي » ، فكثيراً ما تعِدون معشر الرجال ولا تفون ، وترتجلون الرأى ولا تثبتون عليه .

فتركتها عائداً إلى مسجل العقود ، وفي عجل حررنا وثيقة التنازل عن منزل أبي بما يحتوى ، وختمناها بخاتمه ، وسجلناها في سجل المحفوظات الملكية .

وقفلت بها مسرعاً إلى بيت « نفر » ، فقال الخدم إنها نائمة ولا يستطيعون إيقاظها عملا بإشارتها ، ومن الممكن أن أعود إليها في المساء المتأخر . فبرمت بهذا ، ولكن لم يكن ثمَّ مناص من التسليم به فانصرفت لشأني ، ورجعت إليها في المساء وقدمت إليها الوثيقة فتناولتها وأجالت نظرها فيها خطفاً ، ثم ألقت بها إلى صندوق بجانبها في غير اهتمام وأخذت تبدو كأن النوم يغالبها . وفي عبارة مقتضبة ساهية قالت : أرجو أن تعفيني من مجالستك الليلة ، فإني — كما ترى — متعبة ، ولتَعُد إليَّ في يوم آخر .

فضاق صدري بسلوكها هذا الذي لم أكن أتوقعه بعد أن نفذت رغبتها ، فقلت لها : إن تصرفاتك معي غير مفهومة ، أو هي في القليل تدل على أنك عازفة بقلبك عني ، غير راغبة في لقائي .

قالت : أنت واهم يا «سنوحي» . وينبغي أن تثق بأنني سيدة شريفة لا تنكث بعهدها ولا تخلفه .

ثم استلقت على فراشها ، وفتحت لى ذراعيها واستقبلتني بينهما . ولم تلبث إلا قليلا حتى أدارت عني وجهها لتنظر إلى نفسها في المرآة . وكانت تتثاءب من خلف يديها ، وبهذا تحولت المتعة التي كنت أنشدها إلى رماد ...

وعندما تركت فراشها قالت : لقد أخذت مني ما طلبت يا « سنوحي » ،

فاذهب إذن لأنك متعب ، ويمكن أن تعود إلىّ يوماً آخر لتجد عندى ما تطلب ...

وانصرفت عنها مغلوباً على أمرى ، تاركا عندها قلبي وروحي ، فكأنني قشرة البيض ألقيت فى الطريق . وقصدت إلى منزلى لأقضى الليل خالياً إلى نفسى فى غرفة مظلمة ، أبكى فيها ما شاء حظى العاثر أن أبكى . ولكننى رأيت هناك رجلا غريباً يضع على رأسه قلنسوة من الشعر ويرتدى لباساً سورياً ، معصفر الألوان ، فحيانى باحترام وقال إنه جاء ليستشيرنى كطبيب . فقلت له : لم يعد من حقى أن أستقبل مرضى فى هذا المنزل ، فقد صار له صاحب غيرى . فقال : ولكنّ بقدمى أوراماً توجعنى ، وقد عرفت من خادمك « كاپتاح » أنك خير من يعالجها ، فأرجو منك أن تريحنى من آلامى . . . ولا شك أنك لن تجد فى هذا ما يثير شيئاً من الأسف والندم . فأدخلته إلى غرفة المرضى ، وناديت « كاپتاح » ليحضر ماءاً ساخناً أغسل به يدىّ ، ولكنه لم يجب ولم أسمع صوتاً ولا حركة . وعندئذ كشفت عن قدم المريض لأرى ما بها . فاذا بها قدم « كاپتاح » نفسه ، فإنى لأعرفها جيداً لطول ما كنت أطبّ لها . وهنا هبّ واقفاً وقد ألقى قلنسوة الشعر عن رأسه وانفجر ضاحكا . فلم أستطع كتمان غيظى لهذه الفعلة الطائشة فهويت عليه بالعصا حتى استحال ضحكه عواءاً . ولما توقفت عن ضربه أخذ يشرح لى الدافع لذلك قائلا : عندما عرفت ألاّ مناص من أن أصبح عبداً لغيرك ، قررت الهرب متنكراً . وبدا لى أن أجرب معك هذا التنكر فجئت مصطنعاً المرض فى هذا الثوب السورى ، ولو لم تكن تعرف قدمى لجازت عليك الحيلة . فالتجربة إذن ناجحة ، والهرب مستطاع .

فحذرته عاقبة الهرب ، مذكراً إياه بالعقوبات التى تأخذ برقاب الأرقاء الهاربين . وما أحسبه يفلت منها ، فليس لديه ما يعينه على العيش بعيداً عن أعين الرقباء ، وسينفضح سره لا محالة ، إن عاجلا أو آجلا . .

ولكنه لم يُعِر قولى شيئاً من المبالاة واسترسل يقول : فى الليلة الماضية

ملأت جوفى بالجعة لأطارد بها الهم الذى ركبنى بسبب تصرفك ، وأخذتنى غفوة فرأيت فيما يرى النائم أتوناً متقداً بالنار، ورأيتك ممدداً فيه تتلظى بسعيره ، فأسرعت إليك وأمسكتك من عنقك وانتزعتك منه وصببت عليك الماء حتى زال عنك خطر الموت . فلما صحوت من غفوتى رحت أفتش عمن يفسر لى هذه الرؤيا المزعجة فقيل لى : إن سيدك فى خطر وإنه مقبل على رحلات طويلة شاقة ، وإنك ستتعرض لعدة ضربات مؤلمة فى مغامرة جريئة ، وها أنتذا ترى يا سيدى أن رؤياى صادقة ، فلا مراء فى أن الحال التى صرت إليها منبئة بالخطر المحدق بك وشاهدة عليه ، وقد تلقيت أنا الضربات المؤلمة من يدك ، وهذه خاتمة الرؤيا . .

فقلت له : لست فى ريب من ولائك وإخلاصك يا « كاپتاح » ، وإن عواطفك هذه لتثير عواطفى حزناً وألماً . وحقّاً إنى قادم على رحلة طويلة ولكنها ليست إلى مكان مجهول ، فستكون إلى وادى الموتى ، ونحن نعرفه وهو منا غير بعيد . . على أنى أظنك لا ترضى الرحلة معى إليه ، ولا الثواء إلى جانبى فيه .

قال : ما من أحد يعلم ماذا سيكون فى الغد ، فإنه غيب محجب . ولكن الذى أعلمه ويجب أن تعلمه أنت كذلك ، أنك لا تزال فى نضرة الشباب وغضارة الصبا ، فلا تذهب نفسك هكذا حسرة ويأساً . على أنه إذا كان لا مفر الآن من رحيلك إلى وادى الموتى فإنى راحل معك ، فما بى على احتمال فراقك قدرة ولا طاقة ، لأن قلبى قد تعلق بك فهو يتبعك مقيما أو ظاعنا ، سعيداً أو شقياً ، حيّاً أو ميتاً .

وأكبرت وفاء « كاپتاح » . ولكن الأمر الواقع أنه لم يعد تابعا لى ، فلا خير فى متابعته على آرائه وعواطفه ، فتركته فى اكتئاب وأسى ، ولذت بغرفة نومى فنسست جسمى المحطم فى الفراش ، حتى كان الصباح فنهضت وليس فى خيالى إلا وجه « نفر » بعينيها الخضراوين ، وغسلت وجهى وارتديت ملابسى وقررت الذهاب إليها على الفور .

— ٢ —

كانت « نفر » حينما أقبلتُ عليها تجلس على بحيرة الحديقة ، خالية إلى نفسها ونظراتها تسبح حالمة فيما حولها من أزهار اللوتس وفيما يتناثر بالحديقة من ورود جميلة أخرى . وكانت تبدو أمرح نفسا وأبهج طلعة ، ولكنها عند ما رأتنى لم تعرنى التفاتا كبيراً ولم تزد على أن قالت : ها أنتذا تعود يا « سنوحى » ! . .

وقبل أن أجيب ، أخذت تخلع فى بطء ثوبها الرقيق وتنحدر عارية إلى ماء البحيرة وتغيب بالماء لحظة لتطفو عليه أخرى ، وهى فى الحالين تأخذ بمجامع القلب فتنة وسحراً . لقد كانت إذا ما أطلت برأسها من الماء تلوح أروع جمالا ، وأبهى منظراً من أزهار اللوتس والأزهار الأخرى التى تحف بها كأنها أيدى المعجبين تمتد إليها محيية . وفى سبحاتها الساحرة اقتربت منى وطفت على صفحة المـاء مستلقية على ظهرها كأنما تضطجع على فراش نومها ، ونظرت إلىَّ ورأسها يرتفع قليلا فوق يديها المتشابكتين اللتين اتخذت منهما وسادة له وقالت : إنك لصامت اليوم يا « سنوحى » . . ومع ذلك فإن وجهك المتورد ووجنتيك المحمرتين بالدم ، لأفصح تعبيراً عما فى نفسك ، فإن كنت قد آلمتك وأثرتك فإنى لمستعدة أن أعوضك عن هذا . . ويمكنك الآن أن تخلع ملابسك وتهبط هنا إلى الماء لتسبح معى بعض الوقت ، وترطب جسدك الذى يفور حمية فى هـذا اليوم القائظ . إن أحداً لا يستطيع أن يرانا ، فهيا . . ولا تتردد .

وفى سرعة خفقان قلبى ، وفى مثل لهفته ، نضوت عنى ملابسى واندفعت إلى الماء ولامس جسدها جسدى ، ولـكنها عند ما مددت يدى لأطوقها وأضمها إلى صدرى ، دفعت بنفسها بعيداً عنى كأنها السمكة تهرب خيفة من الصائد ، وأغرقت فى ضحكاتها اللطاف ذات الجرْس المثير وهى تقذف بالماء فى وجهى مداعبة ، ثم قالت : إننى أفهم تماما حاجتك يا « سنوحى » . وقد يخجلنى أن أنظر إليك بسببها ، ولـكنها تصبح أمراً مقضيا إذا عرفت أن تنالها بحقها . . فعليك أن تقدم

لى هدية تشعرنى بأنى امرأة تستحق منك التضحية .

فصحت مغيظا : هل اختبل عقلك إلى حد أنك نسيت ، بهذه السرعة، أننى تجردت لك من كل ما أملك ؟ . .

قالت فى تردد : إذن فأنت لا تريد شيئا .

قلت : عجيب أمرك أيتها المرأة . ألا تعلمين حتى الساعة أنه لا شىء فى هذه الدنيا أحب إلى نفسى من أن أقضى العمر كله إلى جانبك ؟ !..

قالت : ربما كان هذا صحيحا . وأشعر من ناحيتى بأنى فى حاجة إلى رفيق مثلك ، يحبنى حبا خالصا يختلف عن ذلك الحب الزائف الذى يخادعنى به أولئك الذين يطلبون فى المرأة متعة الجسد لا أكثر ، ولكننى ، فى وحدتى ، التى أحتاج فيها إلى الصديق المحب المخلص ، يشغلنى كذلك التفكير فى المستقبل . فعواطف المحبين الأوفياء لا تكفى فى حياة امرأة وحيدة تواجه مستقبلها ، غير مزودة له بما يسد حاجتها ويؤمن مخافتها .

قلت لها : لقد فعلت فى سبيل اطمئنانك للمستقبل كل ما أستطيع أن أفعل ، وبالأمس جاوزت فى هذا حد الاستطاعة ، فأمضيت رغباتك فى ممتلكات أبى وهى لا تخصنى ، ونقلتها إليك اختلاسا وأنا الأمين عليها . وقد ألقيت أبى بذلك فى هوة سحيقة من الفاقة والفقر ، وهو الشيخ الفانى الذى فقد بصره وافتقد موارد عيشه ، بعد أن كان طبيبا عالى الشأن رخى الحال ، فلم يعد له من وسيلة إلا أن يتسول ليعيش ، وستدور أمى المسكينة المهدودة القوى على دور الآخرين لتغسل ملابسهم وتقضى حوائجهم لقاء أجر تافه تستعين به هى الأخرى على العيش الذليل إلى جوار أبى .

قالت : مالنا والأمس ، لقد مضى ولن يعود ؟.. مضى بما فيه من خير وشر ، فلننظر إلى يومنا الحاضر ، فالالتفات إلى الوراء مضيعة للوقت . وينبغى أن تفهم أننى لم أرغمك على مافعلت ، ولم أقسرك على إعطائى مما أعطيتنى شيئاً ، فالذى بيننا هو أنك راغب فى أن أكون لك وحدك وأن أقطع صلتى بغيرك ، وتحقيق هذه

الرغبة يقتضيك التضحية ، وكثيراً ما تكون التضحية شيئاً مما يعزّ وقوعه ويغلو ثمنه . على أنى لا أرى أنك قد أسرفت فى تضحيتك أو جاوزت بها المألوف بين المحبين ! .. فالحياة أخذ وعطاء ، وأنت ظافر منى بالصفقة الرابحة ، فستأخذ منى أكثر مما أعطيت ! .. ولعلك تكون أكثر إدراكا للموقف وأكثر فهما لهذا المنطق الطبيعى إذا أخبرتك لماذا كنتُ فى هذا الصباح بادية الابتهاج . فاعلم إذن أن رجلا من مشاهير المملكة السفلى قدم أخيراً إلى « طيبة » حاملا معه طاسة ذهبية تزن أكثر من ثلثمائة أوقية ، محفوراً عليها صور جميلة منوعة الرسوم والأشكال وهى تحفة نادرة ، يسرنى أنها ستكون عما قليل زينة فى هذا البيت ؟.. وليس بذى بال عندى أن صاحبها عجوز شائه الوجه دميم الصورة ؟..

واعترانى وجوم فلم أتكلم . أما هى ، فقد تمددت على الماء ونهداها ينجبان من صدرها كأنهما زهرتان من زهرات اللوتس عائمتان على الماء ؟ .. وعادت تسألنى لماذا لا أقول شيئاً ؟..

قلت لها : ما عساى أن أقول ؟! إنك تقدحين شرر غيرتى، وتلهبين مشاعرى، وأنا العاجز الذى لا حيلة له .

قالت : بل أردت أن تقاسمنى ابتهاجى . وأكبر ظنى أنك مهدٍ إلىَّ هدية أخرى فى هذه المناسبة ! ..

قلت مغضباً : أيبهجنى أن أراك متهيئة لأحضان عاشق غريب ؟! وماذا تظنين أن أكون ؟! .. وهل أبقيت منى على شىء أهديه إليك ؟ ! لقد خرجت لك عن قلبى ، وخرجت لك معه عن كل ما أملك ، وكل ما يملكه أبى . وما أشد ما أشعر به من خجل كلما تذكرت أننى ، من أجلك ، قد أثمت فى حق أبى إثما لم يأثمه ابن فى حق أبيه من قبل .

وفى فورة الغضب اعتادنى ما يعتاد العاشق المسلوب الإرادة ، وهبَّ قلبى مدافعاً عنها ، متشفعاً لها ، فتراجعتُ متخاذلا لأقول لها : إرحمينى يا «نفر» فحسبى ما أعانى من عذاب ، ولا يزعجك منى اليوم أنى فقير لا أجد الهدية التى تريدينها ،

فما زلت طبيباً مسجلا فى « دار الحياة » وسوف أعمل وأفيد من عملى المال الذى أقدم إليك به الهدايا التى تطيب بها نفسك فى المستقبل ..

قالت : تحدثنى عن الماضى ، ثم تحدثنى عن المستقبل ، وبينهما الحاضر الذى يجب أن يكون الحديث الآن فيه لا فى غيره .. وإنك لتهرب منه مخادعا ، شأنك فى هذا شأن من عرفت من الرجال المخادعين . ولو كنتَ صادقا فى دعوى الحب فإنه لا يعجزك أن تجد ما تقدمه لى اليوم ، وما أبتغى به إلا دليلا جديداً على إخلاصك أزداد به شعوراً بأنك ، حقا ، الصديق الذى يؤنس وحدتى ، ولا يعرف بى حاجة إلا قضاها .

قلت : ولكننى أصبحت خاوى الوفاض لا أملك شيئاً ، وأنت تعلمين هذا جيداً . .

قالت : ألم أقل لك إنك تخادعنى ؟!.. لقد أخفيت عنى ، عامداً ، أن لأبويك قبراً فخما فى مدينة الموتى ، وأنهما دفعا المعبدقدراً كبيراً من المال لتحنيط جثتيهما وتزويدهما بوفر من الزاد الذى يستعينان به فى رحلتهما إلى الأرض الحمراء . .

فقلت فزعا : لم يبق إلا هذه الفعلة النكراء ؟ .. سرقت أبوىّ فى حياتهما ، ثم أسرقهما بعد موتهما ، وأحرمهما من الأبدية ورحلة الخلود ، وأسلم جسديهما للبلى والفناء يتفتتان وتذروهما الريح ، كأجساد المتسولين والأرقاء وأولئك الأئمة الذين يقذف بهم إلى النهر عقابا لهم على جرائمهم ! .. هذا مستحيل ! ..

قالت فى تراخ وهدوء : إن أعطيتنى قبر أبويك فسأكون لك أختا مدى الحياة ...

ومرة أخرى غلبنى قلبى على عقلى فأحالنى ضعيفا مهزوما ، فبكيت وقلت : فليكن ما تشائين ، إنك لساحرة ولا يسعنى إلا الإذعان .

قالت : دعنا من السحر والسحرة ، فهذا يضايقنى ، وما أحب أن تستجيب لرغبتى مسحوراً ، وإنما أحب أن ترسل نفسك فى ذلك عن صدق عاطفة ، وإنى لموفدة أحد الخدم ليأتينا بمسجل العقود ! . . ونظرت إلىّ فى استرخاء وقالت :

إن الضعف ليعتريني يا « سنوحى » عندما أراك عاريا فى بحيرتى !..

وحسبتها تدعونى دعوة المرأة للرجل ، فى أشد ما يـكونان عليه من وقـدة الجسم واهتياج الغريزة ، فاندفعت إليها لأحتويها بين ذراعى وأعتصرها على صدرى، ولـكنها عند ذاك أسرعت إلى الخروج من البحيرة ، وأخذت ، إلى جانب شجرة بالحديقة ، تجفف الماء عن جسدها .

وخرجت فى إثرها فلاقتنى متلطفة مزدهرة المحيا ، ودعت بالطعام فجىء به وأخذنا فى جلسة ممتعة نتناوله معا ، وكان شهيا وفراً ، من بينه خمسة ألوان من اللحوم واثنا عشر طبقا من الفطائر ، ودعت بالنبيذ المخلوط ، فشربنا منه ما وسعنا الشراب ! ...

وجاء المسجل فحرر الوثيقة التى تقرر النزول إلى « نفر نفر نفر » عن قبر أبوى بمدينة الموتى بكل محتوياته ، وكذلك المال الذى رصد باسميهما ولحسابهما بالمعبد للتحنيط وزاد القبر ، ووقعت على الوثيقة بخاتم أبى وذهب بها المسجل إلى دار المحفوظات الملـكية ليسجلها هناك فى اليوم نفسه .

قلت لها : قد جرى الأمر على إرادتك يا « نفر » ولـكن كيف لى أن أنجو من لعنة الآلهة ؟! .. إن ضميرى ليعذبنى عذابا شديداً ، فهل أنت مدركة ماذا فعلت من أجلك ؟! . .

قالت : دع هذا إلى اللذة التى نحن فيها ، واشرب نبيذاً ، فإن فيه للقلب بهجة، وللضمير عزاءاً .

وبعد قليل نظرت إلى السماء وقالت : هاهى الشمس تنحدر مسرعة إلى المغيب ، لقد ولى النهار وأقبل الليل ، وآن لك أن تنصرف . .

ولـكننى ظللت فى مكانى ، لا أريم عنه ، كأنى لم أسمع .. وهنا هتفت بخدمها فجاءوا خفافا وقالت لهم فى صرامة : اقذفوا هـذا المتسول السمج إلى الخـارج ولا تدخلوه مرة أخرى إلى دارى ، وإذا ألم بها بعد الآن فاطردوه ، وإذا لج فى سماجته فاضربوه !..

وحملنى الخدم وألقوا بى فى الطريق ، وكنت مخموراً ظاهر الاضطراب ، فنهضت مترنحاً وأخذت أقرع الباب محاولا أن أعود إليها ، فخرج الخدم بعصيهم فضربونى ، وصرخت متوجعاً ومحتجا ، فتجمع الناس لينقذونى من أيديهم ، ولكنهم زعموا لهم أننى سكير متهور ، وقد سببت سيدتهم فى دارها وهى سيدة كريمة لا يجوز لإنسان أن يتطاول على مقامها الكريم !.. فما سمع الناس منهم هذا حتى انهالوا علىّ ضربا بالأيدى وركلا بالأقدام ، ولم يكتفوا بهذا بل كانوا يتبارون على وجهى ليبصقوا فيه إظهاراً لتقززهم واستيائهم ، ولم ينصرفوا إلا بعد أن فقدت وعى فتركونى بالطريق على تلك الحال الزرية !..

وانتبهت من غشيتى وكانت الظلمة قد رانت على الوجود ، وخيل إلىّ أن البقاء فى هذا المكان إلى آخر الليل خير مما لو انصرفت عنه ، فلا أعلم إلى أين يكون منصرفى ، ولا أى الناس ألقى ، على ما أنا فيه من هوان ، فبقيت حيث كنت مستخفياً عن الناس فى لفائف الظلام ، وذكرت عندئذ أن ولى العهد كان قد لقبنى « بالوحيد » ، فهأنذا « وحيد » حقًّا فى محنتى ، ولا أرى فى الناس من يصدق فيه وصف الوحدة سواى ! .

وعند ما أخذت تتسلل فى الليل إشعاعات الفجر ، وبدأ الناس ينسلون إلى الشوارع ويترامى على سمعى من بعيد ضجيج العربات التى تجرها الثيران محملة ببضائع التجار ، جمعت أوصالى المتزايلة ومضيت أسترق الخطى حاذراً ، كأننى اللص الذى يتقى العيون الراصدة ، حتى جاوزت نطاق المدينة ، ولم أجد غير الأعشاب موئلا آوى إليه ، متواريا عن الناس لفرط شعورى بالخجل من ملاقاتهم ، وهناك قضيت ثلاث ليال وثلاثة أيام لم أصب خلالها طعاماً ولا شراباً ، إلى أن كدت أموت جوعاً وظمأ .

— ٣ —

ولم يكن لى بعد هذا مناص من الفكاك من ذلك الأمر القاتل ، فنظفت

ملابسى وأزلت ما علق بها من دماء ، وغسلت يدىَّ وقدمىَّ بالماء ، وقفلت عائداً إلى المدينة ، ومضيت رأساً إلى منزلى ، ولكننى فوجئت هناك بما كان ينبغي أن أقدره وأحسب حسابه ، ذلك أن المنزل لم يعد منزلى ، وقد احتله فعلا ساكن جديد ، هو أيضا طبيب،قرأت اسمه مكتوبا على لوحة ثبتت بواجهة الباب، وخطر لى أن أعود أدراجي ولكننى ، بدافع الرغبة فى معرفة ماحدث ، ناديت «كاپتاح» فأقبل مسرعاً ، ومارآنى حتى تهلل وخرَّ راكعاً أمامى وهو يقول : سيدى ، وأقول سيدى .. لأن قلبي لايعترف لغيرك بحق هذه السيادة ، ولو كان شخص آخر يصدر أوامره إلىَّ باعتباره سيداً ، فليست السيادة أمراً يتلقاه الخادم من هذا السيد أوذاك ، ولكنها اتصال روح بروح ، ووحى قلب إلى قلب ، وقد تعارفنا على هذا وأحببتك حباً لايتحول مع صروف الأيام ، ولا يختلف باختلاف الآمرين ، وهذا المخلوق ، الذى قضت الظروف القاسية أن يكون سيدى الجديد ، لايستطيع أن ينزل من نفسى منزلتك ، فهو شاب مفتون يتوهم أنه طبيب عظيم ، ولكن المرضى لايعترفون له بذلك وهم لايخفون أسفهم لأنهم حرموا حلمك وخفة يدك فى تطبيبهم ، ولأنهم لايجدون فى هذا الذى حل محلك كفؤاً لك ، ولا عوضا عنك . وقد رأيت فى تصرفاته بدوات طيش ، فهو إذا مارأى ملابسك راح يقلبها ثم ينشرها ويطويها ، ضاحكا مسرفاً فى الضحك ، دون أن أفهم لماذا يفعل ذلك ، وليست أمه أقل منه حماقة ونزقاً ، فقد كان أول مافعلته حينما دخلتُ المطبخ أن ألقت الماء ساخناً على قدمىَّ دون أن أفهم لماذا فعلت ذلك ، ثم إنها لاتكاد تفلتنى من لسانها السليط القذع ، فهى على الدوام تلقانى صاخبة ، وتحدثنى لاعنة .

وكان «كاپتاح» وهو يذكر هذا بادى الحزن والكآبة ، وفى عينه الواحدة احمرار البكاء الطويل ، فسألته أن يتماسك ويخبرنى عما حدث غير هذا فى غيبتى ، فما يعنينى حديث الطبيب الجديد أو حديث أمه الحمقاء ، قدر ما يعنينى الحديث عن «نفر» التى هى صاحبة البيت ! .. ولكن «كاپتاح» استرسل قائلا وهو

فى غمرة من الفزع : لقد كنت مستعداً أن أفقأ عينى الثانية بيدى وأن أصبح أعمى لو كان فى هذا فداؤك من الشر ، ووقاؤك من الضر ، ولكنى ، وقد جاوز الأمر إرادتنا وجرى على غير هوانا ، أرجو أن تتجمل بالصبر ولا يروعنك ما أنا مخبرك به الآن : لقد مات أبواك اليوم ياسيدى « سنوحى » . وكأنك أحسست بذلك ، وأنت منهما بعيد ، فجئت لتشهدهما مودعاً قبل أن يغيبا فى رحلة الأبدية .

فرفعت يدىَّ جزعاً وصرخت : أبى « سنموت » .. وأمى « كيفا » ! ..

وانعقد لسانى فلم أجد كلمة واحدة أعبر بها عن هول هذه المصيبة الأخرى الداهية ، بينما مضى « كاپتاح » يقول : ولم يكن أحد قد اكتشف موتهما ، ولكن حدث أن الجهة القانونية تلقت طلبا بتنفيذ إجراءات نزع ملكية منزل أبيك ، فأوفدت موظفيها المختصين إلى هناك لإخلائه ، فوجدوه مغلقا ، فدقوا الباب ليخاطبوا من فيه ولكن أحداً لم يجب ، فكسروه وفوجئوا بأبويك ممددين معاً وقد فارقا الحياة ، وتستطيع الآن ياسيدى أن تنقل جثتيهما إلى مدينة الموتى .

وسألت « كاپتاح » وأنا أوارى وجهى خجلا : وهل عرف أبواى قبل أن يموتا أن المنزل قد بيع إلى مالك جديد ؟ ! . .

قال : الذى أعلمه أن أباك « سنموت » جاءنى باحثاً عنك ، وكانت أمك تقوده ، وقد رثيت لحالهما ، إذ كانا يتعثران فى مشيتهما ، ولم يبق منهما العجز والشيخوخة إلا ومضة خافتة مترنحة فى مصباح الحياة ، ولم أستطع أن أدلهما على مكانك لأنى لاأعرفه ، وقد أخبرنى أبوك فى استسلام وتخاذل أن موظفى تطبيق القانون جاءوه فأنذروه بإخلاء المنزل وختموا جميع الخزائن والأمتعة ، وحذروه من الاقتراب منها أو العبث بها ، فلما سألهم عن سر هذا ، سخروا منه وأنبأوه أن ابنه « سنوحى » باع المنزل بمحتوياته ، وكذلك باع قبرهما بمحتوياته ، إلى امرأة مريبة السلوك ، وبذلك أصبح هو وزوجته لايملكان إلا الخرق البالية التى يلبسانها . ثم طلب أبوك منى ، فى تردد ، قطعة من النقود النحاسية ليدفعها أجراً إلى أحد الكتبة ليكتب إليك خطاباً بإملائه ، فهو — وقد فقد بصره —

لايستطيع أن يكتب إليك بنفسه . ولـكننى قبل أن أجيبه إلى طلبته ؛ اقتحم علينا السيد الجديد وصرخت أمه من داخـل المنزل تدعونى إليها على عجل ؛ فأسرعت إلى تلبية دعوتها مخافة شرها . بيد أنى لم أنج مما خفت وقوعه ؛ فقد تلقتنى بعصاها وأوسعت قفاى ضرباً بها . وجريرتى التى استحققت عليها هذا العقاب هى أننى — كما تزعم — أضيع وقتى عبثاً فى الوقوف مع المتسولين الحقراء ! ولم يكفها هذا فاحتجزتنى بالحجرة إلى الصباح لتطمئن إلى أنى لا أعود ثانية إلى الشارع ؛ وبذلك استحال علىّ أن أخرج لأبيك لأعطيه قطعة النقود التى طلبها . وقد شجانى هذا وأحزننى ، فقد كنت أحسبنى عائداً إليه قبـل أن يبرح مكانه لأقضى حاجته وفاءا ببعض حقك علىّ ، غـير مقدر أنى سأقع فى أسر هذه المرأة الصارمة . وأرجو أن تصـدقنى يا سيدى ، فما يزال عندى إثارة من فضل مالك ، وبقية من سابق رفدك ، ولست بالناكر للجميل .

وتنهد « كاپتاح » وقال : وا أسفاه ياسيدى على أيامك الغر الحافلة بالخير . لقد مضت وأبدلنى منها الحظ العاثر أياماً نحسات كقطع الليل ظلاماً ؛ فذلك الطبيب المفتون ليس فى شئ من نداك وسخائك وتسامحك وإغضائك ، وهو يحاسبنى على الفتيل والقطمير ، ويشتد فى الحساب حتى لأظنه يحاسبنى على اللقيمات التى أسد بها رمقى !.

وسمعت مقالة « كاپتاح » مذهولا شارد الفكر ممزق القلب ، فما أرى لى ، بعد ، موضعاً بين الأحياء أو بين الموتى ، فـكأنما أنا الخطيئة المجسمة تطاردها اللعنة فى كل مكان !..

وبعد قليل استعدت بعض ما ذهب منى كإنسان ، وقلت لـكاپتاح : أما وقد بلغت المأساة هذا الحد ، فليس ثمة سبيل إلى الفرار من واجبى الأخير حيال أبوين كنت أنا مصدر شقائهما وسبب مصرعهما ، فأعطنى كل ما لديك من نقود فضية ونحاسية ، أعطنيها سريعاً ولا تتلبث ، وهى لك دين فى عنقى ، وإن عجزت عن ردها إليك ، فستجزيك الآلهة عنها خير الجزاء . إن الواجب ليستصرخنى أن أعجل بنقل جثتى أبوىّ المسكينين إلى « دار الموت » ؛ وأن أجتاز بهما عتبة

الأبدية محنطين ، وهذا يتطلب نقوداً لا أملك منها الآن شيئا .

وكان « كاپتاح » ينشج بالبكاء تأثراً بالموقف الرهيب . ولم يسعه إلا أن ينسلّ إلى ركن بالحديقة ويتلفت يمنة ويسرة ليستوثق من أن أحداً لا يراه ، ثم ينحنى فيرفع حجراً ويلتقط من تحته خرقة كان قد طواها على ما ادخر من نقود ، وعاد بها فى حذر فأفرغها فى يدى ، وكانت قطعاً من الفضة والنحاس تزن نحو سبع أوقيات.

ومضيت بها مسرعا إلى بيت أبى ، فراعنى منه أنه صار شبيها بالطلل البالى ، فأبوابه محطمة ، وأمتعته مكومة ، وعليها أختام الحكومة ، تحذيراً للأيدى من الامتداد إليها . وكان الجيران وقتذاك متجمعين بالحديقة ، يجلل وجوههم الأسى ، فما أن أبصرونى حتى رفعوا أيديهم استنكارا ، وأشاحوا عنى سخطا واحتقارا ، ولم تتحرك ألسنتهم بكلمة يقولونها لذلك الابن العاق الذى أشقى أبويه وقتلهما ، لقد كان فى نظرهم أحقر من أن يتحدثوا إليه ...

وفى الحجرة الداخلية رأيت أبى « سنموت » وأمى « كيفا » مسجيين على سريرهما وفى وجهيهما الإشراقة الوردية التى طالما استقبلانى بها فى حياتهما الذاهبة. ورأيت فى وسط الحجرة الموقد الذى اختارا أن يموتا بدخانه ...

وتقدمت منهما متردداً فلففت جثتيهما فى ملاءة كانت ، كأى قطعة من متاع الدار ، مختومة بخاتم الحظر والحفظ ، ثم جئت بمكارى فحملهما على حماره ؛ وذهبت بهما معه إلى « دار الموت » ..

وهناك واجهت الحقيقة المؤلمة ، وهى أننى لا أملك نقوداً تكافىء نفقات أدنى مراتب التحنيط ؛ فما عساى أن أصنع ؟ ؟ لقد أزعجتنى هذه الحقيقة ؛ ولكننى تشجعت وقلت لغاسل الجثث : إننى أنا « سنوحى » ابن « سنموت » واسمى مسجل فى « دار الحياة » ، وهاتان جثتا أبوىّ ، ولا أملك أجر تحنيطهما ؛ فقد جردتنى الأقدار من كل شىء . وإنى لمستحلفك بآمون وجميع آلهة مصر أن تحنطهما ، ولقاء هذا أرجو أن تقبلنى خادما معك فى عملك إلى أن أوفيك بما كان يجب أن أدفعه إليك الساعة ..

وكان هذا أمراً غيرمألوف عندهم ؛ فانتهرنى الرجل وازدرانى رفاقه ؛ وصدُّونى عنهم صدًّا عنيفا . ولـكن كبيرهم ؛ بعد لجاجة وطول مساومة ؛ رضى أن يأخذ منى بقية ما أعطانيه « كاپتاح » وأن أبقى عاملا معهم إلى أن أتم النفقة ؛ ومن ثم ألقوا بالجثتين فى حوض ماء . وعرفت لأول مرة أن تحنيط جثث الفقراء يكون بوضع الملح على الماء ؛ ثم تبقى الجثث فى هذا الماء المملح ثلاثين يوما كاملة .

وعندما فرغت من الاتفاق معهم على ذلك ، ذكرت الملاءة المختومة التى لففت بها الجثتين ، فاستأذنت رئيسهم فى العودة بها إلى المنزل ، فأنـكر علىّ هذا وظننى أفـاقا أخاتلهم ، وتوعدنى قائلا : إذا لم تعد إلينا فى الغد فسنخرج الجثتين من الحوض ونقذف بهما إلى الـكلاب فى عرض الطريق .

وقفلت راجعا إلى منزل أبوىّ ، وأحسست حين دلفت إليه أن كل ما فيه يتلقانى باللعنة ، فوضعت الملاءة فى مكانها وأسرعت بالخروج كمن يفر من هول . وإنى لفى طريقى أوسع الخطو إلى « دار الموت » ، إذا بى أرى إنسانا يعترضنى قائلا : أأنت « سنوحى » ابن « سنموت » المستقيم البار ؟..

قلت : نعم . إننى هو « سنوحى » ..

قال : لك عندى رسالة من أبيك استكتبنيها بعد أن استحال عليه لقاؤك ، ثم نشر الرسالة بين يديه وأخذ يقرأ بصوت جهير :

« نحن « سنموت » الذى سجل اسمه فى « دار الحياة » وزوجته « كيفا » ، نبعث بتحيتنا إلى ولدنا « سنوحى » الذى سمى فى قصر فرعون « بالوحيد » ، ونوجِّـه إليه هذا الخطاب فى اللحظات الأخيرة التى نزمع فيها الرحيل عن هذه الدنيا.

« لقد أرسلتك إلينا الآلهة ياولدنا ، على شوق الظمآن إلى الماء ، فتيمَّـنا بك واستبشرنا . وكنت خلال حياتك معنا مبعث غبطتنا وهناءتنا ، وكنَّـا بك فخورين ، نحوطك بالحب ونتابعك بالدعاء ، فلما تناهى إلينا آخر الأمر أن ريحك لم تجر رخاءً ، وأن طريقك قد حف بالمـكاره والشدائد ، وعركتك محن لم يكن لك على دفعها طاقة ، أهمَّـنا ذلك هما شديدا ، وأحزننا حزناً فادحا ، وكنا نتمنى

«لو أن لدينا وسيلة نعينك بها على الخلاص من الشر، ونمد لك بها أسباب النجاة من الضر ، ولكننا صرنا إلى حال من العجز لاتسعفنا بشيء ، وهذا هو الذى يسبب لنا أقسى الشجن ، ويؤلمنا أشد الألم . ولسنا آسين على مافعلت ، ولا ساخطين على ماصنعت ، فإننا لعلى يقين من أنك فى أيما عمل تعمله وفى أيما أمر تقدم عليه ، إنما تصدر عن فكرة الصواب . فإن كانت الأقدار قد دخلت عليك فأفسدت مقاصدك ومراميك ، وقادتك من حيث لاتدرى إلى مالم تكن تحب أن يكون ، فلا شك عندنا فى أنك كنت لاتستطيع أن تقف عجلاتها أو تصد إعصارها ، فقد كانت أقوى منك أيداً وأضرى بطشاً . ونحن لهذا مشفقان عليك راثيان لحالك ، ونرجو مخلصين ألا تبتئس من أجلنا ، وأن تهون على نفسك أمرنا ، فقد بلغنا من الحياة أقصى المدى وشربنا كؤوسها حتى الثمالة ، ومللنا البقاء فيها ، وحسبنا منها أننا سعدنا بك طفلا ساقته الآلهة إلينا ، وصبيا آنس وحدتنا ، ونفى عنا وحشتنا ، ونضر ما كان قد تصوح من آمالنا . فالآن وقد استحال الربيع المزهر خريفا ممحلا ، وعصفت بشيخوختنا العواصف ، ونزلت بساحتنا النوازل ، وفقدنا الدار والمتاع ، وتقطعت فى حياتنا أواصر العيش وأسبابه ، وباعدت الأقدار بيننا وبينك ، فإننا ثمة لانرى غير الرحيل سبيلا ، ولا نجد فى غير الموت ملاذاً ، وقد قر الرأى عندنا على ذلك . وإننا بعد قليل لمقبلان على الميتة التى اخترناها راضيين تعجلا للراحة بعد العناء ، واستباقاً للهدوء بعد الفزع ، ولا يهولنك أننا لانجد قبراً نأوى إليه ونثوى فيه ، فمن الخير أن نتلاشى فى فضاء العدم غير المحدود ، وألا نركب ظهر الأهوال غير المنظورة فى رحلتنا الشاقة إلى الأرض الغربية . وثق ياولدنا أن ميتتنا معا تقع فى يسر وغبطة ، وأننا قبل أن نفارق الحياة نباركك ونبتهل إلى آلهة مصر كلها أن تحوطك بعنايتها وتعصمك من كل المخاطر ، وأن تهيىء لك عيشا رغدا وهناءة متصلة ، وأن ترزقك أطفالاً سعداء تقر بهم عينك ، وتبتهج بهم نفسك ، وتجد فيهم من السعادة أكثر مما وجدنا فيك ، والسلام عليك من أبيك « سنموت » وأمك « كيفا » . »

وكنت أستمع إلى الرجل وهو يتلو الرسالة وقلبي يخفق خفقا دراكا ، ودموعي تتحدر من عيني غزيرة ، ورأسي يتصدع حزنا والتياعا . فلما فرغ من تلاوتها ناولنيها قائلا : إنها لا تحمل خاتم أبيك ، فخاتمه كان معك ، ولكنها ، وأقسم لك ، كلماته التي أملاها بلسانه حرفيا ، لم أزد عليها ولم أنقص منها ، وقد تناثرت على بعض حروفها دموع أمك ، على ما ترى من آثارها ، فكأنما أرادت هي كذلك أن تشاركك فيها ، فكانت دموعها الصامتة أبين لسانا وأفصح مقالا !..

وتناولت الرسالة مضطربا ، وقد رانت غشاوة الأسى على بصري ، فلم أستطع قراءتها بنفسي مرة أخرى ، فطويتها ووضعتها في جيبي . على أن الرجل مضى يقول : كان أبوك « سنموت » طبيبا محمود الخصال كريم السجايا ، وكذلك كانت أمك « كيفا » ولو أنها كانت على طبع النساء ، في بعض الأحيان ، خفة رأي وحدة لسان . وقد كتبت هذا الخطاب ناقلا كلمات أبيك ومسجلا مقالته ، أمينا في النقل والتسجيل ، وكابدت في هذا رهقا وعناءً ، ولم ينقدني أبوك أجراً على ذلك ، لأنه كان لا يملك ما يعطينيه ، وها أنذا قد أنفذت رغبته ، وأديت أمانته ، فلعلك منتفع بما في الخطاب ، فاقه دلالته ومعانيه !..

وفطنت إلى إشارته وتلويحه ، فقلت له : أشكر لك فضلك أيها الكاتب الماهر ، والرسول الأمين . وإنه ليخجلني حقا أنني لا أملك الآن نقوداً أكافئك بها ، ولكني أرجو أن تتقبل معطفي هذا هدية متواضعة ، وهو من نسيج جيد وإن لم يكن نظيفا كما ينبغي ، ولتباركك الآلهة ، ولتحفظ جسمك من الفناء إلى الأبد .

ووضع الرجل معطفي على كتفيه وذهب لطيته مسروراً به ، وأخذت أنا طريقي إلى « دار الموت » مرتديا جلبابي مجردا من المعطف الذي كان يستره ويخفيه ، كأي رقيق أو سائق ثيران ، لأعمل خادما مع غسلة الجثث ومحنطيها مدى ثلاثين يوما بلياليها . .

— ٤ —

ظننت عملى فى « دار الموت » شيئا مما ألفته فى حياتى كطبيب ، فما أكثر ما رأيت من الموتى ، وما أكثر ما شممت الروائح الكريهة تنبعث من أجسادهم ، وما أكثر ما انغمست يدى فى قروح المرضى التى تنزف صديداً ! .. فهذا الجو الذى صرت إليه ليس إذن جديداً علىّ ، غير أنى ما كدت أوغل فيه حتى أخذت أشعر بأننى أدخل منه فى دنيا أخرى غير تلك الدنيا التى عرفتها وعشت فيها ، فكل ما أرى فيه يبدو غريباً ومثيراً ولا صلة له بسابق علمى وخبرتى .. ومن ذلك أن جثث الموتى يختلف العمل فيها باختلاف درجات أصحابها ، وباختلاف درجات الأجور التى تدفع عنها .. وقد كانت جثث الفقراء منهم لا تتقاضانا إلا أيسر الجهد ، فهى تلقى إلقاءً فى أحواض ملأى بماء الرماد والملح ذى الرائحة النفاذة ، ثم يستعملون خطافا فى تقليبها بهذا السائل ، وكنت ممن يقومون بهذه العملية فلم ألبث إلا قليلا حتى حذقتها ، أما جثث الطبقات الأعلى مركزاً والأوفر مالا ، فكان يعنى بها عناية متميزة ! .. فأمعاؤها توضع بدقة ومهارة فى جرار خاصة ، وتضفى عليها رعاية متصلة خلال مراحل التحنيط ، وكان من علامات الخصوصية وآياتها فى هذه الجثث أن يظهر عليها « آمون » أكثر من ظهوره على الأحياء ، وللمحنطين فى ذلك براعة لا يعد لهم فيها أحد ، وكانوا قبل البدء بالعمل يقضون وقتا طويلا فى مساومة أهل الميت فى أثمان الزيوت والمراهم والمواد التى يزعمون أنهم يستعملونها فى حفظ الجثث من التعفن والبلى ، وهى مواد يغالون فى مقدارها ويهولون فى خصائصها وأسرارها ، وإن كانت كلها ترجع إلى مصدر واحد هو الزيت المستنبط من السمسم .. وبهذه الوسيلة كانوا يحصلون من القادرين على الأجور العالية ويختصون جثث موتاهم بالمهارة الفنية التى لا يبذلون منها شيئا لجثث الفقراء .. وقد كان من عنايتهم بالجثث المأجورة أنهم إذا ما أخرجوا أمعاءها، ملأوا فجوة البطن بقطعة نسيج نظيف يتخللها صمغ الصنوبر ، أما جثث الفقراء

فكانوا يملأون فجواتها بالزيت القارض الذى يذيبها ويبليها ، فإذا انقضت عليها ثلاثون يوما بأحواض ماء الرماد والملح ، أخرجوها وتركوها قليلا لتجف ، ثم سلموها لأهل الموتى ..

وكانت « دار الموت » تحت رقابة الكهان ، ولكنها رقابة خيالية ليست بذات أثر ، فالمغسلون والمحنطون يعبثون بملابس الموتى ويستولون على مافيها ، ويرونه حقا لهم ، والواقع أنهم فى هذا كانوا يجرون على طبيعتهم ، فهم من المجرمين الذين تطاردهم لعنة الآلهة ومن الآبقين الخارجين على سلطان القانون ، وكانوا يعرفون بسيماهم ، وبما ينبعث من روائحهم الكريهة غادين ورائحين ، ولهذا كان الناس يقذعونهم ويتحامون لقاءهم ، ولم يكن ليسمح لهم بغشيان الحانات أو بيوت الملاهى . ولقد ضقت بهم أيما ضيق ، وخاصة حينما كنت أراهم ، إذا ماخلوا إلى الجثث ، يمعنون فى العبث بها ، حتى ما كان منها لأناس ممتازين ، فيبترون بعض أعضائها ليبيعوها للسحرة والعرافين ، حيث يتخذون منها مادة لشعوذتهم . ولو كانت هناك حقا حياة ثانية فى الأرض الغربية ، فإن الكثيرين من الموتى عندما يستيقظون سيدهشهم أن يفتقدوا فى أجسامهم أعضاءاً مبتورة ، وسيدهشهم كذلك أن النفقات التى دفعت للمعبد لقاء حفظهم ودفنهم قد ضاعت عبثا ! . .

ولقد فكرت أكثر من مرة فى الهرب من هذا الجو الطافح بالرذيلة والفساد ، ولكن كان يمسكنى به ويكرهنى على البقاء فيه أن الحياة فى خارجه كانت فى نظرى أضيق من كفة الحابل ، وأننى لقيت فيها أهوالا أشد وأقسى مما ألاقى به ، ذلك إلى أن الذين يعملون فى « دار الموت » لايجدون من الناس إلا نفوراً وتقززاً ، فهم لا يغادرونها إلا ليعودوا إليها ، فلن يطيب لهم مقام فى غيرها . .

على أنه كان من بين هؤلاء الملتاثين فى عقولهم ، عدد قليل ممن استقاموا على الجادة ، يتوافرون على عملهم بالإخلاص والشرف ، ويعدونه عملا إنسانياً بالغ الأهمية . ولعل ذلك لأنهم قد توارثوه عن آبائهم وأجدادهم ، فهم ليسوا كالآخرين ، دخلاء

عليه ، وكان لكل منهم فرع تخصص فيه ، كما هو الحال فى «دار الحياة» ، فهذا متخصص فى الرأس ، وذاك فى الأمعاء ، وثالث متخصص فى القلب ، ورابع فى الرئتين ، وهكذا سائر أعضاء الجسم موزعة بالتخصص عليهم ليحصنوها ضد الفناء !..

فهؤلاء القلة كانوا بيننا أشبه بالومضات التى تشع إشعاعا ضئيلا وسط الظلمة الحالكة ، ولكنها على ضآلتها كانت تبعث فى مثل قلبي الواجف بريقاً من الأمن والطمأنينة .

وكان « راموس» أكبر هؤلاء سنا يتمرس بفرع هام من فروع التحنيط ، فقد كان عليه أن يفصل المخ ويستله من ثنايا الأنف بآلة دقيقة خاصة بذلك ، ثم يغسل الجمجمة بالزيت النقى ، وكنت لإعجابى به أرافقه فى عمله وأعينه ، واسترعى نظره حسن استعدادى للعمل وخفة يدى فيه ، فأخذ يتعهدنى برعايته وثقته ويزودنى عالا أعلم من دقائق عمله ، ثم اتخذنى مساعداً له ، ولما أبلغ نصف المدة التى تقررت لخدمتى معهم ، ورفع هذا من شأنى فى نظر الآخرين فلم يعودوا يغلظون القول لى أو يلقون بمخلفات الجثث فى وجهى ، ذلك لأن « راموس » كان لأهمية العمل الذى تخصص له ذا نفوذ قوى عليهم !..

ولم يعجلنى هذا عن التفكير فى جثتى أبوىَّ ، وفى إعدادها الإعداد الذى يكفل لها الراحة بقدر المستطاع فى حياتهما الأبدية ، وقد اضطرنى ذلك إلى مجاراة رفاقى فى سرقاتهم ، لعلى أصيب منها بعض ما يعيننى على إتمام واجبي نحوهما ، وكنت أعلم أن هذه خطيئة ، ولكنها لاتقاس بما اقترفت قبلها من خطايا ، وكانت السرقات على أى حال خلقاً شائعاً فى هذا الوسط القذر ، وهى ليسرها وسهولتها وانتفاء الزاجر عنها ، كانت ذات إغراء دافع . وقد استطعت بمساعدة « راموس » تحنيط الجثتين العزيزتين على نفسى ، تحنيطاً حسنا ، ثم أدرجتهما فى لفائف من الكتان ، ولم يبق إلا أن أضعهما فى صندوق خشبى ، وهو أمر ينِدُّ عن قدرتى ، وقد طال فى ذلك تفكيرى ، إلى ما كان يشغل بالى من أمر قبرهما الذى أصبح

لا وجود له بين القبور !..

وقد امتدت بسبب ذلك إقامتى فى « دار الموت » حتى بلغت أربعين يوما ، وأخيراً تهيأت للخروج منها ، وحاول « راموس » أن يستبقينى معه لأظل مساعداً له فى عمله ، لما استبان من كفايتى ومهارتى ، ولكنى اعتذرت من عدم الاستجابة لرغبته ، ولا أدرى لماذا كان اعتذارى ! . فقد كانت ظروفى الخاصة خليقة أن تحملنى على البقاء ، فما جدوى أن أخرج لحياة تموج بالمتاعب وتزدحم بالآلام ، وقد جرعتنى الصاب والعلقم ، وفقدت الشرف والكرامة ، كما فقدت فيها الأهل والأصدقاء ؟ ! وليس من شك فى أننى « بدار الموت » على ما فيها من فساد أخلاق وشيوع رذائل ، أحسن حالا منى فى خارجها ! . على أنى مع هذا آثرت مغادرتها إلى غير مآب !..

ومن ثمّ ارتديت ملابسى بعد أن غسلتها ونقيتها من أوضارها ، وخرجت من « دار الموت » مشيعا من المغسلين بالشتائم والسخرية ، على طريقتهم فى التخاطب والتحيات دون قصد الإساءة وجرح الشعور !. .

وعلى أنى حرصت على أن أكون نظيفا بقدر الإمكان ، فإن الناس الذين كنت أمرّ بهم كانوا مع هذا يخلون الطريق أمامى ممسكين بأنوفهم لاعنين ، كأنما كانت تهب عليهم فى تسيارى بينهم رائحة الموت الذى يزعجهم ويخيفهم !..

ولما بلغت المرفأ ، أبى أصحاب القوارب أن ينقلونى عبر النهر إلى الجانب الآخر فبقيت حتى جلّل الليل صفحة الأفق ، وعندئذ غافلت الأعين الراصدة ، ونقلت على قارب من الغاب جثتى أبوىّ ، ومضيت بهما إلى مدينة الموتى ..

— ٥ —

ولم أجد فى مدينة الموتى قبراً أوارى فيه الجثتين ، فقد كانت الحراسة القوية المؤزرة تحيط بها من جميع جوانبها وأقطارها ، وعبثا حاولت مغافلة الحراس الأشداء الأيقاظ ، وكان علىّ مع ذلك أن أودعهما قبراً ليعيشا بين هذه الكثرة

الكاثرة من الموتى ، ناعمين بالهدايا والمنح التى يقدمها إليهم الأغنياء وذوو السعة والكفاية ، وإنه لأشق ما يشقينى أن يقضى عليهما أيضا بالحرمان مما لا أعرف أن أحداً قد حرم منه قبلهما فى هذه المدينة الخالدة ، ولهذا حملتهما على كتفى ومضيت بهما فى الصحراء التى حولتها الشمس فى ذاك الوقت ناراً تلظى ، وقد أوقرنى الحمل وهدّ كيانى وكدت أهوى به مجهداً . ولكننى فى هذا الجو الصارم الشديد القسوة جمعت أطرافى وتماسكت تماسك الذى لا مفر له من ذلك ، ورحت أتلمس الطرق الوعرة التى لا يسلكها عادة إلا اللصوص الفتاكون ، مصمداً إلى التلال المهجورة ، وانتهيت إلى « وادى الملوك » حيث يرقد الفراعين فى قبورهم المنيفة ، وهو منطقة حرام يحظر السير فيها ، وكان الليل قد ران بظلماته عليها فزادها رهبة. وغير بعيد منى كان عواء ابن آوى يتجاوب فى سكون الليل مخيفا مرعبا ، كما كان فحيح حيات الصحراء السامة يتساقط على سمعى فى كل خطوة أخطوها ، فكأنما كنت أسمع منه نداء الموت المترصد ، وكان يخطف بصرى منظر الثعابين السارية من أوكارها زاحفة على الصخور التى لا تزال متقدةبالحرارة ، ولكن هذا كله لم يفزعنى ، ولم يثبط عزمى فقد كنت أريد ، مصمما ، ألا تطلع الشمس من جديد حتى أكون قد أديت واجبى الأخير لأبوىّ اللذين لم يبق منهما إلا هذه الكومة من لحم وعظام ، وإن الموت لأهون على نفسى ، أنا الذى ما زلت فى عنفوان الشباب ، من أن أصبح على الحياة وفى قلبى حرقة الخجل الممض ، لسوء ما قدمت يداى الآثمتان ، وقد كان هذا الموت يحف بى من كل جانب ، ولكننى فيما يظهر لم أخطر له على بال ، فكنت أرى الحيات والثعابين تدنو منى ثم تتراجع وتتفرق!. .

وكان الحمل الثقيل الذى أحمله فى هذه الرحلة المخيفة الشاقة خليقا أن يزهق روحى، ولكننى بقيت به حيا ، وكان حراس الوادى العتيد يقفون على كل موضع منه كمردة الجان ولكنهم كانوا كأنهم عمى لا يبصرون وصم لا يسمعون ، ولو أنهم رأونى وسمعوا قعقعة الصخور تحت قدمى وأنا أنحدر إلى واديهم ، لكان حتما أن يقتلونى ويلقوا بجثتى إلى الذئاب الجائعة .

لقد تخلى عني الموت ، وأنا منه جد قريب ، وانداح لى صدر الوادى الرهيب كما لو كنت ضيفا ينزل بساحة مضياف كريم ، وأخذتني منه روعة العظمة المتجلية على قبور أولئك الملوك الثاوين فيه ، بما لا تقاس به عظمة عروشهم التى كانوا يجلسون عليها أحياءاً .

وبين قبورهم العظيمة التى كنت أدور عليها متفحصا ، وجدت قبرا تبدو عليه الجدة ، فوقفت به واخترته مثوى لجثة أبوىّ ، فصاحبه حديث عهد بالموت ، وهداياه كثيرة ،وما فيه من زاد وفير، وفى معبده تؤدى مراسم الموت بانتظام كأى قبر جديد لملك عظيم ، وإذن فهو أصلح القبور وأوفاها بحاجة أبوىّ . ومن ثم أخذت أحفر حفرة فى الرمال بجانب بابه ، وفيها دفنت جثتيهما ، وكنت ، وأنا أهيل الرمال عليهما ، أشعر براحة بال ، ذلك لأنهما يرقدان ، إلى الأبد ، إلى جوار فرعون العظيم صاحب القبر ، وسينعمان بما يقدم إليه من زاد وهدايا ، وسيرحلان معه من الأرض الغربية على قاربه المقدس ، ويأكلان من خبزه ويشربان من نبيذه . وكان يخيل إلىّ أن « أنوبيس » يطل خلال الأفق عليهما ، مرحبا بهما ، متهيئا لمرافقتهما فى رحلة الأبد ، وطاب لى هـذا الخيال ، وتمثلته حقيقة مبلورة ، ولم أنكر فى نفسى أن تكون نهايتهما هكذا ، فقد كنت واثقا أن الصفاء والنقاء والخير والفضيلة بكل معانيها كانت من أجلى الصفات التى يتحليان بها فى حياتهما ، وستكون لهما بها الرجاحة فى ميزان « أوزوريس » ، وزادنى استبشاراً وتفاؤلا أننى عند ما كنت أهيل الرمال على جثتيهما ، وقع فى يدى فجأة « جعران » من حجر أحمر اللون ، له عينان دقيقتان ركبتا فيه من الجواهر ، وقد نقشت عليه كلمات قدسية ، فكان هذا فى يقينى إشارة إلى أن أبوىّ يرقدان فى طمأنينة وسلام ورضى ، فبكيت تأثراً ، وتناثرت دموعى على الرمال فبللتها ، ولم يغلبنى على تصور هذا المعنى أن الجعران لم يكن فى الواقع إلا حلية من الحلى التى أزجيت إلى قبر فرعون ! . .

وكان القمر قد أخذ يتوارى فانحنيت على مثوى أبوىّ رافعاً يدىّ بالتحية إليهما ،

وانقلبت راجعاً حتى بلغت شاطىء النيل مجهداً منهوك القوى ، دامى اليدين ، ممزق القدمين ، وفى عينى من رمال الصحراء غشاوة ، فانتهلت من ماء النيل راوياً سعار ظمئى ، وارتميت على الأعشاب كالمغشى عليه من فرط التعب ، واسترسلت فى نوم عميق . . .

— ٦ —

وعلى صوت البط الذى اتخذ أكنانه وسط الأعشاب ، استيقظت مع الصباح فى الوقت الذى كان « آمون » يبحر فيه على قاربه الذهبى عبر السماء . ومن الشاطىء البعيد ترامت إلى مسمعى ضجة المدينة المستيقظة ، وتراءت قريباً من بصرى سفن النهر جاريات على صفحة الماء تخفق على سواريها القلاع الحمراء ، وتواردت جموع النساء مبكرات كعادتهن على حافة النهر يغسلن الملابس على الألواح الخشبية المعدة لذلك ، إذ يملأن جرارهن متضاحكات أو متبادلات الأحاديث التى لا يكتمن فيها سراً خبيثا .

وكانت هذه الصور والمناظر تلوح مع الصباح فى مثل إشراقه لطفا وابتهاجا ، ولكن قلبى كان موصدا دونها ، جامدا لا يتأثر بها ، فما أنا منها فى قليل أو كثير ، وأكبر ظنى فيها أنها لا تطلع على الوجود إلا ليستمتع بها السعداء الخليُّون ، الذين لا ترنق صفاء حياتهم الهموم والأرزاء ، ولست منهم ، ولعلها حين تطلع على الأشقياء المنكوبين ، أمثالى ، تسخر منهم ليزدادوا شقاءا وعذابا ؟..

كان الذى يشغل أفكارى ، وتنفعل له سائر مشاعرى ، أننى بذلت أقصى ما فى طاقتى من جهد للتفكير عن خطيئتى التى لا تعدلها خطيئة فى حياة الناس ، ولا أرانى بعد خليقا بالبقاء فى هذا الوجود الإنسانى . فقد فقدت كل مؤهلاته وخصائصه ، وإذا كنت قد استطعت أن أصلح من شأنى مع الآلهة بالتفكير ، فإنى أعجز ما أكون عن استرداد مكانى المفقود بين الناس فوق هذه الأرض ، فهم لا شك قد عرفوا الآثام التى ترديت فيها ، ولسوف ينبذوننى نبذ النواة ،

احتقارا لشأنى ، واستنكارا لعارى ، ثم كيف يمكن أن أبرز لهم على ما أنا فيه من حال زرية ، تجفوها الأبصار ، وتعافها النفوس ، فهذه ملابسى صارت مزقا مهلهلة وخرقا بالية كأنها ملابس الأرقاء المستذلين مهدورى الآدمية ، وهذا ظهرى قد ألهبته حرارة الشمس ، إلى ما وقره من حمل جثتى أبوىّ ، فاحترق وانسلخ عنه الجلد ، فأصبح شائها ، وصرت به كالموبوء الذى يفر الناس من لقائه ، ولا أملك مع هذا شيئا من النقود أشترى به قوتا يعصمنى من الجوع ، وثمة أمر آخر يمسكنى فى مكانى ويقيدنى فى موضعى ، ذلك أنى إذا ما خطوت متجها إلى المدينة فسيعترضنى الحراس المنبثون فى ثنايا الطريق ، وسأقع فى قبضتهم لا محالة عندما يعرفون أنى « سنوحى » الآثم الذى تطارده اللعنة !..

أخذت هذه الخواطر تتقاذفنى فى عنف وشدة ، ولم أر فيها غير الموت سبيلا إلى الخلاص .

وإنى لأفكر فى هذا إذا بى أحس بحركة تدنو منى ، ثم ألمح خلالها إنسانا يلوح كأنه شبح يتراءى فى حلم مزعج . لقد كان — وهو يقترب منى — مخلوقا مسخا عجيبا ، أنفه مثقوب وأذناه مقطوعتان ، ويداه ضخمتان ناتئتا العظام ، وجسمه ، على ضموره وصلابته ، تتناثر عليه أخاديد من بقايا جروح مندملة كأنها آثار حبال مشدودة كان يحمل بها الأثقال . .

وتكلم هذا الإنسان الذى تصورته شبحا مرعبا ، فقال : ما هذا الذى تطوى عليه يدك !؟

ودون أن أحرك لسانى مجيبا ، فتحت يدى وأريته الجعران المقدس الذى عثرت عليه فى الرمال بوادى الملوك ، فقال : أعطنيه فقد يؤتينى حظا سعيدا يبدل ما ترانى عليه من قسوة البؤس ..

قلت له : وإننى لكذلك بائس فقير ، وليس معى شىء سواه ، فسأحتفظ به لنفسى كتميمة قد تؤتينى ذلك الحظ السعيد المنشود .. وأنا به أولى ..

قال : خير لك وأنت على تلك الحال من الخواء أن تجد بديلا منه نقودا تقضى

بها حاجتك العاجلة ، وإنى وإن كنت فقيراً لمستطيع أن أعوضك عنه بعض النقود الفضية ..

وافتضَّ حزاماً كان يتمنطق به وأخرج منه قطعاً من هذه النقود ، ولكننى أبيت أن أعطيه الجعران ؛ إذ أيقنت أخيرا أن فيه سراً جالباً للسعادة .

فقال مغضباً : كان بوسعى أن أفصل رأسك عن جسدك وأنت تغط فى نومك، فقد كانت عينى تلحظك من قريب منذ بلغت هذا المكان . وكان يغرينى بك هذا الذى كنت تقبض عليه فى يدك متشبثاً به خلال نومك ، ولكنى آثرت أن أدعك حتى تستيقظ لأسألك إياه كما يفعل الرجل الشريف ، ولو عرفت أنك ستأباه علىَّ جاحداً فضلى لغضبت عليك ، وانتزعته منك ، على أنى مازلت مستطيعاً أن أفعل ..

قلت له : لا أستغرب عليك هذا ، فأنت على ما أرى من صورتك الشوهاء المريبة ، مجرم هارب من المحاجر ، ولو أنك قتلتنى لصنعت بى خيراً وحققت لى أمنية أتمناها ، فأنا وحيد فى بؤسى وعذابى . وليس لى مأوى أسكن إليه ، ولا أهل أتعلق بالحياة من أجلهم ، على أنه وقد فاتك أن تفعل هذا فى نومى ، وفى غفلة من العيون ، وفى وحشة الليل وظلمته ، فإنك الآن لاتأمن الإفلات من الحراس وهم منا غير بعيد ، وإنى لناصحك أن تتركنى لشأنى ناجياً بروحك ، ذلك لأنهم إن رأوك فلن يفلتوك ، وسيلهبون جلدك بسياطهم ، ويملقونك على الجدران من قدميك . وإذا أخذتهم بك الرحمة فهم — على الأقل — معيدونك إلى المكان الذى اجتويته وكرهت أن تبقى فيه فهربت منه ! .

قال ساخراً : أغلب الظن أنك غريب عن هذه البلاد ، لاتعرف شيئا من أخبارها وأحوالها ، فقل لى يا هذا : من أى بلد جئت ؟! ألا فاعلم أننى لاأخشى الحراس الذين تروعنى بهم ، فلقد أصبحت حراً كما أصبح الأرقاء أحرارا ، ومن حتى أن أدخل المدينة من أى أبوابها شئت ، ولاشىء يمنعنى من ذلك سوى وجهى الذى تراه ، فإنى لأخشى أن أزعج به الأطفال .

فقلت متعجباً : كيف يصبح المحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة حرًّا!

طليقا ؟! هذا مالا أتصوره فضلا عن أن أصدقه !..

قال : ألم أقل لك إنك غريب عن هذه البلاد ؟ ! فلو كنت من أهلها لعرفت أن ولى العهد عندما اعتلى العرش ووضع على رأسه تاج المملكتين العليا والسفلى ، أصدر مرسوما بفك كل القيود وتحطيمها ، وعتق الأرقاء الذين يعملون مسخرين أو محكوما عليهم فى المحاجر والمناجم ، فأصبحوا بذلك أحراراً طلقاء ، والذين بقوا منهم فى العمل هناك أصبحوا يؤجرون على عملهم ! ..

ثم ضحك واستطرد يقول : وكثير من الرفاق طاب لهم المقام وسط الأعشاب حيث يطعمون أشهى الأطعمة وأسخاها ، توافيهم متتابعة وهى فى سبيلها إلى الأثرياء بمدينة الموتى . وقد اتخذت مكانى بين هؤلاء الرفاق ولا أرضى عنه بديلا ، وما يستطيع الحراس أن يعترضوا طريقنا ، فإنهم ليعلمون من شدة بأسنا ما يخيفهم ، فنحن لا نخاف أحداً ، حتى الآلهة ..

ولأول مرة عرفت ، من حديث هذا المخلوق العجيب ، أن ولى العهد ارتقى العرش تحت اسم «أمنحوتب الرابع» ، وأنه حرر الأرقاء وأطلق سراح المسجونين. ولا ريب فى أن المناجم الواقعة فى الصحراء الشرقية قد أصبحت خالية من عمالها ، ولابد أن يكون الحال كذلك فى شبه جزيرة سيناء ، فليس يوجد من يرضى بالعمل فى المناجم مختاراً وبمحض إرادته !.

ثم قال هذا العامل إن الملكة القرينة الصغيرة هى أميرة « ميتانى » التى لاتزال تقضى وقتها لاهية بلعب الأطفال ، وإن فرعون الجديد يتبع الآن ، على الجهر ، إلـهاً جديداً . وهو كما يقول العامل ، إلـه عجيب فى الآلهة ، تظهر أفعاله الغريبة فى تصرفات فرعون الشاذة التى تبدو كأنها تصرفات مجانين . فاللصوص والقتلة الذين أطلقهم وفك إسارهم ، يجوسون أحراراً خلال الديار بالمملكتين العليا والسفلى ، وقد تعطلت حركة الإنتاج بالمناجم بسبب هجرة العمال منها بمجرد تقرير حريتهم .. وقال: والحرية فى ذاتها أمر محبب ، ومبدأ إنسانى مقدس ، ولكنها فى إطلاقها غير مأمونة الضرر ، فهى لا تعطى إلا بحقها ، ولا ترسل هكذا جزافاً ، ولقد أحسن

فرعون حينما أباحها لمن حرموا منها ظلماً ، ولـكنها تحسب عليه سيئة حينما يساوى بهم فيها المجرمين العابثين بالأمن والخارجين على القوانين ، فهؤلاء الأشرار لا يمتنع أذاهم في الناس إلا إذا قيدت حريتهم ، وعزلوا عزل الموبوءين عن الأصحـاء . وقد أُعطيت بهذه الحرية حقى ، إذ قد هدروا إنسانيتى عندما قذفوا بى إلى المناجم مسخراً مظلوماً ، يعتصرون فيها بدنى اعتصاراً بلا أجر ومن غير جزاء ، وهذه محمدة لفرعون أقدرها له ، ويقدرها له أمثالى المسخرون المظلومون ، ولـكن ما شأن المئـات والألوف من أولئك المجرمين الأشرار الذين حطم قيودهم وأزال الحواجز القائمة بينهم وبين المجتمع ؟ ! إنهم بلا شك عائدون إلى إجرامهم ليفسدوا الحيـاة على الناس .

على أنه مهما يكن من أمر ، فهذه مشيئة فرعون ، وهو المسئول عنها ، أليس كذلك ؟!.

قال هذا وهو ينظر إلىّ نظرة المطمئن إلى أنى أطابقه على رأيه ، وقد استرعى نظره خلال ذلك ما يغمرنى من مظاهر الألم والإعياء ، فقال لى فى لهجة الرائى الحالى المشفق على شبابى : إن جلدك هذا المتسلخ قد آذته الشمس بلفحها المتوقد ، وإن معى زيتاً يمكننى أن أصلحه به !. ولم ينتظر أن أجيبه إلى ذلك ، فأخرج من ملابسه قارورة الزيت ، وأخذ يدلّك بها ساقىّ وذراعىّ وظهرى ، وكان ، وهو يفعل ذلك ، يردد عبارات مختلفة سمعت منها قوله : لست أدرى ـ بحق «آمون» ـ لماذا أصنع هذا لك ، أنا الذى لم أجد قط من يرحمنى عندما كان جسمى تتدلع فيه السياط وتتهاوى عليه العصىّ الغلاظ ، وتتفجر منه الدماء ، وتدمى به الجراح والقروح !. إن أحدا لم يكن عند ذاك يحفل بى أو تخفق به عاطفة الشفقة علىّ ، فأظل مهملا كأنى سائمة من السوائم ، أو قطعة من حجر تافه . وما أكثر ما كنت ألعن الآلهة لأنها تخلت عنى ، وأسلمتنى إلى وحوش مفترسة لها أشـكال الآدميين ..

وأنست بالرجل لعطفه الذى يبدو غير متـكلف ، وكنت أول الأمر قد

اجتويته مستريباً فى دعوى براءته ، فالأرقاء والأثمة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة كثيرا مايزيفون الحقائق وينحلون أنفسهم البراءة من الآثام التى قارفوها وعوقبوا عليها ، مدفوعين إلى ذلك بدافع من مركب النقص بطبيعتهم ، وبدافع الرغبة فى تحويل رأى الناس فيهم وكسب مافقدوه من الثقة بهم ، ولكننى شعرت أنه أقرب إلى الصدق منه إلى الكذب ، وأدنى إلى البراءة منه إلى الإثم ، فتطامنت له ورأيت من الخير على أى حال أن أوافقه على دعواه ، وأبادله عطفاً بعطف ، فكلانا شقى معذب ، ثم إنى لأرانى أثقل إجراماً ، وأفدح خطيئة وإثماً من أولئك الذين حوكموا على خطاياهم وآثامهم ، فهنالك إذن آصرة تجمعنى إليه ، وتربطنى به ، وهنالك ماهو أكثر من هذا ، هو أنى وحيد فى هذا المكان الذى لا أعرف كيف أريم عنه ولو أننى نافرت هذا الإنسان الطارئ وأبيت صحبته ، فسيتركنى لوحدتى التى تنهشنى نهش الضوارى ، ولهذا رأيت أن أصانعه وأتجمل له ، فقلت متلطفا : لقد أثرت شعورى بحديثك أيها الرفيق الكريم ، فنبئنى بتفصيل ماوقع عليك من ظلم لعلى أستطيع أن أشاركك فى بلائك به ..

قال : إنها قصة طويلة ولكن لاضير عليك فى أن تعرفها كلها . فهى قصة الصراع المحتدم بين الحق والباطل ، الثائر دائما بين العدل والظلم . كنت من قبل حرًّا أملك أرضا أفلحها وأعيش ناعما بثمارها ؛ وأملك معها ماشية أتوفر بها فى عملى ورزقى . وكان لى فى هذه الأرض كوخ أسكن إليه أنا وزوجتى وأولادى ، وترفرف علينا فيه أجنحة السعادة والرغد ، ولكن هذه الحياة الصافية الوادعة ، قد شاءت الأقدار أن تغشيها بالأكدار والهموم ، فرمتنا بجار سوء من ذوى الثراء العريض والنفوذ المتفاقم يدعى « أنوكيس » ..

كان هذا الجار يملك رقاعا من الأرض تنداح وتتسع حتى لاتبلغ العين آخر مداها ، وكانت الأنعام والسوائم التى يملكها بهذه الأرض فى مثل رمال الصحراء ، كثرة عدد ، ولكنه مع ذلك كان شرها لايقنع ، جائعا لايشبع ، وقد وضع عينه على أرضى ذات الرقعة الضيقة محاولا أن يضيفها إلى أرضه الواسعة الأقطار ، المترامية

الأطراف ، وكان كلما رآني متشبثا بها حريصا عليها ، ازداد إمعانا في محاولاته ، واستطاع أن يغلبني عليها عن طريق مسّاحي الأرض الذين يفدون علينا في أعقاب كل فيضان ليقيسوا الأرض ويوضحوا معالمها من جديد ، فهؤلاء الذين اشترى ذممهم بالرشوة والهدايا الكثيرة ، كانوا يتقدمون بأحجار التحديد في أرضي توسيعا لحدود أرضه ، على إشارته وهواه ، فإذا احتججت واعترضت أولوني دبر آذانهم ، وعلى مرور الزمن تلاشت أرضي في أرضه كما تتلاشى السمكة الصغيرة في جوف الحوت ؛ فأصبحت وليس لي منها إلا الكوخ الذي صار كالأثر الحائل في عالم الذكريات ، وكان من الممكن أن أعيش به بلا أرض أملكها كما يعيش الأرقاء والعمال الأجراء الذين يعملون في أرض ذلك الغني الكبير ، بل كان من الممكن أن أكون عنده أحظى مكانا وأيسر رزقا ،لو أنني طاوعت شهوته الصارخة التي كان يتعقب بها ابنتي الجميلة !..

لقد كنت وقتئذ أبا لخمسة من البنين وثلاث من البنات ، وكانوا قبل أن تنزل بنا كارثة ذلك الجار الغني الطامع ، عدتي في حياتي ، وأعواني في عملي ، ومبعث غبطتي ومناط أملي ، وقد نقصوا واحداً ، اختطفه صغيراً تاجر سوري ، فأسيت عليه ، ولكني تعزيت عنه بأخوته ، وهكذا الفقراء يكثر نسلهم فلا يضيقون ذرعا بكثرة الأبناء ، إذ يجدون فيهم أعوانا على العمل ، وأسبابا توثق صلتهم بالحياة ، فإذا فقدوا منهم وجها وجدوا في وجوه الباقين نضرة العزاء ، وقد كانت ابنتي الصغرى ذات حظ وافر من الجمال ، ولفرط إعجابي بها حجزتها عن الحقل وعن حرارة الشمس حتى تنمو زهرتها وتتفتح براعمها في الظل الوارف ، وكانت فعلا تزداد على الأيام ازدهاراً وجمالا ، ولو أني اطلعت على الغيب لبدلت جمالها قبحا ودمامة ، حتى تزورّ عنها عين جارنا الغني الذي رآها فاستملحها واشتهاها ، وراح يلاحقها ملاحقة الذئب للشاة ، وقد أنكرت عليه ذلك حين صارحني برغبته فيها ، فعرض عليّ أن يترك لي أرضي ، ويوسع لي في رزقي ، إن حققت له رغبته ، فأبيت معتزّا بكرامتي ، ذلك لأني كنت أعد ابنتي لرجل من طبقتنا ، يتزوج منها زواج

الشرف ، لا زواج المتعة ، وأتخذ منه عضواً جديداً فى أسرتى ، يعاوننى معاونة الابن لأبيه ، لا معاونة السيد لخادمه!..

واستغل « أنوكيس » جارنا الغنى المتجبر ، ضعفى وفقرى والمصير التعس الذى صرت إليه بعد اغتصابه أرضى ، ومورد رزقى ، فلجَّ فى مضايقتى وإعناتى لأستجيب له مكرها ، فلما استعصيت عليه سلَّط علىَّ خدمه وأرقاءه ، فنازونى وقاتلونى ، فواجهتهم دفاعا عن نفسى وضربت أحدهم ضربة قضت على حياته ، فاهتاجهم هذا وتكاثروا علىَّ فجدعوا أنفى وقطعوا أذنىَّ على ما تراه ماثلا فى وجهى، ومن ثم ، وبقوة نفوذ سنيدهم ، نفيت إلى المناجم ، وبيعت زوجتى وأولادى رقيقا ، واحتفظ هذا السيد الظالم « أنوكيس » بابنتى الصغرى التى هام بها ، حتى إذا ما أطفأ بين أحضانها سعير شهوته ألقاها إلى أحد خدمه ..

وقد ظللت بمنفاى عشرة أعوام معذبا خلالها بالعمل الشاق ، إلى مرارة الشعور بالظلم ، فلما تحررت بأمر الملك أسرعت إلى موطنى مشوقا غاية الشوق إلى أهلى ، ولكننى لم أجد أحداً منهم كما لم أجد أثراً للكوخ الذى كان يجمع شملهم ، وأقبلت ابنتى الصغرى التى كانت سبب شقائى ، فلاقتنى فى غير مبالاة وألقت على قدمى مياها ساخنة ، ثم عادت من حيث أتت . وهناك علمت أن « أنوكيس » قد مات ودفن بقبره بمدينة الموتى وأن قبره يمتاز عن القبور بكتابة مطولة نقشت على بابه ، فشخصت إلى « طيبة » لأدلف منها إلى مدينة الموتى باحثا عن قبره لأرى ماذا كتب عليه ، وقد عثرت على القبر ورأيت على بابه الكتابة المنقوشة التى أنبئت بها ، ولكنى لم أجد من يقرؤها ، فإنى لا أعرف القراءة !..

هذه قصتى ، أعنى مأساتى ، ولم يبق منها إلا أن أعرف ماذا رأى أن يسجله هذا الظالم على باب قبره ؟!..

قلت له : إذا شئت فإنى لمرافقك إلى هناك لأقرأ لك ..

فاغتبط لهذا وشكرنى عليه وقال : الحق أن أقصى ما أتمناه قبل أن أموت ، أن أستبين ما أودعه فى ثنايا نقوش قبره ، ولعله وقد ذهب عن هذه الدنيا يقرر

أموراً تتصل بضحايا جشعه وشهواته !..

وأخذنا سبيلنا إلى مدينة الموتى ، فبلغناها دون أن يعترضنا أحد من حراس الطريق ، وبعد جولة صغيرة فى أنحائها انتهينا إلى قبر كبير وجدنا على مدخله لحوما وألوانا مختلفات من الكعك والفاكهة والزهور ، كما وجدنا إلى جانبها جرة مقفلة مملوءة بالنبيذ ، فانكب الرجل على هذا الطعام والشراب يلتهم ويعب ، ويقدم لى من هذا وذاك لآكله وأشاربه ، ثم أشار إلى واجهة القبر لأقرأ له ، فتأملتها واستنطقت الكلمات المنقوشة عليها وقرأتها عليه هكذا :

« أقرر أنا « أنوكيس » أننى عنيت فى حياتى بزرع الحبوب وأشجار الفاكهة ، وكانت عنايتى بذلك تنتج المحاصيل الوافرة التى قلما يؤتاها غيرى من الزراع ، وذلك بفضل الآلهة وبركاتها التى كانت لا تتخلى عنى أبدا ، فقد كنت أخشاها وأبذل فى سبيل مرضاتها خمس هذه المحاصيل ، وكان النيل يحبونى بالخير المستفيض المتصل كفاء ما كنت أسخو به على العاملين بأرضى ، باراً بهم ، موفيا كل حاجاتهم ، وكانت معاملتى لجيرانى مشربة بالكرم والمحبة والعطف ، فكنت أعينهم على مد مياه الرى إلى أراضيهم ، وإذا نزل بهم القحط فى بعض السنين العجاف منحتهم الحبوب ليأكلوا حتى يشبعوا ، وكم رفهت عن اليتامى وخففت من همومهم وكفكفت دموعهم ، وكم ترفقت بالأرامل من النساء متجاوزاً لهن عن ديون أزواجهن ، فكانت ألسنتهن دائماً تترطب بالثناء علىّ والدعاء بالخير لى ، وما أكثر ما كنت أعطى الذين نفقت ثيرانهم ثيراناً غيرها من حر مالى ، ولم أحاول مرة أن أستخدم نفوذى وقدرتى فى إدخال أى جزء من أرض جيرانى إلى أرضى ، بل لقد كنت جد حريص على أن تبقى علامات الحدود ثابتة فى مواضعها بينى وبينهم ، فكذلك كنت ماضياً معهم على جادة الاستقامة ، متحريا العدل والرحمة والعفة والنزاهة فى سائر علاقاتى بالناس جميعا ، ولقد فعلت هذا كله أنا « أنوكيس » جاريا على طبيعتى السماحة ، داخلا به فى رحمة الآلهة ، لتنير طريق رحلتى إلى الأرض الغربية . »

وكان رفيقى ، مجدوع الأنف ، يستمع لهذه الكلمات فى إصغاء يخالطه التأثر ، فلما انتهيت من تلاوتها ، قال وعينه تشرق بالدمع : الحق أن « أنوكيس » كان التقى الصادق فى حياته ، وإنه لكذلك فى مماته ، وليس لمثلى إلا أن يؤمن بهذا ، وسيقرأ الناس هذه الصفحة من تاريخه ، جيلا بعد جيل ، وطبقة فى إثر طبقة ، فيذكرونه فى احترام ، ويتخذون منه مثلا للإنسان الكريم الذى عاش ندىّ الكف ، بارًّا بالفقراء عطوفا عليهم !. وهكذا الأغنياء من أمثاله ، لا يتخلى عنهم المجد والتكريم أحياءً وأمواتا !.. وما أنا بالقياس إليه إلا المخلوق البائس الشرير ، أضطرب بين الناس بالأنف المجدوع والأذن المقطوعة مجفوًّا منهم ، محتقراً فى أعينهم ، يجللنى الخجل من ملاقاتهم ، فإذا أدركنى الموت ألقوا بى إلى النهر كما لو كنت حشرة قذرة ، ولا يكاد اسمى يذكر على لسان أحد ، فقد عشت منسيا ثم نقلنى الموت إلى وادٍ من النسيان سحيق ، فحياتى وموتى سواء فى ذلك !.. ألا ترى يا رفيقى أن كل ما فى هذه الدنيا عبث وباطل ؟!.

وتناول جرة النبيذ وراح يجرع منها . وهنا أقبل أحد الرقباء فضربه بعصاه ، فالتفت إليه وقال : كان « أنوكيس كريما وطالما أسدى إلىّ الخير فى حياته ، ولهذا فإنى أتناول الطعام والشراب على قبره تمجيداً لذكراه العزيزة فى نفسى ، فارفع ، أيها الحارس ، يدك عنى ، ولا تمس رفيقى هذا بأذى ، فإنه رجل يمتاز بالعلم والثقافة ، فإن أنت لم تفعل ، فاعلم أن من خلفنا رفاقا أشداء يحملون الخناجر المسنونة المتعطشة للدماء ، ومن اليسير علينا أن نعود إليك جماعة فى الليل ، فنذبحك ذبح الشاة !..

وبدا على المراقب شىء من الوجل لهذه الكلمات ، يتهدده بها ذلك المخلوق المخيف ، فأجال بصره يمينا ويسارا ثم مضى لطيته دون أن يعقب .

وبقينا ، أنا ورفيقى ، نأكل الطعام ونشرب النبيذ تحت ظل السقيفة القائمة بين يدى قبر « أنوكيس » ، وبعد قليل أخذ يتحدث قائلا : ألم يكن من حسن الرأى أن أستجيب إلى رغبة « أنوكيس » فأعطيه ابنتى راضيـا ؟ ! إن ذلك ،

لو فعلته ، كان خليقا أن يحمله على أن يدع لى كوخى ويُظفرنى منه بالهدايا ، فقد كانت عذراء دافقة الصبا والجمال ، وكان الأرجح أن تهيء لى عنده حظوة ومكانا دانيا ، فماذا أجدى علىّ تمنعى وإبائى ؟! لقد نالها منى قسرا ورمى بها ، نكالا بى ، إلى خدمه ، فأصبحت امرأة لا قيمة لها ، وأصبحت أنا العاجز الشرير المنفى من الأرض ، الشائه الخلقة ، المسلوب الحق فى الحيـاة ، حتى بعد أن تقررت الحرية للجميع !.. فها أنتذا ترى ، يا رفيق ، أن الحق فى دنيانا ، لا مكان له إلا فى رحاب الأقوياء والأثرياء ، وصوت الفقير بعيد ، بعيد ، حتي عن سمع فرعون ! ..

ورفع جرة النبيذ إلى فمه قائلا : تحية لذكراك أيها العادل المقسط «أنوكيس»!.. وليبق جسمك محفوظاً إلى الأبد . . . ولك أن تطمئن ، فمـا أريد أن أتبعك إلى الأرض الغربية ، فمن حقك أن تحيا كأمثالك فى دعة ورغد ، وفى صفاء غير مشوب ، ممتعاً برضوان من الآلهة ، ولقد أسلفتَ الخير للناس فى حياتك الأولى ، على ماشئت أن تسجله على باب قبرك ، وإنى لمصـدقك ، وما أراك إلا ماضياً على هذا النهج الكريم فى حياتك الثـانية ، ولهـذا فسيرضيك أن تقاسمك كؤوسك الذهبية ومجوهراتك الثمينة التى ترقد فى القبر إلى جوارك . واقتناعاً بكرمك وسخائك سآتيك زائراً فى هذا المساء ، عندما يتحجب وجه القمر بالسحاب !..

وفهمت ماذا يعنى ، فقلت له ، راسماً علامة الصلاة لآمون : إنك لتقدم على أمر خطير ، وليس شىء هو أبغض إلى الآلهة والناس وأدعى إلى غضبهم ونقمتهم من جريمة السطو على قبور الموتى ..

قال ، وقد بدت عليه رعدة المحموم لـكثرة ما جرع من النبيذ : يمـكنك أن تعالج أمورك الخاصة بطريقتك المثلى المهذبة التى يرضاها الآلهة والناس ، ولـكننى لا أستطيع إلا أن أجرى على الطريقة الأخرى التى أقامنى عليها هؤلاء أنفسهم ، وما أحسبهم سيغضبون ، فهـكذا شاءوا أن أكون ! . . وإلا ففيم جعلوا هـذا الظالم « أنوكيس » رجلا عظيما ، وجعلوا منى ، أنا المظلوم ، شقياً تعساً ، موسوما بالشر والجريمة ؟!.. . لقد ذهب عن هذه الدنيـا وفى عنقه دين لى ، دين كبير ،

أفليس من حقى أن أقتضيه منه ؟! ولئن كنت ترى فى الوسيلة التى اخترتها لذلك عملا غير شريف ، فهل أنت مخبرى عن شرف الوسيلة التى سلب بها حياتى ومالى وكرامتى ؟! . . ألا فاعلم أننى مسترد دينى منه الليلة على أية حال ، فإن حاولت مدافعتى عن ذلك حطمت رأسك ، وخير لى ولك ، ونحن فى الشقاء صنوان ، أن تعيننى على هذا ، فأربع عيون ترى أكثر مما ترى عينان ، وأربع أيد تفعل أكثر مما تفعل يدان ، ومن الحماقة أن نترك ذخائر هذا القبر عندما يكون استيلاؤنا عليها ممكناً ، فليس هنالك من هو أولى بها منا ...

قلت له فى خوف : كلا ، لا أريد أن أصبح معلقاً على الحائط ، ورأسى مدلًّى إلى أسفل والسياط تلهب بدنى . . إن الموت لا يفزعنى قدر ما يفزعنى أن يرانى الناس مصلوبا بهذه الصورة على الحائط ، فيشيرون إلىَّ بأصابعهم قائلين : إنه « سنوحى » .. لقد صار لص مقابر !..

ولكن الظروف جرت فى تلك الليلة على هوى رفيق مجدوع الأنف ، فقد رأينا جمعا من الجنود يهبطون فى القوارب التى حملتهم من المدينة إلى وادى الموتى ، ثم ينحدرون إلى المقابر فيدورون عليها ويشربون الأنبذة التى كانوا يجدونها موفورة بين الهدايا المقدمة للموتى ، فما أن تهيجهم الخمر حتى ينهالوا على القبور يحطمون أبوابها وينتهبون ما فيها ، واختلطنا بهم فلم ينكرونا ، ولم نجد عندئذ من يعترضنا حينما فعلنا مثل فعلتهم بقبر «أنوكيس» ، حيث استولينا على الكؤوس الذهبية ، وعلى ما لا يقل قيمة عنها من أشياء أخرى ..

وكان هؤلاء بعض جنود « فرعون » لم ينالوا الأعطيات التى جرت العادة بها عقب كل تتويج ، فأسخطهم هذا ، واندفعوا غضابا ينهبون القبور التى كان من من واجبهم أن يحافظوا عليها ..

وفى مطلع الفجر كان على شاطىء النهر عدد غير قليل من التجار السوريين يترصدون هذه الأسلاب ليشتروها وينقلوها على سفنهم ويبحروا بها . وقد اشتروا منا ما حملناه من قبر « أنوكيس » بمائتى دبن (أى سبعمائة أوقية) من

الذهب والفضة ، وكان هذا ثمناً بخساً ،بالنسبة لما تساويه الأشياء المشتراه ، ولكننا رضينا به واقتسمناه . وقد فرح مجدوع الأنف بنصيبه فرحاً شديداً وقال : منذ الآن أعتبر نفسى فى عداد الأغنياء ، والواقع إنه لعمل سهل موفور الربح والفائدة ، وسيريحنى من حمل الأثقال ، أو من عناء العمل فى زراعة الأرض ، فلن أكون بعد اليوم حمالا بالميناء ، أو زارعا فى الحقل ، أو ضحية جبار طاغية !..

وقلت مستدركا : ولكن لا تنس أن العِرْق ينزع ، وأن جرة الماء تسعى إلى البئر ...

وقد عنيت بهذا أن طبيعة الإنسان تتحكم فى تصرفاته ، مهما تختلف ظروفه ..

ثم افترقنا على ذلك ، وعبرت النهر إلى « طيبة » على أحد الزوارق ، فاشتريت ملابس جديدة ، وذهبتْ عنى « رائحة الموت » التى كانت عالقة بملابسى القديمة الرثة ، ومن ثمَّ اختلطت بالناس ، فلم يبق ما يريبهم منى ، وعرجت على إحدى الحانات فتناولت طعاماً وشربت نبيذاً ، بينما كنت ، وكان أهل المدينة ، نسمع جلبة القوات والعربات الحربية تمضى إلى مدينة الموتى ، لاقتفاء أثر اللصوص الذين سطوا بليل على القبور فسرقوها . وقد رأينا فى المساء أجساما كثيرة معلقة على حائط التعذيب ، فتنفست الصعداء ، إذ قدر لى أن أنجو من هذا المصير التعس .

— ٧ —

قضيت ليلتى الأولى بأحد الفنادق . وفى الصباح قصدت إلى المنزل الذى كنت صاحبه يوماً ما ، فهتفت « بكابتاح » الذى أقبل مسرعا ، وكان وجهه مربداً ، فارتمى على قدمى وهو يبكى وقال : ما أعظم فرحى إذ أراك تعود وكنت أحسبك فى عداد الموتى ، فلقد طالت غيبتك فقلت لنفسى : لو كان حيًّا لما تخلف عنى ليأخذ نقوداً ، فما أعرف أنك بعد الذى كان ، تجد إنسانا مخلصا سواى يمدك بما تحتاج إليه، وقد أعددت النقود وظللت أنتظر عودتك، وفى سبيل إعدادها أسرفت فى سرقة سيدى الجديد ، وكلفنى هذا كثيراً من العذاب ، فلا ينقضى يوم دون أن أتلقى

من هذا السيد ومن أمه ، الضربات الموجعة . وقد أقسمت هذه الأم ، التى تشبه التمساح العجوز ، لتبيعنى إلى من يسومنى سوء العذاب ، وإننى من ذلك لفى فزع شديد ، ولا أرى غير الهرب طريقا للخلاص . فهيا ياسيدى ، نهرب معا ، فراراً من هذا الشر الذى تفاقم فى حياتنا واستشرى !..

وهززت رأسى متردداً ، فقال : لا تخش شيئاً ، فلقد جمعت مبلغاً كبيراً من المال ، وهو يفى بحاجاتنا وقتا طويلا ، فإذا نفد قبل أن نجد مورداً فسأعمل من أجلك ولا أدع الحياة تشق عليك .

قلت له : ما جئت لهذا يا « كاپتاح » ، وإنما جئت لأفى لك دينك ، فعندى الآن من المال عشرات الأضعاف لما أعطيتنيه فى عسرتى الشديدة . وفى استطاعتى ، إن شئت ، أن أشترى حريتك من سيدك بأى ثمن ، لتذهب طليقا إلى أى وجه تشاء .

قال : ولكنك إذا حررتنى لتطلقنى للحياة بعيداً عنك ، فقد لا أجد موضعا من الأرض يطيب مقامى فيه منفرداً ، فما الخير فى أن تدفع المال لتهب لى حرية لا أنتفع بها ؟! . . إننى فى بعدى عنك يا سيدى أصبح كالهرة العمياء ، أو الحمل الصغير الذى تركه القطيع منبوذاً فى الصحراء .

ثم أغمض عينه الواحدة نصف إغماضة ، مستوحيا حيلته ومكره ، وقال : لا شىء غير أن نهرب معا ، فذلك هو الحل الوحيد للمشكلة ، وقد علمت أن سفينة كبيرة تستعد الآن للرحيل إلى « أزمير » وفى وسعنا ، بقليل من المجازفة والجرأة ، أن نبحر عليها . ويمكننا أن نتسلف النجاة من الأخطار ، بتقديم القرابين إلى الآلهة ، لندخل فى حمايتها .

وهنا تذكرت «الجعران» المقدس الذى أحمله ، فأخرجته وقدمته إلى« كاپتاح» قائلا له : هذا إله موفور القوة ، على ضآلة حجمه ، ومن خصائصه القدسية دفع الضرر عن حامله ، واجتلاب الحظ السعيد له ، فخذه واحفظه .. وإنى لموافقك على الرحيل ، فالواقع أننى لم أعد أطيق النظر فى وجه أى مخلوق فى « طيبة » أوفى أى

مكان غيرها بمصر ، فلنرحل إذن ، ولتكن رحلتنا إلى غير مآب ، ولا يشغلنك أمر المال ، فإن معي ذخيرة حسنة .

قال « كاپتاح » : هذا حسن ، ولكن لماذا تكون رحلة إلى غير مآب ؟!.. إن أحداً لا يعلم ما سيأتى به الغد ، ولست يائساً مثلك من العودة إلى هذا الوطن ، بل إننا لا نستطيع أن نعيش إلى آخر العمر بعيدين عن النيل ، فإن أى إنسان شرب مرة من مائه السلسبيل لا يمكنه أن يروى ظمأه بماء أى نهر آخر ! . . وما هجرتنا الآن إلا وسيلة تقتضيها ظروف عارضة ، وتفرضها علينا حاجتنا إلى الاختفاء عن الناس بعض الوقت . وإذا كنتَ قد تردَّيت فى آثام يخجلك تذكرها ويستحييك أن تظهر موسوماً بها ، فأنت مازال شابا ، والزمن كفيل بنسيان كل شىء ، وما عمل الإنسان إلا كحجر يلقى فى بحيرة واسعة يحدث بها أول الأمر تموجات صغيرة ، لا تلبث أن تتلاشى فى غمر الماء ، وتعود البحيرة كما كانت هادئة كأن شيئاً لم يقع . وكذلك الناس ، ما أسرع ما ينسون . ولهذا فثق أنك عندما تعود من هجرتك فلن يذكر الناس ما كان من سيئاتك ، وإنما سيقولون ، معجبين ، إنك المصرى الجرىء البارع الذى استطاع أن يرحل إلى أوطان أخرى ، ويعيش بين أقوام آخرين ، ثم يعود إلى وطنه موفور القوة واليسار . .

قلت له : حسبك ثرثرة ، لقد يبس ما بينى وبين الناس هنا ، وسواء ذكرونى بالشر أو بالخير ، فإن ثمة حقيقة سأذكرها دائماً هى أننى قد لقيت منهم ما يزهدنى إلى الأبد فيهم . . . لقد صممت على الرحيل إلى غير عودة..

وقبل أن يعقب « كاپتاح » ، مثرثراً كعادته ، على قولى ، نادته سيدته بصوتها الذى يشبه زئير اللبؤة ، فهرول إليها ، وتواريت عن عينها منتظراً عودته . وبعد قليل أقبل حاملا سلّة وفى يده نقود نحاسية ، وقال لى فى ابتهاج : إن أم التماسيح كلها أمرتنى بشراء أشياء من السوق وأعطتنى هذه النقود ، وهى قليلة ولكنها على أى حال ستنفعنا فى رحلتنا إلى « أزمير » التى أعتقد أنها تقع بعيداً من هنا .

وكان « كاپتاح » قد دسّ فى السلة ملابسه وطاقية شعره ، فلما بلغنا الشاطىء

انتحى جانباً بين الأعشاب فارتداها ، مستبدلاً بها ملابسه الأخرى ، وحمل فى يده عصاً أنيقة كالتى يحملها الخدم فى المنازل الكبرى ، وكنت قد اشتريتها له خاصة إمعاناً فى التنكر ، ومضينا بعد ذلك إلى الميناء حيث مرسى السفن السورية ، فوجدنا هناك واحدة من ذوات الحمولة الكبيرة متمددة القلاع ، ومن فوقها يمتد حبل غليظ يصل مقدمتها بمؤخرتها وتعطى به إشارة الرحيل من أعلى الصارى ، وكان ربانها سوريا ، وفى خلقه الطيبة والسماحة ، فلم يغلظ لنا أويشتط فى استكناه أمرنا ، بل تلقانا مرحباً ، على خلاف ما كان يقع فى وهمنا ، وقد سره أن يسمع أننى طبيب ، فكثيرون من بحارته مرضى ، وهو يثق بالطب المصرى ويقدره أحسن التقدير . ولهذا أجاز لنا الإبحار على سفينته دون أن يتقاضانا أجراً ، وكان ذلك ، فى رأينا ، علامة من علامات البركة التى أضفاها علينا «الجعران» المقدس ، وقد بالغ « كابتاح » فى تقديسه كإله ، فهو فى كل يوم يدهنه بالزيت ويجففه بقطعة من نسيج مطهر .

ومخرت السفينة عباب النيل ، وبحارتها يعملون مجاديفهم فى الماء ناشطين ، فبلغت حدود المملكتين بعد ثمانية عشر يوما ، وقطعت دلتا النيل فى ثمانية عشر يوما أخرى ، ثم خلصت بعد يومين إلى حوض البحر الكبير . وهنالك انداحت أمام عيوننا صفحة الماء ، فلم يلح لنا فى أية ناحية منها أثر لشاطىء آخر ..

وعندما اندفعت السفينة فى تيارها بهذا الخضم الهائل ، الذى لا ترى العين له براً ولا ساحلاً ، أخذت تضطرب اضطراباً شديداً فى مصطخب الأمواج ، وانعكاس تيارات الرياح ، واختلافها فى أحوال المد والجزر شدة ورخاءً ، وقد أزعج هذا « كابتاح» ، فاصفرلون وجهه واعتراه ما لاعهد له به ، فتعلق بالحبل الكبير ، وقال وهو يئن ويتلوى ، إن معدته فيما يحس قد طفرت من مكانها وارتفعت إلى أذنيه وإنه يواجه الموت المحقق . وكنت أول الأمر أنظر إليه ساخراً ، ولكننى أخذت أشعر مثل شعوره ، وأحس كأنى قد أصبت بما قد أصابه ، وكلما مددت نظرى إلى البحر ورأيت السفينة تتراقص وسط أمواجه المتراكمة كالجبال ، ووسط أعاصيره

العتيدة التى لو تلاطمت على اليابسة مثل تلاطمها على البحر ، لسقطت مدن ، وتهاوت حصون وقلاع . كلما رأيت هذا ، تفاقم الخوف فى قلبى ، واسود الأفق الأزرق فى عينى ، وزاد خوفى وقلقى حينما رأيت « كاپتاح » يدفع ، بغير إرادة ولا شعور ، مافى جوفه ، ثم يسقط على ظهر السفينة إعياءاً وضعفاً . وكذلك كان حال الكثير من راكبى السفينة ، فقد رأيتهم أيضاً يقذفون مافى أجوافهم ، ونكسو وجوههم صفرة الموت ، ويتساقطون فى أماكنهم تساقط أوراق الشجر فى الخريف . وعندئذ أسرعت إلى ربان السفينة لأقول له إن الآلهة صبت لعنتها على سفينته فنشرت الوباء على ظهرها ، ولا أجدنى ، وأنا الطبيب الماهر ، قادراً على مقاومة هذا الوباء ، فلم يبق إلا أن يرتد بالسفينة إلى الشاطىء إن كان ثمة سبيل إلى ذلك ، وإلا فإنى — كطبيب — غير مسؤول عن النتائج ! ..

غير أن الربان أجابنى فى هدوء واطمئنان بأنه لا شىء فيما أرى يدعو إلى الخوف ، فتلك حال تعرض عادة فى مستهل رحلات البحر ثم لا تلبث أن تزول ، وأرسل بصره إلى الأفق واستطرد يقول إن الريح مواتية ، والرحلة على طول طريقها ستكون هادئة مريحة ، ولا ينبغى أن نذكر لعنة الآلهة فى مقام الثناء عليها إذ هى ترعانا ولا تلعننا ، وأمسك الرجل بذقنه مقسما بها أنه ما من راكب فى سفينته إلا وهو بالغ نهاية الرحلة ، وواطىء بقدمه الأرض التى يقصد إليها ، فى مثل خفة الغزال نشاطا ورشاقة وعافية ! ..

وفى تحفظ كبير استمعت إلى كلماته المطمئنة ، فقد كنت بالرغم من ذلك لا أستطيع أن أشعر بالطمأنينة كما يشعر بها ، وكان عذرى أن راكبى السفينة قد تراموا تحت عينى صرعى ، وليس فيهم من دلائل الحياة إلا ومضات باهتة تنذر بالخفوت . .

وخلال ذلك عجبت من أمرى ، فقد كنت على فزعى مما أرى ، لا أشعر بأن حالة غير عادية قد انتابتنى ، فأنا لم أقذف مافى جوفى ، ولم أسقط كما سقط الآخرون كالموتى ، ولم يذهلنى ، فى القليل ، دوار البحر كما أذهلهم . ولكنى أخيراً

عللت ذلك بأنني عندما ولدت وضعونى فى قارب من الغاب ودفعونى به إلى النهر، وظللت فى هـذه الرحلة البحرية الأولى إلى أن رسوت على الشاطىء الذى تلقتنى عنده أمى « كيفا » ، فلا شك أنى قد اكتسبت بذلك شيئاً من طبيعة البحار .

ورحت أتعهد رفاق المصابين وأحاول علاجهم ، ولـكنهم كانوا يدفعوننى عنهم لاعنين ، حتى « كاپتاح » أبى أن يتناول الطعام الذى قدمته له لتغذيته ، وهو الذى كان لا شيء يمنعه من ذلك ، فما عرفته إلا متهالـكا على الطعام ، مستزيداً منه أبداً . وقد خشيت أن يكون امتناعه عن الطعام فى هذه المرة مظهراً من مظاهر خطورة العلة الطارئة وعلامة من علامات انتهائه من الحياة ، فلو أن الموت اختطفه منى فإن مصابى فيه يكون أفدح مصاب ، فليس لى عنه غناء فى حياتى .

ومضى هذا اليوم المفزع وتعاقبت بعده الأيام دون أن نفجع بموت أحد من الركاب ، بل إنهم على توالى الأيام أخذوا يصحون وينقهون ويعودون إلى ما كانوا عليه من عافية ونشاط . وكان « كاپتاح » حينما استعاد عافيته لا ينقطع عن الصلاة للجعران المقدس ، معتقداً أنه لم ينج من الموت إلا ببركته .

وبعد سبعة أيام لاح لأعيننا شاطىء من بعيد ، وقال ربان السفينة إننـا قد جاوزنا مدينتى « يافا » و « وتاير » ، وإننا مقبلون على « أزمير » وبالغوها بعـد قليل . وقد صح تقديره ، ولم أعرف كيف جاءه العلم بذلك ، فتراءت لنا « أزمير » فى اليوم التالى ، ثم انتهينا إلى مينائها ، بينما كان الربان يقدم القرابين إلى آلهة البحر ، فى قمريته ، ويصلى لهم .

العبريون

— ١ —

أستطيع الآن أن أتكلم عن سوريا وعن غيرها من البلدان التى تنقلت بينها وطوّفت فيها . وأول ما يتمثل فى ذهنى منها ذلك الاختلاف الواضح بينها وبين مصر ، فالأرض هناك تضفى عليها الرمال لونا أحمر وليس لها سواد أرض مصر ولا استواؤها وصلابتها . ولم أرَ فيها نهراً كالنيل ينساب بين حناياها فى خطوط مستقيمة ، وإنما تهطل عليها الأمطار فى فصول خاصة ومواسم معينة ، فتتشربها الأرض ولا يمسكها بالأودية المتناثرة تحت التلال إلا أغوار متقطعة متباعدة الآماد ، وفى كل واد من هذه الأودية المتحاجزة بالتلال العالية يسكن قوم يختلفون عن غيرهم طباعا وسلوكا ، يتولى الحكم فيهم أمير باسم « فرعون » وباسمه أيضاً يؤدى الجزية له ، والأمر الذى لا يكاد يختلف فيه سكان الأودية بتلك البلاد هو أن لباسهم من الصوف دقيق الصنع وهم يفرغونه على أجسامهم من الرأس إلى القدم ، كما لو كانوا يتخذون منه غطاءاً يخفى كل شىء فيهم . وقد رأيتهم شديدى التمسك بهذا الرداء الحاجب ، حتى أن أحداً منهم إذا ما ألمّت به حاجة إلى الكشف عن جزء من جسمه انتحى بعيداً عن الآخرين لكيلا تقع عليه عين ، ولا شىء من هذا فى عادات المصريين ولا فى مألوف حياتهم ، ومما يتميز به أهل سوريا أنهم يرسلون شعورهم على أبدانهم ويعفون لحاهم فتتدلى شعورها الطويلة على صدورهم ، ولا يأكلون الطعام خارج بيوتهم ، وفى كل مدينة من مدنهم إلـهها الذى يتعبدون له ، ويقدمون القرابين على مذبحه ، وقرابينهم عادة من الآدميين ..

وفى سوريا مصريون اختيروا للعمل بوظائفها العامة كالإشراف على جباية الضرائب أو رياسة الحاميات العسكرية ، وكان مفهوما أن اختيارهم للعمل بتلك البلاد ليس الأصل فيه التشريف والكفاية الممتازة ، وإنما هو نوع من الإبعاد

المنطوى على معنى العقوبة ، وهم جميعاً يحنون حنيناً متصلا إلى شواطىء نهر النيل. ومنهم قليلون طال اغترابهم فيئسوا من العودة لوطنهم ، واستسلموا راغمين للحياة في هذه الغربة وساروا على مناهجها ، فارتدوا ملابس السوريين وتشكلوا بأشكالهم وداروا فى فلك عاداتهم ، وقدموا مثلهم القرابين لآلهة غير آلهتهم . وكان يزيد فى متاعب هؤلاء الموظفين المصريين شيوع الفتن والدسائس بين السكان ، إلى شيوع النفاق والمداورة بين دافعى الضرائب ، إلى شيوع المنافرة والمشاحنة بين الأمراء .

وتختلف سوريا عن مصر كذلك فى أن الأطباء هم الذين يبحثون عن مرضاهم، ويذهبون إليهم فى دورهم ، والأمر على نقيض هذا فى مصر ، حيث يذهب المرضى إلى الأطباء . ومنشأ هذه العادة فى سوريا أن المرضى هناك يسلمون شفاء عللهم إلى الآلهة ، فالأطباء لذلك يفتشون عنهم ويترددون على مساكنهم من غير دعوة منهم، فيقع فى وهم المرضى أن الأطباء مبعوثون إليهم من الآلهة ، ويستغل الأطباء هذا الاعتقاد فيفرضون أجورهم ويتقاضونها معجلة ، ولا يقبلون اقتضاءها نسيئة ، ويدفع المرضى هذه الأجور فى غير تردد ، لاعتقادهم أنهم يدفعونها إلى مبعوثى الآلهة . وذلك ، ولا شك ، يوافق مصلحة الأطباء ، فالمرضى قلما يذكرون أجور العلاج أو قلما يتحمسون لدفعها إذا ما تم شفاؤهم .

وقد قضيت فى « أزمير » سنتين تعلمت خلالها اللغة البابلية ، قراءة وكتابة ، ذلك لأننى عرفت أن هذه اللغة هى لغة التفاهم والتخاطب بين المثقفين فى سائر أنحاء العالم ، وحروف كتابتها تنقش على ألواح من الطين بأقلام معدنية . وبهذه الوسيلة يتبادل الملوك مراسلاتهم ، وقد استغنوا بهذه الألواح عن الأوراق ، ويرجع ذلك إلى أنها أطول بقاءاً وأشد حفظا للاتفاقات والمعاهدات التى كثيراً ما ينساها أو يتناساها الحكام ! ..

وقد اعتزمت أن أباشر عملى كطبيب على هذا النحو فى « أزمير » ، ولكن « كابتاح » رأى أن أخالف القوم فى طريقتهم ، فلا أذهب إلى أحد من تلقاء نفسى بل أظل فى عيادتى لأستقبل الوافدين عليها من المرضى ، وفى سبيل تنبيههم إلى ذلك

وإغرائهم به ، نُطلق المنادين يعلنون فى سائر الأماكن العامة عن شهرتى ومقدرتى الخارقة فى إبراء المرضى من أدوائهم ، كما يعلنون أننى لا أزور مريضاً فى داره ، وأن عليه — إذا شاء — أن يشخص بنفسه إلى عيادتى . وقد حاولت أن أثنى « كاپتاح » عن هذا الرأى لاقتناعى إذ ذاك بأنه ضرب من الحماقة فى بلد لا يعرفنى فيه أحد من أهله ، فضلا عن مخالفته لعادة ألفوها واستراحوا إليها ، ولكن « كاپتاح » كان ، على طبعه ، عنيداً فأصر على أن يكون ما أراد ، ولم أر فائدة من قيام الخلاف بيننا فرضخت لرأيه . وعند ما صار الأمر موكولا إلى خطته وتدبيره ، أخذ يوجهنى فيه التوجيه الذى يطابق الهدف الذى رسمه وحدده . ومن ذلك أنه اشترط أن يدفع المريض ، قبل الكشف عليه ، قطعة ذهبية على الأقل ، كما اشترط أن أقابل المرضى فى ملابس فاخرة تكبر من شأنى فى أعينهم .

وكان مما أشار به ، ولم يسعنى إلا تنفيذه ، أن أزور الأطباء السوريين المشهورين ، وأقول لهم : إننى أنا « سنوحى » الطبيب المصرى ، الذى اختصه « فرعون » الجديد باسم «الوحيد» ، وإن لى فى بلادى مكانا لا يدانى بين الأطباء ، فى استطاعتى بتأييد آلهتى أن أعيد الحياة للموتى ، وأن أُرجع النور إلى عيون العميان الذين فقدوا نعمة البصر ، وإن فى حقيبة سفرى إلـهاً قادراً يظاهرنى فى مهنتى ، ويؤازرنى فى عملى . على أنى إذ كنت أعلم أن المعرفة تختلف فى مكان عنها فى مكان آخر ، وأن الأمراض كذلك تختلف باختلاف الأجواء والطبائع ، فإنى أشعر فى مدينتكم بحاجتى إلى دراسة أمراضها لأعالجها على هدى هذه الدراسة ، مستعينا بعلمكم وحكمتكم . وليس فى نيتى على الإطلاق أن أتحدى تجاربكم أو أنافس نشاطكم ، وإنما أنا أضع يدى فى أيديكم معترفا بفضلكم وسبقكم ، وكل ما أسألكم إياه ، هو أن تبعثوا إلىّ بالمرضى الذين يكون غضب آلهتكم عليهم سبباً فى تعذر شفائهم ، وخاصة منهم الذين يحتاج علاجهم إلى استعمال السلاح الذى لا تستعملونه ، فلعل إلـهى يعيننى على شفائهم ، فإذا قدر لأحدهم الشفاء فإنى لمعطيكم نصف ما يعطينى إياه ، فما جئت إلى هنا طامعا فى مال ، وإنما جئت لأستزيد

من المعرفة ، وهى بغية العلماء الباحثين . أما إذا أخطأنى التوفيق فى شفاء المريض فلن آخذ منه شيئاً ، وأعيده إليكم مزوداً بهداياه .

وقلت هذا الأطباء ، فكانوا كلما لقيتهم بعد ذلك يقولون لى : إنك وإن كنت لاتزال شابا فإن إلهك يمدك بالحكمة ويمنحك النور ، فكلماتك تقع من آذاننا وقعا جميلا ، وما تقوله عن المال والهدايا ، وزهدك فيهما ، يدل على مكانتك فى مجال العلم ، وليس يخفى علينا ماتشير إليه ، متواضعا ، من قدرتك على استعمال الأسلحة الجراحية ، وهى قدرة لانجد فينا مايدعيها ، لأننا فى الواقع لانستعمل أى سلاح فى علاج مرضانا ، وهم أنفسهم لايؤمنون بعلاج الأسلحة لخشيتهم من الموت بها . على أننا نرجو أن تحدث بها تحولا فى الأفكار والعقائد ، وسنفسح لك الطريق ولا نطلب منك إلا شيئاً واحداً هو ألا تستعمل السحر فى علاجك ، فنحن فى هذا السبيل أقوى منك وأبعد شأوا ، وفى «أزمير» وفى المدن الأخرى على طول هذا الشاطىء تقوم منافسة شديدة فى أفعال السحر وآثاره .

وقد كان حقا ماقالوه عن استفحال أمرهم فى السحر ، فذلك أمر تبينت شواهده فى سواد الناس ، وكان كثيرون من المرضى يتهافتون على العــــلاج به ، وقلما يرضون به بديلا . ومن هنا كثر الدخلاء المشعوذون ، وانبثوا فى كل مكان ، زاعمين القدرة على شفاء العلل بالسحر والشعوذة ، وكانوا يصيبون من هذه الحرفة مغانم كثيرة ويعيشون منها فى رغد ، ولا يهمهم فى شىء أن يموت المرضى أو يشفوا ، فهم إذا مات مريض لم يعدموا سببا لذلك يردونه إلى إرادة الأرواح التى تتحكم فى أعمالهم ، وإذا شفى المريض جعلوا من شفائه آية من آيات قدرتهم المعجزة .

وكثيرا ما كان يأتينى المرضى اليائسون من الشفاء فأعالجهم بطريقتى ، وكنت قد أحضرت معى من معبد « آمون » ناراً مقدسة ، لتعقيم أسلحتى ، وبهذه الأسلحة التى لاعهد لهم بها أجريت عمليات جراحية كثيرة ، وكتب لى فيها النجاح مما أثار إعجاب أطباء « أزمير » ، واستطعت بمساعدة الحظ أن أعيد البصر إلى أعمى باستعمال الإبرة ، وبذلك ذاعت شهرتى كطبيب .

وكان التجار والأثرياء يسرفون فى تناول الأطعمة الدسمة ، فأصيبوا بالبدانة والترهل وأمراض المعدة وضيق التنفس ، فأخذت فى علاجهم بالعقاقير الطبية التى تزودت بها من مصر ، وكانوا بعد قليل يعودون أصحاء موفورى النشاط والعافية . ولما فرغت هذه العقاقير اعتمدت على معلوماتى وتجاربى ورحت أجمع الأعشاب بنفسى فى أوقات معينة على ضوء القمر والنجوم ، وأعدها إعداداً كيماويا وأبيعها للمرضى بأسعار تختلف باختلاف مقدرتهم ، وكانوا جميعا جد راضين ، فلم يحدث أن أحدا منهم ضجر بمطلب من مطالبى .

وكما أرضيت مرضاى فقد أرضيت كذلك الأطباء إذ كنت أبعث إليهم المرضى الذين كان شفاؤهم على يدى غير ميسور ، وكان ذلك منى تنويها بكفايتهم ، وكنت إلى هذا أرسل الهدايا إليهم وإلى رجال السلطة المدنية ، وكان لهذه الهدايا أثرها الحسن فى هؤلاء وهؤلاء ، فأفدت من ذلك سمعة طيبة ، بينما كان « كابتاح » دائب الدعاية لى ، ومن وسائله فى ذلك الإنفاق السخى على الفقراء والمتسولين ، وعلى الرواة والقصاصين ، ليتحدثوا عن أعمالى البارعة فى الشوارع والأسواق العامة .

وتوافر بين يدى الذهب والفضة ، واجتمعت لى منهما ثروة كبيرة ، استثمرت شطراً كبيراً منها فى أعمال تجارية بمساهمة تجار « أزمير » الذين كانوا يرسلون سفنهم محملة بالبضائع إلى مصر وجزر البحر وأرض الحيثيين ، وقد بلغت سهوى فى كثير من السفن نسبا تتراوح بين واحد وخمسة بالمائة ، وكان بعض هذه السفن يتحطم فى الطريق أو يغرق أو يصاب بأى كارثة أخرى فلا يعود ، غير أن أكثرها كان حليف السلامة والتوفيق ، فيروح ويغدو بالخير ووافر الربح ، فتضاعف نصيبى من الفائدة تبعا لذلك ، وكانت حصص المساهمين بالأرباح تضاف إلى قيمة سهومهم فيزداد رصيدها فى حساب هذه التجارة . وكانت الظاهرة التى لفتت نظرى فى هذا المجال أن الكثير من دهماء الناس وفقرائهم يهتمون إلى درجة كبيرة بالمساهمة فى تجارة السفن ، فلا يكاد يجتمع عند أحدهم بعض نقود نحاسية

حتى يسارع إلى دفعها لقاء نصيب ، مهما يكن ضئيلا ، فى سفينة ، أو حمولة سفينة ، وينمو هذا النصيب بما يضاف إليــه من نصيبه فى الربح على توالى الأيام ، وكانت هذه وسيلة حسنة للادخار والاستثمار ، تختلف عن المتبع فى مصر .

وقد كان من الآثار الأولى لإيداع أموالى الفائضة فى هذا العمل التجارى ، أن بالى استراح واطمأن من جهة هذه الأموال ، فلم أعد أخشى اللصوص الذين يطمعهم المال فى السطو على البيوت والاعتداء على الأرواح ، كما أن تفكيرى قد انصرف كله إلى العمل . وكنت ، كلما احتجت مالا فى أسفارى إلى بلد آخر « كصيدا » أو « بابل » ، أعطانى التجار ألواحاً طينية تخولنى حق استبدالها بنقود فى محال تجارية معينة بتلك البلاد .

وعلى هذا النحو كانت حياتى هناك ، سلسلة من النجاح المتصل ، فأصبحت ذا ثراء ، وأصاب « كاپتاح » حظا ملحوظا من ذلك ، كان يتمثل فى ملابسه الفاخرة وفى الزيوت العطرية التى كان يتضمخ بها ، وقد أخذه من هذا الترف شىء كثير من الغرور والصلف . ولكننى كنت دائماً أحدُّ من غروره وصلفه ، وكان هذا يكلفنى معه بعض العناء .

— ٢ —

مع هذا لم أشعر بما كان ينبغى أن أشعر به من البهجة فى هذه الحياة الجديدة الموفقة ، فكنت أكثر الأحيان ضيق الصدر ، وقد سئمت شراب النبيذ لأنه لم يخرجنى مرة واحدة من هذا الضيق ، بل كان قصارى مايبلغه منى أن يحيل لون وجهى إلى سواد قاتم ويسلمنى إلى تراخ واستخذاء ، فاعتزمت الانصراف عنه إلى الاستزادة من المعرفة والاشتغال بالدرس والتمحيص ، فراراً من هذه الحالة النفسية الكريهة ، التى تشوب حياتى وتكدر صفوها .

وشغلت نفسى ، فيما شغلتها به ، بالتقرب إلى آلهة « أزمير » ، لعلها تكشف لى بعض أسرار مستقبلى المغيَّب . وكانت هذه الآلهة ، ككل شىء آخر فى أزمير ،

تختلف عن آلهة مصر . فكبيرها « بعل » كان لا يرضى بغير الدماء البشرية قرباناً لتلبية الرغبات ، وقضاء الحاجات ، وكان كهنته يُختارون من الأخصياء .

ومن عادات الناس التعبدية هناك ، تقربهم كذلك بالضحايا والقرابين إلى البحر ، فكانوا يقذفون بالأرقاء المقعدين وبالفقراء الذين يرتكبون ذنباً مهما ضؤل ، حتى الذى يسرق سمكة لإطعام أولاده الجياع ، كان يلقى به إلى البحر . يريدون بذلك التخلص ممن لا خير فيهم ولا عمل لهم ، ويعتقدون أن الإله « بعل » يأمر بهذا ويرضى عنه .

وكان من بين آلهتهم المقدسة ، الإلهة « عشتروت » وهى تمتاز عن الآلهة الأخرى بأن لها عدة صدور لا صدراً واحداً . وكانوا فى كل يوم يلبسونها حلة جديدة دقيقة النسيج ، ويحلون صدرها بالجواهر ويقوم على خدمتها نسوة يطلق عليهن اسم « عذارى المعبد » ، وهى تسمية أقرب إلى المجاز منها إلى الحقيقة ، فلسن من العذارى فى شىء ! .

ولم أستسغ تقدمى للإله « بعل » بقرابين من الآدميين ، فذلك أمر لم آلفه من قبل ، فكنت أقدم الذهب إلى معبده .

ووجدت فى معبد « عشتروت » متنفساً لأعصابى المكدودة ، فكنت ألمُّ به فى بعض الأمسيات ، لأستمع إلى الموسيقى ، وأستمتع بشهود نسائه ، أو عذاراه كما يسمونهن ، وهن يرقصن رقصاتهن المثيرة تمجيداً لآلهتهن . وكان هذا المعبد هو المكان الذى لا يقع مثلى على سواه طلباً للمتعة والترفيه ، فأهل « أزمير » محافظون لا يرخصون لنسائهم فى السفور ، ولا يأذنون لهم بمغادرة الدور ، وهؤلاء النساء على أى حال لا يظهرن إلا فى غلالات أشبه بالستائر المغلقة تخفيهن إخفاءاً تاماً ، وتبعاً لذلك لم يكن فى « أزمير » بيوت للمباذل واللهو الرخيص ، وكان هذا سبباً فى رواج سوق الرقيق من النساء يؤتى بهن محمولات على السفن من مختلف الأقطار والأجناس .

وقد رأى « كاپتاح » أن يشترى امرأة من هؤلاء النساء لأعاشرها معاشرة

متعة ، إذ كان يرانى مقفل القلب ، شارد الفكر ، ولم يتلبث ، فاشتراها دون مراجعتى ، وأصلح شأنها وألبسها ملابس حسنة ، وطيبها بالعطور ، ثم قدمها إلىّ مشيداً بمحاسنها التى كشفها ، ورأى أن يؤثرنى بها ، ولم أشأ أن أغضبه فتقبلتها .

وكانت فتاة مكتنزة الجسم بيضاء البشرة ، مسواة الأسنان ذات عينين جميلتين موفورة الملاحة ، إذ كانت من بنات جزر البحر . ولكن قلبي لم يتفتح لها كثيراً ، على ما كانت تبديه من مظاهر احترامها لى وإقبالها علىّ .

وبدأت حياتى مع هذه الفتاة مشربة بالعطف عليها حتى لا تشعر بمرارة العيش مع رجل مغلق القلب ، غير أن هذا العطف من جانبى أغراها بالتدخل فى دقائق حياتى ، وخاصة فيما يتصل بمرضاى خلال زيارتهم لى ، وكان هذا يضايقنى ، ولكنها لغبائها لم تفطن لحقيقة شعورى نحوها ، فاسترسلت فيما كان يثير نفورى منها دائماً ، فهى لا تنفك تطلب المزيد من الحلى والجواهر والملابس الجديدة ، ثم هى تفرط فى الطعام الدسم فزادت بدانتها ، وعند ما كنت أعود من رحلاتى المستمرة فى المدن الداخلية أو فى مدن الشواطئ ، كانت تتلقانى باكية منتحبة ، إلى غير ذلك من تصرفات شاذة جعلت حياتى معها لا تحتمل ولا تطاق .

وهنا أسعفنى « الجمران » المقدس بالحظ الحسن ، على عادته معى كلما حزبت الأمور ، فقد حدث فى ذلك الوقت أن جاءنى الملك «عزيرو» حاكم الإقليم الداخلى « لعامورية » لمعالجة أسنانه ، فعالجتها وصنعت له سناً من العاج بدلا من سن قال إنها كسرت فى إحدى مواقعه الحربية ، وغطيت له أسناناً أخرى بقشرة من الذهب ، وقد سره هذا أيما سرور ، فكان يزورنى يومياً طوال المدة التى قضاها بالمدينة فى أعمال خاصة بإقليمه لدى السلطات الحاكمة ، وفى كل زورة من زياراته كان يرى تلك الفتاة ، التى أطلقت عليها اسم « كيفتيو » تخلصاً من اسمها الإغريقى الذى كان عسير النطق ، فيعجبه منها بدانتها ولباسها الذى كانت تحرص أن تبدو فيه على الطريقة الأغريقية ، وهو لباس كان يكشف عن صدرها خلافا لما تعود هذا الملك أن يراه على أجساد النساء المحجبات . وقد أسلمه هذا الإعجاب إلى الميل

إليها والتعلق بها . وكان هو رجلا قوى البناء متين العضل أبيض البشرة تشع عيناه بريقاً قويا ، فكانت « كيفتيو » تخالسه النظر معجبة ، وكنت ألمح هذا فأسكت عنه عامداً ، حتى تقوى العلاقة بينهما ، فلعل ذلك أن يريحنى منها ! . . وقد تحقق هذا حين خلا بى الملك « عزيرو » وقال لى مستجمعا شجاعته : الحق أنك يا صديقى « سنوحى » قد أسديت إلىَّ فضلا بإصلاح أسنانى وتقويمها وإعطائها هذا البريق الذهبى الجميل الذى يكسبنى ، كلما انفرجت شفتاى ، مهابة وجلال شأن فى بلاد « عامورية » . وإنى لقاء هذا سأغدق عليك الهدايا التى أرجو أن تنال رضاك وإعجابك ، على أنه لم تزل لى عندك حاجة أطمع فى أن تقضيها ليتضاعف فضلك ، فهذه الفتاة قد سحرنى جمالها ، وأصبحت بها مغرما كلفا وعبثا حاولت أن أطفئ فى قلبى لهيب الشوق إليها ، وقد داويتنى بفنك أبرع ما يكون الفن ، ولكننى برئت من مرض لأقع فيما هو شر منه ، وعندك أيضا دواؤه ، والدواء فى هذه المرة لا يجيئ من طريق فنك البارع ، ولكن يجيئ من طريق مروءتك وكرمك ، وإنى لأتصور هواك لهذه الفتاة وشغفك بها ، ومع ذلك فإنى أسألك إياها لأتخذ منها زوجة من زوجاتى الأخريات وأحررها من الرق ، تكريما لها ، وهذا خليق أن يرضيك ، فإنك إن كنت تهواها فسيسرك ، بلا شك ، أن تصير حرة وزوجة ملك ، وأنت واجد بين الرقيقات مثلها أو خيراً منها ، وسأدفع لك ما تشاء كفاء تنازلك عنها . وأحسب أننى غير محتاج إلى أن أقول لك إننى أستطيع ، فيما لو أبيت أن تعطينيها راضيا ، أن أعود فأنالها قسراً وأحملها إلى مملكتى بالقوة ، فذلك أمر أعتقد أنك أسمح خلقا من أن تدفعنى إليه .

واستمعت إلى حديثه مبتهجا ورفعت يدىَّ علامة الموافقة والقبول ، وكان « كابتاح » يلقى بأذنه متسمعا لهذا الحديث ، فلما رآنى قد وافقت على الخروج عن الفتاة ، اقتحم مجلسنا وهو يشد شعر رأسه غضبا ويقول : هذا يوم أغبر ، فإن هذه الفتاة أغلى عند سيدى من كل ما فى الدنيا بأمرها من ذهب وجواهر ، إنها

المخلوقة الوحيدة التى تؤنس وحدته وتسعد حياته وتملأ روحه وقلبه ، ولا يمكن تعويضه عن فقدها ولو أعطى وزنها ذهباً .

وكنت أعلم أن « كاپتاح » يصطنع ذلك اصطناعاً ، فهو لا يقل عنى رغبة فى التخلص من هذه الفتاة ، ولكنه كان بهذا الموقف يجرى على عادة أهل هذه البلاد وعلى طريقتهم التجارية واستغلالهم الظروف ، وقد كان يهدف بذلك إلى أن يكون المال الذى يدفعه الملك مقابل الفتاة كثيراً .

ولم تكن « كيفتيو » ، عند ما عرفت أننى نزلت عنها إلى الملك « عزيرو » ، بأقل من « كاپتاح » تزييفاً لشعورها ، فقد تظاهرت بالبكاء قائلة إنها لن تغفر لى ذلك ، بينما كانت خلال دموعها الكاذبة تنظر إلى الملك نظرات الرضى به والارتياح إليه ! . .

غير أنى أشرت إليهم جميعاً بالسكوت ، وقلت متكلفا الحزن : يا « عزيرو » ملك « عامورية » ، وصديق ، حقاً إن هذه الفتاة عزيزة على قلبى ، أسيرة عندى وأدعوها أختى ، ولكن صداقتك تعلو فى نفسى على كل عزيز ، ويرخص فى سبيلها كل غال ، وكدليل على ذلك أعلن أنى قد نزلت لك راضياً عن « كيفتيو » الحبيبة من غير مقابل . .

وهنا صاح « عزيرو » قائلا فى غمرة من الغبطة والسعادة : مرحى ، مرحى ، أيها العزيز « سنوحى » المصرى الكريم ، لقد أسلفتنى مكرمة لا تعدلها عندى مكارم الدنيا جميعا ، والحق إنك لطيب القلب ، صادق الود والوفاء ، ومنذ الآن فأنت أخى الحبيب ، وصديقى الأثير ، وسيكون اسمك أبرك الأسماء فى كل أرض « عامورية » إذا تفضلت بالقدوم إليها ، فعندئذ سيكون مكانك عن يمينى وكلمتك فيها هى العليا وسيكون الآخرون دونك منزلة ولو كانوا ملوكا .

وكان فمه يفتر عن أسنانه الذهبية مبتسما ، وهو ينظر بنهم وإعجاب إلى « كيفتيو » التى ما أسرع أن كفت عن بكائها المصطنع وراحت تحدق فيه مسرورة ، فأخذ بيدها وحملها معه على محفته إلى المنزل الذى كان يقيم به فى المدينة ، حيث خلا بها

ثلاثة أيام بلياليها لا يخرج للناس ولا يراه أحد منهم .

وشعرت كما شعر « كاپتاح » بأن عبئا ثقيلا قد انحط عن كتفينا بالتخلص من هذه الفتاة ، ولكنه كان غير راض عن تنازلى عنها بدون مقابل ، فتلك فى نظره كانت فرصة نادرة للحصول على ما نشاء من « عزيرو » العاشق المفتون ! فقلت له : إننى كسبت بذلك صداقة « عزيرو » ، وهى قد تمطينا فيما بعد خيراً مما نأخذه الآن ، فالمستقبل غيب وما ندرى ما سيأتى به الغد .

وقبل أن يعود « عزيرو » إلى مملكته جاء يودعنى ويقول : لقد أعطيتنى الكثير ولم أعطك شيئا ، ولا أزعم أن باستطاعتى أن أعطيك ما يعدل كرمك ويكافئه ، فمملكتى صغيرة وليست بذات ثراء ، فكل مواردها مقصورة على الضرائب التى تجبى من التجار الذين تمر قوافلهم بأرضها ، وقد نغنم بعض المغانم من الحرب التى أثيرها على جيراننا كلما أعوزنا المال ، وإلى هذا فإنى أؤدى الجزية لمصر ، فأنت ترى أن الحال غير مسعفة ، ولكنى مع ذلك لن أتردد فى أن أقدم إليك كل ما فى مقدورى إلا أن يكون نساءاً أو خيلا ، فلا غنى لنا فى المملكة عن النساء والخيل ، ندبر بهما الحياة والحروب ، ثم إن إشارة منك تكفى لأرسل إليك على الفور من يقضى على أى إنسان يعتدى عليك دون أن يعرف أحد أن لك دخلا فى ذلك ، فنحن الأشداء المغاوير ، وللصداقة عندنا حقها ، وفى سبيلها نبذل الأرواح والدماء .

وخلع قلادته الذهبية فوضعها فى عنقى وضمنى إلى صدره بطريقته السورية ، فخلعت بدورى القلادة التى كان قد أعطانيها تاجر غنى من « أزمير » كفاء علاجى زوجته ، فوضعتها فى عنق « عزيرو » ، فسر بذلك سروراً عظيما ، ثم افترقنا .

— ٣ —

وأحسست بعد أن خلا منزلنا من هذه المرأة كأن كابوسا ثقيلا كان يجثم على قلبى فانزاح عنه ، فصرت كالطائر خفة ونشاط حركة ، وراق لى وجه الحياة

كما لو كنت حبيسا عنه أمداً طويلا . وكنا وقتئذ فى الربيع ، فبدا فى عينى جميلا : فهذه الأرض تتنضر بالخضرة الكاسية ، وهذه الأشجار تزدان بأغصانها الفوافة الورقة ، وتلك أسراب الحمائم والعصافير تزقزق على حفافى الماء كأنها ترتل الأناشيد وتشدو بالأنغام ، فتبعث فى النفس الغبطة والطرب وأحلام الشباب .

وتواردت علينا مع الربيع أنباء العبريين الذين احتشدوا فى الصحراء ، وأغاروا على الحدود السورية من الجنوب إلى الشمال وأحرقوا القرى وحاصروا المدن .

وكان مثل هذا الغزو شيئا يتكرر كلما أقبل الربيع ، فهو أمر تعوّد أهل «أزمير» أن يسمعوا أنباءه دون أن يقلق خواطرهم ، إذ كان « العبريون » فى غزواتهم لا يتجاوزون القرى القريبة من الصحراء ، أما المدن التى تقوم عليها الحاميات ، فكانوا يجتنبون دائما الإغارة عليها لمنعتها ، ولكنهم فى هذا الربيع أغاروا على مدينة «قطنة» المحمية بالقوات المصرية ، فذبحوا ملكها ، فأزعج هذا أهل «أزمير» وتطيروا به . وقد عرفوا من الأنباء التى كانت تتساقط عليهم فيتلقفونها فى لهفة أن جنود « فرعون » أقبلوا على « العبريين » من مدينة « تانيس » عبر صحراء « سينا » ، فردوهم إلى الصحراء وأسروا منهم القادة والرؤساء .

ولكن أمر المصريين والعبريين لم ينته عند هذا ، فالحرب بينهم لم تسكن ، وتطايرت أنباؤها هنا وهناك ، ولم أكن قد شاهدت حرباً من قبل ، فراودتنى الرغبة الشديدة فى الالتحاق بقوات « فرعون » لأجرب حظى فيها ، ولأؤدى واجبى الإنسانى كطبيب فى معالجة المصابين وتضميد جراحهم ، وقويت هذه الرغبة فى نفسى حينما علمت أن «حورمحب» على رأس القوات المصرية التى تقاتل هنالك ، فقد كنت فى الحقيقة أشوق ما أكون إلى لقاء هذا الصديق القديم . وفعلا أنفذت رغبتى فأبحرت على إحدى السفن وهبطت منها إلى اليابسة حيث كانت على مقربة منا إحدى الكتائب المصرية الذاهبة إلى المعركة ، فاندمجت فيها وسط المركبات التى تجرها الثيران والدواب المحملة بالحبوب وجرار الزيت والنبيذ ومغالق البصل ، فبلغنا بلدة صغيرة تقوم عليها أسوار من البناء اسمها « أوروشليم » ترابط بها حامية مصرية ، وكانت الإشاعات التى راجت فى « أزمير » تصورها لنا حامية

كبيرة ضخمة موفورة العدة والعدد ، ولكننا رأيناها على خلاف ذلك ، لاتزيد على فرقة من العجلات الحربية وألفى جندى من حملة الرماح ورماة السهام ، وكان مفهوماً أن قبائل « العبريين » كرمال الصحراء عددا .

وكان « حورمحب » هو قائد هذه الفرقة المصرية ، فارتاحت نفسي إلى ذلك ، وذهبت إليه فى الكوخ الذى كان جالساً به مع أركان حربه ، فلما رآنى قال فى تردد وهو يراجع ذاكرته : عرفت مرة شخصاً يدعى « سنوحى » ، وكان وقتذاك طبيبا من خير أطباء « طيبة » وإنك لتشبهه ! .

وكان غير غريب على « حورمحب » أن لايعرفنى لأول وهلة ، فقد غيرت السنون من ملامح وجهى ، ثم إنى كنت أحمل على كتفى عباءة سورية ، وليست هى مما يلبسه المصريون ، على أنه أخذ يجيل فى وجهى نظراته الفاحصة ، ثم قال ضاحكا وهو يرفع سوطه المضفر بالذهب : بحق « آمون » إنك أنت لسنوحى ! مرحباً بك أيها الصديق ، لقد كنت أحسبك فى عداد الموتى ، فهأنتذا تبعث بغتة بين الأحياء ! .

وفى عجل تحدث مع موظفيه وصرفهم بأوراقهم وخرائطهم ، وعاد يقول : إنها لإحدى معجزات « آمون » أن نتلاقى مرة أخرى على الأرض الحمراء وفى هذه المدينة البائسة القذرة .

وطلب نبيذا وأخذنا نتساقاه معاً فى نشوة ، وقد شرح لقاؤه صدرى ، وخفق بالمسرة قلبى الذى كنت أحسب أنى قد فقدته ، ورحت أقص على « حورمحب » أطرافا من حياتى ومخاطراتى ، فقال لى : عليك الآن أن تتوج قصتك المثيرة بشرف المساهمة معنا فى هذه الحرب التى أضع بين شقى رحاها أولئك « العبريين » الأنجاس ، وسوف لاأفلتهم منها حتى تطحنهم طحنا ، ويتمنوا لوأنهم لم يولدوا .

واستطرد قائلا : إن أنس لا أنسى لقاءنا لأول مرة ، فمن ذلك اللقاء بدأت حياتى التى ترانى اليوم فيها قائد جيش ورئيس أجناد ، ولقد كنت أنا يومذاك شاباً قليل الخبرة بالدنيا وبالناس ، وكنتَ أنت بالنسبة لى الرجل العارف المجرب ،

فشددت أزرى بالرأى الرشيد ، والتوجيه السديد ، وقد انتفعت بمشورتك ونصحك وتهديت بهما فيما صادفنى من أموز جسام ، وهاأنذا أحمل السوط المضفر بالذهب وهو شارة البطولة التى طالما تمنيتها ، ولكنى لم أبلغ هذه المكانة المرموقة إلا بحقها من العناء المضنى فى الخدمة بالحرس الملكى ، فقد كان علينا أن نحفظ الأمن والنظام وهيبة الحكم حين شاء « فرعون » بجنونه ، أن يطلق سراح اللصوص وقطاع الطريق وسافكى الدماء ، فجاسوا خلال الديار وأشاعوا فيها الفوضى والفساد ، فلاحقناهم وتعقبنا آثارهم حتى قضينا عليهم ، ولما ترامت إلينا أنباء القبائل العبرية الثائرة على الحكومة ، والمغيرة على ما حولها من البلاد ، طلبت من « فرعون » أن يمدنى ببعض الفرق الحربية لقمع الثوار وتأديبهم ، فأمر بذلك وأقامنى قائداً عليها ، ولم أجد بين الضباط القدامى من يزاحمنى فى هذه القيادة ، فقد استغرقوا فى الحياة المترفة المتراخية ، وزايلتهم الرغبة فى حياة المعارك ومعامع القتال ، وقالوا ما لنا والصحراء وقتال « العبريين » ذوى الحراب الحادة والضربات الموجعة ، والصرخات المزعجة ! . والواقع أنهم وهم يحيون فى ظلال وارفة من الثراء ومظاهر الشرف لم يعودوا يرون أنفسهم بحاجة إلى مكابدة الحروب ومعاناة أهوالها ، فما الذى ينقصهم وادعين آمنين ، لينالوه فى حرب قد لايعودون منها أحياءا ؟ ! ولكنى على عهدك بى ، كنت ، ولم أزل ، رجل حرب لا أرى فى غيرها شرفاً ومجداً ، وكنت قد أفدت من التضال الداخلى كثيرا من التجارب والمعارف العسكرية ، فطاب لى أن أستخدمها فى تلك الحرب التى فتح «العبريون» ميدانها ، ولم يكن شىء يهم « فرعون » وهو ينفذنى إليها إلا أن أقيم بأوروشليم معبدا لإلـهه الجديد . واتباعاً لسياسته المسترخية ،أوصانى بألا أريق دماً فى مقاتلة « العبريين » ، وهى وصية تثير السخرية والضحك ... ولست أدرى كيف نقاتل هؤلاء ، وندفع أذاهم ، ثم يكون علينا أن نحفظ دماءهم ؟ !..

وانفجر « حورمحب » ضاحكا ، ورفع كأس النبيذ فأفرغه فى جوفه ثم قال :

إن أمر « فرعون » لعجيب ! . وما أكثر ما لقيت من أفكاره الغريبة بالغة

الشذوذ !. إنه دائمـا يتحدث عن إلـهه الجديد ، فهو يقول إنه يختلف عن جميع الآلهة ، فلا شـكل له ولا صورة مجسدة ، وهو مع ذلك موجود فى كل مكان ، وفى كل زمان ، ويرى جميع الناس فى وقت واحد ، ويطل عليهم ويتصل بجميع أحوالهم دون أن يروه ، ويده غير المنظورة تبارك سائر المخلوقات ، ولا فرق عنده بين سيد وعبد ، وهكذا كان يتحدث لى عن إلـهه هذا فأشعر كأن حشوداً حاشدة من النمل قد تسللت إلى رأسى ، فلا يهدأ لى بال ولا تغمض لى عين إلا أن أشرب النبيذ فى جوار امرأة تخلّص رأسى من هذه الأفـكار السوداء المضنية ، ومن هنا تغير حالى عما كان يوم أن تلاقينا أول مرة ، فصرت مدمن خمر ورفيق نساء ، ولم أكن كذلك من قبل ..

وتوقف «حورمحب» ليجرع كأساً أخرى من النبيذ ، ثم مضى يقول : ألست ترى يا « سنوحى » أن «فرعون» بهذا الإله الذى يفنى فيه كل هذا الفناء ويجد به كل هذا الوجد ، أقرب إلى أن يكون إنساناً مريضا ، مأفون الرأى ؟! . أكبر ظنى أن كلباً مسعوراً قد نهشه بأسنانه الحادة وهو طفل صغير .. ومع أنى مازلت على إيمانى بإلـهى « حوراس » فإنى لا أحس فى نفسى بغضاً للإلـه « آمون » ، ولـكن يبدو أن إلـه « فرعون » الجديد ، إن صح وجوده ، قد جاء معارضاً لآمون ليقوى سلطان « فرعون » به ، بعد أن استفحل أمر « آمون » وعظم شأنه ، واتسعت به سلطات الـكهنة ومداخلاتهم ، أو هذا على الأقل هو مافهمته من أحاديث الملـكة الوالدة والـكاهن « آى » الذى يحمل عصا الراعى ويقف بها عن يمين «فرعون» ، فهم إذن يريدون أن يتخلصوا بالإلـه « آتون» من الإلـه « آمون » أو فى القليل يحدون من سلطانه ، حتى لايظل كهنته مسيطرين على شئون البلاد من فوق رأس « فرعون » ... وعلى هذا الوجه يبدو الأمر تدبيراً لمصلحة العرش وتوطيد سلطة الملك ، وقد يكون ذلك معقولا ومستساغاً ، ولا ضير على الناس والبلاد من أن يظهر إلـه جديد تتوازن به السلطات ، ولـكن فرعون لايقصر أمره على مجرد ما ينبغى للآلهة من إقامة المعابد له واستخدام الـكهنة

لخدمته والدعاية له ، وإنما هو ، أى فرعون ، لايفتأ مشغولا به متحدثاً عنه ، مصروفا بسببه عن كل شأن آخر من شئون الدولة . وما تعرض مناسبة إلا أدار الحديث عنها فى فلك هذا الإلـه ، فما من شىء يقع للناس فرادى أو جماعة إلا هو متصل بإرادته صادر عن أمره . ولا يزال « فرعون » يتحدث على هذا الغرار لكل جلسائه والمحيطين به حتى يكونوا مثله تعلقا بإلـهه وإيماناً به ، ويقول فرعون إنه يحيا بالصدق ، ولـكن الصدق كالمدية المسنونة فى يد طفل ، قد لاينجو منها إذا عبث بها ، وهكذا الحاكم يجب أن يحذر الصدق ، بمقدار مايجب أن يحذر الطفلُ خطر المدية المسنونة !.

وقد أحس كهنة « آمون » بالخطر الذى يتهددهم بظهور هذا الإلـه الجديد الذى يضطلع « فرعون » بالدعاية له ، فراحوا يناهضون هذه الدعاية ويبـذرون بذور الشك فى سبيلها ، واقتضاهم ذلك اختراع القصص المثير عن أصل «فرعون» تهويناً من شأنه ومن شأن إلـهه ، وساعدهم فى هذا ، الظروف التى تمَّ فيها زواج الملك الجديد ، وذلك أن أميرة « ميتانى » التى كان مقرراً أن تـكون زوجته قد لقيت حتفها بغتة ، فأحل مكانها « نفرتيتى » ابنة الـكاهن « آى » ، وهى جميلة وأنيقة ولـكنها موصوفة بالعناد وصرامة الخلق ، وفيها من أخلاق أبيها شىء كثير . وقد ساء الناس أن يحدث هذا ، فغضبوا ، واستغل كهنة « آمون » غضبهم فى الحملة التى يحملونها على « فرعون » وإلـهه ! .

وتناول « حورمحب » كأسا مترعة من النبيذ ، واستطرد قائلا : وقد تركت « طيبة » وأنا أشد ما أكون ضجرا منها وضيقا بأهلها ، فإنها بمنازعاتها وشيوع الفرقة فيها قد أصبحت كوكر الثعابين ، وقد حمدت لصقرى أن أتاح لى فرصة البعد عنها .

وكنت أفـكر فيما ذكره «حورمحب» عن موت أميرة «ميتانى» ، فاستوقفته لأسأله المزيد من الإيضاح ، فإنى كنت قد رأيتها فى «طيبة» أوفر ماتـكون صحة ونضارة ، وكانت وهى ذاهبة وقتذاك إلى المعبد خلال طريق « رامس » تبهر

العيون ببهائها وروعة جمالها .

فقال « حور محب » ضاحكا : قرر الأطباء أنها لم تحتمل جو البلاد ، وهو زعم لا يكاد يوجد إنسان فى مصر يصدقه كتعليل لموتها الفجائى ، ذلك لأن الناس يعلمون جيداً أن جو مصر من أفضل الأجواء وأعدلها مناخا ، ولهذا فقد ارتابوا فى سبب موتها ! .. على أن ثمة ظاهرة غريبة أنت تعرفها يا « سنوحى » فى حوادث الموت التى تقع بالقصر الملكى ، هى أن نسبة وفيات الأطفال بهذا القصر غير عادية ، بل إنها لأكثر ارتفاعاً منها فى الأحياء الفقيرة ، وهو أمر يحار الناس فى تعليله ، ولكننى شخصياً أرى أن للكاهن « آى » دخلا فى ذلك .

وكنا قد سلخنا من الليل أكثره فى الحديث والشراب ، فآوى كل منا إلى مرقده ، واستيقظت فى الصباح على صوت النفير ، فرأيت الجنود يتتابعون ، جماعات جماعات ، ورؤساؤهم برتبهم المختلفة يصدرون إليهم التعليمات . وبعد أن سويت صفوفهم خرج عليهم « حور محب » وفى يده سوطه المضفر بالذهب ، وخادمه يتبعه حاملا بإحدى يديه مظلة تحمى رأسه من وقدة الشمس ، وبالأخرى مذبة يدفع بها الذباب عن وجهه ، وأخذ يخاطبهم قائلا :

يا جنود مصر : إنى أقودكم اليوم إلى معركة ينتظر الوطن منا أن نعود منها وعلى رؤوسنا أكاليل النصر ، وليس شىء هو أشد خزيا وعارا على الجندى من أن يعود منهزماً ، فالموت فى ميدان القتال خير من الهزيمة ، وقد علمت من تقارير رجالى المستطلعين أن « العبريين » يعسكرون خلف التلال ، ولم يذكروا فى هذه التقارير عددهم ، على أنهم لا شك كثيرو العدد ، فقد فزع المستطلعون حين رأوهم فولوا الأدبار خوفاً منهم ، فإن لم تثبتوا لهم وتردوهم على أعقابهم فأنتم غير خلقاء بأن تكونوا جنوداً تحت إمرتى ، وفى هذه الحالة لن آسى عليكم إذا حصدوكم حصداً ، بل ربما سرنى أن أتخلص بذلك من الجبناء الرعاديد أمثالكم لأعود إلى مصر فأنشىء جيشاً من رجال أصلب عودا وأوفر شجاعة ، وأكثر استعداداً للتضحية فى سبيل وطنهم ، وأشد رغبة فى طلب النصر والفخار . واعلموا جميعاً

أننى سأكون فى المقدمة ولن ألتفت إلى وراء لأرى من سيتبعنى منكم ، فأنا ابن « حوراس » ،والصقر يحلق بجناحيه طائراً أمامى ، وقد وطدت العزم على مقاتلة « العبريين » والقضاء عليهم ولو كنت فى ذلك وحدى ، على أنه يجب أن تذكروا ولا تنسوا أبداً أن سوطى لا يُفلت متردداً ، وهو قاسٍ شديد العذاب ، وسأتولى به عقاب المتخلفين وتأديب الناكصين على أعقابهم ، وعهدى به أنه لا يعرف غير الموت وإراقة الدماء . . . فقاتلوا « العبريين » بكل ما فيكم من قوة ، ولا تهنوا ولا تضعفوا ، فخير لكم أن تلاقوا الموت مقبلين ، من أن تلاقوه مدبرين ، وإن أعداءكم ليتخذون من أصواتهم المزعجة وسيلة إلى إشاعة الرعب والرهبة ، فصُموا آذانكم عن سماع أصواتهم ولو اقتضاكم هذا أن تملؤوها بالطين ، واحرصوا على أن تتراءوا لهم رجالاً أبطالاً غير عابئين بالموت ، فإنكم بهذا تلقون الرعب فى قلوبهم ، وتغلبونهم فى قلتكم على كثرتهم ، وعندئذ تنتهى إليكم أنعامهم وعتادهم وأقواتهم والغنائم الكثيرة التى غنموها فى إغاراتهم على المدن ، كما تنتهى إليكم نساؤهم اللواتى اشتهرن بحب الرجال الأشداء . وسيكون كل هذا لكم تتقاسمونه ، وتستمتعون به وحدكم . .

وهنا صاح الجنود ، فى صوت واحد ، صياح الترحيب بالقتال والانبعاث له ، ضاربين على دروعهم ، بحرابهم ، وملوحين فى الهواء بأقواسهم .

فابتسم لهم « حور محب » وقال : إنى لمغتبط بكم ، أيها الجنود ، إذ أراكم هكذا تتحرقون شوقا إلى القتال ، ولكن ثمة عملا يجب أن نعمله الآن وهو أن نرسم هنا معبداً لإلـه « فرعون » الجديد« آتون » ، ونؤدى له فيه مراسم التقديس والتمجيد ، وقد لا يقع هذا على رغبتكم وهواكم ،فلعلكم لا تؤمنون بهذا الإلـه الذى يكره الحروب وينهى عنها . ولكنها مشيئة « فرعون » ، وعلينا أن ننفذها لنظفر برضاته ، ونمضى فى رحلتنا على طاعته ، وأرى ألا يعوقنا ذلك عن الواجب الأكبر وهو منازلة الأعداء ، ولهذا آمر بأن تتجه القوات الرئيسية منذ الساعة

إلى أهدافها الحربية ، وتبقى معنا هنا قوة الاحتياط لرسم المعبد وإتمام طقوسه الدينية .

وهتف الجنود مرة ثانية « لحور محب » ، واتخذوا وجهاتهم إلى الميدان ، فسار كل فريق منهم وراء علمه المرفوع على سارية خاصة به ، وكانت شعائر الأعلام تختلف باختلاف الفرق ، فشعار إحداها « ذيل الأسد » ، والأخرى « الصقر » والثالثة « رأس التمساح » ، إلى غير ذلك من الرموز التي كانت تتقدمهم بالطريق إلى ساحة المعركة ، كما كانت العجلات الحربية تسير في الطليعة لكشف الطريق وتأمينه .

على أن الضباط الذين كانت إليهم مقادة الجنود تخلفوا مع جنود الاحتياط ، وتبعوا « حور محب » إلى معبد « آتون » الذي أعد على عجل فوق ربوة في خارج المدينة ، وقد أقيم بناؤه الصغير من الخشب وملىء فراغه بالطين ، وكان صحنه مكشوفاً ، ومذبحه كذلك ، على خلاف المعابد الأخرى . وقد حاول الجنود عبثاً أن يروا الإلـه بأعينهم ، كما تعودوا أن يروا الآلهة ، ولكن « حور محب » قال لهم إنه ليس كمثله في الآلهة !.. فهو محيط بهذا الوجود كله ، متصل بهذه الكائنات جميعها ، وهو شبيه بقرص الشمس في أعلى درجات قوتها النورانية ، فيمكنكم أن تنظروا إليه في السماء ، إذا قويت عيونكم على احتمال الضوء ، وإن يديه لتباركم من عليائها ، وفي رحلتكم اليوم إلى المعركة ستحسون بأصابعه في ظهوركم كالإبر الحمراء المحماة .

وسرت في الجنود زمجرة خافتة عندما علموا أن إلـه « فرعون » بعيد عن عيونهم كل هذا البعد الشاسع ، فقد كانوا يودون أن يكون قريباً منهم ليخروا أمامه سجداً ويلمسوه بأيديهم إذا واتتهم الشجاعة على ذلك ، ولكنهم صمتوا حينما تقدم إليهم كاهن شاب غير حليق شعر الرأس ، وعلى كتفيه رداء أبيض وفي عينيه بريق أخاذ ، ثم اتجه إلى المذبح فنثر عليه الزهور وصب الزيت والنبيذ ، وأخذ يرتل « لآتون » نشيداً قيل إنه من إنشاء « فرعون » ، وكان طويلا ومملاً ،

وقد استمع إليه الجنود فارِغِي الأفواه وهم لا يفهمون منه إلا قليلا : ومن هذا النشيد : —

إنك أجمل مافى الأفق
أيها الحى « آتون » مصدر كل شيء حى
عندما ترتفع فى السماء الشرقية
يملأ بهاؤك وجلالك الأرضين
فأنت عادل وقوى ومتألق فوق الدنيا
وأضواؤك تشمل كل مافى الوجود الذى خلقته
وكل مافى الوجود يربطه رباط حبك
وأنت بعيد ، ولكن أشعتك تغمر الكائنات بحنان وعناية

واسترسل الكاهن يرتل فى نشيده كلاما عن « الظلمة » و « الأسود » التى تخرج من أعرامها فى الليل خائفة ، وعن الثعابين والأفاعى والحشرات تنساب من أوكارها جزعة ، وعن غير ذلك من الكائنات والأحياء التى يخشاها الناس فيسلط « آتون» عليها الخوف والجزع . وانتقل الكاهن من ذلك منشداً ، عن ضوء النهار والطيور التى تستقبل الصباح مرفرفة أجنحتها ، مزقزقة طروبة ، والزروع والأنعام والدواب كلها تمرح منتعشة فى أحضانٍ من بركات ذلك الإلـه الخالق العظيم « آتون » .

وأنشد الكاهن كذلك أن هذا الإلـه الكبير يحفظ الأجنة فى الأرحام ، فكل ما بين الأرض والسماء منوط بإرادته ، موكول إلى أمره ، حتى الفرخ الصغير لا ينقر قشرة البيض ليخرج منها إلاَّ بأمر « آتون » ومعاونته . واختتم نشيده بهذه المقاطع : —

أنت وحدك يا « آتون » تسكن قلبى
ولا يعرف أحد ذلك إلا ابنك الملك
فأنت تشاطره آراءك وأفكارك

وأنت تمسح عليه بيد حبك وحنانك
والدنيا كلها بين يديك لأنك خالقها
وفى ضوئك تحيا جميع الكائنات
ولو حجبت محياك عن الوجود لأدركه الفناء
فأنت الحياة وكل من فيها يحيا فيك .
وكل الأبصار تتجه إلى مجدك
وتظل كذلك إلى ساعة غروبك
وكل الأعمال تتوقف تماماً
عند ما تسكن فى الغرب
ومنذ خلقت الدنيا كنت تُعِدُّها لابنك المرتقب
من أجله كان هذا الذى أبدعت خلقه
وإنه هو الملك الذى يعيش بالصدق
وهو سيد المملكتين « ابن رع »
من أجل سيد التاجين خلقت الدنيا
وكذلك من أجل زوجته المقربة الحبيبة
ملكة المملكتين « نفرتيتى »
التى ستعيش وتزدهر إلى الأبد كما كانت من الأزل ..

وعندما انتهى الكاهن من تراتيله ، أعلن الجنود إيمانهم بالإله « آتون » ، وهتفوا تحية لفرعون العظيم ، فقد فهموا مما سمعوا أن المقصود هو تمجيد «فرعون» وتحيته باعتباره ابن ذلك الإله . . .

وأذن « حورمحب » للكاهن فى الانصراف ، فذهب مبتهجاً بهتافات الجنود وتحياتهم ليكتب عن هذا الحفل تقريراً يبعث به إلى « فرعون »

— ٤ —

سار الجنود تتبعهم المركبات تجرها الثيران وحمير النقل ، وفى طليعتهم «حورمحب» مسرعا بعجلته الحربية ، وخلفه الضباط على محفاتهم ، وهم من حرارة الشمس فى ضيق وتأفف ، وكنت أمتطى حماراً إلى جوار أحد رؤساء الجند ، وقد استصحبت معى صندوق العقاقير الطبية التى رأيت أنها ستكون ذات فائدة كبيرة فى المعركة ، وكانت الرحلة طويلة وشاقة ، لم تتوقف القافلة خلالها إلا فترة قصيرة ، تناول فيها الجنود قليلا من الطعام والشراب ليتماسكوا ومع ذلك فكان كثير منهم يتساقطون إعياءاً ولا يقوون على النهوض رغم الركلات والسياط التى كان رؤساؤهم ينهالون بها عليهم ، فقد كانت أقدامهم لاتستطيع أن تحمل أجسادهم المنهوكة لفرط ماأصابها من القروح الدامية .

واقتربنا ،مع المساء ،من منطقة المعركةوكانت النبال عند ذلك قدأخذت تنصب علينا من أعالى الصخور المتاخمة للطريق ، وبين الفينة والأخرى كانت تنبعث من صفوفنا صيحات الذين أصابتهم هذه النبال ، ولم يكن « حورمحب » ليتوقف لإنقاذهم بل يتركهم يتساقطون ، ويمضى وشيكا حتى لا تشيع الفوضى فى الصفوف ولا يتمهل سير القافلة ، وكنا على جانبي الطريق نرى جثثاً « للعبريين » ملقاة فى ملابس رثة ، والذباب يتجمع عليها ، فيقف عندها بعض رجالنا بحثاً عن شىء ، أى شىء ، ولكنهم كانوا لايجدون شيئاً ! .. وقال لى رفيقى وهو يلهث على حماره ، إنه يشعر بأن هذا اليوم آخر أيام حياته ، ولذلك فهو يحملنى تحيته الأخيرة إلى زوجته وأطفاله .

وعلى تلك الحال من العناء والجهد والجوع والظمأ ، أشرفنا على السهل الفسيح الذى يعسكر به جنود « العبريين » ، فأمر « حورمحب » على الفور بالنفخ فى النفير ، تجميعا للصفوف ، وإيذانا بالهجوم ، ومن ثم انتظم الجند فى الدوائر المعينة لفرقهم ، فكان حاملو الحراب فى القلب ، وحاملو الأقواس فى الجناحين ، واندفعت

العجلات الحربية إلى مكان آخر لتؤدى دورها بالمعركة متسابقة ، حتى أثارت فيما حولها غبارا كثيفا أخفاها عن العيون .

وخلال سحائب الدخان المتصاعد من القرى المحترقة بالأودية الواقعة تحت التلال ، كان « العبريون » مقبلين فى عدد لا يحصى ، ودروعهم وحرابهم تلمع من بعيد ، وصراخهم الذى يشبه قصف الرعود يكاد يوقر الأسماع .

وفى صوت مجلجل صاح « حورمحب » قائلا : تشجعوا أيها الرفاق ، ولا يهولنكم هذا الحشد الذى تلمحونه من بعيد ، إنه ليس إلاّ قطعانا من الأنعام ، وأحمالا مما يتزود به « العبريون » الجبناء من أقوات وأمتعة ونساء وأطفال ، وسيكون لكم هذا كله بعد قليل ، فهلموا إليهم ، لنأكل على رؤوسهم طعاما شهيا ، فإنى وحق الآلهة لأشد منكم جوعا ، وإن بى إلى الطعام لنهما كنهم التمساح .

ولكن « العبريين » كانوا يقتربون منا فى أعداد كأرجال الجراد كثرة وتجمعا ، وبدا واضحاً أننا دونهم عدداً وقوة ، ولأول مرة شعرت كأنى ألوم نفسى على الاشتراك فى معركة كهذه ليس فيها إلا ما يخيف ويفزع ، بل ليس فيها إلا الموت ، فمن لم يمت بضربة حربة ، مات بضربة شمس ، أو مات جائعا صاديا .

وكادت تضطرب صفوفنا ، فقد هال جنودنا أن يلاقوا وهم مجهدون ، هذا الجيش الجرار ، وكان حملة الحراب منا أكثر اضطرابا وفزعا ، على أن « الجاويشية » (رؤساء الفرق) كانوا يحيطونهم بسياطهم ويلمون شعثهم ويردونهم إلى النظام . والواقع أن الجنود لم يجدوا من ورائهم فرجة للفرار من المعركة فأقبلوا عليها ، فما من ذلك مناص ، بينما كان «العبريون» يزدادون منهم دنوا واقترابا ، وقد ترامت علينا سهامهم وهى تئز فى الهواء أزيزاً كطنين النحل والذباب ، وأصابنى منها ومن صيحاتهم وجل شديد ، ولم يذهب عنى الروع إلا حين رأيتها تمر على رؤوسنا ، فتقع منا بعيدة أو يتلقاها الجنود بدروعهم فتتكسر عليها .

وعاد « حورمحب » يصرخ فى الجند مستنهضا عزائمهم ، وهو يستبقهم إلى الأعداء ، فأطلق سائقو العجلات الحربية العنان لجيادهم فى إثره ، وأخذ القواسون

يريشون سهامهم على قلب رجل واحد ، وكذلك فعل حاملو الحراب ، والجميع يصرخون صراخا أشد إزعاجا من صراخ « العبريين » ، وبهذه الشجاعة التي كان يثيرها فيهم خطر الموقف ، انقضوا انقضاض الصاعقة على أعدائهم ، وفى تلك اللحظة حمى وطيس المعركة واتقد أوارها ، ووسط زحمتها الخانقة شرد حمارى وكاد يلقيني على الأرض ليذهب ناجياً بنفسه ، وكان « العبريون » يقاتلون فى إصرار وحنق ، حتى من كان يسقط منهم تحت سنابك الخيل لا ينفك يضرب بحربته ضربا دراكا حيثما وجد إلى الضرب سبيلا ، وقد قتل من المصريين كثيرون كانوا ينزلون عن صهوات جيادهم ليلتقطوا ضحاياهم من الأعداء ليكونوا ، فى أيديهم ، دليل انتصارهم ، ومن الجانبين كان تدفق الدماء يفوق تدفق عرق المحاربين !..

وفجأة صاح « العبريون » صياح الغضب واليأس ، وتوقفوا عن القتال ، وأخذوا يتراجعون ، إذ رأوا العجلات الحربية التي كانت قد قامت بحركة التفاف حول السهل ، قد اقتحمت معسكرهم ، واستولت على حريمهم ومواشيهم ، فارتاعوا لذلك أيما ارتياع ، وهرعوا محاولين إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ولكن العجلات الحربية المصرية عاجلتهم وأحاطت بهم وأعملت فيهم الحراب والسهام ، ولم تغب الشمس حتى كان السهل قد امتلأ بجثث القتلى منهم ، كما كان معسكرهم طعاما للنيران ، ومن كل ناحية كان ينبعث خوار المواشى الهائجة الهائمة .

وأخذ رجالنا زهو الانتصار ، فأطالوا فى معركة لم يبق فيها من ينازلهم ، وأمعنوا فى جثث القتلى من أعدائهم ضربا بالحراب ، بل كانوا يذبحون هذه الجثث بعد أن فارقت الحياة ، دون أن يفرقوا فى ذلك بين رجل أو طفل . وكانوا كذلك يسددون سهامهم إلى البهائم فى عصبية طاغية ، وظلوا هكذا إلى أن استدرك أمرهم « حورمحب » فأمر بإطلاق النفير إعلاناً لانتهاء المعركة ، فساد الهدوء بين الجنود والضباط ، وعادوا يتجمعون حول قائدهم .

.. أما أنا فكنت ما أزال متشبثاً بحمارى الذى لم ينفك طول المعركة يقفز ويلفت

ويدور ، وكنت فى تشبثى به خلال ذلك ، إنما أتشبث بالحياة التى كان هذا الحمار الآبق الجامح سيفقدنى إياها ، لولا أن عاجله أحد الجنود بضربة قوية ، ثم أمسك به فنزلت عنه مسترداً أنفاسى . وقد ضحك الجنود من منظرى هذا ، وطاب لهم أن يسمونى منذ ذلك الوقت ، « ابن الحمار الوحشى » .

وأحيط الأسرى من الأعداء بالحراسة الشديدة ، بعد أن جردوا من أسلحتهم التى أضيفت إلى الأسلحة الكثيرة الأخرى المتخلفة من المعركة ، وعلى ضوء المصابيح المعلقة بالخيام ووسط أكوام طعام الجنود وعلف المواشى ، جىء بالصندوق المقدس فوضع أمام « حورمحب » ففتحه بيده وأخرج منه « سخمت » المعبودة ذات رأس الأسد ، وذات الصدر المنتفخ كبرياءً ، واحتشد حولها الجنود وأخذوا يرشونها بقطرات من الدماء التى تسيل من جروحهم ، ويضعون بين يديها أكواماً من الأيدى والأعضاء المبتورة من أجسام القتلى ، علامة الانتصار ، وبعد ذلك جعل « حورمحب » يوزع على رجاله القلائد والأساور وشارات الشرف مكافأة لهم على حسن بلائهم ، كما أعلن ترقية البواسل منهم إلى درجات تكافىء بسالتهم ، وكان هو لا يزال معفراً بتراب المعركة والدماء لا تزال تتساقط من سوطه ، ولكنه كان يبدو منشرحاً مفتر الثغر يواسى الجرحى من جنوده بالعبارات الحسنة المشجعة .
ولم يعجلنى هذا الابتهاج الشامل الذى يغمرنا جميعاً كمنتصرين ، كما لم يعجلنى ما عانيت من حمارى المتوحش ، عن واجبى كطبيب . وقد وجدت أمامى عملاً كثيراً ، فإن حراب « العبريين » وهراواتهم قد أحدثت فى رجالنا جراحات شتى وإصابات خطيرة ، فعكفت عليهم أنظف جراحهم وأطهرها وأضمدها وأعيد الأمعاء إلى أجواف البطون وأرتقها . أما الميؤوس من شفائهم فقد كنت أعطيهم حبوبا مخدرة وأسقيهم جعة ليقضوا اللحظات الباقية لهم من الحياة فى راحة وهدوء .

ولم أغفل شأن الجرحى من أعدائنا « العبريين » الذين وقعوا أسرى فى أيدينا ، فعالجت جراحهم بالطريقة نفسها ، وكان اهتمامى بهم يرجع ، أكثر من أى اعتبار آخر ، إلى اعتقادى بأن « حورمحب » يستطيع أن يبيعهم رقيقاً بثمن أغلى وهم

أصحاء ؛ ولكن الكثيرين منهم لم يرحبوا بعلاجي لهم ، بل لقد أثارهم ذلك وأسخطهم ، فكانوا يمزقون جروحهم بعد خياطتها وبخاصة عندما كانوا يسمعون أصوات وعويل الأسرى من الأطفال والنساء ، وكذلك كانوا يغطون وجوههم بملابسهم ويتركون جراحهم تنزف الدماء حتى يموتوا ! .. وقد أثر حالهم في نفسي وصيرني أقل شعوراً بلذة النصر ، فهؤلاء البدائيون الفقراء جوابو الصحراء بحثاً عن القوت والكلأ لهم ولأنعامهم ، كان يشتد بهم الجدب أحياناً فلا يجدون ثمة سبيلا غير مهاجمة البلاد السورية ، وهم مع فاقتهم القاسية وأجسامهم النحيلة ومعاناتهم الشديدة من بعض الأمراض الخطيرة وأشدها عليهم مرض العيون ، فإنهم مع ذلك الأقوياء الصناديد ورجال الحرب المغاوير . وكثيراً ما أحرقوا القرى وأزهقوا الأرواح وأشاعوا الفزع في القلوب . وقد تجرعنا منهم في المعركة الأخيرة كأسا مرة المذاق ، أقول إن هؤلاء ، على الرغم من كل ذلك ، قد أثاروا في نفسي شعور العطف عليهم حينما أبوا إلا أن يموتوا تخلصاً من حياة الأسر الذليلة ، وحينما أبوا إلا أن يغطوا وجوههم إخفاءاً لعار الهزيمة أو تواريا عن أنظار نسائهم وأطفالهم الذين كانوا يستصرخونهم فلا يستطيعون أن يفعلوا لهم شيئاً ! ..

وفي اليوم التالي قابلت « حورمحب » واقترحت عليه أن يقيم مصحًّا يبقى به الجرحى من الجنود حتى ينقهوا خشية أن يصابوا بنكسة قاتلة إذا رافقونا إلى « أوروشليم » ، فأخذ يشكرني على المساعدات التي قدمتها ويقول إنها مساعدات قيمة ولا يستطيع أن يجزيني عليها الجزاء الحق ، ثم نوه بما تحملته في هذا السبيل من عناء بالأمس ، وخاصة عندما كنت أركب حمارا مجنوناً . وقال : ولقد سمعت الجنود ينادونك بابن الحمار الوحشي ، فأرى أن يكون مكانك دائماً إلى جانبي فوق عجلتي الحربية ، حتى لا يرديك مثل هذا الحمار في معركة أخرى ! ..

قلت له : الواقع أنك أنت الذي ينعقد له وحده لواء هذا النصر في هذه المعركة ، فما أرى مثلك بطلا شجاعا ولا قائداً حكيما ، وقد دان لك الجنود جميعاً عن حب وتقدير ، والتفوا بقلوبهم حولك ، وانبعثوا بأمرك إلى القتال لا يبالون الموت

ولا يحفلون بالحياة ، فكان النصر المؤزر الذى رفعتم به رأس مصر عاليا ، ولكن أتأذن لى يا صديقى القائد العظيم أن أسألك كيف نجوت من حراب الأعداء وهى تحيط بك بالميدان إحاطة السوار بالمعصم ؟ ! لقد رأيت بعينى هذه الحراب على مقاتلك جميعاً ، وكانت واحدة منها كافية أن تنالك بالمكروه الذى نخشاه ، ولكنك كنت لا تباليها ، وتمضى كأنك لا تراها ، وترتد عنك كأنها تبحث عن غيرك ، وهذا أمر لا يخلو من سر ، فهل تراك فى حصانة من السحر ؟ ! .

قال : مثل هذا يجوز أن يقال عنك أيضاً يا «سنوحى » ، فكذلك كنت أنت فى قلب المعركة ، وبين الحراب المشرعة ، وتحت النبال المتدافعة ، وعلى ظهر حمار جامح ، ولم تكن تحمل حربة ولا قوساً ولا درعاً ، ومع ذلك فقد بقيت حيًّا ! .. ولا أرى إلا أن هذا من حسن الحظ ، وربما جاز لى أن أقول عن نفسى إننى أعرف أن أعمالا عظيمة تدبرها لى الأقدار لها ، وإنى لأؤديها مطمئناً إلى أنى منها فى رعاية قَدَرِيَّة متصلة ، وقد لا أستطيع أن أقول كيف عرفت ذلك على وجه التحقيق ، ولكن الذى لا شك فيه عندى أن هنالك مظاهر حسِّيَّة يمكن أن نستبين منها حظوظنا ، وأحسب أنى قد استبنت حظى عندما قادنى الصقر إلى « فرعون » ، فهو لا يقودنى إلا إلى خير ، ولو أنه فيما يخيل لى لا يستطيب المقام فى القصر الملكى ، فإنه منذ قادنى إليه لم يعد يلم بى ، وقد حالفنى التوفيق بفضل مقادته فى كثير من الأمور ، وعندما كنت أتقدم الجنود على عجلتى الحربية مع بعض الرفاق لكشف الطريق وإخلائه من وحوش الصحراء التى كنا نتصيدها بسهامنا ، رأيت من بعيد ناراً تلوح مشتعلة بأحد الأودية على شكل شجرة تحترق ، وقد صعد إلى أنفى من الأرض المحيطة بها رائحة غريبة لم تلبث أن دارت فى رأسى وسرت إلى أعضاء بدنى فأحالتنى إنساناً آخر لا يشعر بشىء من الجوع والظمأ ، ولا شىء من العناء والوهن ، وإنما يشعر بالقوة والشجاعة فى أعلى درجاتها ، فأدركت أن تلك علامة الظفر والنصر ، وزادنى شعوراً بذلك أن أحدا من رفاقى لم يشهد هذه النار فكأنما أراد القدر الذى يرعانى ويحالفنى أن يختصنى بها دون غيرى ، تثبيتاً لقلبى وإنعاشاً

للأمل فى صدرى ، ومن ثم فقد خضت المعركة غير هياب ولا وجل ، متحصناً بالقوة الخفية التى تدرأ عنى الموت ، وتحمينى من الأخطار ، وها أنتذا ترى أن الحراب والسهام والهراوات وما إليها من أسلحة المعركة لم تنل منى منالا ، ولم تقع منى على مقتل ، مع أنها كانت تطوقنى وتحدق بى من كل جانب ، فذلك هو الحصن السحرى الذى تسألنى عنه .

قال « حورمحب » هذا ، فلم يسعنى إلا أن أوافقه ، متأثراً ، فقد كنت لا أرى ثمة سبباً يدعوه إلى اختراع قصة كهذه ، هى فى ظاهرها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقائق .

ووزع « حورمحب » فى اليوم الثالث فرق الجنود ، فأرسل فرقة إلى « أوروشليم » ومعها الغنائم والأسلاب لبيع الرقيق والأمتعة والحبوب ،وعهد إلى فرقة أخرى برعى المواشى ، ومضى هو ببقية الجند على العجلات الحربية مقتفيا آثار الفارين من « العبريين » بعد أن عرف من بعض أسراهم أنهم قد حملوا معهم إلـهم ، واصطحبنى معه على عجلته التى كانت تسير بسرعة جنونية ، ملأت قلبى خوفاً على حياتى ، فكنت أتعلق به متخيلا ، لفرط فزعى ، أننى بذلك أتقى السقوط من فوق العجلة وهى تترنح بين أغوار الطريق وأنجاده ، وكانت هذه منى محاولة لا قيمة لها فى الحقيقة ، فإن تماسكى به فوق العجلة المجنونة لا يمكن أن يعصمنا من الخطر إذا ما انقلبت ، وهو كذلك لا يمنعها من الانقلاب إذا قدر لها أن تنقلب ، ولكن الأمر عندى فى ذلك الوقت كان شبيهاً بالغريق الذى يحسب أن القشة التى يمسك بها ستقيه خطر الغرق ! ..

وقد رآنى « حورمحب» على تلك الحال من الفزع والخوف فقال لى ساخراً ، إنه يروضنى على مخاطر الحروب وأهوالها لأبلوها وأعتادها ، فينبغى أن أثبت لها لأكون خليقاً بلقب المحارب الشجاع ..

وبهذه السرعة المخيفة التى كانت تسير بها العجلات أدركنا فلول «العبريين» الذين ظنوا أنهم نجوا من الموت ، فانصبت عليهم العجلات الحربية انصباب

الصواعق وراحت تحصدهم حصد المناجل ، لا تفلت منهم طفلا ولا امرأة .

وشهدت من هول هذه المعركة مالا أنساه أبداً ، واستطاع « حور محب » أن يلقى بها على « العبريين » درساً قاسياً ، فلا شك أنهم بعد ذلك لن يعودوا إلى شيء مما ألفوه من الإغارة على البلاد السورية ونهبها ، حتى لو ماتوا فى الصحراء جوعاً . . .

وتعقب « حورمحب » أولئك الذين كانوا قد حملوا إلـهم وفروا به ، فأوقع بهم وأشعل النار به أمام الإلـهة « سخمت » على مشهد من الجنود الذين انتفخت أوداجهم زهوا واستكباراً ، إذ يرون إلـه « العبريين » يذهب طعمة للنار . وكان اسم هذا الإلـه « يَاهُوَى » ؛ وهو أعز شيء عند « العبريين » ، ومنه كانوا يستمدون القوة فى غاراتهم وحروبهم ، فخسارتهم فى المعركة ، إذن ، فادحة إلى أقصى حد .

— ٥ —

عاد بنا « حورمحب » إلى « أوروشليم » ؛ وكانت يومئذ تموج باللاجئين إليها من البلدان المتاخمة ؛ وأشرف على بيع مالم يكن قد بيع من الغنائم ؛ وكان الأهالى الذين يشترون منها الأمتعة والحبوب يشعرون بمرارة قاسية ؛ لأنها كانت قد نهبت منهم ؛ وكانوا لذلك يطمعون فى أن تعاد إليهم بلا مقابل ؛ ولـكنهم لم يجدوا سبيلا الى استعادتها سـوى شرائها بالثمن كأنهم ليسـوا أصحابها ؛ وقد اضطروا أن يقترضوا أثمانها من معابدهم ومن التجار ومن جبـاة الضرائب الذين وفدوا على «أوروشليم » من كل أنحاء سوريا . وبهذا استطاع «حورمحب» أن يحوِّل الغنائم الى ذهب وفضة . وقد جعل لـكل جندى من هذا المـال نصيباً ، وراح الجنود بما أصابوا من ذلك يسرفون فى الطعام والشراب والترفية عن أنفسهم ، فازدادت « أوروشليم » ازدحاما وضجيجاً وراجت الحركة التجارية رواجاً كبيراً ؛ ورأى « حورمحب » هذا ، ففرض على التجار ضرائب مختلفة اجتمع له منها مال كثير .

وذهبت الى « حورمحب » أستأذنه فى السفر إلى « أزمير » فقال : إن المركة انتهت فى بدايتها وواتانا فيها النصر العاجل ؛ وما كان أمرها ليكون كذلك لولا أننا خضناها شجعاناً أشداء على أعدائنا ؛ ولكن « فرعون » لم يرضه منا ذلك ؛ فقد بعث إلىَّ بكتاب يلومنى فيه على أنى خالفت أمره فأرقت الدماء ؛ ويأمرنى بالعودة إلى مصر بجنودى لأسرحهم وأبعث بأعلامهم إلى دار الحفظ بالمعبد . وإنى لفى حيرة من هذا ؛ فهؤلاء الجنود الذين يأمر بتسريحهم هم الفرق المدربة فى مصر ولن تجد سواهم يملأ فراغهم فى قوة الجيش ؛ فكل من عداهم لا يصلحون لشىء فى هذه الناحية . والواقع أن « فرعون » قد استسلم استسلاما خطيراً لفكرة السلام التي لا أراها فى عالمنا إلا وهما وخيالا ؛ وأصبح ميسوراً غاية اليسر ؛ أن تكتب الألواح فى بيته الذهبي عن شرف الآلهة ؛ وترتل الأغانى فى المحبة التى تسود البشر ، كما أصبح من العسير ، غاية العسر ، أن يجنح إنسان إلى فكرة الحرب ؛ أو يتظاهر بالرغبة فيها ؛ فهو فى نظر « فرعون » يعد خائناً لرسالة « فرعون » الإلـهية ؛ رسالة السلام والحب وإمكان تآخى الأمم من غير إراقة دماء . على أن « فرعون » لو رأى ما رأينا من وحشية « العبريين »؛ولو استمع إلى أنين الرجال وعويل النساء فى القرى التى أحرقوها لما كان له فى الحرب مثل رأيه الآن ! ..

فقلت « لحورمحب » : وماذا تخشى ؟ ! لقد قضيتَ على «العبريين»، ولا يمكن أن يفكروا مجرد تفكير فى تجاوز العلامات التى أقمتها على الحدود ،ومصر الآن ذات ثروة ضخمة ورخاؤها عام ، ولا تحتاج إلى مزيد تسعى إليه مُحاربةً أوتطلبه بمظاهر القوة والإرهاب ، فليس ثم ما يخيفك إذا تمَّ تسريح الجنود على هوى « فرعون » وإرادته .

قال« حورمحب » : إنك يا«سنوحى» كالآخرين ، تأخذون الأمور بظواهرها وتحسبون السراب ماءاً ، ولا تلتفتون إلىماوراء ظهوركم .. والحقيقة التىينبغىأن تعرفها ويعرفها أمثالك ، أن مصر تُخطىء إذ تؤثر الانطواء على نفسها فى ذلك العالم المتسع الفسيح ،الذى تغلى فى كثير من أرجائه مراجل ثورات مخربة مدمرة ، ولعل

أقرب مثل على ذلك أن ملك «عامورية» يعمل جاداً فى جمع الخيول وصنع العجلات الحربية ، فهل تحسبه يفعل ذلك لمجرد الزينة حتى يبدو أكثر اقتداراً على دفع الجزية لفرعون ؟!. ثم ماذا يمكن أن تعبر عنه أحاديث كبار رجاله حين يذكرون فى ولائمه واجتماعاته أن « عامورية » كانت فى وقت من الأوقات تحكم العالم ؟ ! أليس فى هذا وذاك معنى الاستعداد والتهيؤ لأمر يخفونه الآن ليظهروا به غدا ؟ ! وهل يجوز لمصر لقاء ذلك أن تنام ملء جفونها إيثارا للسلام المزعوم ؟ ! .

وهنا ذكرت « عزيرو » ملك « عامورية » ، فقلت « لحورمحب » : إننى أعرفه ، بل هو صديق ، فقد عالجت أسنانه وأصلحتها وموهتها بقشر الذهب ، وأكبر ظنى به أن فى عقله خبلا ، وأن إحدى زوجاته تتحكم فى تصرفاته ! .

وصادف هذا القول ارتياحاً عند « حورمحب » فقال: حسناً .. وإنك يا «سنوحى» لمأمول الخير فيما يجب أن تؤديه لبلادنا من خدمات ، فأنت أكثر من غيرك إحاطة بالأمور وأوسع علما بأحوال البلدان ، وفى وسعك وأنت الحر الطليق أن تتنقل من من مدينة إلى أخرى ، وتكشف عن كثب خفايا شئونها . ولو كان لى مثل حريتك ونشاطك لما وَنيتُ ولا كفَفْتُ عن الرحيل إلى سائر الممالك والأقطار ، مستزيدا من المعرفة والاطلاع ، كنت أشخص إلى بلاد « ميتانى » أو « بابل » وأتعرف الكثير من العجلات الحربية التى يصنعها أو يستعملها « الحيثيون » ، وأستشف الوسائل التى يدربون بها جنودهم ، كما كنت أقصد إلى الجزر فى البحر لأرى السفن الكبيرة التى تتناثر علينا أنباؤها غير مفصلة .. كنت أفعل هذا وكل ما هو من هذا بسبيل ، ولكننى لا أستطيع للأسف ، لأن اسمى معروف فى كل أنحاء سوريا ، وحركاتى كاسمى تقترن بالشهرة والمعرفة ، وهذا يقيدنى ولا يهيئ لى فرصة التجوال والارتحال ، ويحول بينى وبين الحقائق السافرة ، وليس هكذا حالك ، فأنت تلبس ملابس السوريين ، وتحسن الحديث بلغتهم ولسانهم وتجيد إلى ذلك لغة أخرى يعرفها المتعلمون فى سائر أقطار الدنيا ، ثم إنك فوق هذا طبيب ، وقلما يخطر بذهن أحد أنك تعنى بشىء مما يدور حولك

غير مايقع فى نطاق مهنتك ، وحديثك فى عمومه يجرى مع الناس هيّناً يستميلهم إليك ولا يريبهم فيك ، وقلبك بعيد الغور يختزن الأسرار واللاحظات ولا يفشيها .

قلت له : قد يكون كل هذا صحيحاً ، ولكن ماذا تعنى ؟! .

قال : أعنى أن تذهب إلى تلك البلاد مزوداً منى بمقدار من الذهب ، فتباشر بها أعمالك كطبيب ، وهنالك سيكون لك باقتدارك الفنى مكان مرموق وشهرة بعيدة فى علاج المرضى وشفائهم ، فيقبلون عليك ، ويطمئنون إليك ، ويمهد لك هذا سبيل الاتصال بالأغنياء وأصحاب النفوذ والملوك ، وهؤلاء فى أغلب الأحوال أكثر طلباً للأطباء المهرة ، وعندئذ تستطيع أن تنال مودتهم وثقتهم فيتكشفون لك ، وتعرف من حيث لايشعرون دخائلهم وأسرارهم ، وإذا عدت إلى مصر أفضيتَ إلىَّ بها ! ..

قلت : ولكننى لاأنوى العودة إلى مصر ، ثم إنى لاأحب أن يكون مصيرى أن أعلق من أعقابى على الجدران فى بلد أجنبى .

قال « حورمحب » : أما أنك لاتنوى العودة إلى مصر ، فذلك أمر أشك فيه كثيرا ؛ فأنت عائد حتما إليها مهما يكن رأيك فيها الآن ، ذلك أنَّ الذى شرب من مياه النيل ولو مرة واحدة لايبترد ظمؤه فى مكان آخر ، حتى الطيور والعصافير تمضى فى تحليقها بعيداً عن شواطئه ثم تنقلب عائدة إليه ، كأنما تجذبها إليه قوة خفية ساحرة ، وأما التعليق فوق الجدران فشىء بعيد الاحتمال ، بل هو غير متوقع على أى صورة لرجل فى مثل حصافتك واتزانك وسعة حيلتك ، وأنا لم أدعك إلى مقارفة إثم هناك ، ولم أطلب إليك أن تخرق قوانين تلك البلاد ، ومادام شىء من هذا لايحدث فليس ثمة مايدعو إلى الخشية والخوف . على أنه إذا اقتضاك الأمر أن تطوّف بنظرك ودراساتك فى مرافقهم ومنشآتهم ، فإن هذا لايثير ارتيابهم بك ، فكثيرا مانرى فى كل البلاد ميلا إلى اجتذاب الغرباء والسائحين ليشهدوا معابدها وآثارها ومرافقها على العموم ، وهى تفعل ذلك للمفاخرة وإشاعة الأحدوثة الحسنة عنها ، إلى جانب ما تفيده من أموال الوافدين عليها حيث ينفقونها فيها خلال

إقامتهم ، وسيكون لك من هذه الناحية المكانة الحسنة بفضل ما بيدك من ذهب تنفقه بينهم سخيا ! .

فأنت ترى ألا بأس عليك فى بلاد يغمر الجهل أهلها ، ولا سابقة لهم بمثل أساليبك الطبية البارعة ، وفى وسعك أن تتصور ماذا سيكون لك من الشأن بين قوم لا يعرفون وسيلة لعلاج شيوخهم ومرضاهم ، فيضربونهم بالفؤوس أو يقذفونهم إلى الصحراء ليموتوا ، وفى اعتقادهم أن هذا خير ما ينبغى أن يفعلوا ليريحوهم ويستريحوا منهم ! .. والمأثور عن ملوكهم أن فيهم كبرياءً ، فهم لهذا يهتمون بعرض جنودهم المدربين على أعين الغرباء ، وستجد فى ذلك فرصتك المواتية لمعرفة ما أرجو أن تعرفه جيداً عن تسليح جنودهم وعدد عجلاتهم ، إلى ما يتصل بذلك من أنواعها وأحجامها ، وهل هى كبيرة ثقيلة أو خفيفة صغيرة ، وهل تحمل كل عجلة منها رجلين أو ثلاثة ؟ ! ولن يفوتك أن تعرف ما إذا كان الجنود يتناولون غذاءً كافيا ، ومبلغ ما يكونون عليه من قوة وضعف . وقد قيل إن « الحيثيين » اكتشفوا معدنا جديداً يصنعون منه أسلحتهم ! ويهمنى أن تعرف ما إذا كان ذلك صحيحا ، كما يهمنى أن تعرف — على وجه خاص — قلوب الحكام ومستشاريهم ، وما يدور فى رؤوسهم من أفكار واتجاهات ..

وكان «حورمحب» يقول هذا وفى عينيه مثل بريق الجمر المتقد ، وتقع كلماته على أذنى كأنها نفث السحر فتسرى فى مشاعرى جميعا : وخيل إلىَّ لقوة أثرها فى نفسى أننى أتلقاها من رجل عظيم رهيب ، فانحنيت أمامه مستسلما ..

فقال مبتسما : لعلك قد آمنت الآن بأنى رجل ذو سلطان ؟ ! .

قلت له : هذا صحيح . ولاشك عندى فى أنك ، على ما قلت لى من قبل ، قد خلقت للزعامة والبطولة والسيطرة على الكثيرين ، وإنى لماض على أمرك ، وأرجو أن أكون ، كما تريد ، عينك الباصرة ، وأذنك الواعية ، وعسى أن أوفق فى هذا ، وثق بأنى باذل أقصى ما فى طاقتى ، لا لأنك معطينى ذهباً ، بل لأن صداقتك عندى أعز منزلة من الذهب .

قال : ولن تندم يوماً على هذه الصداقة ، وإنى من جانبى لأقدرها قدرها ، ولكننى ، فيما قررت أن أزودك به من الذهب ، لا أقصد أن أؤجرك به ، وإنما قصدت أن أجعل منه أسباباً تصل بها إلى أهدافنا المشتركة ، وسترى أنك بحاجة إليه هناك ، فإنى لأعرف من طبائع الناس مالا تعرف . وقد اخترت هذه الوسيلة للتسلل إلى خفايا القوم وأسرار خططهم ، لأن الفراعنة اعتادوا أن يبعثوا عن طريق الرسميات السافرة رجالا يمثلونهم فى بلاط البلاد الأجنبية ، وكان مفروضاً أن يكونوا فى وظائفهم هذه عيوناً راصدة ترى كل شىء وتنقله ، ولكنهم لايكادون يعرفون واجباتهم على هذا النحو ، فليس يعنيهم إلا أن يظهروا فى تلك البلاد على صورة من الأناقة وحسن الهندام ، وأن يحرصوا على مراسم التشريف دون سواها ، فهؤلاء يذهبون ويعودون من غير أن يؤدوا عملا ذا نفع لبلادهم !..

واقترب « حورمحب » منى متأثرا ، فقبلنى وضمنى إلى صدره وقال : إن قلبى يخفق أسى لفراقك يا « سنوحى » ، وقد كنت أود أن تكون دائما إلى جانبى فكلانا فى هذه الحياة وحيد ، وقلبى كقلبك تهصره الوحدة وتثقله الهموم والأسرار ، ولكن واجب العمل لمصلحة بلادنا وخيرها يعلو على كل اعتبار خاص ، ونحن نفترق الآن فى سبيل هذا الواجب ، لنلتقى فى القريب أسعد لقاء ..

ثم أعطانى ذهبا كثيرا ، أكثر مما كنت أتصور ، وأرسل معى حارساً رافقنى حتى بلغت الشاطئ آمناً من لصوص الطريق . وهناك أودعت الذهب فى إحدى الشركات التجارية ، وأخذت بقيمته ألواحاً على حسابها ، وركبت السفينة مبحرا إلى « أزمير » .

يوم الملك الزائف

— ١ —

استقبلني « كاپتاح » في « أزمير » مهللا ، وألقى بنفسه عند قدمي وهو يبكي من فرط تأثره بالفرح ، وقال : لا أرى في أيامي على كثرتها يوما هو أسعد من يومي هذا ، ذلك لأنه اليوم الذي أراك فيه ، على يأس من عودتك ، فما كنت أحسب إلا أنك قد لقيت حتفك في المعركة ، وكثيراً ما تعذبت كلما تصورتك صريعا هناك تحت سنابك الخيل أو مذبوحا بحراب المقاتلين الأشداء القساة ، وحقا لقد كانت مخاطرة جنونية أن تذهب إلى ميدان حرب وأنت الذي لا سابقة لك بالقتال ولا تحذق فنا من فنون النضال ، وقد نصحتك وحذرتك فلم تحفل بنصحي وتحذيري ، ولهذا كنت قلقاً عليك أشد القلق ، ولم يخفف عني أنني وريثك الوحيد وأن أموالك الكثيرة المودعة عند تجار « أزمير » ستصبح كلها ملكا لي ، لو أن الذي قدرته وقع فلم تعد ، فالآن يسرني سروراً عظيما أن يحفظك « جمرانا » القدس ويحميك ، ويدفع عنك الشر ، وينجيك من الموت ويردك في عيني سالماً من المكروه ، والحق إنه إله قوى عظيم يرعانا ولا يتخلى عنا ، ولا نستطيع أن نفيه حقه من الحمد والشكر ، ولست حزينا ، وأقسم لك ، لأني حرمت من ثروتك الكبيرة باعتباري وارثك الوحيد ، فإن ما أجد من عطفك وحنانك لهو خير عندي من هذه الثروة ، ولم أفكر البتة ، طوال غيبتك ، في أن أمد يدي إلى شيء من أموالك ، بل لقد حفظتها وحرصت عليها كما لو كنت معي .

وعلى هذا الغرار ظل « كاپتاح » يثرثر ويبدئ ويعيد ، وهو يغسل قدمي ويصب الماء على يدي ، ويغدو ويروح مفتنًا في تحيتي وإعداد وسائل راحتي . . . . ولكني قطعت عليه سبيل هذه الثرثرة وهذا الفرح المسرف ، قائلا له : دعنا

من هذا ، وعليك الآن أن تأخذ فى إعداد متاعى ، فإننى من الغد مرتحل إلى أرض « ميتانى » و « بابل » وجزر البحر ، وهى رحلة طويلة قد تستغرق سنوات ذات عدد ، وستكون محفوفة بالكثير من الصعاب والمتاعب .

فصرخ جزعا وقال : ما هذا يا سيدى ؟ ! . أيطيب لك أن تشقينى وتعذبنى بهذه التصرفات العجيبة ؟ ؟ ليتنى لم أكن ولدت فى هذه الدنيا . فإنى لا أكاد أسعد فيها يوما حتى تلاحقنى التعاسة والحسرة أياما ، ولقد كانت رحلتك لشهر أو شهرين تكربنى وتقض مضجعى وتسهّد عينى ، فكيف تكون حالى وهذه رحلة إلى سنوات ؟ ! فإذا أصررت عليها ولم تستجب إلى رجائى فى أن نبقى هنا قانعين بحالنا ، فإنى مرافقك فيها ، إذ لا أستطيع البقاء بدونك كل هذا الزمن الطويل .

ولم يكن لدينا منفسح من الوقت نضيعه فى نقاش تغلب عليه بلاهة « كاپتاح » الذى لا تزيده السنون إلا خبلا وعقم تفكير ، فأشرت عليه بالكف عن ثرثرته فاستسلم على مضض ، وراح يُعد المتاع ويعد نفسه كذلك لمرافقتى فى الرحلة .

وفى الغد التحقنا بقافلة متجهة إلى سوريا الشمالية ، إذ أن « كاپتاح » كان قد أقسم من قبل ألا يضع قدما على سفينة . وقد أتاح لى السفر بهذه القافلة أن أرى أشجار « الأرز » فى لبنان . تلك الأشجار الباسقة التى يستخرجون منها الأخشاب القوية الأعراق ، الطيبة العنصر ، ويستخدمونها فى بناء القصور وتأثيثها ويصنعون منها قارب « آمون » المقدس .

ولم تكن الرحلة على طولها مضنية ، ولم تقع فيها حوادث مثيرة . خلافا لما يحدث أحيانا فى خطوط السير الطويلة عبر الصحراء والجبال كهجوم اللصوص وقطاع الطريق . وكنا نجد فى الفنادق القائمة بالطريق الراحة والنظافة والطعام الشهى والشراب العذب . وفى بعض المحطات التى وقفنا بها كان هناك بعض المرضى فتوليت علاجهم . وقد استرعى هذا أنظار المسافرين فأحاطونى بغير قليل من التكريم ، وكنت بينهم أقتعد كرسيا موطئا على ظهور حمير . وكانت الرياح المتقدة

بالحرارة تلفح وجهي ، ولكنى كنت أدلكه بالزيت . وهكذا لم أشعر فى الرحلة بالعناء الذى كنت أتوقعه . وقد سرنى خلالها ، أكثر من كل شىء ، أشجار « الأرز » بضخامتها وشذاها العطر ، وعلى مقربة منها مسارب الماء الصافية وجداوله الرقراقة ، وعيونه الثرة . والحق أن « لبنان » ، هذا القطر الجميل يمتاز بهذه الظواهر الطبيعية التى يظن من يراها أن أهله من أسعد الناس بها على وجه الأرض ، وقد ظل هذا رأيي فيهم إلى أن رأيت الأرقاء الذين يقطعون الأشجار ويشقونها ليرسلوها إلى سفوح التلال فشاطئ البحر ، فقد كان هؤلاء على صورة من التعاسة تثير الأسى والإشفاق ، فسواعدهم وسيقانهم لم تكن تتفصد عرقا فحسب ، بل كانت كذلك مرعى القروح التى تنزى قيحا وصديداً ، بسبب ماتصاب به جلودهم من تمزقات أثناء قطع الأشجار وتسويتها بالآلات الحادة دون أن يجدوا أية عناية بهم .

وأخيراً وصلنا إلى مدينة « قادش » وفيها حصن وحامية مصرية . ولكننا لم نجد حول أسوار الحصن أى مظهر من مظاهر الحراسة ، فقد كان الضباط والجنود يقيمون بالمدينة مع أهليهم ولا يظهرون للعمل إلا حينما يحل موعد توزيع الحبوب والبصل والجعة من مخازن فرعون . وقد اضطررنا إلى البقاء بهذه المدينة أياما قضيتها فى علاج « كابتاح » من بعض قروح أصيب بها ، وفى هذه الأيام عالجت كذلك الكثيرين من المرضى .

وفى مدينة « قادش » بدت حاجتي إلى خاتم ينقش عليه اسمى لاستعماله فى التوقيع على الألواح ، فصنعت خاتماً على حجر نادر يرمز إلى مكانتى ، فالأختام هناك تختلف عنها فى مصر ، وهى لا توضع فى الإصبع وإنما تعلق فى الرقبة على شكل أسطوانة ، ولا يستعملها الفقراء وغير المتعلمين ، فهؤلاء يبصمون بأصابعهم إذا عنت الحاجة إلى ذلك .

ومضينا فى رحلتنا فاجتزنا الحدود إلى « نهارانى » من غير أن نجد عائقا ، وبلغنا نهراً قيل لنا إنه فى أرض « ميتانى » ، وأدينا رسوماً كان على المسافرين أن

يؤدوها لجباة راصدين . وعند ما عرف الناس فى هذه البلاد أننا من المصريين أخذوا يرحبون بنا ويحيوننا باحترام ويقولون لنا إنهم مسرورون إذ يروننا ، فقد مضى عليهم زمن طويل لم يروا فيه وجوهاً مصرية ، وهم يشعرون بكثير من القلق لأن فرعون لم يبعث إليهم جنوداً أو أسلحة أو ذهباً ، وأن ثمة شائعة قد سرت إليهم هى أن فرعون قد اتخذ لهم إلـها جديداً لا يعرفون عنه شيئاً ولا حاجة بهم إليه ، فهم فى غنية عنه بآلهتهم «عشتروت» إلـهة الحب والجمال ، إلى آلهة أخرى ترعاهم وتحميهم وتمنحهم الخير والبركة .

وقد دعانى هؤلاء لزيارتهم بمنازلهم واحتفوا بى وأقاموا لى الولائم ، وكذلك فعلوا مع « كابتاح » الذى لم ينظروا إليه بوصفه خادما وإنما نظروا إليه بوصفه مصريا . وقد أعجبه هذا التكريم فقال لى : إن هذه بلاد طيبة كريمة . وفى أهلها سذاجة ، وهى لنا مرتع خصيب وحقل مثمر ، فالخير فى أن نبقى بها . ولكننى كنت فى شغل عنه وعن آرائه بالمهمة التى ندبنى إليها « حورمحب » .

وكان الملك وحاشيته قد انتقلوا فى هـذا الوقت إلى أعالى الجبال إذ كان الجو حاراً ، ولم أشأ أن أصعد إليهم مؤثراً أن أتعرف أحوال بلادهم فى غيبتهم فاتصلت بالناس على اختلاف مراكزهم الاجتماعية ، كبارهم وصغارهم على السواء . وكانوا جميعاً ، كالذين تحدثوا إلينا فور قدومنا ، يشعرون بالقلق ويشكون من انقطاع المدد المصرى عنهم ، ويرون أن بلادهم أصبحت فى مهب رياح عاصفة . والواقع أن « ميتانى » فى ذلك الحين تقوم على موقع لا يوحى بالأمن والطمأنينة ، فعلى حدودها من الشرق مملكة « بابل » ومن الشمال تربض قبائل متوحشة ومن الغرب بلاد الحيثيين وهم مصدر خوف ورعب .

وأهل « ميتانى » ذوو أجسام ضامرة ، ونساؤهم جميلات وأطفالهم ضئال مثلهم حتى أنهم ليشبهون الدمى ، والشيوخ والشباب معا يتفاخرون بأنهم كانوا فيما مضى قوما أشداء دان لهم يوما الشمال والجنوب والشرق والغرب ، فهم يعيشون على ذكريات ماض يبالغون فى تعظيمه ، شأنهم فى ذلك شأن سائر الشعوب التى

تشعر بالنقص فى حاضرها فتطلب الكمال فى ماضيها !.

على أن الحقيقة المعروفة عن هذه المملكة أنها منذ صار أمرها إلى الفراعين العظام كان فرعون يتخذ من بنات ملوكها زوجات له يقمن فى بيته الذهبى ، وقد زادت علاقتها بمصر ، بهذه المصاهرات ، توثقاً وتوطدا .

والذى عرفته إجمالا أن عناية الفراعنة بهذه البلاد وتدعيمهم لعروش ملوكها وإغداقهم عليها الذهب والسلاح والبضائع ، كان دافعهم إلى ذلك كله أنها تعتبر بحكم موقعها درعا تتقى به مصر وسوريا هجمات البابليين والمتوحشين من أهل التخوم القريبة ، وقد ظلت تتلقى هجماتهم كلما ثاروا على سلطان مصر . وكانت ، بما يتوافر لها من المدد الفرعونى المتصل ، تصدهم دائما وتلزمهم حدودهم ، وهذا هو السبب فى مباهاتهم بقوتهم التى يحسون أنها قد وهنت .

ومع أن الشعب « الميتانى » يلوح منهوك القوى لطول ما عانى فى دفع المغيرين ، فإنه كان كذلك يلوح غير عابئ بذلك ، فأكثر همّ الناس هناك منصرف إلى الطعام الذى يطهونه بطرق مشهورة ، وهم دائمو الاحتفال بملابسهم الرشيقة وأحذيتهم المدببة وقلانسهم الطويلة ، وفى أحاديثهم ومعاملاتهم رقة وظرف ، فالحياة عندهم فى عمومها وديعة هادئة ، حتى بيوت الملذات لا يقع فيها شغب أو شجار ، وكثيراً ما كنت أشعر بالسأم كلما ترددت عليها لأشرب فيها كؤوسا من النبيذ .

وكان أطباؤهم فى مستوى عالٍ من المعرفة ، ويعلمون من فنون الطب أكثر مما أعلم ، وقد أفدت منهم خبرة وتجارب ، وخاصة فى علاج فقد البصر الذى كانوا يستعملون فيه الإبر ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن فتح الجماجم ويقولون إن أمراض الرأس لا يستطيع شفاءها غير الآلهة . ولعل هذه العقيدة هى التى صرفتهم عن دراسة عملية جراحة الجمجمة التى حذقناها فى مصر . وعلى وجه عام كانت « ميتانى » أوفر حظاً من غيرها فى مجال الطب ، ولكن الناس مع ذلك ما كادوا يعرفون أننى طبيب حتى أخذوا يهرعون إلى زيارتى مصحوبين بمرضاهم ،

ذلك لأنهم مشغوفون بالغرباء ، يجرون وراء كل جديد . وهذه الظاهرة واضحة كل الوضوح فى شئونهم المختلفة ، فأزياؤهم وطعامهم وحركات سيرهم يغلب عليها التنافس فى محاكاة الأجانب والأخذ عنهم ، حتى أنهم لا يشربون من النبيذ إلا المستورد من الخارج ، ولهذا أقبلوا علىّ لعلاج مرضاهم مع وفرة الأطباء المهرة عندهم . وكان النساء يتوافدن علىّ كذلك ، ويكاشفننى بالحق من أمراضهن ، وبما يعانين من عجز أزواجهن ، فأعطيهن الدواء المناسب لكل حالة ، وأصنع لأزواجهن « حبوبا » يتناولونها مع النبيذ . وقد رأيت فى هؤلاء النسوة جنوحا إلى الحرية الفضفاضة . ولعل هذه الحرية هى سبب قلة النسل عند بعضهن ، وانعدامه عند أكثرهن ، وكان واضحا أن ثمة خطراً يتهدد مستقبل تلك البلاد إذا ظل عدد سكانها فى هذا التناقص الملحوظ .

والناس هنالك ضعاف امتحنوا بجيرانهم الحيثيين الذين لم يكن على ظهر الأرض — كما يروى عنهم — قوم أشد منهم قسوة وصلابة وغلظة ، ولهذا كانوا دائماً ينالون جيرانهم « الميتانيين » بالأذى ويلاحقونهم بالمساءة والضرر ، فيرفعون أحجار الحدود الفاصلة بينهم ويضعونها حيثما شاءوا من مواضع ، ويطلقون مواشيهم وعجلاتهم فى حقول « الميتانيين » خلف الحدود ، فإذا حاجوهم فى ذلك أو حاولوا منعهم ساموهم العذاب النكر ، وقطعوا أيديهم وأرجلهم أو نزعوا جلود رؤوسهم وجعلوا منها أستاراً متدلية على عيونهم حتى لا يروا أحجار الحدود عندما ينقلونها من أماكنها ، أو لا يروا مواشيهم وعجلاتهم وهى تعضى فى مزارعهم فتلتهمها وتخربها ، وقد قيل لى الكثير من اعتداءات « الحيثيين » وشناعة أعمالهم . وكان « الميتانيون » يرونهم شراً عليهم من الجراد الذى كان يفجأهم بأسرابه وأرجاله فيأتى على زروعهم وثمارهم ومراعيهم ، ذلك لأن الأرض تعود بعده فتعوضهم عما فقدوه ، أما « الحيثيون » فكانوا لا يتركونها صالحة للإنبات ، فعجلاتهم الثقيلة حيث تمر تمحل الأرض وتفتت عناصر حيويتها .

وقد زهدتنى تلك الحال فى الإقامة الطويلة بينهم ، فأزمعت الرحيل عنهم ،

مكتفيا بما عرفت من دخائل أمورهم ، ولكنني أحسست أن أطباء « ميتانى » يظهرون ارتيابهم فى مقدرتى على جراحة الجماجم ، فتلبثت فى فكرة الرحيل راجيا أن تواتينى فرصة قريبة للقضاء على شكوكهم . وقد تحقق هذا الرجاء عندما ساقت الظروف إلىّ رجلا نابه القدر ، جاءنى يشكو مرضاً فى أذنيه ويقول إن فيهما مايشبه هدير البحر المستمر ، وإن آلاما شداداً تتجمع فى رأسه حتى ليكاد ينفجر ، وإنه يتعذب من ذلك عذابا إن لم يجد من يبرئه منه ، فهو يؤثر الموت العاجل ، ثم قال إن أطباء « ميتانى » قد عجزوا عن علاجه ، وهو يرجو أن يجد المعجزة التى لم يستطيعوها .

وقلت للرجل : قد تبرأ من علتك هذه إذا فتحت جمجمتك ، ولكنها عملية غير يسيرة فليس ينجو منها أكثر من واحد فى المائة !..

فقال : ذلك أمر يهون على أى حال ، وخير لى أن أموت على يدك فى طلب الحياة ، من أن أموت بيدى فراراً من هذا العذاب المتصل ، فما جدوى الحياة عندى مع هذه الآلام القاسية ؟!. على أنه لو قدر لك أن تبرئنى منها فإنى لمطيك — مغتبطا — نصف ماأملك ، وهو كثير .

وفى اهتمام كبير أخذت أفحص عن علة الرجل ، متحسساً بيدى كل جزء فى رأسه . ولكن أجزاء رأسه جميعا كانت سواء فى درجة الحساسية ، ولم يبد عليه أى ألم فى واحد منها . وقبل أن تعترينى الحيرة من هذه الظاهرة ، قال لى « كابتاح » : دُقّ بالمطرقة على رأسه ، فلن تخسر شيئاً ..

وكان رأيا صوابا ، فلم أكد أدق بالمطرقة على موضع معين بالرأس حتى صرخ الرجل وسقط على الأرض مغشيا عليه . وهنا فطنت إلى مكان الداء ، فاغتبطت بذلك ، ودعوت على الفور الأطباء المتشككين فى مقدرتى وقلت لهم : سأفتح جمجمة هذا الرجل ، والعملية بالغة الخطورة ، وقد تعلمون أو لاتعلمون أن نسبة النجاة من الموت فيها قليلة جدا ، ولكنها مع ذلك من أدق فنون العلم فى سبيل الحياة ، وقد دعوتكم لتشهدوا فيها شيئاً جديداً لم تعرفوه من قبل ..

وقالوا فى سخرية لم يستطيعوا إخفاءها : الحق أنها عملية جديرة بأن نشهدها!!.

وبدأت عملى ، فطهرت يدى ، كما طهرت المريض وأدوات الجراحة بالنار المقدسة التى تزودت بها من معبد « آمون » ، ثم سلخت جلدة الرأس وأوقفت نزف الدم الغزير بطريقة الكى بالنار . وقد أحدث هذا ألماً شديداً للمريض ، ولكنه لم يزعجه فقد كان — كما أخبرنى — يقاسى أشد منه قبل العملية . على أنى فى سبيل تخفيف آلامه سقيته نبيذاً مخلوطاً بالمخدر ، فسكن وهدأ واحتمل الألم . وفتحت بعد ذلك الشبكة العظمية للجمجمة بالآلات الدقيقة المعدة لذلك ، وعندما نزعت قطعة العظام من موضع الداء بدا أنه شعر بارتياح ، وكنت أكثر منه ارتياحا بطبيعة الحال ، فقد كان الوقوع على موضع الداء من الوهلة الأولى علامة توفيق وبشيراً بنجاح العملية الخطيرة ، فهذه القطعة العظمية التى أدرت عليها المشرط كانت هى الجزء الذى ينبغى أن أفتح منه الجمجمة ومن هذا الجزء وضعت يدى على الداء الذى باض فيه وأفرخ ، ومن ثمّ اجتثثت الموضع الخبيث الذى كان بادى الالتهاب كما لو كان جمرة متقدة ، وتناولت سفوداً محمّى بالنار فكويته ، وأعدت الجمجمة كما كانت وغطيتها بصفائح فضية وجمعت أطراف فروة الرأس ثم خطتها بالخيوط الدقيقة الخاصة .

ونهض المريض بعد ذلك مسترداً شعوره الكامل وأخذ يخطو بيننا خطوات مليئة بالنشاط والحيوية ، وعلى وجهه سمات بهجة مترعة ، فقد زال من أذنيه الهدير المزعج ، كما لم يعد يحس بشىء من تلك الآلام الطاغية ، وأقبل علىّ يصافحنى ويشكرنى شكراً متصلا بقلبه ولسانه .

ولم يسع الأطباء الذين كانوا منذ قليل يسخرون إلا أن يظهروا إكبارهم لى لنجاح هذه العملية الدقيقة التى كانوا يحسبونها ضربا من الوهم والحماقة ...

وأكسبنى هذا النجاح شهرة واسعة فى أرض « ميتانى » وراحت تشيع وتستفيض حتى جاوزت الحدود إلى « بابل » .

وقد حدث بعد هذا أن مريضى الممتاز استخفه الفرح بالشفاء ، واستطارته

العافية بعد اليأس ، فأسرف على نفسه بشرب النبيذ وكثرة الحركة بين الناس ، فسقط من فوق حائط عال كان قد تسلقه مزهواً بقوته فانكسر عنقه ، ولقى حتفه ، ولكن أحداً من الناس لم يرنى مسئولاً عن هذا الحادث ، فقد كان الجميع يمتدحوننى ، ويشيدون بمقدرتى الفنية التى لم يشهدوا لها مثيلا من قبل .

وأخيراً استأجرت قاربا بمجاديفه ، وأبحرت به فى النهر مع « كاپتاح » إلى « بابل » حيث سبقتنا إلى هناك شهرتى كطبيب بارع .

— ٢ —

تسمى الأراضى التى ينتظمها حكم « بابل » بأكثر من اسم واحد ، فهم يعرفونها حيناً باسم « الكلدان » وحيناً آخر باسم « الكاسيت » وهو اسم الأقوام الذين يستوطنونها . ولكن الاسم الذى أوثره — على اختلاف أسمائها — هو اسم « بابل » لأنه الأوسع اشتهاراً فى التعريف بهذه المملكة الخصيبة التى تتخلل أراضيها شبكة وثيقة من قنوات الرى وجداول الأنهر ، ويتسق واديها حتى لايكاد النظر يقع على نهاية حدوده وأقطاره ومستفيض حقوله ومزارعه .

وفى « بابل » أنواع قليلة من الأشجار يعتبر قطعها ذنباً يرتكبه فاعله ضد الآلهة والأهلين ، ويحل عليه عقاب القانون فوق غضب الآلهة ، وعلى نقيض هذا يعد حائزا لرضاء الآلهة كل من يغرس شجرة بجانب أخرى .

وأهل « بابل » تموج أجسامهم من البدانة والترهل ، وهم ، كأمثالهم من أبناء الشعوب ذات البدانة والترهل ، يميلون إلى الضحك والفكاهة ، ويرجع هذا إلى وفرة مالديهم من الأطعمة الدسمة وكثرة تناولها فى يسر وسهولة . وقد رأيت فيما رأيت هناك طائراً يسمونه « دجاجا » له جناحان ولكنه لايستطيع أن يطير كغيره من الطيور ذوات الأجنحة . والدجاجة الواحدة من هذا الطير الذى يعيش مع الناس على الأرض ، تضع كل يوم بيضة فى مثل حجم بيضة التمساح ، وقد استغربت هذا ، كما أعتقد أن غيرى من البعيدين عن هذه البلاد سيستغربونه .

و « البابليون » يأكلون هذا البيض ويقولون عنه إنه طعام لذيذ شهى . وقد قدموه لى طعاما فلم أتناوله لأنى لم أطعمه قبل ذلك ،وخشيت أن تصيبنى منه مضرة إذا تناولته لأول مرة فى هذه البلاد النائية ، واكتفيت فى طعامى هنالك بأنواع مما أعرفه أو أعرف عناصره .

وأهل « بابل » يتفاخرون بمدينتهم ويتطاولون بها على أبناء الشعوب الأخرى ، ويرون أنها أعظم وأقدم مدن العالم . ومع أنى لم أسلم لهم هذا الرأى على إطلاقه ، مقرّراً أن « طيبة » تسبق « بابل » فى عظمتها وقدمها ، فإنى أعترف بأن مدينة « بابل » أدهشتنى حقاً بضخامتها وفيض ثرائها ، وارتفاع حوائطها التى تشبه التلال شهوقا ، ومساكنها المشيدة من طوابق ذوات عدد ، حتى أن الناس فى هذه المساكن التى تبلغ أحياناً الخمسة الطوابق كانوا أخلاطاً وصنوفا منوعة يعلو بعضهم بعضاً ، وهو أمر غير مألوف وقتذاك فى غير هذا المجتمع البابلى . وقد افتنوا فى البناء الذى أقاموه لآلهتهم ، فكان أكثر من سائر أبنيتهم ارتفاعا وسموقاً ودقة عمارة .

وكان إلههم المعبود هو « مردوخ » ، وفى الطريق إلى معبده أقيمت ، على مشرف الإلهة « عشتروت » ، بوابة أعلى من أبراج معبد « آمون » ، وعلى حوائطها مجموعة من القرميد المصقول منوع الألوان يضفى عليها صورة باهرة تأخذ بالأبصار . وبين البوابة ومعبد « مردوخ » طريق يمتد فى التواء حلزونى ، ولكنه كان عريضاً ممهداً يتسع لأعداد من المجلات تسير عليه جنباً إلى جنب ، وفوق برج المعبد كان يقيم المنجمون الذين يرصدون الأجرام السماوية ويحسبون حركاتها وتسيارها ، ويتنبأون للناس بأيام نحوسهم وسعودهم ، وقيل إنهم كانوا يستطيعون أن ينبئوا أى شخص بما هو مقدور له من خير أو شرٍ فى مستقبل أيامه إذا عرفوا اليوم والساعة التى ولد فيها ، ولم يتهيأ لى أن أجرب علمهم فى ذلك لأنى كنت أجهل تماماً يوم مولدى وساعته . . .

ومن مصرف هذا المعبد استبدلت بما كان معى من ألواحٍ ذهباً ، وأقمت

قريباً من بوابة « عشتروت » فى فندق كبير مكون من عدة طوابق مرتفعة ، وعلى سطحه حديقة رائعة حافلة بأشجار الفاكهة وشجيرات « الآس » ، والمياه تجرى فى قنوات مبنية ، وفى مياه بحيرتها تسبح أنواع جميلة من السمك .

وكان هذا الفندق الفاخر مقصد الممتازين الذين يتواردون على المدينة من قرارهم وضياعهم ، وكذلك كان ملتقى أفراد البعثات الأجنبية ومقر إقامتهم ، وفيه يجد الجميع راحتهم موفورة ميسرة ، فغرفه مفروشة بالسجاجيد الثمينة ومزينة بلوحات الصور المرحة ، وفرشها وحشياتها وثيرة صنعت من جلود الحيوان الناعمة .

وكان الاسم الذى يطلق عليه مشيراً إلى مايجد النزلاء فيه من الجمام والترفيه ، فاسمه « بيت عشتروت للسرور » ، وهو ، كأى شيء هام بالمدينة ، ينتمى إلى برج هذه الإلهة الأثيرة المحببة عند أهلها .

« وبابل » حينذاك أحفل بلاد العالم بأخلاط الناس من مختلف الصنوف والأجناس ومتباين اللغات واللهجات والأفكار ، وهناك تسمع منهم جميعا أن سائر الطرق تؤدى إلى « بابل » لوقوعها فى مركز وسط بين أقطار الدنيا ، ولأهلها شهرة لا تدانى فى التجارة ، فهم يحذقونها وقلما يعنون بشيء سواها ، حتى قيل إن آلهتهم يتجرون كذلك فيما بينهم . ولفرط تأثرهم بهذا الطابع التجارى يؤثرون السلام ويحرصون عليه ويكرهون الحروب ويتقونها ، ولهذا أقاموا الأسوار حول مدينتهم لتأمين أموالهم والمحافظة على متاجرهم ، ونشروا جنودهم المدربين على الأسوار والمعابد وسبل المواصلات حفاظاً للأمن ، ودفعاً للأخطار ، وكانوا معجبين بهؤلاء الجنود الذين يطالعونهم كل يوم ذاهبين إلى بوابة « عشتروت » بقلانسهم وأسلحتهم المتألقة بأوسمة الذهب وشارات الفضة ، تنويها بما تنطوى عليه حياتهم من الثراء والترف ، ويبلغ بهم الاعتداد والزهو بتلك الحال أنهم كلما أقبل عليهم غريب وافد ، سألوه عما إذا كان قد رأى فى غير بلدهم جنوداً أفضل من جنودهم عدة وزينة ؟ ! .

وكان ملكهم صبيًّا غضَّ الإهاب ، ناعم الصبا . وقد اقتضاه وقار العرش أن يبدو فى صورة رجل ، فوضع أو وضعوا له على مدار وجهه لحية مستعارة ، ولكنه مع ذلك كان بدافع من غريزة الطفولة ينزع إلى اللعب ويتلهى بالأقاصيص ذات الإغراب والإثارة . .

ذلك ما قد عرفته عن هذا الملك حين تلقيت الدعوة لأتشرف بمقابلته ، وأنا إذ ذاك مقيم بفندق « بيت عشتروت » . وكانت هذه الدعوة وليد شهرتى التى سبقتنى إلى « بابل » من بلاد « ميتانى » ، وثمرة تعرفى إلى كهنتها وأطبائها .

ولم يسترح « كاپتاح » إلى تلبيتى الدعوة ، فنصح لى بألا أذهب إلى لقاء الملك قائلا إنه يتوجس الشر فى الاتصال بالملوك ، ويرى أن الخير فى أن يكون الإنسان بمنأى منهم ليسلم من أذاهم ! . .

ولكننى لم آخذ بنصيحته ، وقلت له لأطمئنه : لا تخف فإن الجعران المقدس معنا ، وهو كما تعلم تعويذة تقينا شرور الناس ولو كانوا ملوكا . .

فقال مصمماً على رأيه : إن سر الجعران قد لا يحتمل كل شىء ، وهو حجر على أى حال ، ومن الحكمة ألا نسرف فى الاعتماد عليه ، فربما يكون الروح الذى انبث فيه قد انحسر عنه لطول الزمن واختلاف الأجواء واتصال الحركة ، فلسنا ندرى الحقيقة وهى غيب مستور . وإنما الذى أعلمه يقينا أن الوقاية خير من العلاج ، والسلامة فى ألا نجازف بأنفسنا ونلقى بها فى المآزق ، فإن أصررت مع ذلك على لقاء الملك فلست بمانعك ولكنى لا أدعك تذهب وحدك ، فسأرافقك إليه لأحمل معك ماقد يتمخض عنه هذا اللقاء من سوء ، ولو أنك وحدك المسؤول عنه . على أنى أرى أن نبدو فى عين الملك بمنزلة من الاحترام تغريه بتكريمنا ، وسبيل ذلك أن نطلب مقعداً ملكياً يحملنا إليه ، فهذا أجدر بمن يدعوهم الملك إلى مقابلته وهم من غير رعاياه ، ثم ليكن ذهابنا إليه فى غير يومنا هذا ، فهو اليوم الأخير من الأسبوع ، ويعدُّونه فى هذه المملكة يوم نحس ، ألا ترى المتاجر قد أغلقت أبوابها ، والناس قد لزموا بيوتهم ؟ ! ذلك لأنهم ،

يعتقدون أن النحس مصيبهم إذا عملوا فى هذا اليوم عملا، فلماذا نغامر بحظنا فيه ؟!.

وقع رأى « كاپتاح » منى موقع القبول ، فما ينبغى أن نشذ على عادة أهل « بابل » فى هذا اليوم ، فلا بد أن لمخاوفهم منه حقيقة لا نعلمها ، ونحن فى مصر لا نفرق بين الأيام ، ولكننا هناك نعرف أن ثمة أياماً غير معينة تنبىء النجوم بأنها نحسات ، ولعل منها ذلك اليوم الأخير من الأسبوع فى هذه المملكة .

واستسلاماً إلى هذه العادة رغبت إلى رسول الملك فى أن تؤجل المقابلة إلى الغد ، وأن يجيئنى بمقعد أذهب محمولا عليه إلى الملك ، فلا يجمل أن أمثل بين يديه معفراً بتراب الطريق ! . .

وبدا الخادم دهشاً من تقييد الدعوة الملكية بمثل هذا الشرط غير المألوف . فالملك عندما يدعو إنساناً ، ويحدد موعداً ، وجبت الطاعة على الفور ، ولهذا قال : أخشى ألا يقبل الملك مطلبك ، وأن يأمر فتذهب إليه فى الحال مرغماً ومن ورائك حراب الجند ! . .

ثم تركنا عائداً إلى قصر الملك ، وقضينا الوقت إلى صباح اليوم التالى بالفندق فى غمر من الظنون والتكهنات ، مترقبين أحداثاً تهب علينا من جانب الملك الذى سمعنا من رسوله كلاماً فيه وعيد وإنذار . .

على أن أعصابنا المضطربة عادت إلى سكينتها وهدوئها حينما أهلَّ على الفندق خدم القصر الملكى ومعهم الكرسى ليحملنى إلى الملك .

ولم يرض « كاپتاح » عن هذا الكرسى ، لأنه كان عادياً مما يرسله القصر عادة فى طلب التجار الذين يعرضون على الملك السلع والجواهر والقرود وريش النعام وغيرها ، فصرخ فى وجوه الخدم محتجاً وقال لهم : بحق « ست » وسائر الشياطين إن لعنة إلهكم « مردوخ » ستنصب على رؤوسكم التى تحمل هذا الكرسى الحقير ... نحُّوه جانباً ، فإن سيدى لأكبر شأناً من أن يجلس على مثله .

وفى غمرة هذه المفاجأة التى أثارت دهشة الخدم وحنقهم ، كما أثارت فضول النزلاء الذين أطلوا برؤوسهم ليروا ذلك السيد ، الذى يرى خادمه أن الكرسى الملكى

غير لائق به ، أسرع « كاپتاح » فاستأجر من إدارة الفندق مقعداً ضخماً يستخدمه سفراء الممالك فى تنقلاتهم .

وهبطت من حجرتى مرتدياً حلة موشاة بالذهب والفضة ، وفى عنق القلائد الذهبية التى انعكس عليها ضوء الشمس ، فتوهجت وأضفت على شخصى غلالة من نور ، وفى إثرى خدم الفندق يحملون عقاقيرى وآلاتى الجراحيـة فى صناديقها المصنوعة من خشب السِّـدر والأبنوس المطعم بالعاج .

وقد رآنى الناس فى هذا المظهر الفخم فقال بعضهم لبعض إنه لسيد عظيم وفيه جلال آلهة الحـكمة ، وبحافز من الرغبة فى استطلاع جلية أمرى تجمعوا حولى وتبعونى إلى القصر الملـكى . . .

وهناك عند بوابة القصر وقف الحراس صفّـا وبأيديهم الحراب والدروع الذهبية ، وكانت كثيرة متلاصقة حتى لتبدو كأنها حائط منيع من الحلى ، وقد أخذ هؤلاء الحراس يدافعون الناس المحتشدين عند بوابة القصر ليفسحوا لى طريق المرور إلى ساحته الداخلية . فلما دلفت إليها رأيت على جانبيها صفوفاً من تماثيل الأسود المجنحة ، وتلقانى فيها رجل عجوز حليق الذقن كالعلماء ، فى أذنيـه أقراط مدلاة من الذهب الخالص ، وكانت تشيع فى وجهـه وعينيه سحابة من الغيظ حينما ابتدرنى قائلا : عجيب أمرك أيها الرجل ! . . تقدم على الملك فى مثل هذه الضجة ،وهو سيد أركان الدنيا الأربعة ، إنه ليسأل من أى صنف من الناس ، ذلك الذى يدعوه ويحدد لدعوته موعداً فيأبى إلا أن يجيء فى الموعد الذى يختاره هو ، وبالطريقة التى يرسمها هو ، ثم لا يقنع بهذا فيجيء فى قافلة من الجماهير ؟ !

فقلت له فى كبرياء : أيها الشيخ !.. ما أشبه كلامك هـذا بطنين الذباب فى أذنى . وإنى لسائلك بدورى من تـكون أنت فى هذا القصر ،وبأى حق تخاطب ، بهذه الغلظة ، رجلا جاء إلى هنا مدعوًّا من الملك ؟! . .

قال : إننى رئيس الأطباء فى حاشية سيد أركان الدنيا الأربعة ، وما أراك أنت إلا دجالا مشعوذاً ، جئت لتختلس الذهب والفضة من الملك ! . . ولن أفلتك من

قبضتى إلا إذا أعطيتنى نصف ما سوف تناله من ماله . .

قلت له ساخراً : ذلك شأنك مع خادمى ، فمن الأعمال التى تقع فى اختصاصه أن يخلى الطريق أمامى من الطفيليين ومتوترى الأعصاب وقنّاصى المنافع !.. على أنى لمشفق عليك لأنك عجوز متهالك ، وآية إشفاقى عليك هذه الأساور الذهبية التى أمنحك إياها الآن كرماً منى ، لتعلم أن المال عندى ، كالتراب تحت قدمىّ ، كثير ولا قيمة له ، فليس هو مطلبى ، ولا من أجله جئت إليكم ، وإنما أنا طبيب ، وفى سبيل الحكمة ، لا فى سبيل غيرها ، أجوب البلاد ، وأسعى فى الأرض . . . (وانتزعت بعض الأساور الذهبية التى يتزين بها ذراعى ودفعت بها إليه) .

فبهت الرجل عندئذ وارتج عليه ، ولكنه تناول الأساور ، وسار أمامى فى احترام متكلف ، إلى قاعة الملك . وقد بلغ من تجمله لى أنه لم يمنع « كاپتاح » من مرافقتى إلى لقاء سيده وسيد أركان الدنيا الأربعة ، كما يقول ! . .

وكان الملك « بورنابورياش » يجلس فوق وسائد وثيرة مفوفة فى حجرة ذات مسارب عدة للهواء ، وحوائطها مكسوة بألوان براقة من القرميد المصقول ، وقد بدا — وهو الصبىّ المدلل — عابس الوجه ، واضعاً يده على خده ، وبمقربة منه يرقد أسد ، صدرت عنه زمجرة خفيفة حين رآنا .

وخر الرجل العجوز — وهو يتقدمنا — على الأرض كأنه يسجد فى محراب صلاة ، وفعل مثله « كاپتاح » ولكنه ارتاع فزعاً عندما سمع زمجرة الأسد ، فدار على يديه وتداخل فى نفسه حتى كأنه الضفدعة لفرط خوفه ، فانفجر الملك ضاحكا لمنظره ، ومال على وسائده مغرقا فى الضحك حتى بدرت الدموع من عينيه .

ولكن الملك اعتاده الألم فعاد إلى عبوسه معتمداً خده بيده ، وأخذ يئن متوجعاً ، وأدركت على الفور أنه يشكو علة فى هذا الموضع من وجهه ، فقد كان به ورم ظاهر امتد إلى عينه حتى بدت نصف مفتوحة . وأومأ إلى الرجل العجوز ، فنهض هذا قائلا فى زلفى وملق : هذا هو المصرى العنيد يا سيدى ... إن كلمة منك لكافية أن تطيح برأسه عقابا له على عناده !..

وقبل أن يسترسل فى هذا ، دفعه الملك برجله قائلا : ليس هذا وقت الهراء والكلام السخيف ، إنما هو وقت العمل السريع الذى دعونا هذا الطبيب المصرى إليه . إن الألم الذى أشعر به فظيع لا يحتمل ، وهو يعصرنى عصراً ، وقد قضيت عدة ليال مسهداً كأنما أتقلب على الجمر ، ولم أتناول خلال هـذا الوقت الطويل سوى الحساء حتى لأكاد أموت جوعا !.. ولقد عجزتَ أيهـا الطبيب العجوز عن علاجى ، فليتولَّه إذن ذلك الطبيب المصرى .

وهنا أخذ الشيخ العجوز يخبط رأسه بالحائط منتحباً وهو يقول: لقد صنعنا ـ يا سيد أركان الدنيا الأربعة — كل ما فى وسعنا لشفائك ، وتقدمنا بالكثير من الأشداق والأسنان إلى المعبد مبتهلين إلى الآلهة أن تطرد الروح الشريرة المتسللة إلى شدقك وأسنانك ، ثم إنك ياسيدى لم تأذن لنـا بلمس شخصك المقدس فاستحال علينا أن نجرب الطب بأيدينا فى موضع العلة ، وما أظن هذا المصرى سيأتى بما لم نستطعه ! . .

فقلت : إننى أنا « سنوحى » المصرى الذى يلقب بالوحيد وابن الحمار الوحشى ، وفى استطاعتى أن أريحك من هـذا الألم الذى يقض مضجعك ، ومصدره ، دون حاجة إلى فحص عنه ، أنك لا تنظف أسنانك ، فعلقت الجراثيم بأحداها واتخذت منها بؤرة خبيثة ، ومن ثم تنزّت قيحاً وصديداً ، فـكان مرضاً موجعاً وألماً ممضاً ؛ وهو أمر من بدهيات الطب ؛ ولا بد أن يكون أطباؤك قد عرفوه ؛ وعرفوا ما ينبغى له من علاج . وعلى أى حال لا مناص من أن تشفى من هـذا المرض ؛ فما يليق أن يستبد بك على هذا النحو ؛ وأنت سيد أركان الدنيا الأربعة ؛ الذى يرتعد أمامه الأسود خوفا ! . .

قال الملك وهو لا يزال ممسكا بخده كأنه يدفع الألم بيده : إنك تتحدث حديث الجرىء الواثق من نفسه ؛ فعجل إذن بعلاجى ؛ ولئن أبرأتنى لأعطينك أسخى العطـاء ؛ ولأكافئنك أجزل المـكافأة . أما إذا أخفقت كما أخفق الآخرون ، فجزاؤك الذبح العاجل الذى لا تقبل فيه شفاعة ! .

قلت : فليكن ما تشاء ؛ وسوف لا يكون إلا الخير الذى ترضى به ، فإن إلهـاً صغيراً قوياً يرافقنى ؛ وقد أوحى إلىّ ألا أحضر هنا بالأمس ؛ فنزلت على إشارته ؛ وبان لى الآن أنه كان حكيما فيما أشار به ؛ ذلك أن تلك البضعة المريضة فى أسنانك لم تكن قد صلحت حتى الأمس للعمل الجراحى الذى هو الوسيلة الطبية الحاسمة للعلاج ؛ ولكنها اليوم قد بلغت من ذلك الحد المراد ؛ وإنى الآن لعلى استعداد لمباشرة عملى ؛ وقـــد لا يخلو من ألم ولكنه ألم عاجل إلى راحة مستقرة ؛ وليس فى مقدور الآلهة نفسها أن تمنع عن أحد ، ولو كان ملكا ، ألم العلاج . .

وعلت وجهَ الملك انفعالاتُ الحيرة والتردد ، وشعرت نحوه فى هذه اللحظة بشىء كثير من المحبة والاحترام ، فقد بدا شـابًّـا لطيفاً ، فيه براءة الشباب وبساطته ، مجرداً من غطرسة الملوك واستعلائهم . إنه الآن إنسان ضعيف يفكر فى الخلاص من الألم الذى لم يعصمه منه ملكه الواسع وسلطانه العريض ، وعلى شدة لجاجته فى طلب الشفاء فإنه يتهيب الوسيلة إليه ، ويفزع من يد الطبيب تمتد إلى موضع الداء .

وأخيراً يخرج الملك من حيرته وتردده ويقول فى حزم : عجِّل بما ترى أن تفعل ! . .

وهمهم الرجل العجوز ، وأخذ يضرب رأسه بيده ، ولكنى لم أعره التفاتا ، وطلبت على الفور نبيذا ساخناً ثم خلطت به مادة مخدرة ، وسقيت منه الملك ، فهدأ الألم بعد قليل ، واستبشر بذلك فقال : هأنذا فى سبيل الخلاص من الألم ، وأظنك فى غير حاجة إلى استعمال مبضع أو مِنْزَع .

وكانت رغبتى فى اجتثاث مصـدر الألم بالجراحة أقوى من رغبـة الملك فى الاكتفاء بتسكينه ، فأخذت برأسه بين يدىّ بقوة وفتحت فمه وهو يتململ ، وفى سرعة أعملت مبضعى المعقم فى الدُّمّل ، فصرخ صرخة مدوية تحرك لها الأسد الرابض ، وأخذ يزأر كما لو كان ينذرنى بالكف عن سيده .

وبعد بصقات بصقها الملك لعاباً ودماً وصديداً ، شعر بالراحة التي حرم منها أياماً عدة ، فقال مبتهجاً : ياسنوحي المصري .. إنك في الحق لطبيب ماهر . .

وضاق صدر الرجل العجوز بهذا فقال : كان باستطاعتي أن أصنع مثلما صنع ، بل خيرا مما صنع ، لو أن مولاي أجاز لي — كما أجاز له — لمس الفك المقدس ، وما من شك في أن طبيب أسنان الملك كان أقدر منا كلينا على ذلك ! .

وعقبت على كلام العجوز المحنق قائلا : هذا صحيح ، فما صنعت شيئا يعجز عنه هو أو طبيب الأسنان أو غيرهما من أطباء هذا البلد ، ولكنَّ أحدا منهم مع ذلك لم يستطع أن يخلصك من آلامك على هذا الوجه الذي استطعته أنا .. ذلك لأنهم ضعاف الإرادة ، وأنا قويُّها ، وكان واجب المهنة يفرض عليهم أن يهاجموا العلة في موضعها بوسائلهم الفنية ، غير عابئين بسخطك أو رضاك ؛ فليس الأمر هنا أمر ملك ، ولكنه أمر مريض ، ولكنهم أوجسوا منك خيفة ، وفزعوا منك مريضا متوجاً يستذله الألم كما يفزعون منك سيدا جبارا وملكا باطشا موفور القوة والسلطان ، وهم بهذا قد خرجوا من صف الحكمة الوقور الشجاعة إلى مضطرب الدهماء والأرقاء ، والفرق بين الطائفتين كبير .

قال الملك : لم أسمع من قبل كلاما كهذا ، وهو فيما أرى معقول مستساغ ، فالواقع أنك أنقذتني من ألم شديد ، ولهذا فقد غفرت لك اجتراءك بقوة على رأسي ، واجتراء خادمك هذا على الوقوف هكذا ليراني تحت مبضعك ويسمع صراخي بين يديك ، وإنها لكبيرة منكما معا ، ولكني عفوت عنه كذلك ؛ فقد أضحكني منظره وهو ينقبض وينكمش فرقاً من زمجرة الأسد ! .

وأمر الملك بالطعام ليأكل . فقد كان جائعاً ، فجيءَ به في أطباق من فضة ووضعت على مائدته كؤوس النبيذ الذهبية ، ودعاني لتناول الطعام معه ، قائلا : إني أسمح لك يا « سنوحي » بمواكلتي والجلوس معيَ على هذه المائدة الملكية ، وهو ما لا يتفق مع مكانتي ، ولكني أخصك بهذا الشرف اعترافاً بمهارتك وتقديراً لشجاعتك .

وحين فرغنا من الطعام والشراب قلت له : إنك قد استرحت الآن من الألم يا سيدى ، ولكن ثمة بقية بداخل فمك يجب أن تزول ، حتى لا يتجدد الألم فيما بعد ، فهنالك الضرس المعتل الذى هو فى الحقيقة مصدر الداء ، ولا مناص من اقتلاعه ، ومن الميسور أن يفعل هذا طبيب أسنانك بعد زوال الورم والتئام الجرح .

وتبرم الملك ، إذ كان يظن أن الأمر قد انتهى ، فما بالى أشير إلى ألم سيتجدد وإلى عملية أخرى تضع رأسه من جديد بين يدى طبيب آخر !.. ولكنه بعد تفكير قليل عاد يقول :

إنك تقول الحق ، فإن الألم يعتادنى فى كل ربيع وخريف ، على أنه إن كان لا معدى من اقتلاع الضرس فإنك أنت الذى تفعل ذلك ، لا طبيب أسنانى هذا الذى لا أريد أن أرى وجهه ، فلست أعفيه من جريرة هذه العلة .

قلت له : إنه طبيب متخصص فى علاج الأسنان ، وهو فى فنه أمهر أطباء مملكتك ، بل إنه لأمهر منى أنا فى هذه الناحية ، ولا يعوزه إلا أن تأذن له بممارسة عمله فى أسنانك ، وليس من حقى أن أزاحمه على موضعه منك ، ولكن إذا شئت ، فإنى مستعد للوقوف بجانبك أثناء قيامه بعمله ، وسأستخدم فى سبيل تهوين الأمر عليك كل ما عندى من عقاقير طبية وكل ما حذقته من فنون الطب فى سائر البلاد والممالك التى تنقلت فيها . ومن الممكن أن يتم هذا بعد أسبوعين من اليوم . والأفضل أن نحدد هذا الموعد من الآن ، ففى خلال هذه الفترة سيكون جرح خدك قد شفى تماماً ، وسأعطيك دواءاً تنظف به أسنانك يومياً ، وسيكون مذاقه غير سائغ ولكنه محتمل .

قال الملك مغضباً : فإذا لم أستعمل هذا الدواء ؟ ! .

قلت : من الخير أن تستعمله ، ففيه لك شفاء وعافية ، وشخص الملك يجب أن يصح من العلل ويوقى من الآلام ، ولو أنك وثقت بى وعملت بإشارتى فإنك واجد من فنونى عجباً عجاباً ، فسأريك عندئذ كيف أحول الماء دماً ، وأعلمك كيف تفعل ذلك بنفسك ، فتنال به من نفوس رعاياك إكباراً فوق إكبار ، إذ

يرون فيه إعجازاً يجاوز قدرة البشر ، ولا أقتضيك على هذا السر شيئاً سوى أن تكتمه حتى عن أقرب القرباء إليك ، فهو من أسرار كهنة « آمون » ، وأنا من أصحاب المرتبة الأولى بينهم ، وما كنت لأعلمك سراً من أسرارهم لو لم تكن ملكا عظيما أحببته ملء قلبي .

وقبل أن أفرغ من كلامى سمعنا صرخات « كاپتاح » تترامى على آذاننا من الخارج مستنجداً بنا لننحى الأسد من طريقه إلى الملك ، فهو يريد أن يراه بنفسه ليطمئن على صحته !..

وضحك الملك ، وأذن « لكاپتاح » بالدخول عليه ، وباعد بينه وبين الأسد وقال لى : إن خادمك هذا شخصية مسلية طريفة لم أر مثلها فى حياتى ، فهلا بعته لى بما شئت من مال يغنيك ؟! . فلم أحر جوابا ، فذلك ما لم يكن إلى الموافقة عليه سبيل . وأدرك الملك هذا فلم يتشدد فى طلبه .

وبدأت عينا الملك تغفوان . فقد قضى ليالى طوالا لم يذق فيها طعم النوم ، فاستأذنته فى الانصراف ، فأذن مؤكدا لى صداقته .

وتبعنا الرجل العجوز فقلت له : يجمل بنا أن نتشاور فيما يجب أن نفعل خلال الأسبوعين القادمين ، فإن اليوم الأخير منهما سيكون يوماً عصيبا على الملك وأرى من واجبنا منذ الآن أن نتقدم من أجله بالقرابين إلى الآلهة .

ولاح عليه الارتياح إلى هذا الاقتراح ، فواعدنى على اللقاء بالمعبد ، لتقديم القرابين والتشاور مع الأطباء الآخرين .

ولم ينس الرجل العجوز ، ونحن نعتلى مقعد الفندق بعد مغادرة القصر ، أن يمنح عامليه طعاماً وشراباً ، فسروا بهذا وشكرونى مقدرين ، ومضوا بنا وهم يغنون على طول طريقنا للفندق وجموع الناس تواكبنا إلى هناك .

ومنذ ذلك الحين لمع اسمى فى « بابل » .

— ٣ —

وفى برج الإلـه « مردوخ » ، وقبيل الموعد المحدد للعملية الملكية ، اجتمعت بأطباء الملك حيث قدمنا هناك قرباناً مشتركا ، وكان شاة من النعاج ، إذ هى من أطيب الضحايا إلى ذلك الإلـه كما يقولون ، وفى كبدها أسرار ، زعم الكهنة أنها تنبئهم بالغيب . وقد أخذوا يتأملون كبد ضحيتنا ويقلبون أنظارهم فيها ، ثم قالوا : إن الملك سيكون مغيظا محنقا ، ولكن أحداً منا لن يناله من ذلك مكروه يودى بحياته أو يصيبه بعاهة مستديمة ، وإن من الخير أن نحذر الحراب والمخالب !..

ورغبنا إلى أولئك المنجمين فى أن يراجعوا كتاب السموات ليعرفوا ما إذا كان اليوم الذى اخترناه للعملية موافقاً لحسن الطالع ؟! . فصبّوا زيتاً على ماء وراحوا يطيلون النظر فيه ، وبعد لأى قالوا إنهم لم يتبينوا شيئاً يثير الملاحظة ، وعلى الأقل فإنهم لم يلمحوا علامة من علامات الشر . . .

وعندما تركنا المعبد رأينا نسراً يحلق فى الجو قريباً من رؤوسنا وبين مخالبه رأس إنسان التقطه من جدار غير بعيد ، فأوجست من ذلك شرًّا ، ولكن الكهنة قالوا إن هذا إشارة بالخير ، ولم أستطع فى داخل نفسى — وقتها — أن أومن بهذا التفسير ! . .

ومرة أخرى تلاقينا بالقصر لمباشرة العملية فى موعدها . وعملا بتحذيرات العرافين التمسنا إخلاء المكان من جنود الحرس حاملى الحراب ، ومن الأسد ذى المخلب والناب . وكنت أشد خيفة من هذا الأسد ، فقد أخبرنى الأطباء أن الملك إذا غضب على أحد أطلق عليه رفيقه الأسد ، ففتك به .

وطلع علينا الملك « بورنابورياش » فياض البشر موفور العافية ، محصّنا كبده بالنبيذ على حدّ تعبيرهم فى « بابل » ، غير أنه ما كاد يرى كرسى طبيب الأسنان ، وكان قد نقل إلى القصر فى ذلك اليوم لإجراء العملية ، حتى امتقع وجهه ، وقال إن لديه أعمالا هامة تتصل بمصلحة الدولة ، وكان قد نسيها ، فهو عائد إليها لإنجازها . ثم أدار إلينا ظهره منصرفاً عنا ، وران على الأطباء سكوت

مطلق ، وتدلت وجوههم إلى الأرض خشوعا ورهبة . ولـكنني أدركت أن الملك يختلق هـذا العذر هربا من العملية ، فأسرعت إليه وأمسكت بيده ، وقلت له متلطفاً : ياسيدى إن كل شيء سيتم بسرعة وبغير عناء . فتوقف مستسلماً ، وعندئذ أشرت إلى الأطباء ليطهروا أنفسهم ويستعدوا ، وعقمت على النار آلات الجراحة بنفسي ، وأخذت أدلّك لثة الملك بالدهان المخدر حتى شعر أن وجهه صار كأنه قطعة من خشب ، وأن لسانه قـد توقف عن الحركة ، ومن ثمّ أجلسناه على الـكرسي الطبي ، واحنينا رأسه إلى ظهر الـكرسى ، وجعلنا بينهما وثاقاً محكماً ، ووضعنا فى فمه قواطع خشبية مصقولة لانفراج فـكيه حتى لا يطبقهما . وجعلت أفاكهه وأسرى عنه بالحديث العذب الذى يستهويه ، بينما كان الأطباء يتضرعون إلى آلهة « بابل » فى صوت مسموع ، أن يعينوا الملك ويحفظوه ، ووضع طبيب الأسنان آلته فى فم الملك المفتوح ، وقبض بها على الضرس المريض ، ثم انتزعه بمهارة فاقت ما كنت أحدسه وأتوقعه منه .

وصرخ الملك صراخاً أهاج الأسد فى الخارج ، فسمعناه يزأر زئيراً مرعباً ويضرب الباب المغلق بمخالبه محاولا فتحه واقتحامه . وفى الحق كان الجو وقتذاك مشحونا بالفزع من كل جانب ، فالملك لم يسكن صراخه ولم ينقطع ، بل لقد ازداد واشتد عند ما حللنا رباط رأسه وأنزلناه من فوق الـكرسى واستللنا القواطع الخشبية من فـكيه ، وجعل يبصق فى الوعاء الذى وضعناه بين يديه دما ، فهنا كان صراخه فظيعا مختلطا بنشيج مثير من البكاء ، فدار فى أذهاننا إلا أن صراخ الملك وبكاءه بالغان آذان حراسه ، وأنهم فى طريقهم إلينا ليفتـكوا بنا جميعا ! . . وبلغ الجزع من هذا المصير أقصى مضاعفاته عند ما خرج الملك من صراخه ليأمر فى غضب صارم بإدخال الأسد إلى الحجرة ، ثم ركل برجله وعاء النار فبنثرها ، ويمسك بعصاه وينهال بها ضربا على طبيب أسنانه .

على أنى غالبت أعصابى المتوفزة ، فرحت أداهيه وأهدهد من ثورته ، مبالغاً فى التلطف ، وأناشده أن يغسل فمه بدواء قدمته إليه ، وما زلت به حتى لان وأسلس

وأخذ يغرغر بالدواء وفق إشارتى ، بينما كان الأطباء سجوداً عند قدميه فى ارتعاش ظاهر . أما طبيب الأسنان فكان يتغشاه ذهول المقبل على الموت المحتوم ! . .

وبعد قليل هدأت العاصفة الهوجاء ، وانجاب الزلزال المخيف ، فقد أخذ الملك يستشعر الراحة والطمأنينة ، وراح يشرب نبيذاً ، فاسترد الجميع أرواحهم التى كانت توشك أن تفارق أجسادهم .

وكره الملك أن نبق فى حجرة العملية ، فدعانا إلى مغادرتها ، ورافقناه إلى قاعة الولائم الكبرى ، وأقبل علىّ متهلل الوجه كما لو كان يختصنى بالرضى والثناء ثم سألنى أن أظهره على عجائب فنونى كما وعدته ، فدعوت بماء قراح ، وصببته فى إناء ، وطلبت إلى الملك والأطباء أن يتذوقوه ليتحققوا من أنه ماء قراح لا شية فيه ، ففعلوا ثم صببته ببطء فى إناء آخر ، فما أن استقر فيه حتى استحال إلى دم قانٍ فهالهم أن يحدث هذا ، وصرخوا مشدوهين فزعين . .

وأذن الملك للأطباء بعد ذلك فى الانصراف ، بعد أن أجزل مكافآتهم ، واستبقانى لديه دونهم ، وراح يستوضحنى سر هذه المعجزة التى يتحول بها الماء دما فكاشفته به وأعطيته المادة التى تفعل ذلك ، وكانت طريقة استعمالها ميسرة لا تعقيد فيها ولا جهد . فأعجبه هذا كثيراً ، وفرح به فرحا عظيما ، ولجّت به الرغبة فى أن يصنع المعجزة بنفسه ، فدعا فى الغد عدداً كبيراً من رجال مملكته الممتازين وأصحاب المناصب الكبرى فى الدولة ، فاجتمعوا له بحديقة القصر على حفافى بحيرته الجميلة ، وظهر الملك فيهم وقال لهم : ماذا ترون فى هذه البحيرة ؟ !

قالوا : ما نرى غير الماء ! . .

قال : يمكنكم أن تتحققوا من ذلك قبل أن أمد يدى إليه . .

فوضعوا أيديهم بالماء انصياعاً لأمر الملك ، وهم دهشون من مفاجأته لهم بهذا الامتحان العجيب ، فما الماء فى أعينهم بمختلف عن الماء فى أيديهم وفى أفواههم ، إنه حقيقة سافرة لا تحتاج إلى شىء من المساءلة والتحقيق ... وأخيراً قالوا للملك : لقد تحققنا يا سيدى من أن ماء البحيرة مازال كالعهد به أصفى ماء وأعذبه . .

فابتسم لهم الملك ، ومد يده إلى البحيرة ، ثم رفعها قائلا : انظروا ! . .

فلشد ما كانت دهشتهم حين رأوا ماء البحيرة قد استحال فجأة إلى دم مخيف وتراموا جميعاً إلى الأرض ساجدين أمام الملك الذى صار إلـهاً قادراً يصنع المعجزات ! . .

ورأيت الملك فى هـذه اللحظة ووجهه يطفح بشراً وابتهاجا وخيلاء ، فما حسبت أن فى الدنيا إنسانا هو أسعد منه إذ ذاك . .

وانصرف المدعوون وفى أنفسهم ما فيها من هذا الحادث العجيب ، انصرفوا ليتذاكروا به وينشروا نبأه بين الناس بكل ما يتسع له من الإفاضة والمبالغة .

وقال لى الملك وقد ذهبت عنه آلامه وأوجاعه جميعا : يا « سنوحى » أيها المصرى العظيم ، لقد أبرأتنى من علة مستعصية ، وأنقذتنى من آلام مضنية ، وعلمتنى ما لم أكن أعلم ، وما لا يعلمه غيرك من الناس ، وشرحت صدرى بما هيأت لى من فنونك العجاب ، فمن حقك أن تطلب منى أقصى ما تنزع إليه نفسك من أمانىّ ، فما شئت من مال ومن هدايا سيكون بين يديك ، وكائنا ما يكون فإنه بالنسبة لك قليل . .

فأجبت قائلا : أيها الملك « بورنابورياش » ، ياسيد أركان الدنيا الأربعة ، حسبى منك رضاك ، فما أطمع فى غيره ، وما بى من حاجة إلى سواه . على أنى وأنا الطبيب الغريب الذى سينزح قريبا عن ديارك ، أخشى أن يلازمنى الشعور بالألم كلما ذكرت أن ملك « بابل » الذى تهابه الممالك وتخشاه وترهب سطوته وسلطانه ، كان مريضا يتوجع ويئن ويصرخ ، وأن يدى كانت تمسك برأسه ، ومبضعى يدور فى فمه ، ولا آمن إن أنا تركت بلادك متأثراً بهذا الشعور أن أن ينفلت لسانى به ، فتتسامعه أهل بلادى ويبالغون فى روايته، ويقال هناك إن ملك « بابل » إنسان كسائر الناس يمرض كما يمرضون ، ويألم كما يألمون ، ولا يداويه من علته إلا طبيب وافد ، فذلك أمر أخافه من نفسى على هيبتك ومقامك ، ولهذا أريد أن تمحو ذكراه من خيالى ، وتبدلنى من شعورى به شعوراً خيرا منه .

وسبيل ذلك فيما أرى ، أن تأمر فيتلاق فى صعيد واحد جميع جند الدولة وقوادهم وأسلحتهم وأدوات حربهم ، وتقف أنت الملك العظيم تستعرض هـذه القوات الرهيبة ، بينما أكون على كثب منك ، تمتلىء خواطرى بمناظرها ، وتنفعل مشاعرى بهيبتها، ومن ثمّ أركع ساجداً مقبّلا تراب الأرض بين يديك . فتلك هى حاجتى التى أطمع فى أن تقضيها ،ورغبتى التى أرجو أن تحققها ، وما يدفعنى إليها إلا محض الحب الذى أستشعره نحوك منذ رأيتك .

وابتهج الملك لحديثى وأثنى عليه وقال : إنى مجيب طلبك يا « سنوحى » ، وإن كان سيجشمنى عناء الجلوس يوما بأكمله على العرش الذهبى .

وأصدر أوامره فى الحال إلى سائر أنحاء المملكة لإرسال القوات الحربية من مختلف معسكراتها ، وتجميعها لعرضها عليه عند بوابة الإلـهة « عشتروت » .

وفى الموعد المحدد استوى الملك على عرشه المذهب ، والأسد رابض عند قدميه ومن حوله أصحاب المقامات الرفيعة من رجال الدولة وحكامها بكامل أسلحتهم ، وقد بدا لفرط زينته كأنه يسبح فى بحر من الذهب والفضة ، وعليه حلة من اللون الأرجوانى رمز العظمة والسلطان .

ومن الشرفة العاليـة التى أعدت لمجلسه ، أخذ يستعرض قوات جيشه وهى تسـير فى الطريق العريض صفوفاً متتابعة من الجنود والقواد بحرابهم وسهامهم ، ومن خلفهم تلاقت العربات الحربيـة فى صف واحد ، وكان لهذه القوات المنوعة قعقعة وإرعاد وزمجرة تلقى الرعب والهيبة فى القلوب .

وهمستُ فى أذن « كاپتاح » قائلا : لا يكفى أن نقول فى تقريرنا إن المحاربين فى « بابل » كرمال الصحراء كثرة عدد ، فينبغى أن نحصيهم عدًّا .

فقال « كاپتاح » معترضاً فى همس : هذا غير ممـكن ياسيدى ، وحسبك أن تقول إنه ليس على وجه الأرض مثيل لهذا الجيش فى وفرة عدده وعتاده ..

على أننى كنت راغباً فى الإحصاء بأقصى ما فى الاستطاعة ، فجعلت أستعرض فى ذاكرتى الصفوف التى شهدتها ، فهؤلاء المشاة كانوا ستين رجلا ، وقد تتابعوا

ستين مرة ، وكانت العربات ستين هي الأخرى . وعلمت من هذا أنهم يلتزمون في في أعدادهم هذا الرقم لأنهم في بابل يعدونه رقماً مقدساً .

واسترعى نظري منظر دروع الحرس الملكي وأسلحته ، فقد كانت تلتمع بتوشيات أنيقة من الذهب والفضة ، كما كانت وجوه جند الحرس تلتمع بالزيوت التي يجملون بها بشرتهم ، ولكنهم كانوا مفرطي البدانة ، ولذلك بدا عليهم خلال العرض الطويل أثر ملحوظ من الرهق والإعياء ، وخيل إلينا أنهم يفهقون ويلهثون وتتلاحق أنفاسهم ، وكان عددهم مع ذلك قليلا . أما الفرق الأخرى الوافدة من الأقاليم البعيدة فكانت وجوه جندها بادية السمرة والضمور ، لقد لوّحتها الشمس ونالت منها ، وكانت ملابسهم ، كأجسادهم ، تعلوها القذارة ويرين عليها الإهمال ، حتى كانت تتسرب إلى أنوفنا منهم ريح كريهة ، والأكثرون منهم كانوا من غير حراب ، ولم تكن عجلاتهم الحربية أحسن منهم حالاً ، فقد كانت لقدمها تتخلخل في سيرها وتصدر عنها أصوات تنبيء باضطراب أجهزتها . فقلت لنفسي ، وقد رأيت هذا وتأملته ، إن هذه أيضاً حال الجنود في الأقطار الأخرى ، فما أرى في جيش « بابل » ، على كثرته ، سبقاً على غيره !..

ودعاني الملك إلى حضرته ، وقد أرخى الليل سدوله ، وقال لي في زهو وخيلاء : أرأيت يا « سنوحي » عظمة ملك « بابل » ؟! . .

فركعت بين يديه ، وقبلت الأرض تعظيما له ، وقلت : حقا يا سيدي ، إنك لسيد أركان الدنيا الأربعة ، فليس على وجه الأرض قاطبة ملك مثلك عظمة وبذاخة سلطان وثراء مُلك ، وما شعرت في حياتي بمثل ما شعرت به من الرهبة والجلال وأنا أستعرض جيشك اللجب الذي هو كرمال الصحراء عدداً ، وكالجبال الشم قوة واعتداداً . ولا أخفي عنك يا سيدي أن عينيّ قد اعتراها الجهد لطول ما تقلب عليها من هذه الصنوف الرائعة لقوات الجيش طوال يوم كامل ، فهو مالم أر له شبيها في مملكة أخرى ! . .

وطابت نفس الملك لهذه الكلمات المنمقة ، وقال : أمّا وقد حققتُ لك ما أردت

فدعنا نسترح من عناء ذلك اليوم الطويل ، ولنشرب الآن النبيذ ، ففيه راحة القلب وبهجة الفؤاد .

وخلال نشوة النبيذ الذى أخذنا نهل كؤوسه دراكاً ، كان يسألنى آسئلة ساذجة ، فأجيبه عنها إجابات تسره وتضاعف مرحه . وقد أثار الشراب غرائز صباه ، فنهض من مجلسه ودعانى لمرافقته إلى جناح حريمه ، وكان ذلك أمراً غير مألوف ولكنه قال : إنك طبيبى ، ولا حرج عليك فى أن تكون رفيق بين نسائى .

وقد رأيت عندما انتقلنا إلى جناحهن عدداً كبيراً منهن يرفلن فى حلل موشاة بالجواهر الكريمة ، وهن مختلفات الأجناس والألوان واللهجات والأعمار ، ولكنهن جميعاً نضرات جميلات يطفحن أنوثة ويتلهبن مشاعر ورغبات ، وقد أخذن يرقصن رقصاً مثيراً أمام الملك ، ويتنافسن فى إرضائه وإبهاجه بكل الوسائل .

وعرض علىّ أن أختار لنفسى إحدى جواريه الحسان ، فاعتذرت ـ فى أسف ـ معللا ذلك بأن بينى وبين إلهى موثقاً ألا أقرب امرأة عندما أكون مقبلا على جراحة لمريض ، وأن ثمة عملية من هذا النوع قد واعدت أحد رجال حاشيته بها فى الغد ، ثم استأذنت الملك فى الانصراف ، فأذن ، وشيعتنى الجوارى وأنا أغادر مقاصيرهن بنظرات تفيض أسى واستياءاً ، فأدركت أنهن جياع إلى رجل ، وظماء إلى المتعة الجنسية التى لا تواتيهن فى بلاط الملك ، فقلما يتاح لهن الاتصال برجل مكتمل الرجولة ، فليس عندهن دائماً إلا الخدم الخصيان والملك الصبى !..

وقال لى الملك وهو يصافحنى مودعا : لقد فاضت الأنهار ، وسالت على الشطآن إرهاصاً بحلول الربيع ، وعلى مقتضى العادة اختار الكهنة اليوم الثالث عشر من يومنا هذا ، ليكون عيداً للربيع ، واحتفالا بملك زائف . وقد أعددت لك فى ذلك اليوم مفاجأة أعتقد أنك ستجد فيها تسلية ممتعة ، وأكبر ظنى أننى سأجد فيها أيضا هذه التسلية ، ولن أقول لك الآن ماهى ، فسأحتفظ بسرها لتصبح بها المفاجأة ولا أحرم من لذتها المتوقعة ! .

وخرجت غير مطمئن كثيرا لهذه المفاجأة ، فلعلها أن تكون شرا من حيث يراها ذلك الملك الصغير مثار تسلية ومتاع ، وكان هذا إحساس « كاپتاح » نفسه ، حينما ذكرت له أمر هذه المفاجأة المستسرة ، فقد كان بطبعه أكثر ميلا إلى التشاؤم فيما لا يعرف كنهه ، ولا يستكنه خفاءه .

وفى الأيام التى تلت ذلك حرصت على مداومة الاتصال بالكهنة والمنجمين البابليين ، فأفدت منهم كثيرا مما أحتاج أن أعرفه من الأسرار فى بلادهم ، وخاصة التنبؤات التى حذقوا وسائل استقرائها ، فتعلمت منهم كيفية استنباء كبد الشاة ، وترجمة الرسوم التى تحدثها فقاقيع الزيت على سطح الماء .

ويجمل بى قبل أن آخذ فى حديث عيد الربيع ويوم الملك الزائف ، أن أشير فى معرض الكلام عن التنبؤات إلى حادث يتعلق بمولدى ، فقد قال لى الكهنة بعد أن استنبأوا كبد الشاة ورسوم الزيت على سطح الماء : إن هنالك سرًّا مرعبا يكتنف مولدك ، ولكننا لا نستطيع أن نستبين شيئا واضحا عنه ، وكل ما يمكن أن يقال فيه إنك لست مصريا خالصا كما تقول ، أو كما تعتقد ، وإنما أنت غريب ، غير ظاهر النسبة إلى بلد معين فى هذا العالم ! ..

وهنا قلت لهم فى غير تحفظ : الواقع أننى لم أولد ميلاداً متضح المعالم ، ومبلغ علمى به أن أمى وجدتنى بين أعشاب الشاطئ فى لفائف المهد على ظهر قارب من الغاب قذف به تيار النهر من جهة غير معلومة !..

فتبادل الكهنة النظرات ، وقالوا : ذلك ماأنبأناك به تضمينا ! .. واستطردوا يقولون : وكان هذا بعينه شأن ملكهم « سارجون » الذى خضعت أركان الدنيا الأربعة لحكمه ، واندياح سلطان ملكه من بحر الشمال إلى بحر الجنوب ، بكل ما بينهما من أقطار وجزر وشعوب . فهذا الملك وجد كذلك مولودا موسدا فى لفائف مهده ، فوق ظهر قارب من الغاب متشابك العقد ، تتقاذفه أمواج النهر ، ولم يعرف هو ، ولم يعرف أحد ، من هو ؟ ! ولا سر مولده ؟ ! .. ولكن أعماله العظيمة بعد ذلك دلت على أنه مولود من الآلهة .

وخفق قلبي اضطراباً لهذه النبوءة ، وحاولت أن أطرد أثرها من ذهني ، فقلت لهم : إنى على التحقيق لا أرى وجها لهذا القياس بالنسبة لى ، ومن أبعد ما يكون عن الظن أن تحسبونى ، أنا الطبيب ، مولوداً من الآلهة ، فقد تكون هنالك مماثلة فى الصورة التى وجد عليها كلانا ، أنا وذلك الملك ، فى الميلاد التائه ، ولكن لاسبيل إلى هذه المماثلة فى نشأة كل منا وظروف حياته .

فقال الكهنة : لاندرى !. ولكن الاحتمال الأرجح عندنا ، أنك وقد ظهرت للوجود من غير أب ولا أم معروفين ، فإنك إذن سليل آلهة ، ولهذا فنحن نحنى الرؤوس أمامك إكبارا وتقديسا ...

وثقل هذا على نفسى ، ونكأ فى قلبي جراحا ظننتها اندملت ، فإنه لاشىء هو أشد تعذيبا لى من ذكرى مولدى ، وذكرى الأحداث المفجعة التى تتابعت بعده . وقد حاول الكهنة أن يبلغوا برأيهم فى أمرى درجة اليقين ليزيلوا من نفسى هذا الشك الصارخ ، فعادوا إلى ألواحهم يستطلعونها ، ويتخذون من أوقات تقريبية لتاريخ مولدى أساسا لهذا الاستطلاع ، ثم قالوا : إن الطالع يقول إنك إذا كنت قد ولدت فى هذه الأوقات ، فإنك بلاشك منحدر من صلب ملك ومقدور لك أن تحكم شعبا عظيما ..

ولكننى لم أصدق ولم أومن ، واعتادتنى ذكرى الماضى أشد قسوة ، فقد تذكرت ، فيما تذكرت ، جرائمى فى « طيبة » ، ومقارفاتى الآثمة التى أشقيت بها أمى « كيفا » وأبى « سنموت » ، وجردتهما من بيت الحياة ومن بيت الممات معاً ، فكان جزاء إحسانهما إلىَّ ذلك الشر القاتل ، وهذا المصير الفاجع ، وقلت لنفسى : أى شىء من هذا الماضى الآثم يمت بصلة إلى أرواح الآلهة ؟! وأى شىء منه يؤهلنى لذلك المقام العظيم الذى ينبئون به ويعقدون به روابط الشبه والتماثل بينى وبين ملكهم السالف « سارجون » ؟! ..

ولاح المستقبل فى عينى حالك السواد ، منذراً بالمخاوف ، ولم أر فى ثناياه إلا أننى خلقت شقيا ، وسأظل كذلك ...

— ٤ —

وجاء يوم « الملك الزائف » ، وإنه لمن أعجب الأعاجيب فى «بابل» . وهو يبدأ فيما جرت به عادة أهل تلك البلاد ، حين تنجم فى الحقول سنابل الحنطة ويأخذ برد الشتاء القارس فى إخلاء الطريق لدفء الربيع المنعش .

فى صباح ذلك اليوم ذهب الكهنة إلى خارج المدينة ليعودوا بإلههم من برزخه معلنين أنه قد نهض ثانية ، وعند ذلك انقلبت « بابل » إلى مسرح كبير تزاحمت عليه ، فى شوارعها وأنحائها وميادينها ، جموع الناس فى أبهى أزيائهم يرقصون ويهزجون . وفى ضجيج وهرج شديدين أغار الدهماء على الحوانيت فانتهبوها ، وفى معبد الإلهة « عشتروت » تكاثرت السيدات والفتيات ليجمعن الفضة من أزواجهن ، أو من المؤهلين للزواج منهن .

وعلى كثرة ما عرفت من عادات « بابل » الغريبة فإنى كنت أكثر دهشة واستغرابا ، إذ رأيت رجال حرس الملك الخاص يقتحمون فى مطالع فجر ذلك اليوم فندق « بيت عشتروت للسرور » ويحطمون أبوابه ويهجمون على حجراته ويضربون كل من يلقونه هناك بمقابض حرابهم ، صائحين بأعلى أصواتهم قائلين : أين يختفى ملكنا ؟! .. إننا نريد أن يظهر من مخبئه على الفور . . فإن الشمس توشك أن تشرق ، وينبغى أن يظهر قبل شروقها ليمنح رعاياه العدالة والبهجة !..

وجاوزت الضوضاء حد الاحتمال ، بينما كانت المصابيح لا تزال ترسل ضوءها فى الفندق ، والخدم فى ممراته ومداخله يغمرهم الفزع ويموج بعضهم فى بعض كأنما قد اختلطت عقولهم ، فلا يدرى أحد منهم الوجهة التى يريدونها . وأصاب « كابتاح » من ذلك فوق ما أصابهم ، وظن أن زلزالا وقع فجأة بالمدينة ، أو أن كارثة تزحف على نزلاء الفندق ، فلم يجد لنفسه مخرجا منها ، أو هكذا خيل إليه ، إلا أن يختبىء تحت سريرى .

وأثارتنى الضجة المفزعة من مرقدى فخرجت معجلا من حجرتى ، وفوق

جسمى العارى عباءة من صوف ، وقلت للجند الذين رأيتهم بالباب : علام هذه الضجة ؟ ! وماذا تريدون فى هذا الوقت غير الملائم ؟ ! إن من حقى أن أطالبكم هنا بحسن السلوك ، فإننى أنا « سنوحى » المصرى ، ولا شك فى أنكم قد سمعتم بهذا الاسم . .

وقبل أن أتم عبارتى صاحوا : إذا كنت أنت «سنوحى» حقًّا ،فأنت طلبتنا ومبتغانا ، ونحن منذ جئنا ، ننشدك ونفتش عنك ! . . .

وفى حركة تنافسية مدوا أيديهم جميعاً ليأخذ كل منهم بطرف من عباءتى ، ويتجاذبوها بعنف إلى أن ذهبت فى أيديهم مِزَقاً ، وبدوت عارياً أو شبه عارٍ . وما أن رأونى كذلك حتى راحوا يتضاحكون ويسخرون ، ثم قالوا فى لهفة : لا تضيِّع وقتنا ، وأسلم لنا فى الحال خادمك ، فإنما جئنا لنذهب به على عجل إلى القصر بأمر الملك ، فهذا يوم « الملك الزائف » ، وقد شاء الملك أن يكون هذا يوم خادمك . . . فهاته ، ولا تتردد .

وسمع « كاپتاح » ذلك فى مخفاه ، فأصابته من شدة الخوف رعدة اهتزت لها جوانب السرير ، فكشف بذلك لهم عن مكانه ، فمدوا إليه أيديهم وأخرجوه عنوة وهو يدافعهم مدافعة الخائف الوجل . ولكن ما أشد ما اعترانا معاً من الدهشة عندما انحنوا أمامه بعد ذلك فى خضوع كبير ، قائلا بعضهم لبعض : إننا فى الحقيقة لذوو حظ سعيد إذ كنا أول من وجد ملكنا الموعود واهتدى إلى مكانه ، وإن أعيننا لقريرة بمرآه وبما لابد أن نناله من أعطيته وهداياه ، كفاء كشفنا عنه ، وولائنا له . ولكن « كاپتاح » كان كأنما سمرت عينه على وجوههم ، يطيل النظر فيهم مشدوها ، مضطرب الحواس ، لا يكاد يصدق أنه فى يقظة ، وأن هذا الذى يسمعه يمت إلى الحقيقة بسبب قريب أو بعيد ، فكل غرائب الدنيا يجوز أن تجد لها مكانا من تصوره وخياله إلا أن يرسل الملك جنده فى هذا الوقت ، وعلى هذه الصورة ، ليحملوا إليه خادما مثله ، لا لينزل به عقابا على اثم ارتكبه ، أو ليأمن فراره من عقاب على جرم ، بل ليبوئه عرشه ، ويقيمه ملكا على شعبه !

إن هؤلاء ، لاشك ، يقارفون معه حماقة لاتحتمل . وإنه لفى هذه الأفكار كالقطعة الصغيرة من بقايا سفينة محطمة فى مضطرب الموج وعصف الأعاصير ، إذا به يرى الجند يراودون ظنونه وشكوكه ويحاولون تأمينه من فزعه ومخاوفه ، فيقولون بلهجة التأكيد : يقيناً ، إنه ملك أركان الدنيا الأربعة .. هو ، هو ، ولا أحد سواه ..

وعادوا إلى انحنائهم أمامه إعرابا عن طاعتهم وخضوعهم ، ثم قادوه ، وهو لا يستطيع فكاكا ولا هربا ، إلى الكرسى الذى أعد لنقله إلى القصر .

والتفت إلىّ « كاپتاح » وقال بصوت متهدج : لست أدرى إذا كنتُ الآن أقف على رأسى أو على قدمىّ !.. وربما كنت لا أزال أغط فى نوم عميق ، مسترسلا فى تيار حلم مزعج !.. إن هذه المدينة التى ساقنا إليها الحظ العاثر ، ليحتشد فيها كل ما فى هذا العالم العريض من الهوس والجنون .. فما هذه الضجة التى تثار حولى ، أنا الأنسان الذى يأبى إلهه « الجعران » أن يحميه ؟ ! وعلى أى حال فليس لى أن أختار ، ولا مقر من أن أذهب مع هؤلاء الرجال الأقوياء ، فلا قبل لى بهم . أما أنت ياسيدى فإنى أرجو أن تنجو بحياتك ، وكل ما أطمع فيه منك ، هو أن تحاول — بقدر ما تستطيع — إزالى من فوق الجدران إذا علقونى عليها من الأعقاب ، وأن تمنعهم ، بكل ما ترى من وسائل ، من إلقاء جثتى إلى النهر ، وأن تعنى بتحنيطها حتى لا تحرم نعمة الخلود ...

وبدا على الجنود حينما سمعوه يتحدث هكذا ، أنهم كانوا يحسبونه مفقود اللسان لا يستطيع الكلام ، فقالوا فى شئ من البهجة والتفاؤل : بحق « مردوخ » إننا لم نر ملكا خيرا من هذا !. إنه يتكلم دون أن يتلعثم ، وذلك ما لم نعهده فى غيره..

وكان نور الفجر قد أخذ يشيع فى كل مكان عندما حملوا « كاپتاح » إلى القصر لتبدأ من هناك مهزلة « الملك الزائف » ..

ولم أطق صبراً على هذا الحادث الغريب الذى انتزعوا فيه ، بغتة ، رفيقى « كاپتاح » ، ذاهبين به إلى المصير المجهول . فارتديت ملابسى مسرعا ، ومضيت فى إثرهم إلى قصر الملك ، فراعنى أن رأيت هناك تجمعات لا عهد لى بمثلها من

أخلاط الشعب تملأ ساحات القصر ومداخله وحجراته الخارجية ، وينبعث منها ضجيج صاخب كأنما قد استحال هـذا المـكان الرحيب إلى غابة تعج بالوحوش وتنهق بالعواء والزئير ، فما حسبت إلا أن الأمن قد اضطرب تماما وأن الزمام قد أفلت من أيدى حماته المسؤولين ، وليس ما أرى إلا نذُر مذبحة دامية وشيكة الوقوع ولا عاصم منها إلا إذا تواردت على عجل أمداد من قوات الأقاليم ، ولـكن كيف ، ومتى تأتى ؟!..

واستطعت وسط هذا الموج الزاخر أن أشق طريق إلى داخل القصر وألحق بالجنود الذين كانوا حينذاك يدفعون « كاپتاح » إلى قاعة العرش الـكبرى بينما كان بعضهم يخلى الطريق حواليه وأمامه ، وقد رأيت الملك « بورنابورياش » جالسا ، كعادته ، على عرشه الذهبي ، مرتديا حلته الملـكية ، وصولجانه فى يده ، والأسد رابض تحت قدميه ، وحوله يقف رؤساء الـكهنة والمستشارون والمقدمون من رجال المملـكة ، ولم يبدو الجنود أى اكتراث به ، عندما دخـلوا عليه وأمامهم « كاپتاح » . ورانت على الجميع سحابة صمت بددها « كاپتاح » فجأة بقوله للجند فى لهجة الأمر الصارم : أخرجوا هذا من هنا ، مشيراً إلى الملك ، فلن أستطيع ولاية الحـكم فيـكم إلا إذا أخرجتموه وأخليتم مكانه ، وإلا فإنى عائد من حيث جئت !..

وقال جميع من فى القاعة بصوت رجل واحد : نعم .. فليخرج هذا الصبى من هنا . . لقد سئمنا حكم الصبيان الأغرار ، أما هذا الرجل (وأشـاروا إلى « كاپتاح ») فإنه الحـكيم العاقل الذى نرضى به ملـكا وحاكما ! . .

وأدهشنى ، أشد الدهشة ، أنهم فى مثل سرعة البرق الخاطف ، تكالبوا على « بورنابورياش » ليصبوا فى أذنيه كلمات غلاظا وعبارات بالغة الفظاظة وينزعوا الصولجان من يده ويجردوه من حلته وهم يسرفون فى الزراية به قائلين : يا لها من سخافة أن يحكمنا هذا الطفل ، وما نرى نساء القصر إلا أنهن أكثر منا ابتهاجا بخلعه وتنحيته ، فقد مللن عشرة طفل عاجز ، فهن سعيدات بلا شـك

إذ يجيء هذا الرجل المصرى القوى « كاپتاح » ليملأ فراغا طالما شكون من وحشتهن فيه !..

وتضاعفت دهشتى حين رأيت « بورنابورياش » يتلقى هذه الحملات القاسية اللاذعة ، ضاحكا غير معترض ولا متبرم ، وحين رأيت أسده الخيف مسوقا إلى خارج القاعة بقوة الجمع الحاشد ، وقد عراه الخوف والذلة ، فانطوى ذنبه بين ساقيه !.

وتحول هذا الجمع إلى « كاپتاح » فألبسوه الحلة الملكية التى كانوا قد أعدوها على مقاس جسمه ، ووضعوا الصولجان فى يده ، ثم رفعوه إلى العرش ، وخروا أمامه سُجَّدا . وكان « بورنابورياش » يفعل مثلهم وهو يقول : هذا هو ما يجب أن يكون ، وما يصلح هذا العرش إلا لهذا الرجل ، وما كان بالاستطاعة أن نختار خيراً منه ...

وأدار « كاپتاح » عينه الواحدة فيهم ، وهى تختلج اختلاجا متصلا لا تكاد تثبت على وجه واحد من هـذه الوجوه المحتشدة له . وقد بدا كأن شعر رأسه لا يطيق التاج الذى وضعوه عليه منحرفا ، وأخيراً استجمع — جاهـداً — ما تشتت من قواه وقال لهم فى جرأة متكلفة : أما وقد صرت ملـكا ، فأين إذن شراب النبيذ ؟! أيها الأرقاء : عجلوا به ، وإلا ألهبت ظهوركم بعصاى هذه ، ثم أمرت بتعليقكم من أرجلـكم على الجدران !.. هلموا فاتونى به كثيراً وفرا ، لأروى به نفسى الظامئة وليشرب معى هؤلاء الأمجـاد والأصدقاء ، فنحن فى يوم عيد سعيد !..

فسرَّهم أن يسمعوا منه هذه الـكلمات التى تنبئ بأنه قد اندمج فى الدور الذى فجأوه به ، وهذا هو الذى يريدونه منه إمعانا فى تزييف الحقيقة . ومن ثمَّ تبادروا إليه فى موجة من الابتهاج فنقلوه مخترقين به الزحام المتكاثف إلى قاعة أخرى فسيحة أقيمت فيها موائد حافلة بكل شهى طيب من الطعام والشراب ، وتكوفوا على جوانبها يتناولون منها ما شاءوا ، وكان « بورنابورياش » يرتدى حينذاك لباس خادم المائدة ، فهو يدور عليهم بقوارير النبيذ وأطباق الحساء وينفلت من

يده ما يحمله منها فيسقط على ملابسهم ، فيضحك لهذا كثيراً بينما تتساقط عليه امنانهم ، ولا يكتفى بعضهم بذلك فيقذفه بالعظام وفضلات الطعام ! . .

وعندما كان هذا يجرى فى قاعة الطعام كانت الساحات الأمامية للقصر تموج موجا بجماهير الشعب ، وكان الطعام والشراب يوزعان عليهم كما كانت النعاج والثيران تذبح وتشطر أرباعا وتوزع عليهم لحوما نيئة ليحملوها إلى بيوتهم ، إشباعا لسائر البطون فى هذا اليوم الفريد .

وكلما ارتفع قرص الشمس فى الأفق ، ازدادت تجمعات الناس وشاع ضجيجهم وساد هرجهم .

وفى هذه الأثناء كان القلق يعتريني ويستبد بأفكارى ، وأخذت أسترق فرصة الاتصال من « كاپتاح » حتى وجدتها فى تهالك الحاضرين على الشراب ، فهمست فى أذنه قائلا : فلنهرب يا « كاپتاح » .. هيا واتبعنى على الفور وفى حذر ، فمن وراء ما نحن فيه شر محتوم إذا لم نعجل بالفرار ! ..

ولكن « كاپتاح » كان قد أسرف فى شراب النبيذ ، وأتخم جوفه بما أمامه من شهى الطعام . فنظر إلىّ منفعلا وقال : إن كلامك على أذنى كطنين الذباب وما أراك إلا مجنوناً إذ تريد أن تخلى بينى وبين هذا النعيم ، وأن تنتزعنى من بين هؤلاء الكرام الفضلاء الذين أقامونى من تلقاء أنفسهم ملكا عليهم ، وانحنوا أمامى إجلالا واحتراما وخضوعاً ! .. لا . لا . لست مجنوناً مثلك .. ثم لوح فى وجهى بعظمة كان قد قضم لحمها بأسنانه ، وصرخ قائلا : أخرجوا من هنا هذا المصرى الأحمق . .

وقبل أن يهرعوا لتنفيذ أمره انفجر صوت نفير ، ووقف أحد الرجال على الأثر معلنا أن الوقت قد حان ليهبط الملك على أفراد شعبه ، حيث يوزع العدالة بينهم ، فانصرف الحاضرون عنى إلى « كاپتاح » ليأخذوا بيده من فوق العرش ويقودوه إلى « دار العدل » .

فلما انتهوا به إلى منصة القضاء ، قال إنه يدع الحكم فى قضايا أفراد الشعب إلى

القضاة المختصين بها ، فهو يثق فى قضائهم ويطمئن إلى عدالتهم . ولكن أصوات الشعب انبعثت مجلجلة مرددة : لا نريد عن الملك بديلا ، إنما نريده هو بشخصه لنرى حكمته ونشهد عدله ، ولنستوثق من أننا لم نخطىء فى اختياره ملكا حصيفاً عالما بقوانين البلاد . .

وهنا لم يجد « كاپتاح » مناصاً من اعتلاء المنصة ومواجهة هذا الموقف الخطير. وقد وضعوا بين يديه السوط والأغلال وميزان العدالة ، وتتابع عليه أصحاب الشكايات ، واحداً فى إثر الآخر . فأصدر فى بعض أمورهم المعروضة أحكاما على قدر ما اتسع له ذهنه ، ثم توقف قائلا لمن حوله ، إنه يشعر بالكلال والتعب، فقد شرب وأكل كثيراً ، ويرى ضمانا لعدل الأحكام أن يؤجل « جلسة القضاء » لوقت آخر . وأردف قائلا : وأريد أن أستجم وأستريح ، وليكن هذا فى جناح الحريم ، إن زوجات الملك الأربعمائة هناك ، من حقهن أن يعرفن مليكهن الجديد ! .. ذلك إلى أن من حق أنا أن أتعرف إلى زوجاتى ...

ونهض « كاپتاح » ليدخل إلى القصر متجها إلى جناح هؤلاء الزوجات الأربعمائة ! .. وانهالت جموع الشعب خلفه لتملأ ساحة القصر ..

وهنا كف « بورنابورياش » عن الضحك الذى كان مسترسلا فيه ، ورانت على وجهه سحابة قاتمة . وما أن رآنى حتى هتف بى منفعلا : إنك يا سنوحى صديقى ، ولا أحد غيرك يستطيع إنقاذ « كاپتاح » من الهاوية التى يوشك أن يتردى فيها ، فعليك أن تدركه على عجل ، وأنت كطبيب يجوز لك أن تغشى جناح الحريم ، لتمنعه من ارتكاب حماقة سيندم عليها حين لا ينفعه ندم ، ولتقول له منذراً : إننى سأسلخ جلده حيًّا ثم أفصل رأسه من جسده وأعلقه على الجدران ليتخطفه الطير ، إذا امتدت يده إلى أية سيدة هنالك ..

قلت له : أى « بورنابورياش » : أيها الملك ، إنى حقًّا لصديقك الذى يتمنى لك الخير والسعادة ، ولكنى اليوم لا أكاد أفهم شيئاً من هذا الذى أنتم فيه ، وكيف أراك هكذا فى المنزلة الدنيا من هؤلاء الناس ؟ ! وأى حدث فاجع

أصار الملك العظيم خادماً لا يؤبه له ؟ ! فهلا أخبرتنى أولا عن سر هذا كله ؟ ! .

قال فى ضجر وامتعاض : هذا هو يوم الملك الزائف ، إن الناس جميعاً يعرفونه. فامض مسرعا إلى صاحبك قبل أن يقع الشر .

ولما رآنى مستأنيا لا أزايل مكانى ، أمسك بذراعى ليدفعنى إلى اللحاق « بكاپتاح » ، فقلت له : إنى أجهل عادات مملكتك ، ولا علم لى بما أرى ، ولا أستطيع أن أخطو خطوة فى هذا الجو الغريب الغامض ، فأرجو أن توضح لى هذه الأحاجى والعميات ! ..

فأجاب وقد ازداد تململا وضجراً : إذن فاسمع ، ولا تكثر من الأسئلة حتى لا يضيع الوقت وتطم الكارثة . فى هذا اليوم من كل عام ، يتجرد الناس هنا من الحقيقة الواقعة ، فيزيفون لحياتهم يوما عجيبا ، ليس كمثله فى الزيف والشذوذ يوم . وقد رأوا أن ذلك لا يتحقق لهم على صورة جامعة ، إلا فى أعلى وأرفع شخصية ، وهى شخصية « الملك » فهم فى يومهم هذا يختارون من الطبقة الدنيا أشد الناس غباءاً وأكثرهم خبلا ليجعلوا منه ملكا عليهم من فجر اليوم إلى غروب شمسه ، ويمكنوا له خلال هذه الفترة من كل أسباب الحكم والسلطان . وإمعانا فى مظاهر الزيف والتلفيق ، يشترك معهم فى ذلك الملك الحقيقى نفسه ، فينزل من الملك الجديد منزلة الخادم ، على الصورة التى تراني عليها الآن . وقد اخترت « كاپتاح » لهذا الدور ، لما لمحت فيه من دلائل الغباء والخبل ، وهو لا يدرى ماذا سيحل به بعد قليل ، وهذا هو أغرب ما فى ذلك اليوم الذى يسمى « يوم الملك الزائف » !.

فقلت متسائلا فى قلق : وما عسى أن يحل به ؟ !

قال : بمثل السرعة التى توج بها ملكا فى الصباح ، سيذبح عندما يقبل المساء ! على أنى أستطيع أن أجعل ميتته أهون من الذبح ، كما أستطيع أن أجعلها أفظع من ذلك . وقد كنت فى مثل هذه المناسبة أترفق ببعض الملوك الزائفين ، فأدس لهم فى النبيذ الذى يشربونه سما ، يلقى بهم فى نشوة إلى نوم عميق ثم لا يستيقظون بعد ذلك !.. ولك أن تختار أى المصيرين لصاحبك ..

قال هذا وهو يستحثنى لإدراك « كاپتاح » ، لـكيلا يقترف فى جناح الحريم مأثمة تثير غضبه فيقطع قتله ..

وإنى لأهم بالشخوص إلى « كاپتاح » ، إذا به يخرج علينا فجأة وهو يضطرب غضبا والدم ينحدر من أنفه ، ويده على عينه الواحدة ، كأنما يمسكها حتى لاتسقط فصحت به متسائلا : ماذا بك ؟ !

فقال ، وهو ينشج بالبكاء : جاءونى بفتاة حسبتها من حسان القصر ، فما كدت أقترب منها حتى انتفضت فى وجهى كأنها حيوان مفترس ، ولطمتنى على عينى لطمة قوية طار لها صوابى ، وتلاشت بها أحلامى . ولم تقنع بهـذا فضربتنى بحذائها على أنفى .

وما سمع « بورنابورياش » هذا حتى ترنح ضاحكا . أما « كاپتاح » فقد ظل يفهق بالبـكاء كالأطفال ويقول : لن أجرؤ على الدخول مرة أخرى من هذا الباب .. فتلك الفتاة ، أعنى ذلك الحيوان الشرس ، ستقتلنى لو عدت إلى هنـاك ، إلا إذا جئت معى يا « سنوحى » لتفتح جمجمتها وتستل منها الروح الشريرة التى تسيطر عليها . وما أرى إلا أن تنال هذه المتوحشة عقابها الصارم ، فقد ارتكبت الخطيئة الـكبرى حين فعلت هـذا بى ، أنا سيدها ! .. ألا تنظر يا سيدى أن ضربة حذائها قد أسالت دمى وجعلت من أنفى عنق ثور مذبوح ؟! ..

وهنا همس « بورنابورياش » فى أذنى قائلا : اذهب معه .. واستطلع الأمر بنفسك ، وعد لتخبرنى بما حدث . وفى ظنى أن الفتاة التى أحسنت استقبال سيدها « كاپتاح » على هذه الصورة ، هى التى جيء بها الى القصر بالأمس من جزر البحر ، فإنى ألحظ عليها سرعة الانفعال والغضب ، ولعلها تـكون بحاجة الى جرعة من سائل « الخشخاش » لتهدأ أعصابها المستوفزة .

وقصدت ، بعد إلحاح منه ، إلى جناح الحريم ، فألفيت الجميع هناك فى هرج ومرج ، ولم أجد صعوبة فى الاختلاط بهم ، فقد كان الخصيان يعرفون أننى طبيب وأن هذه الصفة تخولنى الدخول إلى هذا المـكان فى أى وقت . وقد استخف الفرح

أكثر من لقيت من النساء ، وخاصة أولئك العجائز من الجوارى اللائى نيط بهن شرف خدمة الملك الزائف فى يومه هذا ، فقد ظهرن فى أبهى زينة ، متأنقات فى أجمل حلل . وما أن رأيننى حتى أقبلن نحوى هاتفات : ماذا جرى له ؟! إنه حبيبنا وزهرة قلوبنا ، ونحن منذ الصباح فى انتظار قدومه السعيد .

ولكن الخصيان قالوا فى ضجر : لا تلق بالا لهؤلاء النسوة المتصابيات . لقد أسرفن فى شرب النبيذ تنافساً فى حظوة القبول لدى الملك الزائف ، وما بنا من حاجة إليهن الآن ، وإنما عندنا فتاة غريبة الأطوار وفدت علينا فى الأمس . ويخيل إلينا أن بها مسًّا من الجنون ، وقد اعترتها ثورة عصبية ، ولم نستطع كبح جماحها فهى فيها تبدو مخيفة ، ولم ينج أحد هنا من قدمها ركلا ، أو من يدها لطما ، وهى ، الساعة ، فى أقسى حالات انفعالها . وقد أمسكت بيدها سكيناً ، فلسنا ندرى ما نصنع فى أمرها ؟!

ومضوا بى إلى إحدى قاعات الجناح ، وهى كبيرة متسعة ، بوسطها بحيرة مستديرة ، تتخللها تماثيل الوحوش تقذف المياه من أفواهها ، ورأيت الفتاة التى تحدثوا عنها ، وقد اعتلت تمثالا من هذه التماثيل ، وكانت ملابسها مشوشة وممزقة ومبتلة ، وفى إحدى يديها سكين تلمع ، بينما أمسكت بالأخرى التمثال الذى تستند إليه ، وشفتاها تختلجان وتتحركان، كما لو كانت تتكلم ، ولكن خفق المياه بالبحيرة وصياح الخصيان قد جعلانى لا أسمع شيئاً من كلامها .

كانت الفتاة جميلة باهرة الجمال على الرغم من شذوذ مظهرها ، وأحسست فى نفسى شيئا خفيا يجذبنى إليها ، فصرخت فى المحيطين بها أن اخرجوا ودعونى لأنفرد بها ، وأغلقوا صنابير المياه ، فإنى أريد معها جواً ساكنا .. فانصرفوا ..

وفى هدأة المكان من الأصوات والحركة ، تبينت أن صراخها الذى تطيَّرنا به لم يكن إلا ألحانا ترتلها بلغة غريبة ، وكان رأسها إذ ذاك منحنيا إلى الوراء ، وعيناها ترسلان شعاعا قويا ، وهما فى مثل خضرة الهرة الوحشية ، وخداها فى مثل لون الورد توقداً واحمراراً .

ووجهت إليها الحديث قائلا فى عطف : دعى ما أنت فيه أيتها المرة الصغيرة ، وألقى من يدك هاته السكين التى لا يجمل بفتاة أن تشهرها هـكذا ، واقتربى من هنا ، فإنى طبيب ، وسأبرئك من علتك .

فأجابتنى بلغة « بابلية » مشربة باللحن : اقفز أنت إلى هذه البركة ، أيها القرد ، لأروى غيظى من دمك ! ..

قلت لها : لـكننى لا أريد بك شراً .

قالت : كل الناس يقولون هذا ، ولـكنهم لا يصدقون . . . ولن أستطيع الاقتراب من رجل حتى ولو كنت أريد ذلك . . فإنى موهوبة لإلـهى لأرقص أمامه ، وليس لغيره مكان من نفسى أو جسدى . وهذه السكين فى يدى لأقطع بها يد أى رجل تمتد إلىّ ، مهما يكن شأن هذا الرجل ، فـكيف به إذا كان ذلك الشيطان ذا العين العوراء ، الذى انطلق نحوى منذ هنيهة كأنه وحش ضارٍ أو حشيَّة من نجاسة البشر ؟!

قلت لها : لك ما تشاءين ، ولـكن دعى جانباً هذه السكين ، فقد تؤذين بها نفسك قبل أن تؤذى بها أحداً آخر ، ثم ما هذا الذى أراك تفعلينه وأنت الفتاة التى شروها بالأمس من سوق الرقيق بثمن غال لتـكون حظية الملك ؟! .

قالت منفعلة : كلا . لست من الرقيق . ولو كان فى وجهك عينان تبصران لأدركت بهما أنى لست ممن يبـَعن رقيقاً فى الأسواق ، وإنما أنا فتاة وقعت فى شباك الصائدين وقوع الطير الآمن ! ..

ثم أردفت قائلة فيما يشـبه الهمس : ألا يمكن أن نتحدث معاً بلغة أخرى لا يعرفها هؤلاء الذين يضمون علينا من وراء الأعمدة آذاناً متلصصة ؟! .

فأجبت بلغتى المصرية : إنى مصرى ، واسمى « سنوحى » ، وألقب بالوحيد ، وصناعتى طبيب ، وحسبك منى هذا لتطمئنى ولا تخافى . .

عندئذ تغير موقفها فجأة ، فانحدرت من فوق التمثال إلى الماء ، وسبحت فيه ثم خرجت منه والسكين فى يدها ، وألقت بنفسها أمامى وقالت : الآن أشعر

بالطمأنينة والأمن ، فأنى أعرف فى المصريين الوداعة والرقة ، ومن خلائقهم ألا ينالوا المرأة قسرا ، ولهذا أضع فيك ثقتى ، وقد أسديت لى الآن فضلا ، إذ جعلتنى فى غير حاجة إلى هذه السكين التى كان من المحتمل فى هذا اليوم نفسه أن أقطع بها عروق طلبا للموت حتى لا أقع فى أيدى أولئك الأنجاس ، فأتدنس ويلحق الدنس بإلـهى عن طريق ، وأرجو — إذا كنت تخشى الآلهة — وتشعر نحوى حقا بالعطف ، أن تعيننى على الخلاص مما أنا فيه ، وتأخذنى بعيداً عن هذه البلاد ..

قلت لها : هذه مخاطرة غير مأمونة ، وأنا شخصيا لا أستسيغ مساعدتك على الهرب ، فهذا يعدّ من جانبى شيئا مجافياً لصداقتى بالملك الذى دفع ذهبا كثيرا لتسكونى إلى جواره فى هذا القصر العظيم ، الحافل بكل ما تصبو إليه فتاة طموح . وخير مما تفكرين الآن فيه أن تنزلى على حكم الأمر الواقع ، ولا يروعنك منه ماترين فى هذا اليوم العجيب ، وهو اليوم الذى شاءت المصادفة أن يكون يومك الأول فى حياة القصر . وما أشك فى أنك ستغيرين رأيك تماماً لو عرفت الحقيقة!. فذلك المخلوق الذى جيء به إليك منذ قليل ، وأنكرت منه دمامته وقبح منظره ليس هو الملك ، وإنما هو ملك زائف ، هو واحد من عامة الناس وأوزاعهم ، اصطلحوا فى عاداتهم الجارية على أن يجعلوا من مثله ، فى مثل هذا اليوم من كل عام ملكا زائفاً ، يضحكون منه ويضحكون عليه ، ثم ينتهى أمره عند غروب الشمس . أما الملك الحقيقى الذى سترينه هنا فى الغداة ، فهو شاب غض الصبا ، ريان الشباب ، صبوح المحيا ، لطيف العشرة . وأكبرظنى أنك ستسرين به ملكا وصاحبا ، وستؤثرين معه تلك الحياة الجديدة الموفورة أسباب البهجة ، فأعدّى نفسك له ، ولا أراك تخسرين شيئا إذا استسلمت لما لا يستطاع اجتنابه ، ولا يشغلك عن ذلك ، التفكير فى سلطان إلـهك ، إن سلطانه لا يصل إليك هنا ، ... ضعى أيتها الفتاة حدًّا لهذه الحماقة ، وتجملى كما ينبغى أن تتجمل فتاة فى عين مليكها ، وأصلحى هذا الشعر المبلل ؛ ووجهك هذا الجميل الذى يخضب كله بحمرة شفتيك ! ..

وكأنما أثارت عبارتى الأخيرة انتباهها إلى مالم تكن تدركه من أمر نفسها ، فراحت تتحسس ، بيدها ، شعرها وحاجبيها وشفتيها ، وتنفض عنها بقايا الماء ، ثم التفتت نحوى وقالت فى ابتسام : إن اسمى « مينيا » ، ولك أن تدعونى بهذا الاسم عند ما نخرج معا ، هاربين من بلاد الشرور والشياطين هذه ، فلن أستطيع البقاء هنا ، على أية حال . وإنى أشعر أنك إنسان كريم ، وسوف لاتتخلى عن حمايتى ، أنا الفتاة الضعيفة مهيضة الجناح .. وإعراباً عن هذا الشعور ، أعطيك هذه السكين التى اعتددت بها حتى الآن فى حماية نفسى من غيلان البشر ، فما عدت بحاجة إليها بعد أن أسلمت مقادتى إليك ..

ولقاء إصرارها على هذا الموقف الغامض ، لم أر أن أطيل معها البقاء فى مكان تتناهبه العيون الراصدة ، فتركتها مهموما ، وشعرت — وأنا أنظر إلى سكينها فى يدى — أنها غلبتنى على أمرى ، فإن هذه السكين لم تكن إلا الرباط الذى شاءت أن تصل به بين مستقبلها ومستقبلى ، وكان قبولى لها عهدا بذلك .

وتلقانى « بونابورياش » خارج الجناح متلهفاً على ما أحمل إليه من أنباء ، فقلت له : إن ما حدث كان نتيجة خطأ أولئك الذين لم يفهموا أن « مينيا » التى شروها له ليست إلا فتاة مخبولة العقل ، فلم يحولوا بينها وبين « كابتاح » ، وقد سبرت غورها فعرفت أنها تؤمن بإله يحظر عليها الاقتراب من الرجال ، وأرى لهذا أن يدعها على حالها إلى أن ينحسر عنها ذلك الشعور الغريب .

وعلى خلاف ما كنت أتوقع ، ضحك « بورنابورياش » ، وأشرق وجهه غبطة وهو يقول : هذا هو النوع الذى أحبه فأوثره من النساء ، إن العصا وحدها هى أفصح لسان يتحدث إليها ، وإنى لاأزال — كما ترى — شابًا فتيًا ، فهذا وجهى لم تنجم فيه بعد شعرة واحدة ، ومن هنا يحلو لى أن أرى ألوانا جديدة من التسلية . ولقد أسأمنى من نسائى التهالك والترامى فى طاعة واستسلام ؛ فسأجد إذن فى هذه الفتاة العصيّة المتمردة ، المخبولة العقل كما تقول ، كثيرا من اللذة حين أستمع إلى صراخها وهى تتلوى ألماً من عصىّ الخدم وسياطهم ، وسيكون هذا عاجلا ،

وفى هذه الليلة بالذات ، فليس من عادتى إرجاء الملذات ! . .

قال ذلك وهو يفرك يديه فرحا ، بينما كنت أنظر إليه مشدوها متحسراً ، فقد خاب فيه أملى . ومنذ هذه اللحظة شعرت بأنه لم يعد له فى نفسى أثر من محبة ، وافترقنا وسكين « مينيا » فى يدى ، وكأنها توحى إلىَّ أن أفعل شيئا ...

— ٥ —

وعافت نفسى هذه المظاهر الحاشدة المتدفقة مرحا وسرورا ، فقد كان الناس يزدادون تجمعا فى أبهاء القصر وساحاته ، ويزدادون انكبابا على اللهو وشراب الجعة والنبيذ ، وهم من حول « كاپتاح » يضجون ضجيجا متصلا بالتهليل والضحك . وكان « كاپتاح » قد نسى ما أصابه من لكمات موجعة وكدمات دامية بجناح الحريم فى القصر ، فراح يضاحكهم ويفتنُّ فى المزاح معهم ، مأخوذاً بنشوة الجو الذى صار فيه ، والشراب الذى استكثر منه . كانوا كلهم يهزجون ويطربون ، يتناهبون السعادة ، ويتنافسون فيها . وكنت أنا وحدى أقف من هذا كله قلقا ، مبلبل الفكر ، متشائما من العاقبة التى تطل علينا بوجهها الشاحب خلال الساعات القليلة الباقية من هذا النهار . .

كانت الأفكار المتناقضة تعصف بعقلى عصفا شديدا ، فهذا « كاپتاح » صاحبى ورفيق رحلتى سيصير بعد قليل فى عداد الموتى . هكذا سيكون ، وليس من هذا مفر ، إشباعاً لشهوة الملك الشريرة ، ونزوته الجامحة ، واتباعاً لعادة بغيضة جعلوا منها قانونا مقدسا وقدراً نافذا .. وهذه « مينيا » تلك الفتاة البريئة التى استودعتنى ثقتها وأملها فى الخلاص من الشقاء الذى تعانى منه أشد العناء . إن المسكينة لاتدرى الآن أى عذاب ستلاقيه فى المساء من هذا الملك الطائش المفتون ، بينما هى ترقب من ناحيتى اليد التى تفك قيودها وتطلقها من أسرها وذلها !..

كل من الاثنين « كاپتاح » و « مينيا » ، فى موقف بالغ السوء والخطر ، وأشعر أن لكليهما فى عنقى واجبا ، هو واجب الإنقاذ من هوة أرى أنهما ، من

حيث لايدركان ، سيترديان فيها ..

ولـكن ماذا عساى أن أصنع لها ؟! . إن حاجتى من « بابل » لم تنته بعد ، فمـا زلت مفتقراً إلى كثيرمن العلم بأحوالها واستـكناه أسرارها ، ولم أبلغ ماأريد من الإحاطة بخفايا علوم الـكهنة التى يستنطقون بها الغيب فى كبدالشاة أوفى رسوم نقط الزيت الطافية على سطح الماء .

ثم هذا الملك «بورنابورياش» .. لقد توطدت الصداقة بينى وبينه ،وأصبحت منه بالموضع الأثير ، وفى ظل صـداقته وثقته أطمع أن ينالنى منه خير كثير ، وسبيل ذلك ألا أعجل بالرحيل ، فلو أنا آثرت البقاء إلى جواره — طمعا فى نواله وتزيدا من العلم والمعرفة فى بلاده — فإنى لقاء ذلك أقتل العاطفة التى تصرخ فى أعماقى وتستحثنى لدفع الضر عن رجل وفتاة تربطنى بهما أوثق الأواصر ، وفى هذا تنـكر للواجب ، وخيانة للأمانة ، ونـكث للعهد ، وإن أنا طاوعت عاطفتى ، وأديت واجبى ، فقد خسرت الملك وجزيل عطاياه ، وقطعت سبيل على بما لايزال مجهولا بهذا البلد ، ذلك إلى ما قد أتعرض له من أخطار ربما ذهبت بحياتى وحياة من أريد إنقاذهما ! ...

يا لها من حيرة طاغية ! . ولـكن كان لابد لى من أن أختار . . فاخترت ، آخر الأمر أن أعمل على الفور لإنقاذ « كاپتاح » و « مينيا » مهما كلفنى ذلك . وما ينبغى أن أتشبث بالبقاء فى بلد لست من أهله ، أو أنشد فيه مغنما قد أجد منه بديلا فى غيره . وفيم حرصى على صداقة ملك يستسيغ ، دون مراعاة لمشاعرى أن يتخذ من خادمى أضحوكة يومه ليقتـله فى مغرب الشمس ؟! . إن هذا الملك ذا القلب الغليظ غير جدير بأن أرعى له عهداً ، أو آمن من شره ! ..

وكانت الشمس حينذاك تشق عباب السماء آخذة سبيلها إلى مرفأ الغروب ، فهرولت لساعتى إلى شاطىء النهر ، ووقفت هناك على قارب ذى عشرة مجاديف ، وقلت لأصحابه : إن بى إلى قاربكم حاجة عاجلة ، ولـكم ماشئتم على ذلك من أجر ، فإن لى عمًّا ذا ثراء كبير قد أدركه الموت اليوم هنا ، ولامناص من أن أنقل جثته

عبر النهر لترقد إلى جوار جثث آبائه وأجداده هناك فى موطننا عند حدود بلاد «ميتانى» . وإنى أعلم أن هذا هو يوم الملك الزائف وأنكم فيه لفى نشوة اللهو والشراب ، وقد يثقل عليكم أن تستجيبوا لرغبتى ، ولكن اليوم قد استشرف نهايته ، وأصبتم منه خير مافيه ، ومع ذلك فإنى مضاعف أجركم ، مجزل جزاءكم ، فالأمر يقتضينى البدار حرصاً على نصيبى من ثروة عمى . ذلك لأن أبناءه وأخى هناك ، سوف يتنازعون عليها أو يتقسمونها إذا أنا أبطأت فى اللحاق بهم اليوم ومعى الجثة .

وكما كنت أتوقع ، لم أجد منهم ترحيباً بهذه المهمة ، ولا تفتحا لمغادرة الشاطىء ، استرسالا فيما هم فيه من لهو اليوم ، فجئتهم بجرتين من الجعة ، وقلت لهم : إنكم تستطيعون أن تستزيدوا من نشوتكم بهذا الشراب حتى تغيب الشمس ، فسأتحمل مضطراً إرجاء الرحلة إلى الليل ، من أجل متعتكم .

ولكنهم قالوا : مهما تكن أسبابك ودواعيك ، فإبحارنا خلال الظلام غير ممكن ، فهذه الليلة مليئة بالشرور — كبيرها وصغيرها — وسيحدث أن تفجأنا الأرواح الشريرة بصرخاتها المرعبة فتلقى بنا وبقاربنا إلى جوف النهر ، وربما ذبحتنا ذبحاً فلا يكون هناك أمل فى نجاة ، فما لنا ولهذا أيها الرجل ؟ ! . .

فقلت لهم : إن كان هذا هو ما يخيفكم ، فإنى أؤكد لكم أن شيئا منه لن يقع ، ذلك أنى أحفظ أسراراً تدفع الأرواح الشريرة ، وأنا رفيقكم وها أنتم أولاء ترونني مطمئنا واثقا غير خائف ، ثم إننى مبالغة فى الاطمئنان والوثوق سأتقدم إلى المعبد بالقرابين استدفاعا لأى مكروه محتمل فى هذه الرحلة ، فلا عليكم من بأس أبداً . واذكروا ، ولا تنسوا ، أنى معطيكم من الفضة الكثيرة ما تخفت أمامه أصوات الشياطين ! . .

وخففت هذه العبارات من عنادهم وألانت صلابتهم ، وتبادلوا النظرات ، وهم يعبون من الشراب ، ثم قالوا : فليكن ما تريد . .

وتركتهم آخذاً طريقى إلى برج المعبد ، ولم يكن هناك إلا قلة من الناس ،

فأكثرهم قد ذهبوا إلى ساحة القصر ، فاشتريت شاة وذبحتها ، واستللت كبدها ، ورحت أسلط عليها نظرى مستقرئا ما فيها من سر ، ولكنى لم أتبين فيها شيئا يروى ظمأى ، ولم يسترع نظرى منها سوى أن لونها قاتم وأن رائحتها غير مستطابة ، فأحسست بخيبة الأمل وجمعت ما سال من دم الشاة فى كيس من الجلد وعدت به عجلا إلى القصر . . وفى طريقى إليه رأيت طائراً يحلق من قريب فوق رأسى ، فتيمنت به واطمأن قلبى لمنظره ، لأنه كان من الطيور المعروفة عندنا فى مصر ، وتخيلت ساعتها أنه قادم من هناك ليلهمنى ، فى غمرات اليأس ، رباطة الجأش وانتعاش الروح . .

وعندما بلغت جناح النسوة بالقصر أشرت إلى من هناك من خدم وحراس بأن ينصرفوا لأخلو بالفتاة وأستخلص عقلها من الشيطان الذى صيرها مجنونة !.. فأطاعوا وتركونى معها فى حجرة صغيرة ، وإذ ذاك كشفت لها الخطة التى رسمتها للهرب ، والدور الذى ستقوم به ، وأعطيتها السكين وكيس الجلد محتويا على دم الشاة ، فسرت بذلك ، وخرجت من حجرتها مغلقا بابها من ورائى ، وأخبرت الخدم والحراس بأننى جرعتها دواءاً لطرد الشيطان ، وعليهم ألا يفتحوا عليها باب الحجرة حتى يتلقوا منى أمراً بذلك ، فهذا الشيطان عنيد وسيبطش بمن يفتحه قبل أن يلقى مصرعه فى الوقت الذى عينته ، وربما قضى على حياة الفتاة أيضا ، وهذا يثير سخط الملك ونقمته ، فأجابوا بالسمع والطاعة . .

وعدت إلى حيث كان الناس لا يزالون يحتفلون « بكاپتاح » ملكهم الزائف ، وهو مسترسل معهم فى اللهو الغامر ، والشراب المتصل ، والدعابات الماجنة ، و « بورنابورياش » قائم على خدمته مستغرق فى الضحك والثرثرة ، فملت على أذنه وقلت له : إنك تعلم أن « كاپتاح » خادمى ، ولهذا أرغب إليك فى أن تكون ميتته مريحة لا يشعر فيها بألم ، وبوسعى أن أحقق له هذه الراحة وهو يفارق الحياة ، فذلك ، كما ترى ، حقه على أو هو واجبى نحوه .

فقال : لك ما تريد ، فما يعنينى على أية صورة يلقى حتفه ، وإذن فينبغى أن

تسرع إلى الرجل العجوز الذى يتولى إعداد وسيلة موته ، لتشترك معه فى ذلك ، فلم يبق إلا قليل حتى يأتى الموعد الذى يلقى أجله فيه .

وكان الرجل العجوز الذى يعنيه هو «طبيب الملك» ، فمضيت إليه وقلت له : إن الملك بعثنى إليك للاشتراك معك فى إعداد كأس الموت ، فبدا عليه الارتياح لذلك وقال : جئتنى فى الوقت المناسب ، فما أحوجنى إليك فى الحقيقة ، إن يدى لا تكاد تثبت على شىء لفرط اختلاجها ، وكذلك تضطرب عيناى لكثرة ما شربت اليوم من نبيذ ، فهاك السم والنبيذ ، فامزجهما بنفسك . .

ودون أن أثير انتباه الرجل استبدلت بالسم عصارة الخشخاش ، وألقيتها بكأس النبيذ بالقدر الذى يشيع الخدر فى « كاپتاح » ويجعله فى مثل حال الموتى ، ولكنه لا يقضى عليه آخر الأمر .

وذهبت بالكأس إلى « كاپتاح » وقلت له : أرى يا صاحبى أننا قد لا نتلاقى مرة ثانية ، فقد أتيح لك من حيث لم تكن تقدر ، أن تبلغ أعلى قمم العظمة والسلطان ، ولم يعد مأمولا أن تعود إلى ما كنا فيه ، فى هذه اللحظة السعيدة أرجو أن تتقبل من يدى هذه الكأس التى أقدمها إليك تحية وتهنئة ، وسوف أقول مفاخراً عندما أعود إلى القطر المصرى ، إن سيد أركان الدنيا الأربعة كان ، فى أوج عظمته وأسعد أيامه ، صديقى ! . .

قال « كاپتاح » : إن هذا المصرى يقول كلاما لا أكاد أتبينه ، حتى ليقع على أذنى كطنين الذباب ، على أنى مع ذلك أتقبل من يده كأس الشراب ، فما أكثر ما تناولت فى هذا اليوم من كؤوس ، وإن رعاياى المخلصين ليشهدون أنى قد شاركتهم تماماً فى سرورهم ومرحهم فلم أمتنع عن قبول كؤوسهم المتلاحقة التى كانوا يتنافسون فى تقديمها إلىّ ، فهات كأسك أيها المصرى ، فسأشربها وإن كنت أشعر بما سيكون لهذا الشراب من قسوة على رأسى غداً .

وأفرغ « كاپتاح » الكأس فى جوفه ، وكانت الشمس قد توارت وراء ستر الغروب ، فجاءوا بالمشاعل ومصابيح الإضاءة ، وران الصمت والسكون فجأة

على القصر وسائر من فيه ، ونهض الحضور وقوفا فى خشوع ، وأحس « كاپتاح » بوحشة المكان ، وكان الشراب قد استبد به ، فرفع التاج الملكى عن رأسه قائلا : لقد أتعبنى حمل هذا التاج الملعون ، وأشعر أن ساقىَّ وأهداب عيونى قد تيبَّست كأنها قُدَّت من حديد ... وأريد الآن أن أذهب إلى فراشى لأنام ..

ولكنه لم يستطع الوقوف على ساقيه ، فاستلقى على الأرض وسحب غطاء المائدة ليلتف به فى نومه ، فتهاوت بهذه الحركة جرار النبيذ وكؤوس الشراب التى كانت على المائدة ، وسال كل ما فيها عليه حتى صار كأنه فى بركة من نبيذ ، فأسرع الخدم فنضوا عن جسده اللابس الملكية التى كان يرتديها . وجاءوا برداء « بورنابورياش » وألبسوه إياه ووضعوا التاج على رأسه وأجلسوه على العرش وفى يده صولجان الملك ، وعندئذ قال « بورنابورياش » فى لهجة ملكيه آمرة : كان هذا اليوم مضنياً ، ولكننى مع هذا لم يغب عن فطنتى أن فيكم من لم يكن فى غمرة المهرجان يولينى — متعمداً — الاحترام الواجب ، وربما توهموا أننى سأعجز عن استعادة عرشى ، فهيا أيها الخدم ، اطردوا هؤلاء الناس واضربوهم بالسياط واخلوا منهم ساحات القصر ، وطهروها من دنسهم وقذارتهم ، وضعوا جثة هذا الأحمق فى جرة الأبدية ، فقد سئمت النظر إلى وجهه القبيح .

وجاء الطبيب العجوز وتحسَّس بيده المرتعشة جسم « كاپتاح » الممدد على ظهره ، وأعلن أنه قد مات فعلا ، فحملوه وألقوه فى وعاء كبير من الطين يستعمله البابليون لمواراة جثث الموتى ، وأوصدوه بسدادة من طين ، وأمر الملك بأن يذهبوا به إلى قبو فى أسفل القصر ويضعوه إلى جانب أسلافه من الملوك الزائفين !..

وهنا تدخلت قائلا : إن هذا الرجل مصرى ، وكان خادمى ، ولنا فى مثل هذه الحالة عادات وتقاليد ، فأرجو وقد انتهى أمره من هذه الحياة ، أن تدعوه لى لأحفظ جثمانه وفقاً لتقاليد بلادنا ، وأزوده بما تفرضه علينا هذه التقاليد من أشياء يحتاج إليها فى رحلته الطويلة إلى الأرض الحمراء ، وتدبير ذلك — فيما جرت به العادة — يستغرق زمنا يتراوح بين ثلاثين وسبعين يوما ، فالأمر فى هذا منوط

بمكانة الشخص الميت فى حياته ، وقد لا يزيد الوقت بالنسبة « لكابتاح » على ثلاثين يوما ، لأنه من طبقة الخدم ، وسأعيده إليكم بعد انقضاء هذه المدة لتدرجوه إلى جانب أسلافه بالقبو المعد لذلك .

واستمع « بورنابورياش » إلى هذا الكلام مستغربا ، ثم قال : ما دامت هذه هى العادة فى بلادكم فاصنع به ما شئت ، فما أريد أن أخرق تقاليد الآخرين ، وقد يكون فى مخالفتها ما يغضب الآلهة وأنا أصلّى لهم ، ولست أحب أن أقع فى ذنب يضطرنى فيما بعد إلى الاعتذار إليهم .

ومن ثمّ أشرت إلى الخدم فحملوا وعاء الجثة إلى خارج القصر ، وقلت للملك وأنا أهم بالانصراف : سوف لا أستطيع التشرف بلقائك خلال ثلاثين يوماً ، فعملية التحنيط تحتجزنى عن الناس طول هذه الفترة ، ذلك لأننى لو ظهرت لهم فيها ، فإن الشياطين التى تتجمع حول الجثة تتسلل إليهم وتنفث فيهم الشر والأذى .

فوافق الملك على ذلك ، ولحقتُ بوعاء الجثة حيث استأجرت كرسياً لحمله . وبعد أن استقر فوقه ثغرت فيه ثغرة ينفذ منها الهواء إلى صدر « كابتاح » حتى لا يموت مختنقاً . ثم خالست العيون وعدت متسللا إلى جناح النسوة بالقصر ، وكان الخدم ينتظرون عودتى فى لهفة وقلق ، فقد كان الملك على وشك أن يقدم عليهم وهم لا يعرفون مايصنعون إذا ما طلب إليهم أن يحضروا إليه الفتاة « مينيا »، فنحيتهم عن باب حجرتها ودلفت إليها ثم انقلبت إليهم صارخاً مصطنعاً البكاء وأنا أقول، يالداهية ، لقد وقع مالم يكن فى الحسبان !. تعالوا فانظروا !.. إن الفتاة قد قتلت نفسها بالسكين ، هاهى مضرجة فى دمائها والسكين إلى جانبها تقطر دما !..

وراعهم الأمر واعتراهم الذعر الشديد ، وأخذوا يولولون ، لا أسفاً على الفتاة ، بل فزعاً مما سيلقونه من الملك !..

وقلت لهم : إنه الحظ السيىء ، ونحن فيه على درجة سواء ، وسبيل الخلاص من هذا المأزق أن تسرعوا بإحضار لفافة حصير نخفى الفتاة فيها ، ونقصيها عن

هذا المكان ، وأن تسرعوا كذلك بإزالة الدماء السائلة على بلاط الحجرة حتى لا يلاحظ الملك شيئاً مما حدث ، ففعلوا ما أشرت به على الفور ، ثم أحاطونى بنظراتهم الواجلة كأنهم يقولون : وماذا بعد ذلك ؟! إن الملك قادم بعد قليل ، وهو إلى هذه الفتاة جد مشوق !..

فقلت لهم : إنى أعلم ما يجول بخاطركم ، فسيكون غضب الملك شديداً ، وعقابه صارماً ، إذا عرف أن الفتاة قد قتلت نفسها ، وستحملون كما سأحمل معكم فعلتها ، وستحل بنا جميعاً نقمته ، ولكننى أعلم أيضاً أن الملك لم يجتمع بهذه الفتاة قبل ذلك ، فهو لا يعرفها على وجه الدقة ، وليس أمامنا إلا أن نحتال لدرء الخطر عن أنفسنا ، وهذا ممكن بوسيلة واحدة ولا وسيلة غيرها ، وهى أن تجيئوا على عجل بفتاة أخرى تحسنون اختيارها من بين الفتيات الأجنبيات اللواتى لا يتحدثن بلغتكم ، وتجملوها باللباس والزينة حتى تروق للملك إذا ما قدمتموها إليه ، وهو قد بلغه أن فى الفتاة « مينيا » شرساً وجموحاً واختبال عقل ، فقرر أن يعذبها ضرباً بالعصى والسياط ، لاعتقاده أنه بهذا يبرئها من أرواح الشياطين ، فافهموا هذا جيداً ، وسيجزل مكافأتكم إذا نفذتم أمره ، فقد صرح لى بذلك . .

فقالوا : هذا حسن ، وهو ممكن ، ولكن شراء فتاة أخرى يحتاج مالاً .. فأعطيتهم نصف الثمن الذى قدروه ، وخرج بعضهم مهرولين ليعودوا بالفتاة التى يملأون بها فراغ « مينيا » .

وأعاننى الآخرون فى نقل « مينيا » إلى خارج القصر ملفوفة بالحصير ، فوضعتها على حالتها هذه إلى جانب وعاء جثة « كاپتاح » بالكرسى الذى استأجرته لذلك ، ثم رفعه الحمالون على كواهلهم . فلما بلغنا شاطىء النهر أمرتهم بنقل الوعاء والحصير إلى القارب ففعلوا ، ونفحتهم قطعاً من النقود الفضية وأوصيتهم بألا يذكروا شيئاً مما رأوا لأحد إذ ما سئلوا . فقالوا وهم فرحون بالنقود التى أخذوها : حقاً إنك لسيد ممتاز كريم ، وثق أن فى آذاننا وقراً ، وعلى عيوننا غشاوة ، فلم نر !.. ثم انصرفوا ، وأنا غير واثق تماما من حرصهم على كتمان الأمر ، فهؤلاء من الأوزاع

المستضعفين فى الأرض ، وسينفقون ما فى أيديهم من القطع الفضية فى الشراب بعد قليل وسيسلمهم الشراب إلى الثرثرة وإفشاء السر ، ولـكنى لم أكن أستطيع إلا أن أطلب منهم الـكتمان تشبثاً بالأمل الضعيف فيهم ، فقد كانوا ثمانية ولا قدرة لى على إلقائهم فى النهر لأتخلص منهم إمعانا فى الاحتفاظ بالسر .

وأيقظت مُجدِّفى القـارب بعد أن سويت على ظهره مكانا لـكل من جثتى « كابتاح » و « مينيا » !.. وكانت رؤوس المجدّفين مثقلة بفعل الشراب الذى أسرفوا فيه ، فأخذوا ، وهم يتثاءبون ، يدفعون بالقارب إلى عرض النهر .

وعلى هذا تمت الخطوة الأولى لفرارنا من « بابل » ، ولم أكن حتى هذه اللحظة أستشف فيما فعلت سبباً معقولاً يبرره . لقد كنت مسوقا إلى ذلك بدافع خفى ، ولا شك فى أنه كان قدَراً مقرراً فى طيات الغيب المجهول ، وما أكثر ما أعانى من أقدار الغيب التى تقررت لحياتى قبل أن أولد .

« مينيـــا »

— ١ —

ومضى بنا القارب موغلا فى النهر ، وشيئاً فشيئاً كانت « بابل » تتوارى عن عيوننا ، فأزداد بذلك أمناً ، ولم تعد تهجس فى نفسى خشية من احتمالات المطاردة فى بقية الطريق ، فالرقابة على النهر غير مفروضة ليلا . وعندئذ حاولت أن أسلم جسمى المنهك إلى النوم طلبا للراحة ، ولـكن « مينيا » فى تلك اللحظة تجردت من وثاق الحصير وراحت تغرف بيديها من ماء النهر وتمسح به الدماء التى علقت بجسمها وتقول مؤنبة : أطعت أمرك فتدنست بهذا الدم الذى لا أعرف كيف أخلص نفسى من خطيئته ومن خبث رائحته ، فقد ألقيتنى بذلك فيما أكره ثم كأنه لم يكفك هذا فلففتنى بهذا الحصير لفا شديداً حتى صرت لا أستطيع الآن ترديد أنفاسى .

وضقت بكلماتها هذه أشد الضيق ، فقلت لها ضجراً : إليك عنى أيتها الفتاة الملعونة ، أتذكرين الدم والحصير ولا تذكرين أن لهما عليك فضل الخلاص الذى كنت تنشدينه بجدع الأنف ؟! ثم لا تذكرين — أيتها العاقة الجاحدة — أننى بسببك وفى سبيل خلاصك قد فقدت الكثير مما ليس فيك من بعضه عوض ، واستهدفت وما زلت مستهدفا لما لا أدرى من أخطار فادحة ؟! ألا تعلمين — أيتها الغبية — أننى لولاك لبقيت فى « بابل » صديقا للملك ودانيا من عرشه ، وظافراً بما شئت من أعطيته وهداياه ؟! ولولاك لظل حبل اتصالى بكهنة البرج ممدوداً ، أستزيد من حكمتهم ، وأستبين المحجب من أسرار طبهم ، لأصبح بما أضيفه من علومهم إلى علمى أحكم طبيب فى العالم ؟! ولولاك لبقيت هناك طبيبا موثوقا به من الجميع ، موفور الربح بما أتقاضاه من غالى الأجور وسخى المكافأة ؟! كل هذا قد فقدته فجأة من أجلك واستجابة لرغبتك ؟! وأكثر من هذا أننى للعجلة التى اقتضاها ضيق الوقت وفرضها الخوف من كشف السر والوقوع فى الخطر ، لم أتمكن ، بل ولم أجترىء على استبدال النقود بالألواح الطينية من بيت الصراف بالمعبد . وأنت بعد ذلك حانقة مغضبة ؟! وأشعر فى الحقيقة أننى كنت أكثر منك حمقا وغباءاً ، فما كان ينبغى أن أقذف بنفسى إلى هذه الهوة السحيقة ، مأخوذاً برغبة تافهة تصدر عن مثل عقلك اللتاث ، وما كان يجدر بى إلا أن أدعك للملك ليلهب ظهرك بالسياط ، فذلك هو الدواء الذى كان قد أعده لك فى هذه الليلة ، ويبدو أنه هو الدواء الناجع لك ! .. على أن باستطاعتك الآن أن تلقى بنفسك فى النهر لتذهبى إلى بطون حيتانه مطهرة من الدم الذى تكرهينه ؟..

قالت وهى تحدق فى ماء النهر الذى كان يسطع تحت ضوء القمر كأنه سبيكة من لجين : إذن فليكن ما تريد !..

ونهضت لتلقى بنفسها فى الماء . . فأمسكت بها قائلا : ألا تكفين عن ارتكاب الحماقات ؟! إنك إن تفعلى هذا فلن أفيد منه شيئا بعد ما كان ، فتعقلى وقدرى الموقف الذى نحن فيه ، وإلا فقد ضاعت عبثا كل محاولاتنا وجهودنا ،

وأستحلفك بجميع الآلهة أن تدعيني قليلا لأنام فى هدوء ..

فانحسر عنها الروع والجوح ، بينما تمددت أنا على أرض القارب ، وكان جو الليل بارداً ، فاتخذتُ من الحصير غطاءاً واقيا ،واقتربت هى منى هامسة : إذا لم أستطع أن أفعل لك شيئا أيهـا النائم المقرور ، فلا أقل من أن أدنو هـكذا منك لأدفئك !..

وكان التعب قد أخذ منى مأخذه ، فاستسلمت ، مستدفئا بجوارها ، إلى نوم عميق .

واستيقظت بعد طلوع الشمس لأرى المجدفين قد قطعوا مرحلة طويلة ، ولـكنهم كانوا برمين بعملهم ، باديا عليهم التعب ، ويقولون : أليس لهذه الرحلة من آخر؟! لقد أجهدتنا ، وثقل العمـل علينا حتى كلَّـت سواعدنا وظهورنا ، وكأنك تريد أن تقضى علينا ، ولا نعلم لماذا العجلة ، فهل فى بيتك هناك حريق تستحث السير إليه لتطفئه ؟! .

ولمحت فى وجوههم بوادر الشر والتمرد ، فـكان علىَّ أن أستعمل معهم الحزم والصرامة حتى لا يفلت زمامهم من يدى ، فقلت لهم منذراً : إذا لم تنشطوا وتمضوا فى عملـكم جادين فإن عصاى التى ستوجع ظهوركم كفيلة أن تدفعـكم إلى ذلك دفعاً . ولن آذن لـكم بالتوقف إلا عنـد الظهيرة ، وحينئذ تنالون راحتـكم ، وتأكلون وتشربون ما شئتم ، وسأعطى كلاً منـكم من نبيذ البلح ما يجعلـكم فى خفة العصافير ونشاطها . واعلموا أن بوسعى ، إذا أبطأتم ، أن أسلط عليـكم جميع الشياطين لتنهش أبدانـكم وأرواحـكم ، فإننى كاهن وساحر فى وقت واحد.

ولـكنهم كانوا من العناد والتبلد بحيث لم يؤثر فيهم وعيدى ، فأخذوا يتبادلون نظرات خبيثة ، فهمت منها أنهم يحسبوننى غير صادق فيما أزعمه من القوة ، وأنهم على النقيض يستطيعون الفتك بى ، فهم عشرة أشداء ، وأنا واحد ، وقد همَّ أحدهم فعلا ، وكان أقربهم منى ، أن يضربنى بمجدافه . غير أنه أمسك فجأة لأن وعاء الطين الذى يندرج « كاپتاح » فى جوفه قد أخذ يترنح وتنبعث من جوانبه صرخات غير واضحة ، فارتاعوا وانزعجوا وشحبت وجوههم هلعا ، وكأنهم تخيلوا الموت

مقبلا عليهم من هذا الوعاء الغريب ، فألقوا بأنفسهم فى النهر فراراً منـه ، وقد أبعدوا فى سبحهم حتى غابوا عن نظرى .

وصار القارب بعد أن خلا منهم يتأرجح ويضطرب بفعل التيار العاصف ، وأحسست أنه يوشك أن ينقلب بنا ، فأسرعت بإلقاء « المرساة » إلى قاع النهر لتمسكه .

وهنا ظهرت « مينيا » على سطح القارب ممشوقة القوام ، مسواة الشعر ، مشرقة الوجه ، وكانت الشمس قد ازدادت سطوعاً وبهاءاً ، والطيور بين الأعشاب والحقول القريبة ترسل إلينا شدواً وأمطرباً ، فزايلنى فى هذا الجو البديع ما كان قد اعترانى من خوف وارتباك ، وخطوت إلى جرة « كاپتاح » فرفعت سدادتها وهتفت به ليخرج منها ، فأطل برأسه وكان منظره مثيراً حقـا وانطلق لاعناً ساخطاً مردداً عبارات هاذية كقوله : أية حماقة هذه ؟! أين أنا ؟! وأين تاج ملكى وصولجان سلطانى ؟! وأين اللحفة التى أدافع بها هذا البرد القارس ؟ وما هذه المطارق التى تدق فى رأسى ؟! ولماذا تصلبت أطرافى هكذا فلا أستطيع لها حراكا كأنها استحالت حديداً أو رصاصاً ؟! أيمكن أن أصير إلى تلك الحال وأنا الملك العظيم ؟! لا شك أنك يا « سنوحى » تعبث بى على عادتك جاهلا أنى أصبحت ملـكا آمراً ؟! ألا فاحذر عاقبة ماتفعل ، فمن أخطر الأمور معابثة الملوك أو محاولة المزاح معهم ! . .

فقلت له : إنك تهـذى هذيانا سخيفا يا « كاپتاح » ، ولـكنه النبيذ الذى تجاوزت فى شرابه حد الاعتدال فذهب بالبقية من عقلك ، فلعلك بعد لا تعود لمثل هذا ، وقد آن أن تصحو وأن تندم ، وعليك أن تذكر أننا أبحرنا معا من « بابل » على أحسن حال ، فسولت لك نفسك أن تشرب النبيذ وأن تفرط فيه ، فما لبث حالك أن تغير ورحت تحدث بالقارب هرجا لا يطاق وحملت على النوتية حملات قاسية بالقول البذىء والشتائم النابيـة ، مما اضطرهم إلى أن يضعوك حيث أنت الآن فى جرة من طين ، ليأمنوا شرك . والعجيب أنك خلال هذيانك كنت تتحدث عن الملوك والقضاة كما لا زلت تتحدث الآن ، وهو شىء غير مألوف فى

خواطر أمثالك حتى لو فقدوا وعيهم تماماً .

وأغمض « كابتاح » عينيه سابحاً فى خضم من ذكريات الأمس التى تتحول فى حديثى معه إلى خرافة وهذيان . ولم يستطع وهو يراجع نفسه أن يربط بينها وبين الحقيقة ، فمن المستحيل أن يكون وهو ذلك الإنسان التافه قد صار ملكا محتفلا به من شعب بأكمله فى لحظة واحدة ، بله فى يوم كامل . وإذن فالواقع ، كما قلت له ، إنه أسرف على نفسه فى شرب النبيذ ، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، وهنا قال : أنت على حق ياسيدى ، فلعنه الآلهة على النبيذ وشاربه ، ولن أعود إليه . لقد غيبنى عن هذا الوجود ، واستبد بعقلى وطار به إلى آفاق حاشدة بالمخاطرات . وقد تخيلت أنى لم أكن فيها صريع الشراب الملعون ، وإنما كنت محمولا على أجنحة « الجعران المقدس » ، ويا له من خيال ذلك الذى جعلنى ملكا وأجلسنى على العرش وجمع الناس حولى لأوزع العدالة بينهم ، ثم يدخلنى على مقاصير النساء بالقصر الملكى لتلاقينى هناك فتاة رائعة الجمال ، إلى أشياء أخرى كثيرة لا خير فى ذكرها الآن ، فقد كانت خيالا كاذبا .

وحانت منه التفاتة ، فرأى « مينيا » على الطرف الآخر من القارب ، فعاد يدس رأسه فى الجرة ويقول فى صوت خافت : يظهر يا سيدى أننى ما زلت مخموراً أو حالما ، فكأنى أرى بهذا القارب فتاة القصر التى لقيتها بالأمس . إن ذكراها تزعجنى ، فكيف بى وأنا أراها ملء عينى ؟ ! ثم وضع يده على عينه التى تبدو عليها آثار اللكمات ، وأمسك بأنفه المتورم ، وراح يئن ويتوجع ..

ولم يطل استخفاؤه بالجرة ، فقد جاءت « مينيا » وأمسكت بشعر رأسه وراحت تشده بكلتا يديها وتقول له : ألست أنت الذى أزعجتنى بالأمس ؟ ! إنك هو بلا ريب وما أنا بتاركتك بعد .

فزاده هذا هلعا وأرخى رأسه وهو يغمض عينه مخادعا نفسه بأنه لم يزل نائما وأن هذه الفتاة ليست إلا سرابا من رؤى النوم . وكان يقول فى رعدة الخائف : رفقا بى يا آلهة مصر جميعا . . لقد كرهتم منى أن عبدت آلهة أخرى وضحيت من

أجلها ، فصببتم نقمتكم على رأسى ، فاغفروا لى هذا الذنب الكبير ، وامنحونى رحمتكم وعونكم فقد حل بى مالا طاقة لى به من عذاب .

ونحّيتُ عنه « مينيا » وأخرجته بعد ملاحاة من الجرة وسقيته سائلا مرّاً لغسل أمعائه وربطته بحبل ودفعت به الى النهر ليذهب الماء بما بقى فى رأسه من أثر الخشخاش والنبيذ ، وتركته بعض الوقت يغوص ويطفو وهو يصرخ محتجا تارة ومستنجداً تارة أخرى ، ثم شددته بطرف الحبل الذى كنت أمسكه به حتى عاد إلينا فوق سطح القارب مجهداً متلاحق الأنفاس .

وقلت له : لقد عصيتنى وأبقت من طاعتى ، وأنا سيدك ورفيق غربتك ، فحق عليك ما لقيتَ من عقاب . ولعل أن يكون لك فى هذا عبرة واعظة فلا تعود إلى مخالفتى . واعلم أنك لم تكن يا هذا فى خيال مخمور أو فى حلم نائم ، وإنما كنت حقيقة ملكا تقتعد عرشاً وتحمل تاجا وصولجانا وتجلس بين الشعب مجلس القضاء ، كل هذا قد حدث فى دنيا الواقع ، ولكنك كنت كذلك لساعات تنتهى فى مغرب الشمس ثم تنتهى بنهايتها حياتك وتلقى مقتولا كالحشرة القذرة فى هذا الوعاء إلى جانب من سبقوك من ملوك زائفين ! . . على أنى فى اللحظة الأخيرة تدخلت محتالا لإنقاذ حياتك .

ثم قصصت عليه القصة من بدايتها إلى نهايتها ، وكنت أعيدها وأكررها لترسب فى ذهنه القلق الشارد . وأخيراً قلت له : وعلى أى حال فلندع ما كان إلى ماهو كائن ، فنحن اليوم فى موقف بالغ الخطورة ، وحياتنا جميعا أصبحت مستهدفة لأسوأ الاحتمالات ، فعليك أن تسترد صوابك كاملا وتعيننى فى الإسراع لبلوغ أرض « ميتانى » قبل أن يكتشف الملك أمرنا ويلحق رجاله بنا ، وحينذاك لا يكون لنا من الموت مهرب .

ولكن « كابتاح » بعد إطراق وطول تفكير أخذ يفرك يديه ويعبث بشعر رأسه ويقول : إذا كان ما حدث صحيحا كله كما تقول ، فإنى إذن قد تجنيت على النبيذ ولم أكن عادلا فى الحكم عليه باللعنة ، ولهذا فإنى أعتذر إليه ، وسأشربه

منه نهلا وعللا حتى يرضى ، وما دام يوم أمس قد مضى دون أن أفارق الحياة ، فإنى لسعيد بذكرى أحداثه اللطاف المتعة . والحق أنه كان يوماً عظيما ليس كمثله فى العمر الطويل يوم ! .

قال هذا وانفلت من بين يدى إلى قربة القارب ففتح إناء النبيذ ، وراح يعب منه وهو يرتل عبارات الثناء والدعاء لآلهة «مصر» و«بابل» ويذكرهم بأسمائهم ، وما زال هكذا حتى ارتمى على الأرض ليدخل فى نوم ثقيل ، مرسلا من صدره شخيرا مزعجا خلته رغاء الجواميس فى النهر ! ..

وأضجرنى منه هذا السلوك الطائش ، فهممت أن ألقيه بالماء ، ولكن «مينيا» دافعتنى عنه قائلة : لا أرى فى تصرفه مايثير إلى هذا الحد ، لقد قضى وقضينا نحن كذلك يوما حاشداً بالعناء والمضايقات ، فلا عليه أن يجتر نفسه منه بهذا الأسلوب ، ولا علينا ، أنا وأنت ، إذا جرينا مجراه ، فنشرب ونطرب ، وحسبنا ما لقينا بالأمس ، وإننا الآن من هذا النهر فى موقع غير مخيف ، فهذه الأعشاب التى تدانينا قمينة أن تخفينا عن العيون إن كان ثمة عيون تطاردنا ، ثم هذا الجو الرائق الجميل الذى يتنضر بأشعة الشمس منعكسة على صفحة الماء ، والطيور من حوالينا تزقزق وتغنى ، وحقول القمح على حفافى النهر مزهوة بخضرتها وازدهارها ، أليس فى هذا ما يغرينا بالمتعة ويستخفنا إليها ؟ ! فما بالنا لانفتح قلوبنا للسعادة وهى ترفرف علينا بأجنحتها ! .. أما أنا فشاعرة بالبهجة تغمر قلبى لأنى على الأقل قد تخلصت من أسر الرق والعبودية ..

قلت لها مستسلما : أما وقد صرت مجنونة كما قد صار «كاپتاح» مجنونا ، فلا يسعنى إلا أن أكون مجنونا مثلكما ! .. وفى الحق أنه لامعنى لهذا الخوف الذى يركبنا من الموت ، فكل شىء مقدور علينا فى السماء قبل أن نولد ، وسواء عندى وقع موتى اليوم أو غداً أو بعد عشرة أعوام ، فهو واقع على أية حال ، وهذا هو ما ألهمنيه كهنة البرج فى «بابل» وهم على صواب .

وعلى هذا ، انطلقنا نلهو فنزلنا إلى النهر وسبحنا فيه وخرجنا منه ، فجففنا

ملابستا على حرارة الشمس ، وأخذنا نتناول الطعام ونتساق النبيذ ، وذكرت « مينيا » إلـهها ، فراحت تندمج بروحها فيه وترقص له ، وكانت رائعة فاتنة ، وأحسست بأنها قد اقتحمت قلبي بجمالها الساحر ، فقلت لها : حدث مرة واحدة في حياتي أن تسللت سيدة جميـلة إلى قلبي فملأته ، وكنت أناديها « أختي » ، ولـكنها سحقتني ودمرت حياتي ! . وإن فيك لجمالا فاتنا ، وفتنة آسرة ، وأخشى أن أحترق مرة أخرى في المصهر نفسه ! .

فحدجتني بنظرها وقالت دهشة : أكبر ظني أن سيدات بلادكم غريبات الأطوار ، فاسدات الطباع ، وهن بهذا يختلفن تماماً عن سيدات بلادنا . على أنه مهما يكن الأمر فإنك تستطيع أن تطمئن من ناحيتي ، فلا شيء هو أبعد عن أهدافي من مواصلة الرجال أو الاندماج فيهم ، وذلك لأن إلـهي يحرم عليّ ذلك ويمنعني منه ، ويقتلني إن فعلته .

ثم أخذَتْ رأسي بين يديها ، وأمالته حانية على ركبتها وقالت : إن تصوُّرك النساء على هذا النحو ينبئ بأن في خلايا هذا الرأس غباءً ، وهو شيء مؤسف ، فـكما أن الرجال ليسو كلهم سواسية أو على خلاق واحد ، فإن النساء مثلهم كذلك تناقضاً واختلافاً ، وإن كان من بين النساء سيدات يسمِّمن الآبار ، فإن من بينهن سيدات يشبهن عيون الماء الجارية وسط الصحراء القاحلة ، أو يشبهن الندى فوق الأعشاب الذاوية والحشائش الجافة . ولـكنه الغباء الذي يستـكن في رأسك هذا ، هو الذي أخفى عنك هذه الحقيقة ، على بساطتها ووضوحها . . . ومع هذا فإني لألمح في عينيك شيئاً يثير الإغراء ، ولـكنني آسفة وحزينة معاً لأنني غير قادرة على الاستجابة لنداء هذا الشعور الخفي ! . . تلك إرادة إلـهي ، وأنا أخشى إرادته وأقدسها . .

وقد استهواني حديثها ، فأمسكت بيديها البضتين مداعباً وقلت لها : « مينيا »! .. يا أختي لا تَضلِّي طريقك كامرأة مسحورة بعقيدة خاطئة في الآلهة ، وكائناً ما يكون إلـهك ، فإنه لا يمكن أن يرتضي لك هذا الحرمان في دنيانا الزاخرة

بالمتاع ، وإنك لتصورينه ظالما وقاسيا حين تعتقدين أنه فرض عليك ذلك ، فما عرفنا الآلهة إلا سماحاً رحماء ، وهم بالطبع أكثر تسامحاً ورحمة مع المؤمنين صادقى الإيمان من أتباعهم . على أنه لا يجب أن تسرف العقول المستنيرة فى الفناء فى الآلهة على نحو ما تفعلين . وصدقينى ، لقد بلوت الكثير من أمرهم ، وعرفت من حقائقهم مالا تعرفين ، وما ظنك يا أختاه بآلهة يصنعهم الناس بأيديهم ثم يرفعونهم بالأيدى نفسها ليعبدوهم ويستشعروا الخوف منهم ؟ ! فليكن رأيك فيهم ما يكون ! أما رأيى فالأمر لا يعدو أن يكون وهما بولغ فيه حتى صار عقيدة ، ومع ذلك فأكثر الناس يتبعون الآلهة ويعبدونهم ويتقربون إليهم زلفى ، ولا يمنعهم ذلك من مباشرة وظائفهم البشرية التى لا تعمر الدنيا بغيرها ، فلو أن الرجال والنساء تحاجزوا وتقاطعوا واستدبر بعضهم بعضا لخلت الأرض منهم جميعا ، ولما بقى عليها من يعرف ربًّا أو يعبد إلـها . ولا شك أن الآلهة لا يريدون ذلك ، فأنت إذن تنحرفين عن إرادتهم ، وتذهبين فى الحياة مذهبا يجافى مشيئتهم ، فدعى عنك هذا ، ولا تخشى إلـهك كل هذه الخشية ، وتعالى إلىَّ لنمضى بعيداً إلى بلاد لا يمتد إليها سلطانه ، فنأكل معا الأسماك والطيور ، ونتقلب على الحشائش وننام على الأعشاب ، هناك وسط قبائل بادية ، تحيا بالفطرة وتعيش عليها ، حيث الانطلاق من قيود المدن وأسر التقاليد ، ومخافة الآلهة وسطوة الملوك ، ونظل على هذا إلى آخر حياتنا ، سعيدين ناعمى البال . .

ولكننى بهذا الحديث لم أبلغ منها حد الإقناع ، بل لقد تقبضَتْ له وقالت : عبثا تقول ، فإن إلـهى قد صاغ قلبى ورسم عليه رقاع العالم ومعالمه كلها ، فهو رفيقى فى أى مكان أنزل به ، وقريبةً كنت أو بعيدة فإنى فى متناول يده ، وإنك على عادة الرجال وطبعهم تحاول إغرائى لأوثرك عليه ، وهذا أمر بعيد المنال ، فهو يرصد تصرفاتى بعين لا تغفو ، وسيأمر فيتلقفنى الموت عاجلا إذا أسلمت جسدى لرجل ، وأكاد أحِسُّه الآن غاضبا ، إذ أنظر فى عينيك وأتحدث إليك ، فتخلَّ عن أفكارك واكبح جماح رغبتك ، وسوف لا يضيرك هذا ، فى الغداة سيتغير

شعورك ، فتزهدنى بل تنسانى ، فذلك حالكم معشر الرجال ! . .

وشعرت حيال موقفها هذا كأنى كومة من عشب جاف أشعلتها شرارة من نار ، فقلت لها : بل ذلك حال النساء وطبعهن فى معاملة الرجال ، وأنت على مثالهن تلتمسين اللذة والمتاع فى تعذيب قلبي وترويعه ، ولكننى أعلم هذا فقد جربته وعانيت منه ، ولم أعُدْ ، بعد ، الصيدَ الذى يقع فى الشرك يافتاتى الصغيرة ! . .

قالت : إنك لا شك تجهل مَن أكون ، فاعلم أنى لست من غمار النساء ، وإنما أنا فتاة تفردت دونهن بالحكمة والمعرفة ، أحطت علما بلغات ذات عدد ، منها لغة « بابل » ولغة « مصر » التى هى لغتك ، وأكتب اسمى على الألواح والأوراق بثلاثة أنواع من الحروف ، وقد طوفت فى بلاد وأقطار شتى ، وهنا وهناك خلبت الألباب برقصتى الإلهية البارعة ، وما أكثر ما ترامت حولى سهام الشهوات ولكنها كانت تتكسر دائماً على حصون منيعة من عفتى وطهرى ، إلى أن حدث أخيراً أن كنت مبحرة على إحدى السفن فى رحلتى الدينية ، فغرقت السفينة ووقعتُ فى أيدى تجار الرقيق ، وصرت بعد ذلك إلى جناح الملك فى « بابل » ، ولكن إلهى القدس الذى لا ينفك يرعانى قد أنجانى من الغرق ثم أنجانى من رق الملك ، ولا عجب فقد صنعنى على عينه واصطفانى لنفسه فلا تستطيع قوة فى الوجود أن تفصلنى عنه ، وربما شق على عقلك أن يدرك الصلة بين إلهى ورقصى ، ولكنك قد تدرك ذلك إذا وقع لك يوما أن ترقص بين ثيران متوحشة تتناهبك بقرونها الحادة ، فتدافعها بكمامة فى يدك غير متوقف عن حركات الرقص بقدميك ، ثم تظهر عليها فى النهاية بحذقك وبراعتك وجرأة قلبك ، ولا يلحق بك أذى من هجماتها الشرسة ، فهل كنت تستطيع أن تثبت لهذا وتنجو منه إذا لم تكن من ورائك قوة إله عظيم ؟!.. فذلك هو الرقص الذى علمنيه إلهى وفطرنى عليه ، وقد اقتحمت به حلبات الثيران المتوحشة ، وحلبات الرجال المتوحشين أيضاً ، وحفظنى إلهى وصاننى فى كل المواقف ، لأننى أرقص بأمره ولمرضاته .

قلت لها . هذا شىءٌ غريب حقا ، وما سمعت من قبل أن فتاة تؤتى هذا الحظ

العظيم من غضارة الشباب والمعرفة ، يقضى عليها أن تظل عذراء لتراقص الثيران المتوحشة وتفلت منها !.. ذلك مالا أستطيع أن أفهمه ، على أنه يذكرنى بما كنت قد سمعته عما يصنعه الكهنة فى سوريا ، فقد قيل إنهم هناك يقدمون الفتيات قربانا إلى الخراف !..

فثارت غضبا لسخريتى بها ، وتطاير الشرر من عينيها الغاضبتين ، وصاحت فى وجهى قائلة : وما أرى فرقا بين الخراف والرجال ، فهما سواء فى غريزة الحيوانية الدنسة ، فإليك عنى ، ولا تضايقنى بجدالك ومماريض شهواتك ، فأنت لا تفقه من حقيقة أمرى أكثر مما يفقه الخنزير من أمر الفضة !..

وكانت بهذا قد بلغت أقصى المدى فى الإقذاع والإيلام ، فانصرفت عنها ، وتناولت صندوق أدواتى وعقاقيرى الطبية ، وجعلت أتشاغل بتنظيف الآلات ، ووزن السوائل والمساحيق ، بينما راحت هى تدلك جسمها بالزيت ثم ترقص رقصات عنيفة أحدثت اهتزازاً فى القارب ، وخالستها النظر خلال ذلك فأدهشنى منها أنها كانت تنحنى إلى الخلف حتى تلمس يداها الأرض ، وجسمها يستدير كأنه القوس ، وترفع ساقيها وترسلهما ممددين فى الهواء ، فلا يبقى منها على الأرض إلا يدان تحملان جسما مقلوبا . أما رأسها فكان فى هذا الوضع يترنح غير مستند إلى شىء ، وشعرها يتموج حوله تموجا رائعا ... لقد كانت ترقص رقصاً دقيقاً لم تر عينى مثله على كثرة ما رأيت من أوضاع الرقص وفنونه فى بيوت اللهو بسائر البلاد التى تنقلت بينها أو عشت بها ..

وتأثرت بمنظرها هذا ، وانتفى من نفسى الندم على ما فقدته فى سبيل هجرتى معها ، وازددت تأثراً حين رأيتها تخرج من رقصتها هذا مجهدة ، فتتشح رداءاً تغطى به جسمها المتفصد عرقا ، ثم تنطوى على نفسها لتبكى بكاءاً حارا ، فقاربتها فى حذر ولمست كتفها برفق متسائلا عما إذا كانت تشكو مرضا ؟! ولكنها دون أن تجيب دفعت يدى عنها وراحت مستغرقة فى بكائها . فجلست إلى جوارها آسياً على حالها ، وقد أحسست بأن ضميرى يؤنبنى على ما بدر منى نحوها فمولت

على تغيير سلوكى معها ، فقلت لها بعد إطراق : أختى « مينيا » ! . لا تبكى ، إنى أتوسل إليك ألاَّ تبكى ، فما عنيت بحديثى سوى الترفيه عن نفسك بعض الشىء ، وسوف لا أعرض لهذا بعد الآن ، بل سأتحرى فى كل تصرفاتى أن أدفع عنك كل ما قد يسبب لك الألم والأسى .

فرفعتْ رأسها وكفكفت دموعها وقالت : إننى لا أخشى الآلام والمآسى ولا أبكى منها ، وإنما بكائى لأن رجلا ملحدا فاسد العقيدة يلمزنى فى عقيدتى ، ويتعيب دينى ، فيعترينى الضعف أمامه ، وكنتُ القوية الغالبة ، ولا أفهم من هذا إلا أن إلهى الذى يمدنى بالقوة فى سائر المواقف قد تخلى عنى ونبذنى ، وذلك يهولنى ويزعجنى .

وتراخت تحت كلكل من الهم ، فأمسكت بيديها ، فأجالت نظرها فى وجهى غير متأففة وقالت فى هدوء : لعلّى أن أكون فى تقديرك الآن جاحدة ، وكان ينبغى أن أشكرك لأنك حققت رجائى فى الخلاص ، وضحيت ما ضحيت من أجلى ، ولكن لا ذنب لى فى ذلك ، وقد لا يكون ما ذكرته لك عن إلهى كافيا لتعرف حقيقته كاملة ، وليس بمستطاعى أن أنبئك بكل شىء ، فثمة حدود قد رسمها للحديث عنه ولا يجوز لى أن أعدوها ، على أنه من الممكن فى نطاق هذه الحدود أن أخبرك بأنه « إلـه البحر » وأنه يأوى منه إلى مكان مظلم لا يدخل إليه فيه إنسان إلا بقى معه هناك إلى الأبد ، ويرى بعض الناس أنه يشبه الثور ، ولهذا فنحن الفتيات المختارات لخدمته نتعلم الرقص له أمام الثيران التى تشبهه ، ويروى آخرون أنه يشبه رجلا يعلوه رأس ثور ، وهذه رواية أعتقد أنها غير صحيحة ، وإنما الذى لا شك فيه أن اثنتى عشرة فتاة يحتشدن فى كل عام لاختيار واحدة منهن لخدمته عندما يكون القمر فى تمامه ويجرى هذا الاختيار عن طريق الاقتراع بينهن ، فإذا خرجت القرعة بالفتاة المختارة كانت هى ذات الحظ السعيد دون الباقيات . وقد كنت أنا السعيدة التى اختارها الإلـه فى هذا العام ، ولكننى عند ما كنت فى طريقى إليه غرقت السفينة ، فوقعت فى أيدى تجار الرقيق ، وكان

بعد ذلك ما عرفتَ من أمرى.. وبهذا حيل بيني وبين ما ظللت ،منذ فجر شبابى ، أحلم به ، وهو العيش بجوار إلهــى ناعمــة ، فى بيته هناك ، بالخلود السرمدى ، فتلك سعادة كانت منى جد قريبة ولـكنها تلاشت فجأة ، وهذا هو الذى يحزننى ويقض مضجعى ، ويمكنك أن تتصور مدى هذه السعادة التى فقدتها وهى فى يدي ، إذ علمت أن الفتاة التى تختار لخدمة هذا الإلــه العظيم يؤذن لها بالعودة إلى هذا العالم إذا قضت فى بيته شهراً ، ولـكن جميع الفتيات اللائى واتاهن حظ الاختيار له لم تعد منهن واحدة إلى عالمنا هذا ، ذلك لأنهن قد وجدن هناك من الخير والسعادة والمتاع مالا وجود له هنا ، فآثرن البقاء وأبين الرجوع !..

كان حديث « مينيا » مؤنسا ، وكانت الشمس حينذاك قد تجللتها غيمة عارضة ، فبدا الجو مظلما موحشا ، وهكذا كان قلبى ، فقد أدركت أن « مينيا » ما برحت صريعة الخرافات الدينية التى يفشيها الـكهنة فى عقول الناس فى كل قطر من أقطار الأرض ، ومن ثمّ فليس لى من روحها أو قلبها موضع . ولم أشأ أن أحنقها وأستثير ما سكن من غضبها ، فقلت لها موادعا ، ويداها ما زالتا فى يدى : قد فهمت موقفك تماما ، فأنت تريدين المضىّ إلى إلهــك لتسعدى بالخلود إلى جواره ، وسأنزل على إرادتك ، ويمكنك أن تعتمدى علىَّ فى ذلك . ولقد عرفت من حديثك أن « كريت » هى المـكان الذى جئت منه ، ولهذا فإنى جاعل سبيلنا إليها عبر البحر ، ومنها تأخذين وجهتك إلى البيت المظلم الذى يأوى إليه إلـهك . وإذا كان قد بدا لك من حديثى أننى غير مؤمن به حتى الآن ، فذلك لأن روايات شتى كان يتناقلها عنه التجار والبحارة فى «.أزمير » ولا يثبتون فيها على رأى يقينى يعتد به فى تقرير العقيدة . فـكان يقال مثلا إن الـكهنة يذبحون ، أو يحاولون أن يذبحوا كل من يخرج من بيت هذا الإلــه عائداً إلى وطنه وأهله ، حتى لا يعرف الناس شيئا عنه ، كما كان يقال إن الذين يذهبون إليه لا يعودون ، لا لأنهم استطابوا المقام معه ، وإنما لأنهم قد ماتوا فى جوف البحر !.. ومعنى هذا أنه لا وجود له ، وكيفما كان الأمر فإنك ستعرفين الحقيقة على وجهها الصحيح

عندما يتحقق أملك فى بلوغ مأواه ، أعنى بيته المظلم !..

وقالت « مينيا » فى ضعف ملحوظ : نعم ، ينبغى أن أذهب إلى إلهى ، فما أرى فى غير بيته مكانا يرفرف عليه الأمن والسلام . على أن رغبتى فى ذلك لا تمنعنى من مصارحتك بأننى صرت أشعر بأن الوقت الذى أقضيه معك يمتلىء فيه صدرى بالبهجة والغبطة ، فلم أعد بالنسبة لك تلك الفتاة المتمردة العاقة ، وليس هذا لأنك أنقذت حياتى وخلصتنى من الأسر ، بل لأنك ، أكثر من هذا ، رجل لم أصادف مثله فى الرجال كرم أخلاق ولطف معاملة . وقد نال هذا الشعور من شغفى إلى لقاء إلهى ، فلم يعد كما كان شغفا مشبوبا ، وربما سرنى هذا الآن ، ولكنه بلا ريب يورثنى الأسى كلما اقتربت من بيت الإله !.. على أنه إذا كان مقدراً لى أن أعود بعد انقضاء الأجل المحدود ، فستكون عودتى إليك أنت . والآن ، فلندع هذا ، فالوقت قصير ولا يعلم أحد ما سيجيء به الغد كما تقول ، وليكن شأننا معا — منذ هذه اللحظة إلى أن نفترق بعد قليل — استمتاعا بهذه الحياة فى هذا الجو العاطفى البديع !..

وكان واضحاً أن موقف « مينيا » قد تبدل ، وأن بمستطاعى استغلال عواطفها التى سلست بعد عناد ، فأستدرجها إلى الرضى بالبقاء معى والحياة بجانبى إلى آخر العمر . وكان هذا فى الواقع مبتغاى ، ولكننى خشيت منها الانتكاس ، فعقيدتها فى إلهها أعمق من عاطفتها الطارئة ، ولا آمن منها ثورة العقيدة يوما ، فتنقلب ساخطة لاعنة ، وتهجرنى هاربة إلى إلهها ، فما أشد سيطرة الآلهة على مثل هذا الطراز من المؤمنين ! .. ولهذا أمسكت عن التفكير فيما سوف يكون ، مستسلما إلى القدر المحجوب الذى أومن بأنه مقرر لحياتى قبل أن أولد ، فلا حيلة لى فيه ..

واستجبت مسروراً إلى رغبة « مينيا » المتفتحة ، فأكلنا وشربنا فى لذة وانشراح ، وتلاقى فمى بشفتيها فى نشوة الشراب .

— ٢ —

وأقبل المساء ونحن كذلك ، وهنا استيقظ « كايتاح » ونضا عنه غطاءه ، وأخذ يفرك عينه ويتثاءب ويقول : وحق « الجعران المقدس » ، وحق «آمون» أيضاً — فلست أنساه — أن رأسى قد اكتملت عافيته وانزاح عنه الشيطان الجاثم ، وأشعر كأنى بعثت للحياة من جديد ، فلا ينقصنى الآن إلا الطعام ، أضع به حدًّا للمعركة المشبوبة بين عصافير جوفى التى تتقاتل هنالك لفرط جوعها ! . . ولم ينتظر منا جوابا ، فأقبل على طعامنا يلتهم منه التهاما ! . .

وقلت له : أيها السكير المعربد ! . . كنت أستطلع رأيك فى كيف يكون الخروج من المأزق الذى أوقعتنا فيه ، فلم تحفل بهذا ورحت تتهالك على شراب النبيذ ، فيسلبك شعورك ويسلم رأسك إلى النوم الثقيل ، ثم تستيقظ آخر الأمر فيكون همك كله مصروفا إلى الطعام وحده ! . . أفلا علمت أيها الغبى ، أن جنود الملك تطاردنا وأن مصيرنا ، إذا وقعنا فى أيدهم هو الموت المحقق ؟!. قل لنا، عاجلا ، ماذا عسانا أن نصنع ؟ ! . .

قال وهو يعبث بشعره كالمفكر : الواقع أن هذا الزورق أكبر من أن يقوى ثلاثة فى مثل حالنا على تسييره تجديفاً فى هذا النهر المتلاطم الأمواج المتعاكس التيارات . وأنا بخاصة ، وأقول الحق ، أبغض التجديف لأنه يصيب يدى بالفقاقيع الدامية ، فلست أصلح لهذا ، والرأى عندى أن نغادر الزورق إلى الشاطىء . ومن الممكن أن نجد حمارين من تلك الحمير الآبدة ، أو نسرقهما ، فنضع أمتعتنا على ظهريهما ثم نأخذ سبيلنا هربا . ولكيلا نلفت إلينا الأنظار ينبغى أن نبدل ملابسنا بأخرى رثة قذرة ، وأن نداخل الناس على أننا فقراء هائمون على وجوههم فى الآفاق ، ولنجعل من ثلاثتنا فرقة مجون وتهريج متنقلة بين القرى على طول الطريق ، وسيقبل القرويون علينا فرحين رغبة فى التسلية ، وفى استطاعتنا أن نطالعهم بما لم يألفوا من المظاهر الغريبة التى تدهشهم وتضحكهم ، فأنت تقرأ لهم حظوظهم

فى نقط الزيت مخلوطا بالماء ، وقد عرفتَ هذا فى « بابل » ، وأنا أطرفهم بالقصص والروايات المثيرة ، وهذه الفتاة تفتنهم برقصاتها الرائعة ، فهذه حرفة لا تشق علينا وستخفى حقيقتنا فى أستارها ، فلا نخاف أحداً ، لأن المشعوزين الفقراء لا يطاردهم أحد ولا يرى فيهم اللصوص ما يغرى بالسرقة .

وأردف « كاپتـاح » قائلا : فذلك الذى أراه هو خير ما ينبغى أن نفعل ، خروجا من المأزق وتخلصاً من القلق . أما أن نظل فى الزورق نضرب به وحدنا فى هذا التيه من النهر ، فليس عملا مأمون العاقبة . وما أحسب أصحابه المساكين ببعيدة منا ، فهم لا شك مختبئون بين هذه الأعشاب القريبة يرصدون حركاتنا ، فإذا جنّ الليل ودجت الظلمة ، وثبوا علينا ليقتلونا ويستردوا زورقهم ، فما يتركوه لنا لنسرقه على أعينهم !..

وكان « كاپتاح » على صواب فيما يرى ويفترض ، فأصحاب الزورق — وهم عشرة من الرجال الأشداء — سيضربون ضربتهم المتوقعة حتما ، وما لنا بهم طاقة ، ولهذا أقررت رأيه على الفور ، ونهضنا فأفرغنا على أجسامنا زيتاً مما تركوه بالزورق وصبغنا وجوهنا بسواد الطين ، وتقاسمنا نقودنا الذهبية والفضية الباقية معنا ، وأخفيناها فى أحزمتنا وملابسنا ، ولم يكن صندوق عقاقيرى مما يمكن أن أتركه ، فلففته فى الحصير وربطه « كاپتاح » إلى ظهره وهو يتأفف ، وأخذنا نجدف بالزورق خائضين به ما كان يعترضنا من الأعشاب حتى بلغنا الشاطىء ، فغادرناه تاركين عليه الطعام والنبيذ أخذاً بما أشار به « كاپتاح » إذ قال لنا إن أصحاب الزورق — عندما يسترجعونه — سيعنون بشراب النبيذ أكثر مما يعنون باقتفاء أثرنا ، وإذا كانوا قد اعتزموا شكايتنا إلى القاضى فسيكونون مخمورين ، وعندئذ تضطرب مقالتهم له ، ويكون جزاءهم الطرد والضرب بالعصى !..

ومن الشاطىء بدأت رحلتنا الغامضة على هذه الصورة التنكرية ، مدلجين فى سبل شعثاء غير واضحة المعالم إلى أن بان لنا طريق من طرق القوافل فاستهدينا به فى مسيرنا ، حتى انتهينا فى مشرق الصباح إلى قرية تلقانا أهلها مرحبين معجبين

بجرأتنا على قطع الطريق سيراً على الأقدام خلال الظلام، في غير وجل من الشياطين! وقدموا لنا خبزاً معجوناً باللبن، وباعونا حمارين، وقد فرحوا بالنقود التي دفعناها ثمناً لهذين الحمارين، فهم قوم فقراء يعيشون على الكفاف في أكواخ تافهة من الطين إلى جوار حيواناتهم، ويندر أن تتداول بينهم عملات النقود، حتى أنهم ليؤدون الضرائب المفروضة عليهم من حنطتهم ومواشيهم.

وتتابعت الأيام ونحن على تجوالنا هذا سالكين طرقا شتى بين بلاد النهرين، نقابل عليها صنوفا متباينة من الناس. وكنا إذا لقينا الأغنياء المحمولين على كراسيهم ننحرف عن طريقهم أو ننتحى احتراما لهم، اجتنابا لما نتوجسه من شرورهم، فما نعرف في أمثالهم خيراً. وعلى النقيض من ذلك كنا أهدأ بالا وأكثر تطامنا إذا ما لقينا عامة الناس، فهؤلاء كانوا كلما أقبلنا على جماعة منهم أنسوا بنا وتجمعوا حولنا، فأثير دهشتهم وإعجابهم حينما أقرأ لهم حظوظهم في نقط الزيت على صفحة الماء. وكنت أتحرى في ذلك ما يرضيهم، فأنبئهم عن أوقاتهم السعيدة التي ينتظرونها، وأبشرهم بوفرة المحاصيل، والزيجات الهانئة، إلى آخر ما يفرحهم ويثلج خواطرهم. وفي الحق إن الفقراء ليتعلقون في حياتهم الساذجة المقفرة بمثل هذه الآمال، ويرون في التبشير بها، على صورة من الصور، عزاءاً لنفوسهم المحرومة، ذلك إلى أني لم أر من الحكمة أن أفجعهم في آمالهم فأسخطهم علينا، ونحن أحوج إلى مودتهم وكسب رضاهم ... وقد كانوا فعلا يهشون لنا ويحسنون ضيافتنا. وما كان ذلك ليكون، لو أنني صارحتهم بالحقيقة التي ألمسها في حياتهم أي لو أنني ذكرت لهم — مثلا — غلظة جباة الضرائب وما سيلاقونه من قسوتهم، وأنبأتهم بالفساد متغلغلا في نفوس قضاتهم وشيوع الرشوة في أحكامهم وحدثتهم عن غشيان الحميات وقت الفيضان وانتشار الجراد والذباب والقحط وغيض المياه في الصيف، والموت الذي يتلقفهم جماعات وأفراداً بعد العناء والضنى. فلو أنني قلت لهم هذا كله لما عدوت به الحقيقة الواقعة في حياتهم ولكنت به في نظرهم صادقا، ولكنهم — بلا ريب — كانوا يسأمونني ويكرهون

لقائى ، ولست أريد هذا بطبيعة الحال .

فإذا فرغت من هذا الزجر بالغيب ، أخذ « كابتاح » يطرفهم بقصصه عن السحرة والأميرات والبلاد الغريبة التى يحمل أهلها رؤوسهم تحت آباطهم ويتحولون يوما ما فى كل عام إلى ذئاب كاسرة .

وكانت « مينيا » إذا ما جاء دورها ، تفنن فى الرقص أمامهم وتدير جسمها فيه على أوضاع بارعة ، لا ليُسروا به ، بل لتواصل رياضة أعضائها عليه ، حتى تستوفى النهاية منه استمداداً لملاقاة إلهها فى اليوم المرتقب ، وكانوا يطيرون فرحا بهذا الرقص العجيب الذى لم يشهدوا له مثيلا من قبل ..

إن هذه الرحلة — على ما اكتنفنا فيها من مشقة وجهد — قد أمدت عقلى بما كان يصبو إليه من الإحاطة الشاملة بأخلاق المجتمعات البشرية المتناثرة فى أرجاء الدنيا المتباعدة ، وأستطيع الآن أن أخلص منها إلى رأى حاسم هو أن جميع الناس فى جميع الأنحاء على غرار واحد ، لا يكادون يختلفون فى شىء باختلاف مواطنهم ، فالأغنياء والأقوياء هم فى هذا القطر أو ذاك متماثلون فى أساليب حياتهم وطرائق تفكيرهم ونوازع نفوسهم ، وكذلك حال الفقراء ، فهم فى كل مكان متشابهون فى هوان الشأن ومذلة العيش وبلاهة التفكير . وقد لا يتقاربون فى العادات والتقاليد والعبادات ، وقد لا تتلاقى عقائدهم الدينية فى الآلهة ، ولكنهم فيما وراء ذلك على شاكلة واحدة كمجموعات إنسانية مغمورة مسترقة ، تحيا فى دياجٍ حالكة من الجهالة والفقر والمرض .

وقد نظرت إلى هؤلاء البؤساء المحتشدين حولنا من زاوية هذه الحقيقة ، فرثيت لحالهم وأشفقت عليهم ونزع بى الشعور إلى مجاوزة ما كنا فيه معهم من الشعوذة والمداراة ، فأخذت أدعو مرضاهم واحداً بعد آخر ، وأعالج عيونهم المغشاة بالأقذار وجروحهم المتنزية بالدم والصديد ، دون أن أقتضيهم على ذلك أجراً . ولم أحفل بما قد يقع لنا بسبب هذا ، إذا كان من المحتمل أن يعرف ذلك عنا ، فتنكشف الحقيقة التى نخفيها ومن ثمَّ نستهدف للخطر ! .. ولست أدرى على وجه الدقة لماذا فعلت

هذا ؟ وما هو حافزى إليه فى ظروف تفرض علينا التزام التنكر المطلق ؟! ولكن لعلى أن أكون قد فعلته متأثراً بمصاحبة « مينيا » تلك الفتاة التى رققت عواطفى وأرهفت مشاعرى وحلقت بروحى إلى سماوات السعادة ، ونحن — أنا وهى و « كابتاح » — نهيم على وجوهنا حينذاك مشردين فى حال زرية ونتخذ مراقدنا إذا ما جن الليل متلاصقين على الأرض الجرداء أو الأكوام السبخة أو أهراء القش العفن ، وإنها لحال تشغل البال وتبلبل الفكر وتمسك القلب عن أن يخفق بمثل ما أشعر به من السعادة . بيد أنى مع هذا شعرت فى جوارها بأن قلبى يتلقى إلهامه من قوة أخرى هى فوق ما نحن فيه ، وأعتقد أن « مينيا » نفسها هى مصدر هذه القوة الملهمة ، فقد عرفت فيها الإيثار فى أعمال الخير والانبعاث له تقربا إلى ذلك الإله الذى ملك عليها كل حواسها ، فأنا أجرى فى مجراها وأدور فى فلكها من غير أن تكون لى إرادة مقررة فى ذلك ، فإن لم يكن هذا هو التعليل الصحيح لما فعلت ، فقد يكون ذلك — وهو مجرد افتراض — لأن طبيعتى كطبيب قد غلبتنى حينما رأيت أولئك المساكين يعانون من شقاء المرض ما يعانون من شقاء الفقر ، وقد يدخل فى هذا الافتراض حرصى على أن أختبر مهارتى الطبية لأستوثق من أننى لم أفقد منها شيئاً ! ..

وعلى أية حال يمكن القول بأن أعمال الإنسان التى يندفع إليها اندفاعاً تلقائيا ، تكون لأكثرها دوافع غير منظورة وقد يطول به العمر دون أن يتعرف مصادرها أو أسبابها .

ولقد تعاقبت علينا فى هذه الرحلة التى خضنا غمراتها ، خلال بلاد ما بين النهرين ، أزمات ومشقات ومواقف كثيرة معقدة ، ولكننى — على مالقيت فيها من كبير عناء وشدة بلاء — لا أزال أشعر بالحنين إليها ، سعيداً بذكرياتها ، كما لو كانت شيئا جميلا محببا ، ذلك لأنها تمثل فى تاريخ حياتى أنضر صفحات قوتى وشبابى . وكم أتمنى أن أنقلب فتياً عارم القوة كما كنت فيها لأكررها هائما بمشقاتها ، باذلاً فى سبيل ذلك كل ما خلص لى فى دنياى من معرفة ومال ، فحسبى

أن تكون « مينيا » إلى جوارى تلتمع عيناها بما هو فى عينى أجمل من ضوء القمر على صفحة ماء النهر .

وفى كل خطوة كنا نخطوها فى طرقات الرحلة ومسالكها الطويلة المتعددة ، كان الموت يمد على رؤوسنا ظلالا سوداء ، ولكننى لم أكن وقتئذ أبالى الموت أو أخشاه ، بل لقد كنت لا أكاد أفكر فيه كلما نظرت إلى وجه « مينيا » فياضاً بالجمال ، وإلى رقصها فياضا بالروعة ، فنى صحبتها نسيت كل شىء سواها . نسيت حتى جريمتى المخجلة التى اقترفتها فى أيام شبابى ، وما كان نسيانها بالأمر اليسير !.

وأخيرا انتهينا إلى حدود بلاد ما بين النهرين ، ولم يجد رعاة الأغنام الذين لقيناهم هناك ما يغريهم بنا ، فقد كانت مظاهرنا الزرية تنبىء بأننا فقراء لا مطمع فينا ، فانصرفوا عنا بعد أن أرشدونا إلى طريق أرض « ميتانى » ، فسلكناه ودخلنا المدينة دون أن ندفع مكوسا ، أو يعترضنا أحد من حراس المملكتين المتجاورتين . .

وفى هذه المدينة الكبيرة المكتظة بالناس إلى درجة أن بعضهم لا يعرف بعضا ، لم نر ما يدعو إلى التنكر ، فغشينا أسواقها واشترينا منها ملابس جديدة خرجنا بها أحسن مظهراً واخترنا لمقامنا هناك أفخم الفنادق .

وخشيت أن ينفد ما أملك من مال محدود ، فلم أجعل معوَّلنا عليه ، وأخذت فى مجاهرة الناس بأنى طبيب يعالج المرضى ، فتكاثروا علىّ طلبا للشفاء إذ كان أهل « ميتانى » أكثر نزوعا إلى الغرباء وأوفر ثقة بهم ، وقد تهيأ لنا بإقبالهم مورد حسن للمال ، يتأدى فى صورة أجور علاج وثمن دواء .

وكانت « مينيا » موضع إعجابهم ، وملتقى أبصارهم ، فتنافسوا على جمالها ، ولجوا فى طلب شرائها ، ولكننى كنت أتخلص منهم برفق غير مؤنس .

واستراح « كابتاح » من عنائه ، واسترد ما كان قد تزايل من عافيته ، فألقى بنفسه فى مجتمعات الناس وأنديتهم لهوهم ، يطرفهم بالغريب من قصصه وخاصة قصة اليوم الذى توج فيه ملكا على « بابل » ، وكثيرا ما كان يلقى النساء فيفتنهن

بهذه الأقاصيص التي لم يسمعن مثلها من قبل ، وكان الجميع يستمتعون به محدثاً لطيفا ، وراوية لبقا ، فيثنون عليه ويجزلون له الهدايا .

وعلى تلك الحال تتابعت الأيام ، إلى أن رأيت « مينيا » ذات مساء تطيل التحديق في وجهي وعلى عينيها سحابة رقيقة من قلق اليأس . ثم رأيتها بعد ذلك تنطوى على نفسها وتنشج بالبكاء فقلت لها : إني أعلم أنه الحنين يقتادك إلى وطنك وإلـهك ، وفي سبيل هذا قد أزمعتُ الرحيل عن هذه المدينة ، وسيكونُ علينا أن نقطع رحلة أخرى ليست أقل طولا من الرحلة الأولى ، حيث ينبغي أن نلم ببلاد « الحيثيين » لأسباب قد لا يهمك ذكرها ، وأظن أنه من المستطاع الإبحار من هناك إلى جزيرة أقريطيش « كريت » . بيد أنه من الممكن ، إذا راق لك ، أن أمضى بك إلى الشاطئ السورى ، ومن هذا الشاطئ تبحر السفن مرة في كل أسبوع . على أنني علمت أن قافلة ستبدأ رحلتها من هنا تحمل الهدايا التي اعتاد أن يرسلها سنويا ملك « ميتانى » إلى ملك « الحيثيين » ، وفي وسعنا أن نرحل مع هذه القافلة ، وسنكون فيها أكثر أمنا ، فوق ما نصيبه من معلومات كثيرة جديدة ... والرأى في ذلك إليك على أي حال .

وكان حديثي عن توجيه الرحلة إلى طريق القوافل المؤدى إلى بلاد «الحيثيين» ينطوى على إغرائها بمرافقتنا في هذا الطريق الأطول ، فقد أردت بذلك إطالة الوقت في صحبتها قبل أن تمضى عنى إلى إلـهها .

وأجابتني قائلة : فليكن ما ترى ، فليس لى رأى فيما ترسم من خطط ، وإنى لماضية معك حيث تمضى ، وما يضيرني أن تطول الرحلة أو تقصر ، مادمتُ في النهاية صائرة إلى بلادى ، فذلك وعدك لى ، وأنا به واثقة .

وعلى هذا قررت الانضمام إلى القافلة الراحلة ، وأن أكون طبيبها ، واطمأنت نفسى إلى ذلك لأننا سنكون فيها تحت حماية ملك «ميتانى» . ولـكن « كاپتاح » لم يعجبه هذا فراح يعترض ويحتج ، ويهمهم لاعناً ساخطا ، ثم يقول : أهكذا لا ننجو من خطر إلا لتدفعنا ياسيدى إلى خطر جديد ؟ ! . إن الناس جميعا ليعلمون

أن « الحيثيين » قوم قساة غلاظ الأكباد ، فما شأننا بهم ؟ ! .

فلوّحت فى وجهه بالعصا ليكف عن ثرثرته ، وقلت له : سأبعث بك مع بعض التجار المسافرين رأساً إلى « أزمير » ولن أندم على ما أدفعه أجراً لرحلتك هذه ، فقد ضاق صدرى بحمقك وسخافاتك ، وعليك عند ما تصل إلى « أزمير » أن تلزم منزلى هناك ، وترعاه إلى أن أعود ، فليس لك فى غير خدمة المنازل مكان ! .

وتراجع « كاپتاح » وقال متخابثاً : قد تكون على صواب فيما ترى من أمرى . ولكننى — وأنت شاخص إلى أولئك الحيثيين القساة — لاتطاوعنى النفس ، بل لا أسمح لها إن هى طاوعتنى ، أن أدعك وحيدا فى مثل هذه الرحلة المخيفة ، فلا مناص من مرافقتك فيها ، وإلا فكيف يكون مصير الحمل الوديع وسط كلاب الصيد الشرسة بدون حارس يذود عنه ؟ ! ومايتقضى فى ذلك سوى أن أعلم ماإذا كانت بلاد « الحيثيين » تتصل بالبحر ؟ ! .

قلت له : مبلغ علمى أنه لا يوجد بحر بين أرض «الحيثيين» وأرض «ميتانى» . فقال متظاهراً بالسرور : حمداً لإلـهنا « الجعران» المقدس ، فالرحلة إذن ستكون ميسرة ؛ فما أبغض شيئا أكثر من اجتياز البحار ، وقد أقسمت بالآلهة ألا تطأ قدمى ظهر سفينة تمخر عباب بحر ...

قال هذا ، وراح يحزم أمتعتنا استعداداً للرحيل .

— ٣ —

لم تقع لنا فى هذه الرحلة مع قافلة « ميتانى » حوادث تستحق الذكر ، فعلى طول الطريق كان « الحيثيون » بعجلاتهم يتولون حراستنا ، وفى كل محطة نقف عندها كانوا يعنون بتزويدنا بما نحتاج إليه من طعام وشراب .

« والحيثيون » كما رأيناهم ، أشداء صلاب الأعواد ، لاينال منهم الجو ، بارداً كان أو حاراً ، ولا يهابون اقتحام الأخطار وقد اشتهروا فى الحروب بالقوة والعناد ، ويرجع ذلك إلى ما ألفوه من الحياة بين التلال القاحلة ، واعتادوه من

شظف العيش وطول الاغتراب عن أهليهم وأطفالهم ، وهم لهذا يستطيلون على الشعوب الضعيفة ويعملون دائما على إخضاعها لسلطانهم . أما الشعوب القوية فإنهم يظهرون لها الاحترام ويسعون إلى كسب صداقتها !. وهم فى عمومهم ينقسمون إلى عديد من القبائل والقرى ، يقوم على كل منها أمير مطلق السلطان فيها ، وأمراؤها جميعاً يخضعون فى الوقت نفسه لملك عظيم بمدينة « هاتوشاش » التى تقع بين الجبال ، وهم يعدونه كاهنهم الأقدس وقائدهم الأكبر وقاضيهم الأعلى ، وبين يدى هذا الملك تجتمع السلطات المتعددة من روحية وزمنية ، وبها يحكم الناس ويسوس أمورهم . وكانت هذه السلطات من السعة والتعدد وقوة التأثير بحيث تفوق ما عرفت من السلطات المطلقة عند الملوك الآخرين ، فإن هؤلاء ، وخاصة فى مصر ، كان الكهنة والقضاة يحدون من سلطانهم ويسيطرون فى أغلب الأحوال ، على أعمالهم وتصرفاتهم !.

وكان الذين يتحدثون عن المدن الكبرى فى العالم لذلك العهد ، يذكرون « طيبة » و « بابل » وربما ذكروا مدينة « نينيقا » التى لم أرها ، ولكنهم لايذكرون « هاتوشاش » التى هى أكبر مدن « الحيثيين » ومقر ملكهم ، والتى قيل لى إنها مدينة كبيرة ذات مبان منيفة منحوتة من الأحجار ؛ ولعل ذلك لأنها تقع بين الجبال كما يقع وكر النسر وسط حقول الصيد ، وقد أوصدها الملك فى وجوه الغرباء عنها ، فلا يؤذن لغير القوافل العابرة بالدخول إليها لتضع أحمالها بين يديه ، وهى فى العادة لاتحمل إلا الهدايا المزجاة إليه من الأمراء الخاضعين لسلطانه ، وكانت الرقابة الدقيقة تفرض على رجال هذه القوافل خلال إقامتهم بالمدينة إلى أن يرحلوا عنها ، ومن هنا بقيت سرًّا مجهولا من العالم البعيد .

وقد بلغت القافلة المدينة ، وبانت لنا — على ما عرفت من أوصافها أثناء الطريق — مدينة زاخرة بالحياة ، متفاعلة الحركة ، فخمة المبانى ، تزدحم بالمصانع التى تنبعث من أجوافها العامرة قعقعة الآلات والمطارق حيث تصنع فيها الأسنة والحراب وطارات العجلات الحربية وهياكلها ، وكان ذلك تفسيرا لما أنبئت به

من نزعة « الحيثيين » إلى الحروب وتبريزهم فيها ، واعتدادهم بوظائفهم فى الجيش أكثر من اعتدادهم بأنسابهم ، حتى لقد أغناهم ذلك عن استئجار جنود من عناصر وجنسيات غريبة ، كما كان حال بعض الممالك الأخرى . وقد بلغ من شيوع روح الجندية فيهم وانطباعهم عليها أن كل شبانهم فى سن التجنيد يتواردون من تلقاء أنفسهم على ساحات التدريب العسكرى ليتلقوا الفنون الحربية على أيدى القواد .

ومع أن أهل المدينة كانوا يبدون فى حرص شديد ، وحذر ملحوظ ، عند ما يتصلون بنا ، نحن الوافدين عليهم فى القافلة ، إلى حد أنهم كانوا يجنحون إلى الصمت المطلق ، فإذا سئلوا سؤالا لم يخرجوا فى الجواب عليه إلا بعبارة «لا أفهم» أو « لا أعرف » ، ويبالغون فى هذا الحذر مخافة عين من عيون أصحاب السلطة تقع عليهم فيؤخذون بمظنة التحدث إلى أجنبى ! ..

مع هذا قد كشفتُ فيهم روح أخوة طيبة وميلا إلى الرقة ، على خلاف ماوقر فى أذهاننا عن غلظتهم ، من ذلك أننى رأيتهم يعجبون بالأزياء الأجنبية الحسنة ، ويلاحقون مرتديها فى تجوالهم ، ويتلطفون معهم ، ولو لم يتكلموا ، ليستمتعوا بمنظرهم فى هذه الأزياء .

وفى الوقت الذى وصلنا فيه إلى المدينة كان قد مضى على حكم الملك «شوبلوليوما» ثمانية وعشرون عاما ، وكان اسمه مخيفا ، لايسمعه الناس إلا رفعوا أيديهم مسبحين بحمده داعين له .

وهو فى قصره الشامخ وسط المدينة محوط بمظاهر الإكبار والإجلال من جميع أفراد شعبه ، ولا تفتأ ألسنتهم تردد الروايات المهوّلة عن مولده وشجاعته وأعماله الخارقة بما يرفعه درجات عالية عن مستواهم البشرى .

ولم أكن قد رأيته بعد ، وكذلك أعضاء بعثة « ميتانى » لم يروه ، فقد كان عليهم أن يضعوا الهدايا على أرض قاعة الاستقبال ويعودوا أدراجهم ، وقلما يلقاهم الجنود بشىء من الاحترام ، بل لعلهم كانوا لايسلمون من سخريتهم ! ..

وكان الرأى عندى قد اتجه إلى مزاولة عملى كطبيب فى المدينة ، ولكننى

ووجهت بحقيقة عجيبة هى أن « الحيثيين » لا يتداوون من المرض ، بل يخجلون من الشكوى منه ، فإن أصيب أحدهم به أخفاه عن غيره . والقاعدة عندهم أن الطفل إذا ولد ناقص النمو أو مشوهاً قتلوه فور ولادته ، وكذلك كانوا يفعلون بأرقائهم حين تلوح عليهم علة ، وكان فى « الحيثيين » أطباء لا يعدو عملهم تضميد الجروح وعلاج الرضوض مما لا ينشأ عن أمراض وعلل ، ولهذا كانوا قليلى الخبرة بفنون الطب . ولم أر فيهم شيئا يجاوز حدود الأمية والجهل سوى أنهم يعالجون بنجاح أمراض المناطق الجبلية ، فقد كانت لهم وسائلهم الخاصة فى خفض حرارة الجسم ، وكان ذلك ينقصنى فتعلمته منهم .

على أن يأسى من احتراف مهنة الطب بين هؤلاء الناس لم يطل ، فقد كانوا فى إخفائهم أمراضهم أسرى العادة المسيطرة ، ولكنهم بحكم الطبيعة البشرية كانوا يتمنون الشفاء منها . فلما علم مرضاهم أنى طبيب أخذوا يتسللون إلى غرفتى بالفندق تحت جنح الظلام يلتمسون عندى العلاج فى خفية ، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا أننى غريب وافد لا يعرفهم بأسمائهم ولا يخشون منه إذاعة أسرارهم . وقد أحسنت علاجهم واستطعت أن أعيد العافية إليهم ، فسروا لذلك وأجزلوا مكافأتى ، فأصبحت أملك الكثير من الذهب والفضة بعد أن حسبت بادىء الأمر أننى سوف أخرج من مدينتهم متسولا !..

ومن بين الأمراض التى عالجتها مرض كان أكثر شيوعا فى الطبقة العالية ، وهو اضطراب الأعصاب وارتعاش الأيدى ، وعرفت أن سببه التزمت والتزام الظهور بالاستقامة وحسن السلوك ، فقد كانت هذه هى الصفة العامة التى لا يجوز الانحراف عن جادتها ، ولكن الحياة الموفورة التى كان يحياها أثرياؤهم كانت تسلمهم فى كثير من المناسبات والأحيان إلى شرب الخمر ، فإذا شربوها ثملوا ، ولكنهم كانوا يكبتون ثملهم ويخفونه حتى لا يقال عن سلوكهم قالة سوء تخدش كرامتهم وتقدح فى كبريائهم . وقد أبرأت هؤلاء من هذه العلة فطابت نفوسهم لذلك كثيراً .

ومن هذه الناحية نشأت بينى وبينهم أحسن الصلات ، وصرت منهم بالموضع الأثير ، وزادنى قربا من قلوبهم أننى كنت أسمح « لمينيا » بأن ترقص لهم فى أنديتهم ومحافلهم ، وكانت تثير فيهم الإعجاب الشديد ، فيغدقون عليها الهدايا ، ولا يتجاوزون معها حد الإعجاب التزاما لقاعدة « حسن السلوك » التى صارت أصلامن أصول أخلاقهم .

وفى هذا الجو من الثقة والتطامن تفتحت أمامى مغالق نفوسهم ، فكنت أستوضحهم أشياء كثيرة فأظفر منهم بالكثير من معلومات كنت فى حاجة إلى الإحاطة بها . وقد عرفت منهم رئيس محفوظات الملك ، وهو ذو ثقافة ، ويجيد العديد من اللغات ، كتابة وتحدثا ، وكان بحكم مركزه على علاقة مباشرة بدخائل الملك وأسرار بريده المتبادل بينه وبين البلاد الخارجية ، فعنيت بتوثيق صلتى به مقرراً فى ذهنه أننى هاجرت من مصر منفيا ، ولا مبتغى لى فى هذه الأسفار الطويلة الشاقة سوى التزود من المعرفة والمال . وقد لمست فيه نزعة إلى التحرر من التقاليد القائمة ، وميلا إلى مجالسة « مينيا » على مائدة شراب ، فوافقت هواه وساقيته النبيذ ذات مساء ، و « مينيا » إلى جوارنا تطفح فتنة وجمالا .

وعندما أحسست بأنه قد انتشى ، سألته : لماذا تكون « هاتوشاش » مدينة مغلقة فى وجه الأجانب ؟ ! ولماذا تلتزم قوافل التجارة فى سيرها طرقا معينة فى حين أن مدينتكم هذه غنية وهى تنافس بعجائبها أكبر مدن العالم ؟ ! ألم يكن من الخير أن تجتلى الدنيا البعيدة والقريبة مجالى عظمتكم وتتعرف إلى مفاخر بلادكم ، ويشيد الناس فى مختلف الأقطار بذكر محامدكم ؟ !..

فأفرغ كأس النبيذ فى جوفه ، ثم غمز بعينه مسروراً « لمينيا » وقال : إن مليكنا « شوبلوليوما » قال عندما ارتقى العرش : أعطونى ثلاثين عاماً ، وأنا قمين بأن أجعل من بلاد « الحيثيين » أقوى مملكة فى العالم ! . . وها قد قارب الأجل نهايته ، وعما قليل سوف يسمع أهل الدنيا فى جميع أقطارها ما لم يكن يخطر لهم على بال عن هذه البلاد التى قلما يعرفون عنها الآن شيئا ..

قلت له : لما كنت فى « بابل » استرعى نظرى أن الملك هناك يستعرض جنود جيشه فى كثرة كاثرة ، فقد رأيت يوماً هذا العرض فإذا الجنود يتداركون تحت عينه صفوفا متراصة وفرقاً مترسلة ، عدتها فكانت كل فرقة ستين رجلا تمضى إحداها فى إثر الأخرى إلى ستين فرقة ، فإذا أتمت دورتها ، بدأت دورة غيرها بفرق أخرى إلى ستين دورة ، وهكذا حتى كانت الأرض ترتج تحت أقدامهم ، وكان لصوت حركاتهم العسكرية المتلاحقة مثل هدير البحر فى قوة جيشانه ، ولكنى لا أذكر أنى رأيت عندكم من قوة الجيش أكثر من مائة جندى دفعة واحدة ، ولهذا لا أكاد أدرى ماذا تصنعون بهذه الأعداد الكبيرة من العجلات والأسلحة الحربية التى تخرجها مصانعكم ؟ ! وما جدوى هذه الآلات إذا لم يقابلها جنود مدربون فى مثل كثرتها ؟ ! وماذا أنتم فاعلون بها فى مملكة جبلية ، وهى لا تصلح إلا للحروب فى الأودية والسهول ؟ !..

فضحك ضحكة ماكرة وقال وهو يغمض عينه عن قصد : أمن عادة الأطباء ، أيها الطبيب المصرى ، أن يكثروا هكذا من الأسئلة ؟ ! وهل أنت مقتنع إذا أجبتك بأننا قد لا نحصل على الخبز الذى نقيم به أودنا إلا عن طريق هذه الآلات ، نبيعها إلى الممالك ذات الحروب فى الأودية والسهول ؟ !..

قلت له : هذا مالا أقتنع به حقًّا ، إلا إذا جاز أن أقتنع بأن الذئب يخلع نابه ليسلمه إلى الأرنب البرى راضياً ليصيد له ويطعمه !..

فتعالت ضحكاته ، وأخذ يضرب على ركبتيه حتى انسكب النبيذ من كأسه ، وقال : إن كلامك ليثير الضحك ، وإنى لناقل نبأك إلى الملك . وإن شئت مزيداً من المعرفة ، فاعلم أن الحياة تجرى هنا على نسق يختلف عنها فى بلاد السهول . إنها عندنا القوة المصفاة من الضعف والوهن ، وقد يكون الأقوياء قليلى المدد ، ولكنهم بقوتهم يظهرون على الضعفاء مهما كانت كثرتهم . فمن صفات القوة الشجاعة . والشجاعة عدل وسلام . لذلك يعيش « الحيثيون » إخواناً متوادين مسالمين لتكافؤهم قوة وشجاعة ، ولا يكونون حربا إلا على الضعف حيثما كان ،

وليس هكذا حال الشعوب الأخرى ، فإنها تستكثر من القوة والضعف ، ومن الغنى والفقر ، ليتحكم الأقوياء فى الضعفاء ، والأغنياء فى الفقراء ، وإنكم لكذلك فى مصر . وعلى هذا فسترى قبل أن يشتعل الرأس منك شيباً يا « سنوحى » أن العالم يوشك أن يتلقى عنا درسا جديداً لا عهد له به !..

قلت له وأنا أصطنع السذاجة : أما نحن فى مصر فإن فرعون الجديد قد اتخذ له إلهاً جديداً يأمر بالعدل والسلام ويدعو إلى المحبة والمساواة ، فليس لكم وحدكم فضل السبق فى ذلك ..

قال : أعرف هذا ، فقد علمته من الرسائل التى ترد على الملك من الخارج ، وإن دعوة إلـه فرعون الجديد — التى تمنى السلام بين الأفراد والأمم ، ولا ترى فى العالم مشكلة تستعصى على الحل بروح الأخوة والمودة ، دون حاجة إلى الملاحاة والقتال — لهى دعوة تلقى منا التأييد ، لأنها تطابق مبادئنا وطباعنا ، ولهذا أحببناه ولو أننا لا نحب أن يمتد سلطانه إلى أبعد من مصر وأراضى السهول. وقد أرسل فرعونكم هذا إلى مليكنا شارة رامزة إلى السلام ، فتقبلها قبولا حسنا ، وأعتقد أن فرعون يستطيع أن ينال من ناحيتنا السلام الذى ينشده لأمد بعيد ، على أن يتابع تزويدنا بالكثير من ذهبه الوفير ، ليتاح لنا الاستزادة من مواد النحاس والحديد والحبوب ، فيتسع بذلك نطاق مصانعنا ، ويزداد إنتاجها من العجلات الحربية الأكثر عدداً وثقلا ، ولقد حشد لها ملكنا عدداً كبيراً من مهرة الصناع فى الممالك المختلفة ، وهو يسخو فى مكافآتهم ، ويقتضى هذا مزيداً من المال ، وهو عند فرعون مصر كالتلال !.. وقد تسأل : فيم كل هذا ونحن الراغبون فى السلام ؟ ! فأجيبك بأن للأطباء ، فيما أرى ، عقولا يشق عليها إدراك الغاية منه !..

قلت له : ذلك لأن عقول الأطباء ليست كعقول الغربان وأبناء آوى التى قد تجوز عليها هذه المتناقضات . وما أرى فى الناس — الأطباء منهم وغير الأطباء — من يستطيع أن يدرك الغاية التى يهدف إليها قوم مثلكم ، يستمدون كل هذا

الاستعداد للحروب وهم فى الوقت نفسه يتخذون من السلام شرعة ومنهاجاً ويتداعون إليه ، فذلك أمر غير مفهوم . ثم إننى قد سمعت فى « ميتانى » أنكم على الحدود القائمة بينكم وبينهم تزعجونهم بأحداث جسام ، يصورونكم بها قساة متوحشين ، ولم أسمع من أحد هناك ، على كثرتهم ، وعلى قربكم منهم ، أنكم فى شيء من هذه الثقافة التى تضفيها على قومكم !..

قال : الثقافة ؟ ! نعم نحن مثقفون ، ونبلغ منها ما لا يبلغون . وإننا لنقرأ ونكتب ، ونجمع فى مكاتبنا ومحفوظاتنا ألواحاً طينية منسقة مسلسلة ، نستظهر فيها عناصر الحياة ومقوماتها ، ونستهديها فى تنمية ملكات الخير والسلام ، وهى التى تحفزنا إلى ما يراه أهل « ميتانى » قسوة وتوحشاً ، ونراه من زاوية تفكيرنا تدبيراً حازماً فى معاملة الآخرين ، فهذه الثقافة تملى لنا فى السعة وبسط السلطان ، وتفرض علينا أن نرهب أعداءنا لينضووا آخر الأمر تحت لوائنا ، وعندئذ يصبحون مثلنا ، أهل مودة وموادعة ، دون أن تنشب بيننا وبينهم حروب تراق فيها الدماء ، وتزهق الأرواح ، وتفدح الخسائر . فهل فهمت إذن كيف أن ثقافتنا تدعونا إلى الاستعداد للحروب ، حتى لا تكون حروب ؟ !..

قلت : أليس يكفى أن تعيشوا فيما تريدون من سلام فى حدود مملكتكم ، وأن تدعوا الآخرين لشأنهم ؟ !

قال : هؤلاء صنفان ، أما أولهما فأصدقاء موالون يأخذون بأسباب الحياة مثلما نأخذ أو قريباً مما نأخذ ، وهم يدفعون لنا الضرائب فيشتركون بها معنا فى إعداد وسائل القوة ، ولهم علينا حق الأمان ، فنحن تاركوهم أحراراً فى تقاليدهم وعباداتهم .

وأما الصنف الآخر ، فأقوام لا يعرفون من الحياة إلا أن تكون بغيا وسطواً واستطالة على غيرهم وإغارة على بلاد غير بلادهم ، وأولئك وإن كانوا منا بمبعدة إلا أننا لا نأمن من جانبهم المنافرة والاعتداء ، ولهذا نستعد لهم ، ونسلط على أعصابهم قوتنا فى غير قتال ، لا لنتقى شرهم فحسب ، بل لنفتح لهم أبواب السلام

أيضا ، فيريحون ويستريحون ...

قلت : أوَ مُرسَلون أنتم فى هذا على رأى آلهتكم ؟ ! إن الآلهة فى الممالك الأخرى هى التى توحى وتشير ...

قال : أعتقد أن هذا المبدأ من السهولة واليسر بحيث لا نحتاج فيه إلى استيحاء الآلهة واستشارتهم . إنه حكمة صاحب السلطان فى تيسير الحياة على الناس ، وقد لا يكون هذا هو الشأن فى بلاد السهول ، فإن للآلهة هناك سلطانا واسعا مسيطراً على كل شىء ، حتى فيما لا ينبغى أن يقحمها الناس فيه ، فهم يستنبئونها الصواب والخطأ ، ولكنها فيما أعلم لا تجود بالصواب إلا على الأغنياء ، أما الفقراء فهم دائما المخطئون الذين لا يصيبون !..

ولم أشأ أن أثقل على صاحبى أكثر من هذا ، فأنهيت الحديث ومجلس الشراب وقلت « لمينيا » بعد أن خلونا : لقد فرغت حاجتى من بلاد « الحيثيين » ، وإنى لأرى أن نرحل عن هذه البلاد ، فما أطيق المقام فيها أكثر من ذلك ، فهذا الرجل الماكر قد ينقل الحديث إلى الملك ، وأخشى أن يستريب فى أمرى فينالنى منه سوء ، فعلينا أن نعجل بالرحيل دون أن يشعر أحد بذلك .

ولم أجد مشقة فى الحصول على رخصة السفر فى طريق معين ، فقد أعانني على ذلك بعض المتازين الذين توثقت علاقتى بهم ، وحينما فطن مرضاى إلى أنى مفارقهم أعربوا عن أسفهم ، وحاولوا أن يثنونى عن السفر مؤكدين لى أننى لو بقيت بينهم فسأصبح فى سنوات قليلة من كبار الأثرياء ، ولكنى ضاحكتهم وتفكهت معهم وتقبلت هداياهم التى قدموها لى سخية وافرة كتحية وداع .

وغادرنا « هاتوشاش » معجلين ، وكنا ونحن نمتطى ظهور الحمير نرى الأرقاء والعميان يديرون أحجار الطواحين على جانبى الطريق ، فنستحث المطى على السير واسعة الخطى .

وبعد عشرين يوماً قضيناها على هذا السير الحثيث ، بلغنا أول ميناء على البحر .

— ٤ —

وفى المدينة التى يقوم هذا الميناء على مشارفها ألقينا رحالنا ، ولبثنا هناك نرقب السفينةالتى نبحر عليها. وكانت المدينة تزدحم بالفسّاق والمجرمين،ولا يكاد ينقطع فيها الصخب والضجيج ، فليس فيها مايغرينا بالبقاء ، ولكننا اضطررنا إلى التخلف بهاوقتاً أطول مما كنا نقدر ، ذلك أن السفن الثلاثة التى تتابعت على المرسى مبحرة قد أبت « مينيا » أن تركب فى واحدة منها : فقد كانت الأولى فى نظرها صغيرة ، وستكون — كما ترى هى — معرضة للغرق ، وهى تخشى أن يقع لها مثلما وقع حينما تحطمت السفينة التى كانت تركبها فى طريقها إلى إلهها ، أما الثانية فكانت أكبر من الأولى ، ولاخوف من غرقها ، ولكن « مينيا » تراها سفينة سورية ، وهى لا تريد الإبحار فى السفن السورية ، وأما الثالثة فقد أخافها منها أن ربانها يلوح الشر فى عينيه ، وهى لا تأمن أن يبيعنا رقيقاً فى بلاد أجنبية !..

ومن هنا طال مكثنا بالميناء ، ولم أضق بذلك ، فقد وجدت فى هذا المجتمع الصاخب المتشاكس عملا متصلا ، من تضميد جروح إلى خياطتها إلى فتح وتجبير جماجم مهشمة ، فما أكثر ما كان يقع من حوادث ، وما أكثر ما يكون بعدها من مصابين !..

وشاع أمرى كطبيب بين جمهور الميناء ، فجاءنى رئيس الحركة البحرية ، وكان يعانى من مرض تناسلى مزمن ، وكنت قد عرفت الشىء الكثير عن هذا المرض وعن وسائل علاجه فى « أزمير » فعالجته حتى برىء منه ، فسرّه ذلك غاية السرور ، وأخذ يشكرنى ويثنى على مهارتى ، ويسألنى عما أريد من أجر على ما أسديت إليه من فضل كبير !..

فأظهرت له زهدى فى المال كأجر على علاج صديق مثله ، وقلت له إننى لا أسأله شيئاً سوى أن يهدى لى السكين التى كانت تتدلى من حزامه الجلدى ، فسأعتز بها كذكرى لصداقته .

ولكنه قال معترضاً : إنها سكين عادية ليست بذات قيمة ، فقبضها ، كما ترى ، خالٍ من توشيه الذهب أو الفضة ، وما أراها جديرة بالإهداء إلى طبيب بارع مثلك .

ولم يغب عنى أنه إنما يهوّن من أمرها لأنها من الأسلحة المصنوعة من الصلب فى مصانع الحيثيين ، وأنهم ممنوعون من التعامل بها مع الأجانب بيعاً أو إهداءاً . وفى « ميتانى » كان لا يحملها إلا الأشخاص الأكثر امتيازاً ، فأثمانها كبيرة حتى لتبلغ عشرة أضعاف وزنها ذهباً ، ولم يكن بمستطاعى شراء واحدة منها لامتناع بيعها إلى الأجنبى ، ولهذا رغبت فى الحصول عليها هدية من رئيس حركة الميناء ، مستغلا عاطفته الشخصية نحوى بمناسبة إبرائه من مرض خطير ، ولكنى إزاء رفضه وتأبّيه لم أشأ الإلحاح عليه حتى لا أثير الشكوك حولى .

غير أنه عاد يفكر ويراجع نفسه ، فقد كان عليه أن يعطينى شيئاً ، ويبدو أنه وازن بين أن يعطينى المال الذى يرضينى ، والسكين التى أطلبها ، فرأى أن الأفضل عنده الاحتفاظ بالمال الذى هو أكثر فائدة له من السكين ، ومن ثمّ قال : هذه هى السكين ، فخذها هدية وتذكاراً .

وتناولتها منه فرحاً شاكراً ، وتحسّستها فألفيتها مرهفة حادة ، حتى ليستطيع أى إنسان أن يحلق بها ذقنه ، واعتزمت تحلية مقبضها بطبقة من الذهب كما رأيت كبار الرجال يفعلون فى « ميتانى » .

وفى هذه المدينة كانوا من وقت إلى آخر يقيمون معارض للثيران الوحشية على ساحات واسعة يتوافد إليها النظارة ليشهدوا الصراع بينها وبين شبانهم الذين مرنوا على هذا النوع من أنواع الرياضة إظهاراً لشجاعتهم ، وكان ذلك أمراً مألوفاً فى كل المدن القائمة على موانىء البحر ، وقد أتيح لنا أن نشهد خلال إقامتنا عرضاً من معارض هذا الصراع ، فرأينا فتياناً خفاف الحركة يواثبون هذه الثيران المخيفة ويقفزون على أكتافها وظهورها ويحاورونها محاورة بالغة الخطورة ، وقد أبهج هذا « مينيا » وأثارها فاندفعت إلى الساحة ، ولأول مرة رأيتها فى مهارة عجيبة

ترقص أمام تلك الثيران التي هي أشد ضراوة وتوحشاً من الحيوانات الأخرى .
فالفيل مثلا ، وهو أكثر ضخامة وأكثف بدناً في دنيا الحيوانات يمكن أن يكون أليفاً مأمون الخطر إذا لم يثره أحد ، أما الثور المتوحش وخاصة في ساحة صراع ، فهو مستثار لا يهدأ ولا يستكين ولا يوادع ، بل هو يهاجم منازليه في عصبية مرعبة ، مسدداً إليهم قرنيه الطويلين مدببي الأطراف كأنهما في حدتهما مخراز حداد ، وكثيراً ما رأى الناس أن هذه القرون تنفذ إلى صدور المصارعين الأشداء، فيهوون لفورهم قتلى تحت أقدام الثيران الهائجة .

وعلى ما عراني من خوف شديد على « مينيا » وهي تواجه هذه الثيران في حلبة الموت ، كنت مبهوراً بما رأيت من فنون رقصها الساحر .

كانت ترقص متشحة ثوبا من النسيج الرقيق ، والثيران في أشد حالاتها ثورة واندفاعا ، فتنفلت منها في خفة العصفور ثم لا تكاد تختفي عن الأعين وسط جسومها المطبقة عليها حتى تعود فتظهر في قفز سريع على قرونها المشرعة ، وعندما تستوي على قرني ثور منها تنهض على قدم واحدة وتلطم بالأخرى وجهه إمعانا في إثارته ، ثم تثب في الهواء وثبات مدهشة ينطوي فيها وتنتشر وترتد منها لتقف متماسكة على ظهر الثور العنيد غير وجلة ولا هيابة !..

ولم يكن النظارة المحتشدون قد شهدوا مثل هذا من قبل ، فأعجبوا « بمينيا » إعجابا عظيما أعربوا عنه بالهتاف المتواصل والتصفيق الحاد ، وأقبلوا عليها بعد أن فرغت من رقصها العجيب الفاتن يضعون ضفائر الزهور فوق رأسها وحول عنقها ، وأهدى إليها فتيان المصارعة طستا منقوشا عليه صور الثيران باللونين الأحمر والأسود، وكان من بين الحاضرين ربابنة السفن الذين يجوبون البحر دائما ، فهؤلاء كانوا كذلك في دهشة كبيرة من هذا الرقص الرائع الذي قالوا إنهم طوال رحلاتهم إلى « كريت » وغيرها لم يشهدوا مثل هذه الفتاة في دقة فنها ومرونة أعضائها ، فضلا عن قوة جنانها وجرأة قلبها .

وألقت « مينيا » بنفسها على صدري بعد ذلك مجهدة ، فقد كانت تتفصد عرقا

حتى ابتل رداؤها ، كما كانت تبدو مزهوة مغتبطة ، وتلقيتها محييا مثنيا عليها ، مصطنعا السرور بما أبدت من فنونها الساحرة ، فالواقع أننى حينذاك كنت أشعر بأن الأشجان والهموم قد تحركت فى قلبى ، فكأنما كنت أقرأ على لوحة الغيب المجهول أن رقصها هذا الذى رأيته مدهشاً أمام الثيران المتوحشه ، إنما هو إيذان بالفراق بينى وبينها .

وجاءت فى أثر هذا سفينة من « كريت » ، ولم تكن صغيرة يخشى فيها الغرق ، كما لم تكن كبيرة من سفن سوريا التى لا تريد « مينيا » الإبحار عليها ، ولم تكن نظرات ربانها تنذر بالشر كذلك الربان الذى كانت قد وجلت من الركوب فى سفينته ، وأبدت « مينيا » ارتياحها إلى السفر على هذه السفينة العائدة إلى « كريت » ، وزادها ارتياحا إلى ذلك أن ربانها كان يتكلم لغتها ، وقالت لى : سأكون على ظهر هذه السفينة فى رحلة آمنة إلى إلهى ، وفى وسعك أن تتركنى مطمئنا ، وإنى لآسفة على فراقك ، كما أنى آسفة لما حدث لك بسببى من مضايقات ومحرجات وخسائر . .

قلت لها : ولكنك لن تكونى وحدك يا « مينيا » فإنى لذاهب معك إلى « كريت » .

قالت وهى تسدد إلى وجهى عينيها الصافيتين صفاء ماء البحر تحت ضوء القمر : لا أدرى لماذا تعنى نفسك هذا العناء بمرافقتى فى سفرة لا حاجة بك إليها ؟!

قلت لها : : لو أنك سألت قلبك لأنبأك عن سر إصرارى على مرافقتك .

قالت وقد وضعت يدها فى يدى : لقد طال طوافنا معاً يا « سنوحى » ، وعرفتُ مالم أكن أعرف من بلاد وأقوام كثيرة ، حتى كاد يبعدنى هذا عن التفكير فى بلادى وقومى ، بل حتى صرت أشعر أن الحنين إلى إلهى قد أصبح أقل حرارة مما كان ، ولهذا كنت أنسىء عودتى إليه وأرجئها متعللة بأسباب تافهة ، وتلك حال أوشكت أن تميل بى عن طريق المرسوم ، وتسلمنى إلى مصير غامض . على أنى بعد أن راقصت الثيران عرفت أن إلهى لا يزال يحتوى نفسى ويجذبنى إليه ،

وأنني يجب أن أموت له وفي سبيله قبل أن تنتزعني منـــه . . . وإنك لتعلم ماذا أعني ! . .

قلت لها : أجل ، إني أعلم ما تعنين ، وما هو بالأمر الذي ينقصه الوضوح ، ولـكني لا أريد أن أغتصبك من إلهـك ، لأني لا أريد أن نسخطه ...

وتجهمت « مينيا » لسماعها هذه العبارة مني ، فقد كانت — فيما تبـدو — تتوقع أن تسمع شيئاً آخر غير أن أقول إنني لا أريدها ! . . وابتعدت عني نافرة نفور الغضب ، واستلقت على موضع نومها ثم تمددت تحت غطائها لتنام . فاقتربت منها بعد قليل وأحسست أن جسمها ينفث حرارة شديدة ، فقلت لها : إنك تعانين من حمى ، وهممت أن أعدَّ لها علاجاً ، فتأبَّـت أول الأمر ، ثم عادت فطلبت هي ذلك ، فاستعملت لها بعض العقاقير حتى هدأت ونامت !.

وكان اليوم التالي هو يوم الرحيل ، فطلبت من « كاپتـاح » أن يعد الحقائب لنبحر إلى جزيرة « كيفتيو » إذ كنت أرى أن الطريق إليها هو نفس طريق « مينيا » إلى إلهـها .

وقال « كاپتاح » معترضاً : كيف ذلك ؟ ! ألم نتفق على ألا نضع قدماً في سفينة ؟ ! أو لعلك نسيت ما أصابني من شقاء الرحلات البحرية ؟ !

ولـكنه لقاء ما رأى من عدم مبالاتي باعتراضه ، عاد يقول : إذا كان لا بد مما ليس منه بد فإني مضطر إلى مرافقتك ، حرصاً على سلامتك ببركة « الجعران » المقدس الذي أحمله ، ذلك لأني لا أستطيع أن أعطيكه وأبقى بدونه ؛ كما لا أستطيع السفر وحدي إلى « أزمير » براً من غير أن يكون معي ، فلا مناص إذاً من أن نسافر — كما تشاء — بالبحر ، ليكون « الجعران » رفيقنا معاً . . .

وكان « كاپتاح » — فيما علمت بعد — يعتمد في موافقته على السفر بالبحر ، خلافاً لرأيه الأول ، على شيء آخر غير هـذا التعليل ، ذلك لأنه ، بدافع الخوف الذي ركبه من البحر ، كان قد أخذ يسائل البحارة ومعتادي الأسفار بالسفن عن وسائل الوقاية من أخطار البحار وأمراضها ، فزودوه بما يعرفونه من ذلك واشترى

من بعضهم تميمة من السحر قالوا إن فيها أسراراً واقيــة ، وقد رأيته يعلقها فى عنقه قبل أن تقلع بنا السفينة ، وزاد على ذلك أنه شرب مزيجاً من أعشاب مخدرة ، وحينما صرنا على ظهر السفينة بدا عليه أثر انفعال هذه الأعشاب فى رأسه ، فكانت عيناه كعينى السمكة المسلوقة . وفى صوت أجش طلب قطعة من لحم الخنزير لأن البحارة أكدوا له بأن فى تناولها حصانة من مرض البحر ، وقد آوى بعد ذلك إلى سريره بقمرة السفينة وفى إحدى يديه القطعة التى جيء بها إليـــه من لحم الخنزير ، وفى الأخرى « الجعران » المقدس .

وغادرت السفينة خليج الميناء ناشرة شراعها ، وراحت تمخر عباب المـاء فى اتجاهها إلى « كريت » مبتعدة شيئاً فشيئاً عن الشاطىء .

البيت المظـــلم

— ١ —

وعلى ما كان يروع من هذا البحر الذى ينداح على مرمى أبصارنا ، وينبسط ويستفيض من غير أن تلوح له من هنا أو من هناك حواجز أو حدود ، كنت أشعر على ظهره بالكثير من الراحة والهدوء ، ذلك لأن « مينيا » كانت معى ، وهذا حسبى . وقد كان نظرى لا يريم عنها فرأيتها تقف عند مقدمة السفينة تتنفس هواء البحر وتطيل فى هذا التنفس كأنها تلتهمه التهاما ، ووجهها يفيض بشراً وعيناها تتألقان بمثل ضوء القمر ، وكانت تميل إلى البحر تارة وإلى السفينة أخرى كأنها تستحثهما السير ليسرعا بها إلى النهاية التى تنشدها .

وكان الجو منعشاً ، فالسماء صافية والشمس ساطعة والريح تجرى رخاءً ، وربان السفينة راض بذلك كل الرضى ، وأنا خلال هذا أكثر انشراحاً بمرافقة « مينيا » وبما يلوح عليها من ابتهاج وغبطة .

ولكننى فى اليوم التالى أحسست بشىء من التطير والضجر ، ذلك لأنى

تفقدت الطيور البحرية ذات الأجنحة البيضاء التي كانت بالأمس تحلق على السفينة . لقد اختفت تماماً من الأفق ، وكنت متيمّناً بها ، وقد اقترن اختفاؤها بظهور أسراب من الحيوانات البحرية الشريرة الضخمة ، وكان ضوء الشمس ينعكس عليها وهى تسبح على سطح الماء فيزيدها ظهوراً ويزيدنى تشاؤما بمنظرها ، غير أن « مينيا » على خلاف ذلك ، كانت تلوّح لها بيديها وتحييها فى صوت واضح بلغتها الأصلية ، ثم تلتفت إلينا قائلة فى غبطة : هذه رسل إلـهى قد جاءت تحمل إلىّ تحياته ! . .

كنت وإياها فى ذلك اليوم على طرفى نقيض ، فهى تتعجل الوصول إلى إلـهها ، وتحت تأثير لهفتها إلى لقائه ، تتخيل هذه الحيوانات الشريرة رسلا من عنده ، وأنا أوجس منها وأشعر لموقف « مينيا » حيالها بالمرارة ، لا لأن تلك الحيوانات شريرة فقط ، بل لأن إحساسات « مينيا » الصارخة تؤذن بقرب ساعة فراقنا أيضاً ! ...

وشغلنا قليلا عندما رأينا سفينة « كريتية » من سفن الحرب تقترب منا على خط السير نفسه ، وتلتمع على جوانبها الدروع النحاسية ، ولـكنها سرعان ما أعلنت إشارة الأمان بإنزال رايتها بعد أن استوثقت من أن سفينتنا من سفن السفر العادى ، وبعد ذلك عاد كل منا إلى شأنه الخاص الذى يعنيه .

واستيقظ « كاپتاح » بعد نوم طويل ، وخالط البحارة وراح يتحدث إليهم فى مفاخرة وزهو ، عن رحلاته البحرية الـكثيرة فى عدة من البلاد الأجنبية ، كرحلته من «مصر» إلى «أزمير» ، والرحلة التى انفصل فيها الشراع عن الصارى ، والرحلة التى كان رفاقه فيها يرقدون جميعاً على ظهر السفينة يجترون ما فى بطونهم ، وكان هو والربان وحدهما يأكلان ويمرحان فى نشاط وعافية ، كما تحدث إليهم عن الوحوش المرعبة فى دلتا النيل وكيف أنها كانت تثب على قوارب الصيد فتغرقها ومن فيها حين تقترب منها ! . .

وكان ، كعادته ، يضفى على أحاديثه وقصصه صوراً من التهويل والمبالغة ،

ولم يكن هؤلاء البحارة بأقل منه انطباعا على الخيال ، فأخذوا بدورهم يتحدثون إليه عما شاهدوه من الأعمدة الغريبة فى أطراف المحيط البعيدة التى تحمل السموات ، وعن العذارى المتشكلات فى صورة سمك ، واللائى يترقبن البحارة فيغوينهم بإلقاء السحر عليهم ، وعن وحوش البحر المفترسة التى تفجأ ركاب البحر من حيث لا يشعرون فترديهم ، وقد كانوا يذكرون هذه الأقاصيص على نحو مثير ، ويصطنعون فيها الجد ، فقف لها شعر رأس « كابتاح » خوفا وفرقا ، وجاءنى مرتعداً كالهارب من وحش يطارده ..

وكنت ما أزال على حالى من اضطراب البال والمشاعر ، فكلما أوغلت السفينة فى البحر تراءت « مينيا » أكثر جمالا وابتهاجاً ، وأشد فتنة وسحراً ، فيعتادنى الأسى الممض ، وتبدو الدنيا فى عينى سوداء قاتمة ، حتى كأنها قد استحالت فى نظرى ركاما من رماد ، فهى على وشك الوصول إلى إلهها ، حيث لا أمل فى لقاء بعد ذلك ، وقد صارت قطعة من قلبى ، وسيظل هذا القلب بدونها تعساً شقيا ، ولا أدرى كيف يواتينى الصبر على فراقها حين أتفقدها إلى جوارى فلا أجد منها غير الذكرى ، وأية ذكرى ؟! ..

إن ربان السفينة ورجاله يتحفون بها أعظم الحفاوة ، ويولونها احتراما كبيراً ، لأنهم علموا أنها الفتاة الجميلة المختارة للإله ، الذاهبة إليه ، فكأنهم حراسه وجنده ، تجمعوا حولها ليذودوا عنها كل ما يمكن أن يحول بينه وبينها !... وإذن فلا حيلة ولا مناص ، ولا أمل ، وكم يضاعف هذا فى عذابى ؟! ..

ولاحت لنا « كريت » من بعيد كأنها قطعة من سحاب أزرق ، فتهلل البحارة وابتهج الربان وأخذ يقدم الأضاحى إلى إله البحر ، شكراً له على ما منحهم من جو طيب وريح مواتية ، ثم أخذت « كريت » تدنو منا بجبالها ومنحدراتها وشواطئها المخضوضرة بأشجار الزيتون ، وهنا تندت عينا « مينيا » بقطرات من دموع الفرح ، لأنها تشرف من قريب على معالم وطنها الحبيب .

وبلغنا الميناء ، ورست السفينة إلى جوار السفن الأخرى الرابضة هناك من

كل البلاد ، وكانت تنيف على الألف سفينة بين تجارية وحربية . وقد دهش « كابتاح » لكثرة عددها فقال إنه لم يكن يظن أن سفن العالم كلها تجتمع فى هذا الميناء ! ..

وكان مما استرعى نظرى أنه ليس للمدينة أسوار أو حصون أو أبراج ، فهى تقف فى وجه البحر سافرة كأنها البطل الشجاع الذى يواجه الأخطار فى غير خوف ، فدل هذا على سيادة « كريت » على البحار ، كما دل فى الوقت نفسه على قوة إلـهها وسعة سلطانه .

— ٢ —

إن خواطرى لكثيرة عن هذه الرحلة بذاتها ، ولكنى أقصر حديثها على « كريت » ومشاهداتى فيها كدينة . أما رأيى فى هذه المملكة وفى إلـهها ، فإنى ممسكه فى نفسى ومغلق عليه قلبى .

لقد طوفت فى الأرجاء والأقطار الكثيرة من هذا العالم الكبير ، وزرت أشهر ما فيه من بلدان ومدن ، فلم أجد فيها ، على كثرتها ، مثلما وجدت فى « كريت » من الطرائف والغرائب . .

لقد بدت أول ما رأيناها فى مرسى السفن ، حالية بالإشراق كالعروس فى جلوتها ، والبحر بين يديها يهتز كما لو كان يرقص طربا وينثر زبده تحت قدميها براقا كأنه نثار اللجين ، ثم يموج كالذى تشتد به نشوة الطرب ، ويتراجع مسترخياً وديعاً تاركا تحت قدميها أيضاً ركاما من أصدفائه مطويات على الدرر واللؤلؤ ، كأنما يحييها بخير ماعنده !..

فلما صعدنا إليها وعشنا بين أهليها ، رأينا مالم نر من قبل ، من انطباعات السرعة التى تتميز بها حياتهم ، فالإنسان فيها سريع الانتقال من حال إلى حال ، لايثبت على أمر إلا ليجاوزه إلى غيره ، فالأعمال والأفكار متجددة دائماً ، متغيرة من ساعة إلى أخرى ، حتى ليشق هناك الاطمئنان إلى الوعود والاتفاقات ، على

أن أهلها على العموم ظرفاء فى أحاديثهم ، يبتهجون بالحياة فى سائر أحوالها ولا يعترفون بالموت ، ولا أذكر أنهم أداروا حديثه على ألسنتهم مرة واحدة ، فهو عندهم شيء مخيف مزعج ، وهم أهل مرح وبهجة فما يحبون أن يرنقوا صفوهم بذكره ، ولذلك فإنهم إذا ما مات أحدهم ، أسرع أهله إلى مواراته التراب فى خفاء حتى لايزعجوا بذلك غيرهم ، وربما أحرقوا جثث الموتى حتى لايبقى منها أثر يذكّر بالموت ، وخلال مقامى « بكريت » لم يقع نظرى على جنازة واحدة لميّت منهم . وليس هناك من المقابر سوى بعض بنايات شيدت من الأحجار فى عصور قديمة لملوكهم السابقين . وهذه المقابر الملكية القليلة كانوا يحرصون على ألا تقع عليها عيونهم ، فهم يتخذون لهم طرقا بعيدة عنها ، وهكذا يباعدون بينهم وبين فكرة الموت كما لو كانوا سيظلون أحياءً لايموتون ! ..

وفى « كريت » فنون ، ولكنها عجيبة . فالمصور لايتقيد فى مرسمه بقاعدة ، وإنما يصور أى شيء يوحى به خياله ، ولا يبالى رأى غيره من الناس فى ذلك ، فحسبه أنه قد صنع مايروقه هو . وقد شهدت لمصوريهم لوحات حاشدة بالصور الملونة للأوانى والأزهار والأحياء المائية والفراشات ، ولكنها فى مجموعها لاترضى الفنان المتذوق ، فإنها قد رسمت على غير قواعد الرسم الفنية ، ومثلت خيال المصور وحده ، وكثيراً ما يكون خيالا سقيما ، ولعل ذلك راجع إلى انطباعات السرعة الفاشية فى هؤلاء القوم .

ومبانى « الكريتيين » وإن لم تكن لها فى ظاهرها هيبة المعابد والقصور كما هو الشأن فى البلاد الأخرى ، إلا أنها تنم عن الدقة والعناية وتوخى الإفادة منها داخليا أكثر من الاهتمام بمظاهرها الخارجية . وقد رأيتها موفورة أسباب الراحة والرفاهية ، فعلى نوافذها ستائر شبكية ينفذ منها الهواء صافيا غير مشوب بالجراثيم ، وفى داخلها حمامات المياه الباردة والساخنة مزودة بالصنابير والأحواض المصنوعة من الفضة ، وتتصل بها أنابيب تمتد إلى بالوعات خاصة لتصريف المياه وامتصاصها ، ويستوى فى هذا جميع السكان ، وما رأيت لهذا الترف المهذب مثيلا

في مدينة قبل هذه المدينة ...

ونساء « كريت » مولعات بالنظافة والتجميل ، وحظهن من الحياة المترفة أكثر من حظ رجالهن بطبيعة الحال ، فهن يقضين أطول وقت في الاستحمام وتدليك أجسادهن وترقيق بشرتها وطلاء وجوهن بالأدهنة والمساحيق ، ويرتدين من الملابس حللا منسوجة بخيوط الذهب والفضة ، يفرغنها على أجسامهن ماعدا الأذرع والصدور فإنها تبقى عارية ، إبرازا لجمالها ومفاتنها . وكانت ملابسهن تختلف في أزيائها ورسومها وأذواقها ، ولكنها جميعها بالغة الأناقة ، فمنها الملابس المفردة ومنها ذات الثنايا والأجزاء المتعددة ، وهذه أو تلك تزدان بتوشيات ورسوم من صنع الفنانين تمثل بعض الطيور والحيوانات وأغصان النخيل أو ما إلى ذلك مما يزيدها رونقا وبهاءا . وكن يضعن فوق رؤوسهن قلانس من الشعر المتشابك ، ومن فوق هذه القلانس يضعن قبعات صغيرة خفيفة تتماسك عليها مشابك من ذهب ، ولا يظهرن إلا مبديات هذه الزينة الكاملة ، لتزيدهن جمالا وإشراقا . وفي الواقع كانت عنايتهن بهذه الناحية تفوق عنايتهن بأي شيء آخر ، ولهذا كانت أجسامهن دائماً رخصة ريانة ، ووجوهن ملتمعة مشرقة ، وخواصرهن رفيعة دقيقة ، ويحرصن على التظاهر بهذا الجمال المتأنق في مختلف أدوار حياتهن . وفي سبيل ذلك يتجنبن بقدر الإمكان الحمل والولادة ، ولا يرين عيبا في ألا يحملن ولا يلدن ، وقد تحمل إحداهن فتلد في عسر شديد .

والرجال يجرون في هذا المجرى بأقصى ما تسمح به طبيعتهم الجنسية ، فهم يلبسون أحذية مزخرفة طويلة إلى الركبتين ، ويشدون أوساطهم بأحزمة عريضة يختالون بها ، وأيديهم صغيرة بضة وسيقانهم دقيقة ، وهم كالسيدات يتعهدون أجسامهم بالنظافة ويجردونها من الشعر ، ويحتفلون بذلك احتفالا ملحوظاً .

وهم على خلاف أهل الموانى البحرية لا يعرفون إلا لغتهم الأصلية ، والقليل جداً منهم هو الذي يتكلم بلغة أجنبية ، فإذا سئلوا في ذلك قالوا إنهم يؤثرون لغتهم لسهولتها وعذوبتها .

وحياتهم هذه اوادعة جملتهم لا يهتمون كثيراً بأعمالهم ، فثرواتهم مثلا مستمدة من تجارة البحار ، ولـكنهم مع ذلك قلما يذهبون إلى الميناء لأنهم هناك مضطرون إلى مخالطة الغرباء والطبقة الدنيا من العمال ، وهؤلاء يعيشون فى ذلك الحى المعزول عيشة تافهة قد لا تؤمن فيها عدوى الأمراض . وكثير من أصحاب التجارات البحرية الواردة أو الصادرة ، يعتمدون فى أعمالها على وكلاء يعهدون إليهم بذلك . وقد ترتب على هذا أن الغرباء الوافدين على الميناء والمقيمين بمنطقته قد استطاعوا أن يصيبوا ثروات كبيرة دونها ثروات تجار المدينة أنفسهم .

وفنونهم الموسيقية عجيبة غاية العجب ، فعندهم آلات تعزف ألحاناً من غير عازف ، ويزعمون أن باستطاعتهم أن ينقلوا الموسيقى إلى حروف مكتوبة على لوحات ، فإذا قرأها إنسان استحالت إلى أصوات موسيقية رتيبة من غير أن يكون قد استمع إليها أو عرف شيئاً من ضوابطها الفنية . وكنت قد سمعت من الموسيقيين فى « بابل » أنهم يستطيعون أن يفعلوا مثل ذلك ، ولـكننى لم ألق بالا لمزاعم البابليين والـكريتيين على السواء ، فلست أعرف شيئاً كثيراً عن الموسيقى ، وأنا أقل معرفة بها فى البلاد الأجنبية ، وأذنى لا تستسيغها على أى حال ، وأشعر أن الـكريتيين ينقصهم الصدق فيما يقولون ، ففى أنحاء أخرى من العالم يجرى فى الناس مثل مشهور يقول : « أكذبُ من كريتى » . .

وليس فى « كريت » معابد ، ومظاهر عنايتهم بآلهتهم تكاد تـكون منعدمة إلا فيما رأينا من قيامهم على خدمة الثيران وحسن تعهدهم لها ، وهى التى شاع الاعتقاد بأنها ترقص للآلهة . على أنى موقن أنهم لا يبالغون هكذا فى رعايتها وترويضها عن عقيدة دينية دافعة ، وإنما هم يفعلون ذلك شغفاً بهذا الفن من الرياضة ، ونشداناً لمتعة الرقص أكثر من أى شىء آخر . .

وللملوك فى الممالك الأخرى استعلاء وقداسة ، ولـكن الملك فى « كريت » ، يُعَدُّ بين أهلها شخصاً عادياً ، لا يميزه فيهم سوى قصره الذى هو أكثر سعة من دورهم ، فلا يحفظون له فى أنفسهم أو يبدون له فى معاملتهم توقيراً غير عادى .

وهم يذهبون إليه فى قصره متى شاءوا ، ويجالسونه ويتحدثون إليه كما لو كانوا وإياه على درجة سواء ، لا تقيدهم فى هذا مراسم معينة ولا طقوس مفروضة .

وهم يشربون النبيذ ، ولكنهم يشربونه فى قصد واعتدال لمجرد الرغبة فى أن يظلوا منشرحى الصدور ، ويرون الإفراط فيه إلى الحد المسكر ضرباً من الوحشية غير اللائقة بالإنسان ، ولهذا لم أر فيهم واحداً استبد الشراب بوعيه أو غلبه على أمره فى المآدب والمجتمعات ، على غير ما نراه من أحوال السكارى فى مصر وغيرها من مختلف البلاد .

وفى حرية واسعة يتلاقى النساء والرجال هناك ، حتى ليبلغ الجنسان فى ذلك حد الإباحية . ومن المألوف فى حياتهم أن يرقص الفتيان والفتيات معاً أمام الثيران فى حلبات الرقص العامة .

تلك هى « كريت » ، وهؤلاء هم أهلها كما عرفنا من أمرهم فى هذه الرحلة .

ولأعد بعد هذا الاستطراد إلى ما كان من شأننا منذ غادرنا الميناء . .

لقد كان الفندق الذى نزلنا فيه صغيراً ولكنه على صغره كان أنيقاً جميلا، يفوق فى أناقته وجماله فندق « بيت عشتروت للسرور » فى « بابل » ، كما كان يمتاز عنه بالخدمة والنظافة ، لأن الخدم فى « بيت عشتروت » كانوا لغبائهم لا يحسنون ذلك .

وبعد أن استقر مقامنا به أخذنا نُعدّ أنفسنا للخروج إلى المدينة ، فاغتسلنا وأبدلنا ملابسنا ، وتجملت « مينيا » ، فوضعت على شعر رأسها المصفف قبعة صغيرة فى حجم المصباح ، وانتعلت حذاءاً ذا عقب مرتفع تضطرب به مشيتها ، وهو شىء مستغرب ، ولكنى لم أشأ إبداء ملاحظتى عليه حتى لا أضايقها ، بل لقد ساعدتها على استكمال زينتها فأعطيتها أقراطاً وقلادة من أحجار منوعة الألوان ، وكان الذى اشتريتها منه قد قال إنها أحدث ما ظهر للزينة فى تلك الأيام ، وكان ينبغى أن يقول أيضاً إنها تفقد بهاءها وروعتها حين تظهر أنواع سواها فى الأيام المقبلة ، فما أن تحلّت بها «مينيا» حتى بدت من فتنة الجمال وسحره بحيث لا أعرف أنى رأيت

مثلها فيا مضى من أيام حياتى . .

وأحسسنا بالفرق الكبير بين حى الميناء والمدينة عند ما انتهينا إليها ، فنى ذلك الحى الذى يقوم به الفندق ، زحام وضجيج وجماهير محتشدة للبيع والشراء ومايتخلل ذلك من مساومات ومماحكات ، وأكوام من عروض السلع ، ومنها سمك البحر ينفث روائحه غير المحتملة ، وليس هكذا حال المدينة ، فهى وادعة هادئة ، حالية بحدائقها الغناء ودورها المتعددة منافذ الهواء كأنها من حى الميناء عالم آخر !

ومضت بى « مينيا » وهى تعرف من شأن المدينة ما لا أعرف ، إلى رجل عجوز من الوجهاء قالت إن رباطاً من الصداقة القديمة يربطها به ، فقد كان لثقته بمهارتها فى فنون الرقص يراهن عليها فى حلبات الثيران ، ومن هنا نشأت الصداقة بينهما ، فكانت تتردد على بيته وتقيم أحياناً فيه . وحينما دخلنا عليه رأيناه منكبا على قائمة الثيران يتفحصها ويؤشر فيها على ما يعتزم الرهان عليه فى اليوم التالى . وقد فوجىء بزيارة « مينيا » وأثارت هذه المفاجأة فرحه وابتهاجه ، فأقبل عليها لهجا ، وضمها إلى صدره فى غير تحفظ صائحا : فى أى مكان كان اختفاؤك كل هذا الزمن الطويل ؟ ! لقد حسبتك ، هناك فى بيت الإلـه ! . . على أنى الآن سعيد بلقائك مهما يكن الأمر . ولقد كان إحساسى بعودتك صادقا ، فلم أسمح لأحد بالإقامة فى غرفتك ، ثم قال مستدركا : وأرجو ألا يكون الخدم قد غفلوا عن أمرى فشغلوها بشىء ما ، أو ألا تكون زوجتى قد أحالتها إلى بحيرة ماء لتربى فيها السمك ! . . حقا إن زوجتى لتستهويها إلى حد بعيد فكرة تربية السمك ! .

وقالت « مينيا » فى دهشة : « هيليا » تربى السمك ؟ ! إن هذا لشىء غريب ! . .

واضطرب الرجل العجوز قبل أن يقول : لا . إنها ليست « هيليا » . إنما هى زوجتى الجديدة ... إنك لا تعرفينها بعد ، وأظنها الآن مشغولة بعرض سمكها على فتى صغير ... فلندعها لما هى فيه ، فهى لا تحب أن يزعجها أحد عند ما يكون فكرها مشغولا بهذه الهواية . .

وفى هذه اللحظة فطن إلى وجودى ، فاستقبلنى مرحبا ، وقال لها : ألا تقدمين لى صديقك ؟ ! إنه سيكون صديق كذلك ، وله أن يعد منزلى هذا منزله منذ الساعة . .

فقالت « مينيا » إنه صديق « سنوحى » المصرى الذى يلقب بالوحيد ، وصناعته طبيب .

وقال معقباً فى مزاح : وكم من الوقت سيبقى هنا وحيداً ؟ ! ثم ماذا ؟ ! أمريضة أنت يا « مينيا » حتى يرافقك طبيب ؟ ! إن ذلك يحزننى ، فلشد ما أرجو أن تكونى موفورة العافية لترقصى غدا أمام الثيران ، فيعود لى بذلك ، الحظ الذى أدبر . . لقد تخلى عنى الحظ السعيد طوال غيبتك عن هذه الديار ، على كثرة ما بذلت فى سبيله ، وقد ساءت حالتى المالية ، أو هكذا يقول وكيلى بالميناء ، فما أعرف الحقيقة ، وربما كان غير صحيح إن « إيراداتى » أصبحت أقل من « مصروفاتى » كما يدعى ، فإنه ليلقى أمامى بقوائم حسابات معقدة لا أدرى من أمرها شيئاً ! .

قالت « مينيا » : لست مريضة ، ولكنى لقيت فى رحلتى أهوالا جساما ، تعرضت فيها للموت أكثر من مرة ، فأنقذنى منها هذا الصديق « سنوحى » ، وأبى أن يتخلى عنى إلى أن عدت كما ترى ، فكان لى فى هذه الرحلة الطويلة الحاشدة بالأخطار نعم الرفيق ، ونعم الصديق .

ثم روت له قصة الرحلة منذ تحطمت السفينة التى كانت قد أبحرت عليها إلى « سوريا » لترقص أمام الثيران المتوحشة .

فقال الرجل ، وهو لا يكاد يخفى قلقه : أرجو أن تكون أخطار الرحلة قد زالت عنك تماما ، وألا تكون هذه الصداقة الجديدة قد أضاعت شيئاً مما تعتدين به فى سباق الثيران ؟ !

واستطرد يقول وهو يقلب عينيه فيها : إن صدرك يا « مينيا » يبدو ناميا ، وألمح فى عينيك ومضات متندية على غير ما أعهد فيها من قوة التسديد ، وهذا يخيفنى عليك فى مجال الرهان ! .

فقالت « مينيا » : كنت أعتقد أنك ، كصديق ، ستسر لعودتى بعد طول غياب ناجية من الأخطار ، ولكنى أرى ألا شىء هو أشغل لبالك وفكرك من الثيران والرهان ، وأنت لهذا تفحصنى بعينيك كما يفعل البابليون فى أسواق الرقيق ! . .

قالت هذا مغضبة ، وتحدرت على وجنتيها قطرات من الدموع لفرط تأثرها . . .

قال الرجل ، محاولا إصلاح موقفه منها : بل عنيتُ الإطمئنان على سلامتك يا « مينيا » ، وما ذكرت الثيران إلا تعبيراً عن ذلك . فإن غياباً طويلا فى سفر شاق ، من شأنه أن يقلقنى عليك ، وأنا أعلم أنك تلتزمين فى حياتك العادية أسلوباً خاصاً كالاستحمام يوميا ، وهو أمر أشك فى أنه كان ميسوراً لك فى تلك البلاد الغريبة التى لا عهد لك بها من قبل . وما دمت ، كما تقولين ، قد عدت فى وفر من العافية ، فذلك يسرنى ويسعدنى ، فقرّى عينا ولا تحزنى . .

وأردف قائلا كمن تذكر شيئاً كان قد نسيه : كنت على أن أذهب إلى « مينوس » فى موعد مضى من لحظات غير قصار ، فأنا سائر إليه الآن ، وأرجو أن تبقَىْ حتى أعود ، فإذا جاءت زوجتى فاخبريها أننى هناك ، وأننى لم أشأ ، قبل ذهابى ، أن أقطع خيوط استمتاعها ، هى والصغير الذى معها ، بهوايتها المفضلة ! . . وقد يطيب لك أن تعرفى يا « مينيا » أننى فى طريقى إلى « مينوس » سأعرج على حظيرة الثيران لأشبع نظرى من الثور الجديد المميز بنقطة جانبية ، فإنه حيوان عجيب ليس له فى الثيران مثيل . .

وإنه ليهم بالخروج ، إذا « بمينيا » تستوقفه قائلة : سنرافقك إلى «مينوس» فإنى أريد أن أقدم « سنوحى » إلى أصدقائنا . .

ولم يسع الرجل العجوز إلا أن يوافق على ذلك ، فأخذنا وجهتنا جميعا إلى « مينوس » ، هذا الذى لا أعرف من يكون ؟ ! على أنى بعد قليل عرفت أنه

« الملك » . ولا ينفرد هو باسم « مينوس » وإنما هو اسم يطلقونه على ملوكهم واحداً بعد آخر ، تمييزاً لهم من أفراد الشعب .

وكما يتميز الملك فيهم بهذه التسمية ، كذلك قصره يتميز عن منازل المدينة بالسعة وفخامة المظهر . وقد رأيت فيه ، حين دخلناه ؛ حجرات كثيرة العدد ، مموّهة بالطلاء الجميل . وقد كانت جدران قاعة الاستقبال تزدهي برسوم دقيقة الصنع لحشائش البحر وأمواهه المتموجة ، وسمكه السابح فيها . وهذه القاعة الرحيبة كانت ساعتئذ تزخر بجمهرة كبيرة من الناس ، يتألقون جميعاً بأزيائهم الجميلة غالية الثمن ، حتى ليبدو أنهم يتنافسون فى ذلك ، وهم فى جلوسهم وقيامهم وأحاديثهم أحرار طلقاء ، يتنقلون من مكان إلى آخر كما يشاءون ، أو يتحلقون جماعات كما يريدون ، ويضاحك بعضهم بعضاً فى جهارة وسفور ، ويتساقون فى لذة ونشوة كؤوس المرطبات من نبيذ أو عصير فواكه ، ولم يخل مجلسهم من السيدات اللواتى كن كذلك متزينات بأبهى زينة . وكان أكثر الحديث بينهن منصرفاً إلى الموازنة بين ما يرتدين من ملابس وحلل وما إلى هذا مما يحلو للنساء أبداً أن يأخذن فيه ! .

وقدمتنى « مينيا » إلى كثير من أصدقائها ، فرحبوا بى ترحيباً تقليدياً ، بينما كانت عقولهم تسبح فيما هم فيه من سمر . ثم قدمتنى إلى الملك « مينوس » ، ذاكرة له فى إيجاز قصة الأخطار التى أحاقت بها وكيف أنجيتها منها ، فحيانى بلغتى فى كلمات مشوبة بالود ، وشكرنى على ما قدمت « لمينيا » من معاونة أتاحت لها العودة إلى وطنها سالمة ، وقال : وأرى أنه ينبغى أن تذهب « مينيا » فى أول فرصة تسنح ، لتدخل إلى بيت الإلـه ، فما يمنعها من ذلك أن دورها الذى اقترعت عليه بيدها قد فات أوانه ، فقد كان لهذا أسباب خارجة عن إرادتها ، ولا حيلة لها فيها ، والإلـه يعرف ذلك ويقدره .

وبعد لقائنا بالملك راحت « مينيا » تجول بى فى أنحاء القصر ، وحجراته المختلفة ، وكأنها من ذلك فى منزلها الخاص ، وكانت خلال هذا تحيي الخدم ويحيونها

كما لو لم تكن غريبة عنهم ، أو كما لو لم تكن قد غابت عنهم أمداً طويلا . وقد كان هذا طبعاً شائعا فى « كريت » ، فهم هناك لايشعرون بمن يغيب عن أبصارهم ولايثير حضوره ، بعد غيابه ، شيئا من اهتمامهم . وكثيراً ما يذهب بعضهم إلى خارج المدينة ، فى زيارة مزارعه ، أو فى أيما عمل من الأعمال ، فلا ينبىء بذلك أحداً ثم يغيب ماشاء أن يغيب ، ويعود فلا يسأله أحد أين كان أو لماذا غاب ؟! . ويلقاه أصدقاؤه لقاء من لم يغب عنهم سوى ساعة أو بعض ساعة ، وهو نفسه فى حديثه معهم لايذكر شيئا من سفره أو رحلته أو عمله . ولعل هذه العادة التى انطبع عليها سلوكهم الاجتماعى قد خففت ، أو ساعدت على تخفيف أثر الموت فى نفوسهم .

وأخيرا ذهبت بى « مينيا » إلى حُجرة تقوم على صخرة فوق مشارف البناء تطل نوافذها الواسعة على الحقول المزدهرة والأراضى المهيأة للزراعة وعلى غابات أشجار الزيتون المتناثرة بالمدينة ، وعرفت من « مينيا » أن هذه هى حجرتها الخاصة التى كانت تحيا فيها قبل أن تغادر « كريت » ، وكان كل مافيها من أمتعة وملابس وجواهر خاصًّا بها ، وقد رأيناها منسقة مرتبة على نفس الحالة التى تركتها عليها ، لم تمتد إليها يد أخرى ، كما عرفت أيضا أن « مينيا » تمت بصلة القرابة إلى « مينوس » وكنت قد فطنت إلى هذه القرابة من اسميهما ...

وازدحام حُجرة « مينيا » بما رأيت من ذهب وفضة وأزياء منوّعة هى فوق ماتطمح إليه فتاة مترفة ، ولايعنى أنها واحدة من أولئك الفتيات المسرفات فى رفاهية الحياة ورغادتها وترفها ، كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، وإنما أمرها فى هذا كان لايعدو رغبتها فى التجمل بشىء غير ما يتجمل له النساء الأخريات . ذلك أنها نشأت فى بيت الآلهة ، وتأثرت منذ طفولتها بالفكرة الدينية فى أوسع معانيها ، ومن ثم أصبح لايشغلها من الحياة شاغل إلا أن تكون العروس المختارة للإله ، وما أن وضحت نزعتها هذه حتى أزجيت إليها هذه النفائس تحقيقا لرغبتها فى الاستعداد لملاقاة إلهها على ما ينبغى له من الاحتفال .

وغادرنا الغرفة لتقودنى « مينيا » إلى بيت الثيران ، وهو أشبه ما يكون

بمدينة قائمة بذاتها ، فهناك الاصطبلات ومسارح الصراع وأبنية المدارس وبيوت الكهنة . وهذه المجموعة من المؤسسات تخفق بالحركة وتنفعل بالحيوية ، كما لا بد أن يكون ، وقد سميت « بيت الثيران » لأن كل مافيها أو أكثر مافيها متصل بها ودائر فى فلكها .

وكانت « مينيا » غير غريبة على هذا البيت الكبير ، فهى معروفة هناك حق المعرفة ، حتى أنها ، فى تجوالنا بين الثيران نفسها ، كانت تنادى كل ثور باسمه ، فيخور ويهتز ويضرب الأرض بحوافره كأنه يحييها مسرورا !.. وكذلك كان حال من لقينا من فتيان وفتيات . لقد أقبلوا عليها جميعاً متظاهرين بالفرح للقائها ، ولم يكن من العسير إدراك مايعتلج فى قلوبهم من الغيرة لعودتها إليهم ، فهم يصارعون الثيران ويراقصونها ، ولا ريب فى أنهم ينفسون على « مينيا » مهارتها وتفوقها عليهم فى هذا المجال ، ولذلك كان بادياً عليهم أنهم يلفقون فى لقائها مظاهر الترحيب والحفاوة . على أن الكهنة الذين يدربون الثيران والراقصين على السواء ، كانوا أصدق شعورا حينما استقبلونا مبتهجين ، فقد كانت « مينيا » أثيرة عندهم محببة إليهم ، فما أن رأوها حتى تلقوها أحسن لقاء ، وأدرجوا اسمها على الفور فى برنامج السباق لليوم التالى .

وعند ما علموا أننى طبيب ، أخذوا يسألوننى أسئلة متعددة عن الجهاز الهضمى للثيران وعن الغذاء الذى يصلح لها إلى غير ذلك مما يعرفون الإجابة عنه خيراً مما أعرف ، فلست — كما توهموا — طبيبا للحيوانات !.

وفى هذه الجولة قصدنا إلى البيت الذى يقيم فيه كبير كهنة إله « كريت » ، وهم يطلقون عليه للتمييز اسم « مينوتوروس » ، كتسميتهم الملك « مينوس » للسبب نفسه . وكان هذا الكاهن أكثر أهل « كريت » مهابة وجلالا . وقد بان فى عينى « مينيا » — ونحن ذاهبان إلى زيارته — أنها تهابه إلى حد الخشية ، وهى التى عرفتها لاتهاب أحداً ولا تخشاه ...

ولما أذن لنا فى الدخول عليه ، كان إذ ذاك فى غرفه مظلمة ، يجلل رأسه ووجهه

بأقنوم ذهبي يمثل رأس ثور ، فخيل إلىّ لأول نظرتى إليه أنه الإلـه الذى طالما سمعت عنه القصص والروايات ، ولكنه بعد أن انحنينا أمامه احتراما ، رفع هذا الرأس المصنوع الذى كان يلبسه ، وبدا لنا على صورته الآدمية الأولى ، وابتسم لنا محيياً ، غير أنى على الرغم من ابتسامته اللطيفة ، لم أشعر نحوه بميل ، فقد كانت ملامح وجهه تنم عن الصرامة والقسوة والسيطرة .

ولم تكن « مينيا » بحاجة إلى أن تذكر له قصة حياتها ، فقد كان يعلم كل شىء عنها . وكانت أسئلته قصيرة لا تجاوز الضرورة التى تقتضيها فى أضيق الحدود.

والتفت نحوى ، فشكرنى على المعاونه التى أمددت بهـا « مينيا » فى رحلتها حتى استطاعت أن تعود إلى وطنها وإلـهها ، وأخبرنى أن الهدايا الثمينة تنتظرنى بالفندق الذى أنزل به ، وتمنى أن ترضينى ! ..

وقلت لكبير الكهنة : لا حاجة بى إلى الهدايا يا سيدى ، فإنما أنا رجل علم ومعرفة ، وهما عندى خير من الذهب والفضة ، وفى سبيل العلم والمعرفة كان تطوافى بين أقطار الأرض ، وقد أحطت خبراً بما لم يكن لى به علم من قبل عن آلهة « بابل » و « الحيثيين » . وهأنذا فى « كريت » أنشد المزيد من العلم عن إلـهها الذى سمعت أنه يؤثر بحبه العذارى والفتيان الأصحاء على خلاف ما علمت عن آلهة « سوريا » ، فإن بيوتها هنالك تعج باللهو والمسرات ويقوم على خدمتهـا كهنة من الخصيان .

فقال معقباً : إن آلهتنا كثيرو العدد ، والعبادة هنا تجرى فى نطاق واسع من الحرية ، ويتمتع بهذه الحرية الأجانب الوافدون علينا أو القيمون بيننا ، وفى ميناء مدينتنا تقوم معابد لآلهتهم ، يتعبدون بها على بعد الشقة ونأى المزار ، وفى استطاعتك أن تقدم هناك ما شئت من قرابين « لآمون » و « بعل » .

وصمت قليلا ثم عاد يقول : ومع هـذا فإن عظمة « كريت » تعتمد أكثر ما تعتمد ، على ذلك الإلـه الذى يعبد سراً من عهود قديمـة ، ممعنة فى القدم ، لا نعرف متى بدأت ولا كيف بدأت ، لأن أجدادنا القـدماء لم يتركوا لنا شيئاً

واضحاً عنه ، ولأن الذين يذهبون إليه ، ويلقونه وجهاً لوجه ، لا يعودون ..

قلت له : إن آلهة « الحيثيين » هي السموات والمطر حيث تنزل عليهم غيوث الأمطار فتحيي موات الأرض وتنمي زروعهـا ، وتؤتيهم الأرزاق التي يعيشون عليها هم وأنعامهم ، وأظن أن إلـه « كريت » هو إلـه البحر ، إذ كانت ثروتها ومصادر قوتها مستمدة من البحر ، ومرتبطة به ، ومتفرعة عنه . وهكذا الآلهة في كل مـكان من الأرض ، تتمثل للناس فيما يمس حياتهم وأسباب معايشهم ، فيـكون تعظيمها والتعبد لها بقدر ما يكون لها من أثر في هذه الناحية من وجودهم .

قال الـكاهن الأكبر ، وثغره ينفرج عن ابتسامة غريبة : ما أراك قد جاوزت الحقيقة ، على أننا ، نحن الـكريتيين ، نعبد إلـها حيـًا على خلاف البلاد الأخرى التي تعبد الآلهة في أشكال شتى من تماثيل مصنوعة من حجارة أو خشب . إنها آلهة لا حياة فيها ، ولهـذا اتخذوا لها رموزاً من جماد . أما إلـهنا فقد اتخذوا له رمزاً يتمثل في الثيران ، وهي حيوانات موفورة الحيوية والقوة ، وقد أضفى على « كريت » بحياته وقوته السيادة على البحار ، وستبقى لنا هذه السيادة عليها ما دام حيـًا . ومع هذا فنحن من جانبنا لا نغفل العناية بمراكبنا وخاصة البحرية منها ، حتى لا تستطيع مملـكة أخرى أن تنافسنا في هذه السيادة البحرية .

قلت له : ولـكنني سمعت أن إلهـكم يأوي إلى بيت مظلم في « تربى » ، وأن الذين يختارون لخدمته في بيته هذا غير ممنوعين من العودة منه بعد انقضاء شهر على وجودهم فيه ، غير أني لم أسمع أن أحداً منهم قد عاد ، فلست أدرى لماذا لا يعودون ؟ !..

قال : طوبى لهم أولئك الذين يؤثرهم الإلـه بالاختيار لخدمته ، فذاك منتهى الفخار والتـكرمة لهم دون الناس جميعا ، ولا بد أنك قد علمت أن جزر البحر يتنافس بعضها بعضا في هذا السبيل ، فهي تبعث بخيرة فتياتها وزهرات شبابها لمراقصة الثيران والاقتراع عليها لنيل شرف الاختيار لبيت الإلـه ! . ، ولعلك لم تسمع شيئا كثيراً من الحياة هنالك ، ولـكن الذى لا ريب فيه أنها حياة طيبة

سعيدة تختلف اختلافا كبيراً عما نبلوه من حياتنا نحن البعيدين عن ذلك البيت المقدس ، وهذا هو السر فى أن الذين يدخلون إليه يطيب لهم المقام فيه وتنتفى عندهم الرغبة فى مغادرته ، وما لهم يعودون إلى عالمنا هذا ، المشحون بالآلام والأكدار ؟ ! . .

ثم التفت « مينوتوروس » إلى « مينيا » وقال : وهذه « مينيا » العذراء المختارة لهذا الشرف .. إنها عما قليل سترى هناك مصداق ما أقول ...

ولكن « مينيا » لم تخرج من صمتها للتعقيب على إشارة الكاهن الكبير ، وتدخلت أنا مستأنفا الحديث فقلت : إن كل ما يقال عن بيت الإلـه لا يخرج عن كونه استنتاجا وتصوراً لحقيقة غامضة ، لا نجد من يحدثنا عنها حديث الذى رآها رأى العين . ومع ذلك فليس يسعنى إلا أن أصدقك كما يصدقك الآخرون ، وإنى لأتمنى الخير « لمينيا » فيما هى مقبلة عليه ...

فقال « مينوتوروس » : عند تمام القمر ، وسيكون ذلك قريبا ، سترى « مينيا » بيت الإلـه ، وفى هذه الحظيرة المقدسة سينعقد لها الشرف المنشود .

قلت ، وأنا أكتم غيظى : وماذا ياسيدى لو أن « مينيا » لم تشأ الذهاب إلى هناك .

قال : سنوحى !.. أيها المصرى ! . . أمسك بزمام عواطفك . إن « مينيا » لا تستطيع أن تتخلف عن نداء الإلـه ، وقد رقصت أمام الثيران معلنة بذلك إرادتها الحرة فى الذهاب إلى بيته المقدس ، ولم يحدث من قبل أن فتاة نزلت عن هذا الشرف بعد إعلانه . .

قال هذا ، ثم وضع رأس الثور الذهبى على رأسه ووجهه فأخفاهما ، وكان ذلك إيذانا لنا بالانصراف . وهنا أمسكت « مينيا » بيدى لتقودنى إلى الطريق الخارجى ، وعلى وجهها غيمة من الكآبة .

— ٣ —

عدت إلى الفندق فتلقانى « كابتاح » منتشيا لفرط ما احتسى من نبيذ فى حانات

الميناء ، وقال لى : إن للخدم فى هذه البلاد شأنا ذا عجب ، فسادتهم لايضربونهم إذا ماأخطأوا ، ولا يزيد عقاب السيد لخادمه إن أثار غضبه على أن يأمره بمغادرة منزله ، ولكن الخادم لايغادر المنزل بل يخفى نفسه فيه عن عين سيده ، ثم يعود ليظهر فى اليوم التالى مستأنفا عمله ، فلا يجد من سيده اعتراضا على وجوده لأنه يكون قد نسى كل ذنوبه ، وقد ينسى السادة كذلك مايكونون قد تركوه فى أيدى خدمهم من أكياس نقود ومجوهرات ... أفلا ترى ياسيدى أن للخدم هنا منزلة ليست لهم فى البلاد الأخرى ؟! ..

ثم قام « كابتاح » فأغلق باب الحجرة وأرهف سمعه ليطمئن إلى أن أحدا لايصغى إلينا من قريب ، وتابع كلامه قائلا : وثمة نبأ هام يتهامس به البحارة فى الحانات .. إنهم يقولون إن إلـه « كريت » قد مات ، وإن الكهنة من ذلك فى رعب ووجل لخشيتهم أن يذاع خبر موته قبل أن يقيموا مكانه إلـها جديدا ، وهم لهذا مشغولون بالبحث عن ذلك الإلـه الجديد حتى لايصبح الناس بغير إلـه يملأ فراغ عقيدتهم . وليس البحارة بأقل اضطرابا وجزعا من الكهنة ، فهم متشاءمون من هذه الفاجعة ، ويخيل إليهم أن سمك البحر سيطغى عليهم ويلتهمهم ، فقد ثبت فى يقينهم أن إلـههم الذى مات كان يحميهم ، وطالما سمعوا من الكهنة أن عظمة « كريت » بناسها وبحرها ستنهار حين يموت ..

وشرح هذا النبأ صدرى ، وسرى الأمل به إلى قلبى ، ولم أستغرب وقوعه ، فإن الحياة فيما جرت به سنن الوجود تنتهى دائما إلى موت وما داموا قد جعلوا من إلـههم كائناحيًّا ، يسكن بيتا ويحتاج إلى من يخدمونه فيه ، فما وجه الغرابة، إذن — فى أن يموت كما يموت الأحياء ؟! .. ثم إن أولئك البحارة لايتحدثون هكذا عن موته ، ويركبهم شعور الخوف لزوال حمايته إلا إذا كان الخبر صحيحا ، وبذلك يصبح ذهاب « مينيا » إليه واختفاؤها هناك فى بيته المظلم ، شيئاً غير متوقع ، فإن لم تؤمن بموته وذهبت إليه فإنها لابد عائدة حين لا تجـد إلـهاً تخدمه وتعيش فى كنفه : وهذا هو أملى المنشود ..

وكان علينا فى اليوم التالى أن نشهد الرقص أمام الثيران فى الحلبة المخصصة لذلك ، فذهبت إلى هناك مبكراً لأحتجزلى مكانا ، فوجدت ساحة تحيط بها مقاعد حجرية ، يرتفع بعضها عن بعض ، حتى يستطيع النظارة فى صفوفهم المتراصة أن يشهدوا جميعا تلك الألعاب فى الساحة الدنيا . وقد أعجبنى هذا الترتيب الهندسى فى ملعب عام ، فذلك ما لم أره فى غير هذه البلاد ، حتى فى مصر ، فإنهم يتجمعون على مصطبة عالية ذات استواء واحد ، ليشهدوا متزاحمين ما يعرض عليهم من مشاهد الآلهة أو الكهنة أو الرقص .

وتتابعت الثيران على الحلقة ، واحداً إثر واحد ، ليواثبها الراقصون كلٌّ فى دوره المعين ، وكانت رقصات مجهدة معقدة مثيرة للأعصاب ، يتحرى فيها المصارعون الانتباه الدقيق والحركة السريعة البارعة ، ليفلتوا من خطر الموت وبخاصة عند ما يقفزون بين قرون الثيران وهى فى أشد حالات ثورانها وجموحها ، أو عند ما يثبون على ظهورها متماسكين عليها وهى تجرى وتهتز وتهبط وتعلو ، ثم يمعنون فى تجلية مهارتهم فيتقلبون فى الهواء كخفاف الطير ليعودوا إلى ظهورها بأقدام ثابتة وجأش رابط . وكان الأثرياء والهواة من سكان « كريت » يراهنون على الثيران والمصارعين معا . ولم أستطع أن أتبين سر شغفهم بهذه الألعاب ، ولا سر اختلافهم عند الرهان فى تمييز ثور عن ثور أو راقص عن راقص ، فقد كانت الثيران ، كما كان اللاعبون عليها كذلك ، سواءاً فى نظرى بلا خلاف ! . .

وعلى كثر ما رأيت من مهارة « مينيا » فى هذا الرقص بذاته قبل ذلك ، فإنى أحسست بمزيد من الخوف على حياتها ، حينما اقتحمت الحلبة فى دورها . ذلك أن الألعاب كانت قد بلغت ذروتها من الخطر ، وأبدى اللاعبون ضروبا رائعة من المهارة والمقدرة لا تستطيع « مينيا » — فيما أظن — أن تأتى بمثلها تحت أعين هذه الجموع الزاخرة من الناس ، هذا إلى ما كنت ألمحه على وجهها أخيراً من علامات التردد وشرود الفكر ، ولكنها سرعان ما أبدلت فى نفسى مشاعر الخوف بمشاعر الإعجاب ، فقد أظهرت من البداعة والخفة والرشاقة ما جعلها تفلت من

الموت الذى كان يحيط بها من كل جانب بمهارة عجيبة .

ولم تكن « مينيا » الفتاة الوحيدة الراقصة فى الحلبة ، فقد كانت هنالك فتيات آخريات يرقصن فى أدوارهن ، وقد خففن من الملابس وظهرن شبه عاريات كما تخفف الفتية الراقصون من ملابسهم كذلك . فارتداء الملابس فى هذه الألعاب الخاطفة فيه خطر جسيم ، فقد يعطل الثوب الحركة ، أو قد يعلق بقرن ثور فتكون الكارثة ..

وكانت « مينيا » وجسمها يلمع بالزيت الذى دلك به ، تبدو فى نظرى أجمل فتيات الرقص وأشدهن سحراً . ومع أنى أعترف أنه كان من بين زميلاتها فى الرقص من اجتذبن إعجاب شهود الحلقة ونلن تصفيقهم الطويل الحاد ، فإننى كنت بعاطفتى منصرفاً إليها دونهن . على أنه لم يكن يهمنى رأى هؤلاء الناس فيها بقدر ما كان يهمنى أن تسلم من الخطر . ولهذا لم أحفل كثيراً بغضب صديقها العجوز الذى راهن عليها فخسر الرهان ، وما كان ذلك عن قصور منها وإنما كان — كما شهد بذلك خبراء اللعب — أثراً من آثار غيابها وانقطاعها فترة طويلة عن المران الذى لم تنقطع عنه الفتيات الأخريات ..

وقابلت « مينيا » بعد ذلك فى حظيرة الثيران ، فقالت لى فى هدوء : لن يكون بيننا لقاء بعد الآن يا سنوحى ، فإنى لماضية إلى وليمة دعانى إليها بعض الأصدقاء ، وسأعكف على إعداد نفسى بعدها لرحلتى إلى الحمى ، فالقمر سيكتمل فى ليلة بعد غد . على أنه من الممكن — إذا شئت — أن تكون بين من سيرافقنى من الأصدقاء لتوديعى إلى هناك ..

قلت لها : فليكن ما تريدين يا « مينيا » .. أما أنا فسأغتنم فرصة انشغالك عنى لأتزود بما أود الوقوف عليه من عادات أبناء « كريت » واختلاف أزياء سيداتها ، وكذلك فسأستجيب لدعوات صديقاتك إلى التى وجهنها إلى خلال مشاهدة الرقص ، فقد أثار إعجابى جمال وجهن وصدورهن ، وإن كان بعضهن أكثر بدانة منك !..

وهنا لمت عيناها ، فأمسكت بذراعي وقالت وأنفاسها تتلاحق مسرعة : لا ، يا سنوحى ، إنى أرجو ألا تتصل بهؤلاء الصديقات ما دمت أنا هنا . وفى وسعك أن تفعل ما تشاء بعد أن أذهب . وإذا كنت قد صرت فى عينك الآن أقل جمالا منهن ، فلا أقل من أن تصطنع الوفاء لصداقتنا بعض الوقت ، ولا يكلفك تحقيق رجائى شيئاً عسيرا !..

فقلت لها باسما : إنما أردت امتحان عواطفك ، وما لغيرك من نساء الدنيا مكان فى نفسى ، فاطمئنى ، وسأذهب من فورى إلى الفندق حيث ينتظرنى هناك كثير من المرضى ، لا من النساء !..

وودعتها عائدا إلى الفندق ، فسرت وما تكاد تزايلنى رائحة الثيران التى تلازم من يلمون بحظائرها فى « كريت » . ومنذ ذلك الوقت كنت لا أرى قطيعا من الحيوانات إلا ثارت عندى تلك الرائحة ، فأحس كأنى أصبت بمرض خبيث لا يطيب لى معه طعام أو شراب !..

وفى الفندق ، ظللت مشغولا بعلاج المرضى الكثيرين ، باذلا أقصى طاقتى فى تخفيف آلامهم ، إلى أن أقبل المساء واقتحمت الظلمة حجرتى بالفندق . وكان « كابتاح » قد أعدلى فراش نومى ، ولكنى لم أنم كما لم أضىء المصباح ، فقد كان نور القمر يطل علينا من النافذة ، فحرك فى نفسى أشجانها ، وشعرت كأنى أكرهه فهو الذى سيفصلنى ،عند تمامه ، عن شقيقة روحى فى هذا العالم .. وزدت ضيقا بحالى حين رأيت غير بعيد أضواء المصابيح تشع من بيوت اللذات بالميناء ، ومنها تنبعث أنغام الموسيقى وضحكات اللاهين . لقد كان الناس جميعا من حولنا يمرحون ويهزجون ، لا فرق فى ذلك بين سيد ومسود ، وكنت وحدى ، قابعا فى غرفتى المظلمة ، فريسة الأسى والألم ..

وإنى لفى وحدتى هذه الموحشة ، إذا بالباب ينفرج فى هدوء ، وتدلف منه « مينيا » فى حذر ، وقد نضت عنها الملابس الكريتية التى تركتها عليها ، واستبدلت بها الرداء البسيط الذى كانت ترقص به أمام الناس فى البلاد الأخرى ،

وكان شعر رأسها حينذاك مشدوداً بشريط ذهبي يزيدها بهاءاً ..

فقلت مشدوها : « مينيا » !.. ماذا جاء بك ؟! أما قلت لى إنك تستعدين لإلهك وإننا لن نلتقى إلا مودعين فى ساعة الفراق ؟!..

قالت ، فيما يشبه الهمس : لا ترفع صوتك ، فلست أريد أن يسمع حديثنا أحد.

وجلست دانية منى حتى لتكاد تلتصق بى ، وراحت فى شرود وحسرة تقلب نظرها فى القمر ، ثم قالت : لقد كرهت مكان نومى فى بيت الثيران ، كما لم أعد أشعر بما كنت أشعر به من سعادة فى مخالطة أصدقائى القدامى هناك . وقد يبدو غريبا ، بل لعله مما يثير الملاحظة والتساؤل أن أسعى فى هذا الوقت بالذات إلى هذا الفندق بحى الميناء ، وهو الحى الذى لا ينبغى أن تظهر فيه عذارى الإلـه!. إن أفكاراً ومشاعر جديدة قد طرأت على حياتى ، وغيرت مجرى سلوكى واتجاهاتى ، فلا أدرى لماذا صرت أوثر حياة الارتحال والتطواف بين البلدان والشعوب الأجنبية ، وكيف لم أعد أشعر بالحنين إلى وطنى نفسه ، كما لم أعد أستشعر لذة الراحة بين الثيران وهى التى كانت أعز الحيوانات إلى نفسى ، وكذلك لا أدرى كيف افتقدت فى قلبى لذة الزهو بإعجاب الناس وتصفيقهم ، وأكثر من هذا لم أعد أحس بشىء من الحماسة والبهجة لدخول بيت الإلـه كما كنت من قبل !.. لقد تغير كل شىء فى إحساسى ومشاعرى ، وأصبحت أرى كأنى بمعزل من الناس، فأحاديثهم على سمعى كثرثرة الأطفال ، ومباهجهم كمثل زبد البحر متناثرا على الشاطىء ، فلست معهم فى شىء من هذا أو ذاك . وقد كان من الممكن تعليل هذه الحالة إذا كان هناك ما يشغلنى فى خاصة أمرى وذات نفسى ، ولكننى أحس بقلبى فارغا ، ورأسى خاليا ، وتفكيرى معطلا ، ويعجزنى الآن أن أزعم ، مجرد زعم ، أن فكرة واحدة من شتيت الأفكار حولى ، تنبع من عقلى أو تصدر عنه ، ومن هنا يتمثل لى كل شىء غريبا عنى ، وهو أمر يؤلمنى غاية الألم . ولكن إنساناً واحداً أستشف فيه شعاعا من العزاء عن ذلك كله ، هو أنت يا سنوحى !. فما أخشى فى هذه الحياة شرا ، حتى ولو كان الموت نفسه ، ما بقى لى مكان من

قلبك ، وما دامت يدى ممسكة بيدك !.. أقول هذا عن صدق عاطفة ولا يمنعنى من التصريح به أنك ، فيما يبدو ، أكثر شغفا بنساء هذه المدينة اللاتى تراهن أنضر وجوها وأملأ أجساما !..

فقلت لها مأخوذاً بسحر هذه المفاجأة الجميلة : « مينيا » .. يا أختى المحبوبة : لقد قلت لك صادقا إنه ليس لغيرك من نساء الدنيا مكان من نفسى ، وإنى لأكرر هذا ولا أملُّ تكراره إلى آخر نفس يتردد فى صدرى ، وما أعرف أن فم الدهر قد انفرج لى عن مثل هذه الابتسامة الساحرة المسعدة ، تتمثل الآن فى عواطفنا المشتركة ومشاعرنا المتبادلة . إنك فتاة هواى الوحيدة فى هذا العالم ، وما كان يشقينى ، أقسى ما يكون الشقاء ، سوى أنك مفارقتى إلى بيت الإلـه الذى ليس منه مآب . لقد كانت طفولتى وصباى جدول ماء رقراق يجرى فى حياتى صافيا ، فلما صرت رجلا استحال هذا الجدول نهراً كبيراً جياش الموج ، يفيض ويتدفق ويجاوز شاطئيه ليغمر ما حوله من بطاح يابسة ثم ينحسر عنها فتصير على جانبيه مستنقعات راكدة ، مكدورة الماء مرنقة الصفاء ، ترتع فيها الأفاعى والهوام ، ثم تنساب إلى جوفه فتوبقه وتحيله مستنقعا كبيراً ، فتلك كانت حياتى كرجل ، فلما جمعت الأقدار بينى وبينك ، تبـدل أمرى ، وعدت إلى عهد طفولتى وشبابى ، ولا أقول إن نهرى الـكبير قد ارتد جدولا صغيراً ، وإنما أقول إنه صار بك بحراً واسعاً عميقاً لا يصطخب ولا يثور ولا تتدافع مياهه على يبس الأرض لتكون مستنقعات خبيثة ، وبهذا هدأت حياتى بعد طول صخب ، وتطهرت بعد طول فساد ، وأنت سر هذا ومصدره ، ولك وحدك الفضل فيه . وقد لاحت لى الدنيا بعد ذلك على صورتها المزدهرة ، تلهم الأمل وتشرق بالسعادة ، وتحفز للخير ، ولهذا أقبلت عليها بعد إحجام ، ورضيت عنها بعد سخط . على أن ذلك كله سيتقلص ظله ، ويتصوح زهره ، وتحول واحته الفيحاء إلى صحراء مقفرة ، وبلابله المغردة إلى غربان ناعقة ، إذا ما وقع ما يرتعد قلبى فزعا منه ، وهو ذهابك إلى بيت الإلـه ، فإنى إذن لمنقلب إلى شقائى وتعاستى ، أبغض الحياة وأبغض الناس .

وأبغض الآلهة ... وإنك لتستطيعين ألا يكون هذا .. وما أحسبك وقد تساقينا كؤوس الحب عذبا طهورا بتاركتي لأحترق بنار فراقك الأبدى ، منساقة وراء عقيدة تائهة فى واد سحيق من الغموض . ألا فاعلمى يا « مينيا » أن هـذا العالم الذى يحتشد بالممالك المختلفة والشعوب المتباينة ، والمعالم التى لا عدد لها ولا حصر ، ليس فيه لمثلينا من المحبين إلا نهر واحد ، يمنح السعادة والهناءة والخلود .. فتعالى ، تعالى معى إلى الأرض السوداء حيث النيل ، ذلك النهر الواحد السعيد ، فنحيا هنالك على شاطئيه المرعين بالخصب والجمال ، ونأنس بالبلابل والأطيار من كل جنس شادية وسط الأعشاب وفوق الأشجار ، والشمس فى مركبها الذهبى صاعدة عبر السماء ... تعالى يا « مينيا » نكسر الجرة بيننا ، إيذاناً بزواج لا تنفصم عراه ولا ينتهى مداه ، فإن متنا فسيحفظ جسدانا ، ومن ثم نتلاقى فى الأرض الغربية ، فنخلد معا خلود الأبد ...

ولكن « مينيا » التى استمعت إلى كلماتى هذه بتأثر ظاهر ، شدت على يدى بإحدى يديها ، ومسحت بأطراف أصابع يدها الأخرى فى وعنق وأهداب عينى ، وقالت : إن ما تدعونى إليه يا « سنوحى » صعب المنال ، فلست بمستطيعة أن أتبعك إلى حيث تريد ، لسبب لا حيلة لى فيه ، ذلك أننا لن نجد السفينة التى تحملنا ، ولا الربان الذى يرضى أن يخفينـا فوق ظهرها ، فإننى محوطة برقابة شديدة من أجل إلـهى ، ولئن طاوعتك فيما تدعونى إليه فأكبر الظن أن يكون فى ذلك هلاكك ، وهو مالا أرضاه أو أقدم عليه ، وإنه ليحزننى أن تفنى رغبتى الخاصة فيما تجلى من رغبة الإلـه القوية المسيطرة منذ رقصت له أمام ثيرانه ، وقد لا أستطيع أن أحملك على الإيمان بهذه الحقيقة ما دمت لا تشعر بها فى أعماق نفسك ، وعلى هذا فلا مناص من أن أمضى فى سبيلى إلى بيت الإلـه عندما يصل القمر إلى تمامه ، فذلك قضاء لا تستطيع قوة على هذه الأرض أن تدفعه ، ولعله لا يوجد إنسان يفقه سر هذا القضاء ، ويحيط بأسباب قوته النافذة غير « مينوتوروس » ...

قلت لها ، وقلبى فى مثل وحشة القبور : لا أحد من الناس جميعاً يعرف ماقد

يطلع به الغد ، كما أن أحداً منهم لا يعتقد أنك عائدة من بيت الإلـه بعد إذ تبلغينه . وإذا صدق ما يقوله ذلك الـكاهن الأكبر فإنك ، هناك فى ذلك البيت الذهبى ، ستنعمين بالحياة الدائمة ، وستنسين بها كل شىء فى دنيانا ، حتى أنا ، ستنسيننى . ومعنى هذا أنك، كمن سبقك من العذارى، لن تعودى إيثاراً للبقاء فى فيض هذه الحياة المائثة وافرة النعيم . ولـكننى فى غمرات شوقى إليك ولهفتى عليك لن أطيق الصبر على هذا الحرمان ، ولهذا ينبغى أن تعلمى أن أمراً قد تقرر فى نفسى ولا متحول لى عنه ولو لقيت الموت فى سبيله ، وهو أنك إن لم تعودى بعد انقضاء عدة الزمن المحدود فإنى ماض إلى بيت إلـهك ، ومقتحم أسواره لو كانت له أسوار ، وسأخرجك منه أردت أو لم تريدى ...

قالت ، واجفة مذعورة وهى تدير نظرها فيما حولنا كأنما تخشى علينا أذنا متلصصة : صه ! . لا تتكلم هكذا ، ولا تفكر ، مجرد تفـكير ، فى شىء من هذا ، فإن بيت الإلـه معصوم قوى التحصين تقوم عليه أبواب نحاسية محكمة الأرتاج ، ثم إنه مغلف فى حلـكة من ظلام ، وليس هناك غير الموت لمن يحاول أن يسلك طريقه من غير المختارين له . أقول لك هذا محذرة حتى لا ينالك وبال لا مهرب منه فيما لو سولت لك نفسك أن تجرب هذه المحاولة الأخيرة ، ولا شك عندى فى صدق عاطفتك نحوى ، وهى هى عاطفتى نحوك ، ومن أجلها سأعود إليك ، ولن يصرفنى الإلـه عنك ، فهو إلـه كريم ومن صفاته العدل والرحمة ، ويقينى أنه سيرضى عن عودتى لأن فيها سعادتى ، وما أراه فى عدله ورحمته وبالغ عطفه بما نمى من هـذه السعادة .. ألا تراه من أجل سعادة الناس وخيرهم يحرس « كريت » ويضفى عليها العظمة والمجد ، وينفح أهلها نماء الزروع ووفرة الثمر وأمن البحار ، مرسلا الرياح فيها رخاءاً ، والسحب إليها مدراراً ، دافعاً عنها الضلال والظلام وأخطار السفر ، فكيف به لا يريد لعذراء من عذاراه ، أن تستمتع بما يستمتع به سائر رعاياه ! ..

وكانت « مينيا » تقول هذا وأهداب عينيها مسترخية كأنها نائمة تردد حلماً ، أو كأنها تخاف التحديق فى وجهى استحياءا من التعبير عن عاطفة حبها لى ،

ولا أدرى كيف لم أستطع أن أفتح عينيها هاتين الساذجتين وأنا الذى — بطبي طالما فتحت عيونا مفقودة وأعدت إليها النور الذاهب ؟! .. وإنما الذى أردته أنني تأثراً بهذا الموقف وانفعالا به ، احتويتها بين ذراعيّ وقبلتها قبلات حارة ، وأرسلت يدى حانيـة لتلامس من جسمها أطرافا كانت كأوراق الورد نضارة ونعومة ، وكالبللور نصاعة وإشراقا ، ولم أعرف من نفسى فى تلك اللحظة إلا أننى الظامئ الصادى فى صحراء مقفرة وقع على عين ماء ثرة صافية ، تحت ظلال شجرة وارفة .

ولم تدفعنى « مينيا » أو تحاول الإفلات من بين ذراعى ، وإنما استسلمت استسلاما ، ملقية برأسها على صدرى وأعصابها تختلج كما لو كانت ترتجف خوفا ..

وأحسست بدموعها تتساقط على يدى غزيرة سخينة ، ثم تقول : سنوحى ، يا صديق : سأعود إليك ، أعنى أننى سأبذل كل مافى وسعى لأعود ، فإن لم أعد ، فافعل ما تريد فى سبيل أن نقضى الحياة جنباً إلى جنب ، فإنى معك وبين ذراعيك لا أرهب الموت ولا أخشى الردى ...

قلت لها : أفهم من هذا أننا على درجة واحدة من الشعور بالحب ، والرغبة الصادقة فى أن نعيش العمر كله معاً .. أليس هذا هو الذى تمنين ؟ ! ..

قالت فى شىء من التردد : لست أدرى ماذا أعنى يقينا ، وكل الذى أعرفه أننى إذا بعـدت عنك ، فإنى أشعر بالقلق والاضطراب وأن على عينى غشاوة كالضباب ، فإذا لقيتك شعرت بالوهن يدب فى أوصالى ، وأنا التى لا تهاب أحداً من الناس ! ..

قلت لها : حسبى هذا دليلا على ارتباط قلبينا واتحاد روحينا ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما وافيتنى هنـا الآن متسللة على غير ميعاد بيننا ، وعلى رغم الرقابة المفروضة حولك ، وما أسألك الساعة شيئاً إلا أن تعطينى الشريط الذهبى الذى تمسكين به شعر رأسك ...

قالت ، وهى تسدد إلى وجهى نظرة طويلة ، كأنما تتفحص صدق عاطفتى ، وتستوثق من أنى لا أزخرف لها الحديث مخادعا ، وقد وضعت يدها فى رشاقة على

خاصرتها : قد تكون مخاوفي شيئاً يستحق أن تراجع فيه شعورك هذا ، فالبدانة في النساء كثيراً ما تستميل إليها الرجال ، أو لعلها بالنسبة لك أدنى إلى ما تحب وتهوى ! . .

قلت مبتسماً : مرة أخرى أؤكد لك يا « مينيا » أنك الفتاة الوحيدة في حياتي، وأنك لأجمل من رأيت ومن سوف أرى من نساء العالم ، وما كانت البدانة عندي يوماً سمة من سمات الجمال في امرأة ، فهي بالأحرى شيء لا يصادف مني ميلا أو هوى . وإني أخيراً لا أحاول ، أو قد لا أستطيع أن أحاول ، اعتراض طريقك إلى إلهك ، فاذهبي إليه كما تشائين . على أني — بعد — أريد أمراً أحب أن ننجزه الساعة تمكيناً للرابطة بيننا ، وتثبيتاً للطمأنينة في نفسي حتى تعودي . ذلك أن أجيء بجرة فنكسرها بيننا ، وبهذا نصبح زوجين لا يفترقان ، ولا يهم أن يتم ذلك الآن من غير كهنة يشهدون عليه ويكتبون اسمينا في سجل المعبد ، فما شهادتهم وتسجيلهم إلا قشور لا قيمة لها بالنسبة للجوهر نفسه .

ووقع هذا من نفسها موقعاً جميلا ، فاتسعت حدقتا عينيها ابتهاجا ، وبدا وجهها في ضوء القمر زاهياً مشرقا بالفرح ، فأسرعتُ بالخروج باحثاً عن « كاپتاح » ليأتينا بالجرة ، فرأيته قابعاً لدى الباب وهو يمسح دموعه بظهر يده ، وما إن رآني حتى أجهش بالبكاء بصوت مسموع ، فقلت له منتهراً : ما هذا البكاء ، وفيم أنت هنا ؟ ! ..

وقال في خبث : كيف لا أبكي يا سيدي ؟ ! ألا تعلم أن لي قلباً رقيقاً ؟ ! فقد سمعت حديثكما ، أنت وهذه الفتاة ، فشجاني وأبكاني ، فما سمعت مثله كلاما يحرك العواطف ويلهبها ...

فركلته بقدمي مغضباً وقلت : تعني أنك كنت تضع أذنك على الباب متسمعاً متجسساً علينا ! ..

فأجابني مصطنعاً السذاجة : أما أنني كنت أسمع من وراء الباب ، فهذا صحيح . وأما أنني كنت أتجسس ، فلا . وإنما كان هناك غيري من الغرباء الجواسيس

جئت فرأيتهم فى هذا المكان يرهفون آذانهم ليلتقطوا حديثكما ، وهم لا يقصدونك بالذات وإنما يقصدون « مينيا » ، لأنهم يتتبعون خطواتها ويتقصون حركاتها ، فزجرتهم وأقصيتهم عن الباب ، واتخذت مكانهم منه حتى لا يعودوا ، وما فعلت ذلك إلا لأحفظ عليكما أمن اللقاء وأمن الحديث ، فهل ترانى فعلت سوءاً ؟! وعلى أى حال فقد سمعت الحديث ، وهو بلا شك حديث لطيف مؤثر ، ولهذا كان بكائى . . .

قلت ، وقد تبدل غضبى منه رضى عنه : ما دمت قد وعيت الحديث ، فقد عرفت — إذن — ماذا عليك أن تفعل الآن . فاذهب أيها الغبى وعجل بالجرة ...

قال مراوغا : الجرار أنواع يا سيدى ، فأيهـا تريد ؟ ! أمن طين أو حجر ؟ ! ومنقوشة أو من غير نقش ؟ ! وطويلة أم قصيرة ؟ ! وواسعة أم ضيقة ؟! . .

فتناولت عصاى وهويت بهـا على ظهره فى غير شدة ، فقد كنت غير حانق بالقدر الذى يدعو إلى إيجاعه ، وقلت له : الوقت أضيق من أن يتسع لهذه المخابثة ، وإنك لتعرف من الأمر ما فيه الكفاية ، فآتنا بأول جرة تقع يدك عليها ، ومن أى نوع تكون ، فإنها مؤدية الغرض المنشود ...

قال « كاپتاح » : سآتيك بها ! .. ولكنى أحب أن تعيد النظر فى هذا الأمر الهام ، فليس ثمت شىء هو أكثر أهمية وخطراً من كسر جرة بين رجل وامرأة ، ولهذا ينبغى ألا تقدم عليه من غير أناة وتقليب رأى ...

وقبل أن يتلقى منى ضربة أخرى على رأسه خرج مسرعا وعاد بعد قليل ومعه جرة زيت لا تزال بها بقية من رائحة السمك ، فكسرناها بيننا ، أنا و « مينيا » وتم بها ميثاق زواجنا ، وكان « كاپتاح » هو شاهد هذا الزواج . وقد ارتمى على قدم « مينيا » ووضعها على عنقه قائلا : منذ هذه اللحظة أنت سيدتى ، ولك مثل ما لسيدى من حق إصدار الأوامر لى ، أنا خادمكما المطيع ، على أن لى فيك رجاء ، هو ألا تصبى الماء الساخن على قدمى عندما تكونين غاضبة ، وألا تنتعلى من الأحذية إلا الخفيف المنبسط ، فلشد ما أكره فى أقدام السيدات الأحذية ذوات الكعوب

فإنها تحدث فى رأسى كدمات مؤلمة إذا ما بدا لك يوما أن تجربى ذلك ! .. وثقى أن قلبى أصبح ينطوى على الإخلاص فى خدمتك ، تماما كإخلاصى فى خدمة سيدى . والإخلاص يشفع فى الخطأ إن وقع ، ويغتفر الذنب إن حدث ، حتى ولو كان فى صورة السرقة ، فذلك محتمل بين الخادم والمخدوم ! .. ثم إنى — لسبب لا أتبينه — أشعر بأن قلبى قد تعلق بك على ما فيك من نحافة وضمور صدر ، فلا شك أن سيدى بالرغم من هـذا قد وجد فيك محاسن كثيرة أخرى تعلو على النحافة والضمور ، حتى ليخر هكذا ساجداً فى محراب حبك ! ..

كان « كاپتاح » يمزح بهذه العبارات ، ولـكنه كان كذلك بادى البهجة ، وقد بلغ من تأثره الموقف أنه كان يضحك ويبكى فى وقت واحد . فأقبلت عليه « مينيا » وأدارت يدها على رأسه وخديه لترفه عنه ، وعندما هدأ ، أشرت إليه أن يرفع القطع المتناثرة من الجرة ، فجمعها ومضى بهـا إلى خارج الحجرة ، وخلوت إلى « مينيا » بعد ذلك حيث قضينا الليل معاً . وقد نامت إلى جوارى وذراعاى يحتويانها ، وأنفاسها مسترسلة فى نومها الهادئ كأنها نفح الزهر المعطار ، وشعرها مسدل على وجهها كأنه الحارس الذى يذود عن جمالها الباهر . وفى الواقع لم أحاول ، وقد صرت زوجها ، أن يكون بينى وبينها فى تلك الليلة ما يكون بين الرجل وزوجته ، فقد كنت أحس أن هذا يغضبها الآن ، فتركته إلى أوانه ، قانعاً بها إلى جانبى ، سعيداً بشعورى أنها أصبحت لى وحدى ...

وعلى كثرة ما تردد فى نفسى من المشاعر فى هذه الليلة الجميلة التى لم يغمض لى فيها جفن ، فإن ثمت شعوراً كان أقوى من هذه المشاعر جميعاً وأشدها سيطرة على نفسى ، ذلك هو الشعور بالخير والرحمة فى أوسع معانيها ، فـكل رجل ، بعد ذلك عندى ، أخى ، وكل امرأة ، أمى أو أختى .. ولا يختلف هذا الشعور باختلاف المـكان أو الأقليم ، فالأرض السوداء والأرض الحمراء ، فيه سواء . « فمينيا » — إذن — قد أحالتنى إنسانا ليس فى نفسه أو قلبه أثر من الشر .

— ٤ —

وفي اليوم التالي انعقدت مرة ثانية حلبة الرقص أمام الثيران . وكان على « مينيا » أن تلعب دورها هناك ، وقد تزايد خوفي عليها حينما رأيت الناس يتجمعون على هذه المعمعة ويتكاثر المتحمسون للرهان فيها أكثر من ذي قبل ، فقد حمي وطيس الرقص وافتن اللاعبون في إظهار أقصى ما لديهم من مقدرة وبراعة ، وسقط شاب من رفاق « مينيا » ومن مهرة اللاعبين ، منزلقاً من فوق جبهة الثور الذي كان يراقصه ، فبقر الثور بطنه وخاض بحوافره في أحشائه ، فهب النظارة جميعاً مذعورين لشناعة الحادث . ولكن عندما أخرج الثور من الملعب ، وحملت جثة الراقص الصريع إلى إحدى الحظائر ، لم يتبعه إلى هناك غير السيدات ، وكن في غمر من الأسف والحزن عليه ، وقد لمسن أطرافه بأيديهن إعرابا عن شعورهن الحزين المتفجع ، بينما بقي الرجال في أماكنهم بالملعب يتابعون الرقص والرهان عليه ، وقد نسوا الحادث فلم يعودوا يتحدثون إلا عن هذه المسابقة البارعة التي مضي وقت طويل عليهم لم يروا فيه مثلها . وكان طبيعياً أن يتمثل لي في هذا الموقف ، اختلاف ما بين الرجال والنساء في ميزان العواطف ! ..

وقد انتهى السباق دون أن تصاب « مينيا » بما كنت أخاف عليها منه ، فأراح هذا قلبي ، وعدت إلى الفندق وحدي ، لأنها لم تكن تستطيع أن ترافقني كما لم تكن تستطيع أن توافيني بعد ذلك . وهكذا تفرق الجمع الحاشد ، فمضى الرجال إلى بيوتهم ليقضوا فيها ليلة ساهرة زاخرة باللهو وشراب النبيذ ، احتفالا بما شهدوا من روائع الرقص وبما أصابوا من ربح الرهان ، ومضت زوجاتهم إلى بيوت أخرى غير بيوتهن ليقضين ليلهن فيها بعيدات عن أزواجهم الذين لا يتحرجون من ذلك ، فقد كان هذا تقليداً متبعاً عندهم ! . .

وكنت أنا الوحيد الذي قضي هـذه الليلة مسهداً مشغولا « بمينيا » التي ستفارقني فراقاً غامضاً بعد قليل .

فلما تنفس الصباح ، خرجت فاستأجرت محفة من الميناء وذهبت بها إلى حيث يبدأ الاحتفال بتوديع « مينيا » فى رحلتها إلى إلـهها ، فقد قررت أن أتبعها إلى آخر الطريق . . .

وهنالك رأيت « مينيا » محمولة على عربة مذهبة تجرها جياد مزينة بالريش ، ومن ورائها جمع كبير من أصدقائها ، بعضهم محمول على محفات ، وآخرون يسيرون على أقدامهم ، وجميعهم يشربون النبيذ ويمرحون ضاحكين مهللين وينثرون على عربتها الزهور والرياحين . وكان الطريق طويلا ، ولـكنهم لم يملوا السيرفيه فقد تزودوا له ، واستعانوا عليه بالمرح والابتهاج ، وكلما لفحتهم الشمس بحرارتها المتقدة مالوا على الأشجار فانتزعوا فروعها المورقة ، وجعلوا منها ظللا فوق رؤوسهم ، وكان موكبهم فى صخبه وضجته مثيراً لقطعان الأغنام التى كانوا يمرون بها ، فـكانت تتفرق مجفلة هاربة ! . .

وعندما استشرفوا مكاناً قفراً فى سفح جبل قريب من شاطىء البحر ، أخذت الأصوات الصاخبة فى الخفوت حتى كادت تـكون همساً ، فقد كان بيت الإلـه فى هذا المـكان ، وهو يشبه تلا منخفضاً تتـكاثر عليه الحشائش والأزهار النامية ، ويتصـل بالجبل اتصالا مباشراً ، وعلى مدخله أبواب من نحاس مغلقة شاهقة الارتفاع وعلى مقربة منه معبـد صغير تقام فيه مراسم التدشين ويقوم عليـه حراس ورقباء . .

وهنا ترك أصدقاء « مينيا » محفاتهم وافترشوا الأرض المـكسوة بالحشائش وراحوا يأكلون ويشربون ويلاعب بعضهم بعضاً ، ألعاباً ذوات حيلة ومخادعة إسرافاً فى التسلية ، ناسين قداسة المـكان الذى كان قد ظهر عليهم منذ لحظة أنهم أكبروه، وهكذا أهل « كريت » لا يستقرون على حال ، وهم أشد ميلا إلى المرح والسرور! . . فلما أقبل الليل أضاءوا المشاعل التى بدت شاحبة فى نور القمر ، واسترسلوا فيما هم فيه من لهو ومجانة ، وكانت حركاتهم وأصوات ضحكاتهم ترن رنيناً قوياً بعيد المدى وسط سكون الليل .

ولكن « مينيا » كانت تجلس منفردة بالمعبد ، فما يستطيع أحد الاقتراب منها هناك ، وكانت فى ردائها الذهبى كتمثال مقدس ، وكان نظرى لايتحول عنها ولا يطرف دونها ، كما كان ذهنى كذلك لا ينصرف إلى شئ سواها ، وقد رأيتها تحاول أن تبتسم لى ولكن ابتسامتها كانت تلوح على ثغرها مشوبة بالكآبة . .

وما أن ارتفع القمر مستديراً ، حتى أحاطوا بها ونضوا عنها جواهرها وحليها الذهبية ، وألبسوها ثوباً عادياً بسيطاً ، ثم غطوا شعرها بشبكة فضية ، وشد الحراس ، متجمعين فى قوة مشحوذة ، مصاريع الأبواب النحاسية الوثيقة فكان لانفتاحها قعقعة داوية ، وخلال السكون العميق الذى ران على المعبد ، ظهر « مينوتوروس » متمنطقاً بحزام ذهبى يتدلى منه سيف ، وقد تغطى رأسه ووجهه برأس الثور المذهب ، وبذلك تنكرت فيه صورة الإنسان ، ومن ثم تقدم إلى « مينيا » وكانوا قد وضعوا فى يدها مشعلا مضيئاً ، فقادها إلى داخل البيت المظلم ، وفيه اختفيا معاً عن الأنظار ، وحتى المشعل نفسه لم نعد نرى شعاعاً من ضوئه . وبعد هذا أغلقت الأبواب فى صرير شديد ، وأحكمت أرتاجها بالقضبان التى احتاجت ، لضخامتها وثقلها ، جهد عدة من رجال أشداء ، وكان ذلك إعلانا بأنه قد حيل بينى وبين « مينيا » ، فلن أراها أو أرى أثراً لها مادامت فى هذا المكان السحيق المجهول المصير ، فأحسست كأن خنجراً قد اخترق قلبى وأدماه ، وأقعيت على ركبتى خافضاً رأسى على الأرض ، فى أسى مرير ويأس طاغ . وبينما كان فتيات « كريت » وشبانها يمرون أمامى والمشاعل بأيديهم وهم يرقصون رقصات معقدة ويرتلون أغنيات غريبة على أذنى ، ويتراكضون كأنما أصابهم مسّ ، كنت أعانى ، بمعزل منهم ، قسوة الشعور بأنى فقدت « مينيا » إلى الأبد ، ومعنى ذلك أنى قد فقدت معها حياتى ، فلا حياة لى بدونها . وكنت قبل أن أراها تتوارى خلف أبواب ، بيت الإله ، أتعلل بالأمل فى أنها ستعود ثانية ، على ما شاءت أن تقرره فى خاطرى من رغبتها فى ذلك وثقتها بأن إلهها سماح عطوف وأنه سيأذن بعودتها

إلى من تحب ، ولـكنتى ، بعد ، قد زايلنى هذا الأمل ، فما أراها إلا قد انتقلت إلى عالم غير عالمنا ، حيث لا لقاء بيننا على هذه الأرض .

وكان « كاپتاح » إلى جانبى ينشج بالبكاء منفعلا بما يرانى عليه من سوء الحال ، وفجأة كف عن بكائه ليقول : لقد رأيت الآن شيئاً أعتقد أن عينى لا تـكذبنى فيه ، فإنى لم أشرب اليوم نبيذاً بالقدر الذى يموه المرئيات فى نظرى . لقد رأيت رأس ثور يخرج إلى الجبل صاعداً من بيت الإلـه ، ولا أدرى كيف كان ذلك ، فالأبواب ملازالت على حالها من الإيصاد المحـكم ؟ ! . .

ونظرت إلى حيث يشير « كاپتاح » ، فرأيت « مينو توروس » مشتركا مع الآخرين فى رقصاتهم التى تقضى بها الطقوس الدينية فى هذه المناسبة ، وكان رأس الثور الذهبى الذى يضعه على رأسه ووجهه ينعكس عليه ضوء القمر فيزيده سطوعاً ، فقفزت إليه من مكانى فى حركة سريعة غير واعية ، وأمسكت بأكمامه وسألته فى لهفة وانفعال : أين « مينيا » ؟ ! . .

فدفع يدى عنه ، ولـكنى لم أترك موضعى منه ، متشبثاً بمساءلته عن « مينيا » التى دخل معها إلى البيت المظلم وعاد بدونها ! . . فرفع القناع التنـكرى عن وجهه وقال مغضباً : إنك ياهذا تفسد الطقوس الدينية وتمس قداستها ، وهو اجتراء محظور لا يؤذن به قط لإنسان ، ولـكنك أجنبى عنا لا تفهم هذا ، وإنى لذلك أغفر لك هذه الزلة ، على ألا تعود لمثلها مرة أخرى . . .

وكأنى لم أسمع منه شيئاً ، فأعدت عليه السؤال الأول نفسه : أين « مينيا » ؟ ! .

قال . وما سؤالك عنها وقد رأيتها منذ قليل تأوى إلى بيت الإلـه ؟ ! إنها هناك سعيدة هانئة ، وقدعدت أنا لأؤدى واجبى فى إقامة الطقوس الدينية المقدسة ، ولا غرابة فى أن تبقى هى إلى جوار إلـهها ، كما لا غرابة فى أن أعود لمباشرة أعمالى ! . . على أن الغريب حقـا أن تقحم أنت نفسك على هذه الفتاة التى خلصت للإلـه ، وانتهت إلى حظيرته ، وامتنعت على من سواه ، وأنت الغريب الطارئ على حياتها ! . . ألأنك ساعدتها فى العودة إلى وطنها ؟ ! هذا بلا ريب كان عملا حسنا

منك ، وقد كوفئت بالشكر عليه ، وهذا حسبك ! . .

فأثارنى بهذه العبارات اللامزة ، وفى اندفاع وغضب قلت له : أو لستَ كبير الكهنة لهذا الإلـه وأوثقهم صلة به ، فكيف جاز لك أن تدخل إليه مع «مينيا» ثم تخرج وحدك بدونها ؟ ! لماذا تدعها هناك نهب الظلمة ووحشة الانفراد ؟ ! ..

قلت هذا وأنا أمسك بتلابيبه ، وهو يدفعنى بيديه ، وتدخل الراقصون ليفرقوا بيننا ، وشدنى « كاپتاح » من ذراعى وأخذ يجرنى حتى أبعدنى عنه ، وقال لى : إنك لا تدرى ماذا يمكن أن يحدث لنا من سوء بهذا الشغب ، وخاصة حين يكون الأمر متعلقاً بفتاة الإلـه وكبير كهنته ، وإنه لمن الخطأ أن تلفت لك الأنظار هكذا! .. وكان خيراً من هذا وأفضل أن تخفى عواطفك فى ذات نفسك وأن تصطنع الاندماج فى الآخرين فترقص معهم وتغنى مثلهم ، اجتناباً للظنون وسوء العاقبة ... وأرجو أن تكون قد أفقت الآن من هذه الغشية العارضة ، لتعلم ما كان خافياً من سر خروج هذا الكاهن الكبير من بيت الإلـه دون أن ينتبه إليه أحد! .. لقد عنيت أنا باستجلاء هذا السر فتسللت من وراء ظهوركم إلى هناك ، وعرفت أنه خرج من باب صغير ملحق بالأبواب النحاسية ، وقد رأيت الحارس يغلقه بعد خروجه ويخفى مفتاحه معه . ويبقى بعد هذا أن نشرب ياسيدى نبيذاً ، وتسترد أعصابك المتلاشية ، فوجهك شديد التجهم وعيناك قلقتان كعينى البومة ! . .

وناولنى « كاپتاح » نبيذاً فشربت ، وفى ضوء القمر مترقرقاً فى أضواء المشاعل أخذتنى غفوة على الحشائش ، استغرقت منها فى نوم عميق . وكان « كاپتاح » قد خالسنى فخلط النبيذ بعصير الخشخاش ، لا ليثأر لنفسه مما كنت قد فعلته به ونحن فى « بابل » ، حينما وضعته مخموراً فى جرة ، بل ليقصينى عما رآنى مستهدفاً له فى ملاحاة « مينوتوروس» . ولعله بذلك قد أنقذ حياتى ، فما كان مستغرباً منى فى ثورة يأسى وغضبى أن أغمد سلاحى فى عنق ذلك الرجل وأذبحه ، وعندئذ تكون الكارثة ! . .

وقام « كاپتاح » على حراستى ، بعد أن سدل على جسمى غطاءاً ليذود عنى

أقدام الراقصين ، بينما ظل هو يجرع النبيذ من الجرة حتى أتى على كل مافيها .

واستيقظت فى مطلع الصبح وما أزال متأثراً بفعل الشراب المخدر الذى كان قويًّا ، حتى أنى لم أتبين أول الأمر أين أنا ! . . وشيئاً فشيئاً تذكرت ما حدث وحمدت « لكابيتاح » ماصنع .

وكان كثير ممن اشتركوا بالأمس فى الموكب قد عادوا إلى المدينة ، والذين بقوا منهم ما زالوا نياما تحت الأشجار ، وكان خليطاً من رجال ونساء ، وقد بدا عليهم أنهم شربوا كثيراً إذ كانت أجسامهم عارية ، وأوضـــاع نومهم غير رتيبة . فلما استيقظوا ارتدوا ملابس جديدة ونسق السيدات شعورهن الشعثة ، وكان من عادتهن الاستحمام صباحا ، ولكنهن لا يستطعن ذلك لأن المياه فى مجراها القريب كانت من البرودة بحيث لا تطيقها أجسامهن التى أَلِفَت الماء الساخن من أفواه الصنابير الفضية ، فاكتفين من هذا الماء البارد بالقليل يحملنه بالأيدى إلى أفواههن ينظفن به الحلوق والأسنان ، ثم رحن يزججن حواجبهن ويدلكن وجوههن وشفاههن بالأدهنة تجميلا وزينة . .

وأخذ هؤلاء وأولئك يتساءلون عمن سينقلب منهم إلى المدينة ومن سيبقى فى هذا المكان انتظاراً لعودة « مينيا » ! . فأما الذين أجهدتهم الرحلة وحركة الرقص وعربدة الشراب ، فقد أخذوا وجوههم إلى المدينة ، وأما الفتيان والشابات فقد اختاروا البقاء بدعوى انتظار « مينيا » ، ولكنهم فى الواقع كانوا يريدون الافتنان فى لهوهم وعبثهم ، والاستزادة من متعة اجتماعهم فى ذلك الموضع النائى البعيد عن الأعين ... وكان النسوة أشد اغتباطاً بذلك إذ يفرغن لهواهن بعيدات عن أهليهن !.. وهنا فطنت لماذا لا توجد بيوت مباذل خاصة فى مدينة « كريت » إلا فى حى « الميناء » ، وهو منها حى الأجانب ! . .

ورأيت « مينو توروس » يتأهب لمغادرة المكان ، فدنوت منه وقلت له فى تجمل ولطف عبارة : أيأذن لى سيدى فى أن أبقى هنا مع أصدقاء « مينيا » هؤلاء انتظاراً لعودتها ؟ ! . .

قال ، وهو يكتم غيظه : إنك تنتظر عبثاً ، فالذين وهبوا أنفسهم لهذا البيت المقدس لا يبرحونه ، ومن الخير لك أن تعود إلى وطنك « مصر » وإنى لأعلم أن سفينة ترسو الآن فى الميناء ، فنى وسعك الإبحار عليها !..

قلت له فى سذاجة مصطنعة : الحقيقة ، ياسيدى ، أننى أحببت « مينيا » حبًّا ليس كمثله حب فى الوجود ، فإن كان قد قضى علىَّ أن أكون منها محروماً إلى الأبد ، فلا أقل من أن أتلمس بعض العزاء فى وجودى قريباً منها ، وماذا لو بقيت هنا كهؤلاء الآخرين الذين يتخذون من الأمل فى عودتها سبباً فى بقائهم ؟ ! ألا ترى ، يا سيدى ، أن وجودى بين هؤلياء الفتيات والسيدات الجميلات ، خليق أن تبترد به عواطفى المتلظية بوقدة الحب والحرمان ؟ ! . . إنهن ، مجتمعات ، لاينزلن من قلبى منزلة « مينيا » ولا ينسيننى شيئاً من ذكراها ، ولـكننى أطمع فى أن أتخيلها ماثلة فى عين من عيونهن ، أو فى حديث مع إحداهن ، بل لقد أتخيلها ، كما يتخيلنها ، عائدة من لدن إلـهها ، مأذوناً لها بذلك منه ، رحمة بنا وإشفاقاً علينا . . .

وكنت أقول له هـذا ، متملقاً مشاعره ليرخص لى فى البقاء ، فإنى غريب ، وشأنى فى البقاء هنا جد مختلف عن الآخرين ، وهم من أبناء « كريت » ، فلا يجوز لى أن أبقى بغير إذنه ، وخاصة بعـد الذى شجر بينى وبينه . وقد رأيت أن أترضاه معتذراً عما بدر منى بالأمس ، فقلت له : أرجو أن تغفرلى ، يا سيدى ، ما فعلته البارحة فى غير وعى ولا تدبر ، فقد كنت ثملا أكثر مما تعودت ، ولم أدر شيئاً مما حدث إلا اليوم ، فأسفت لذلك أسفاً شديداً ...

فربت « مينو توروس » على كتفى مبتسما ، وقال : إذا كان الأمر كذلك ، فإنى أراك غير مسؤول عن خطيئتك ، وحبذا لو اقتصدت فى شراب النبيـذ ، ولست بمانعك من البقاء هنا مستمتعاً بالأمل والخيال وبما شئت من مخالطة النساء ، فنحن فى « كريت » لا نحرم إنساناً متعته لأننا لسنا — كغيرنا — قصار نظر!..

فشكرته على هذا ، وتركنى مولياً وجهه شطر المدينـة ، ولـكننى لم أثق فى

سلامة طويته ، وقد شعرت بأنه أوصى الحارس بالتشديد فى مراقبتى ؛ كما أوصى بذلك « الكريتيين » الباقين معى ، فهؤلاء ما كاد « مينو توروس » يغادرهم حتى أحاطوا بى جميعاً ووضعوا عقود الزهور حول عنقى وأطالوا النظر فى وجهى ، وأقبلت السيدات فترامين على صدرى وبين ذراعى ، وأظهرن من الخلاعة ضروباً قوية الإثارة . وفى هذا الجو الطافح باللهو والحماقات ، استرسلت مع هذا الجمع ، وتقلبت وإياهم فيما شاءوا من طعام وشراب ، حتى ثملت ثملا شديداً كاد يعكر ما هم فيه من صفو وهناءة ، فأخذوا يضيقون بى ذرعاً ، ويصبون علىَّ اللعنات ، ويصفوننى بأنى إنسان بدائى متوحش ... وهنا تدخل « كاپتاح » متظاهراً بالضجر منى ، لإرضائهم ، وجرنى من ذراعى ليبعدنى عنهم ، ثم عرض عليهم أن يأخذ مكانى بينهم ليفاكههم ويسليهم ، ولكنهم لم يستطيبوا منظره ، وسخر شبانهم منه ، مشيرين إلى رأسه الأصلع ، وكرشه المتدلى ، وعينه العوراء ... غير أنه كان غريباً عن بلادهم ، وهم — وخاصة نساؤهم — يستهويهم كل ما هو غريب ، فكيف به إذا كان إنساناً مسخا على مثال « كاپتاح » ، فإنهم عندئذ يتلهون به فى غير حرج ، فأجازوا له الانضمام إلى جماعتهم ، متضاحكين منه ، وقد جرى معهم فى ذلك إلى أبعد الحدود ، فقد كان كل شىء من تصرفاته وعباراته ، يعطيهم أكثر مما قدروا من المرح والفكاهة . . .

وعلى هذا النحو من اللهو والمجون ، انقضى اليوم وجاء الليل بعده ، فلم يهدأوا إذ مضوا على هذه الحالة نفسها إسرافاً فى الشراب ، وإسرافا فى اللهو . وكانت النساء أكثر صخبا ، فصياحهن لا ينقطع ، وهن يتنقلن هنا وهناك خفيفات ، مصطنعات الهرب من الشبان إغراءاً لهم وإثارة لمشاعرهم ، على أنهم فى صباح اليوم التالى لم يستطيعوا الاسترسال فى ذلك ، فقد نال منهم الإجهاد والسهر المتصل ، وأحسوا بالملالة وفقدان الشهية ، واشتدت بهم الرغبة فى الاستحمام الذى لم يكن ميسوراً لهم فى هذا المكان ، ولهذا عاد أكثرهم إلى المدينة فى ذلك اليوم . ولم يبق منهم إلا الفتية الأشداء الأكثر احتمالا . ولكن هؤلاء الفتية استنفدوا طاقتهم ،

وتجشأوا كل شهواتهم عند مطلع اليوم الثالث فولوا وجوههم شطر المدينة ، وكنت قد برمت بهم جميعا ، فعرضت المحفة التى كانت تنتظرنى ، على المكدودين منهم الذين لا يقوون على السير ، مخافة أن يمنعهم ذلك من العودة ، لأبقى وحدى خاليا إلى نفسى وإلى الغرض الذى جئت من أجله .

وبعد انصرافهم ، عنيت باستمالة الحراس الذين لم يبق سواهم ، فقدمت إليهم جرة من نبيذ ، فتقبلوها مغتبطين ، إذ كانوا يعانون من الوحدة فى هذا المكان الخالى من أية تسلية ، ولم ينكروا منى سوى أنى تخلفت هنا عن قافلة الراحلين ، مؤملا أن تعود « مينيا » ، وهو أمل مستحيل التحقيق ، ولكنهم عللوا ذلك بأنى غريب أبله ، فأغضوا عن بقائى ، وأخذوا يتساقون النبيذ فى ابتهاج .

ولم يكن الكاهن المقيم هناك بأقل منهم ارتيابا فى سلامة عقلى ، واستغرابا لانتظارى الفتاة التى لن تعود . وهنا قلت «لكاپتاح» : إنه لاسبيل لنا إلا الرحيل استسلاما لقضاء الآلهة ، فليس ثمت من جدوى فى بقائنا ترقباً لعودة « مينيا » ، ولكننى مع ذلك لا أستطيع مغادرة هذا المكان مهما تكن العاقبة ، وأظن أنى سأظل هنا حتى الموت ، فسأحاول البحث عن « مينيا » فى أعماق هذا البيت المظلم وهى محاولة محفوفة بأشد الأخطار ، ولكنى سأبقى رهين الظروف ، ولا أرى إلا أن ترحل أنت عائداً إلى سوريا ، فما ينبغى أن أربطك بالمصير الذى رسمته لنفسى ، وقد كتبت لك لوحا طينيًّا و قعت عليه بخاتمى السورى لتسحب به نقودى من بيوت التجارة ، ولك — إن شئت — أن تبيع منزلى هناك ، وأنت حر بعد هذا فى غدوك ورواحك ، وإذا رأيت ألا تعود إلى « مصر » خوفا من القبض عليك باعتبارك رقيقا هاربا ، ففى مستطاعك أن تقيم بمنزلى فى « أزمير » وأن تعيش بما يجتمع لك من نقودى . ولن أوصيك بشىء لتحنيط جسمى إذا مت ، فإننى إن لم أجد « مينيا » لا يعنينى أن يكون جسمى محفوظا أو مهملا ، فاذهب ، إذن ، ودعنى لشأنى ، ولعل بركة « الجعران المقدس » لا تتخلى عنك .

ولكن « كاپتاح » لبث صامتا مطرقا لفترة طويلة ، وأخيراً رفع وجهه

ليقول : إنى كما تعلم ، خادمك المخلص ، ولم أشعر مرة بالحقد عليك حتى حينما كنت تضربنى ضرباً قاسياً موجعاً ، فدائماً كنت أعتقد أنك تفعل هذا عن سلامة نية ، وفى كثير من المشكلات كنت تستشيرنى وتستمع لمشورتى إيماناً منك بإخلاصى .. ومشكلة اليوم لا تخصك وحدك ، لأنها مشكلة « مينيا » وأنت تعلم أنى وضعت قدمها فوق رأسى تقريراً لسيادتها علىّ ، فأنا مسؤول عنها كخادم لها ، وقد وضحت نيتك فى دخول هذا البيت المظلم بحثاً عن « مينيا » ، وهذه مخاطرة لن أدعك تنفرد بها . وعلى هذا فسأظل رفيقك حيث تمضى ، وقد تنفعنا بركة «الجعران المقدس» ، وإن كنت أنت لا تؤمن به كثيراً ، وخاصة فى هذه المشكلة التى أراها كذلك فوق قوى الجعارين المقدسة !..

وكانت عبارات « كاپتاح » تتسم بالحزن وهدوء التفكير على نحو لم أعهده فيه من قبل ، فلم يكن يتخللها كالعادة شىء من الصراخ وطيش الحركة . ولا شك فى أنه كان صادقاً فى عواطفه وفى تصميمه ، ولكننى — من وجهة نظرى — كنت أرى من الحمق أن يبحث اثنان عن الموت ، فى حين يكفى أحدهما لذلك . ولهذا رغبت إليه مرة أخرى فى أن يدعنى وحدى ، ولكنه قال لى فى إصرار وعناد : إذا لم تأذن لى بمرافقتك ، فإنى سأتبعك مخالفا رأيك ، فمن الأفضل أن توافقنى ، فرجلان أقوى من رجل واحد ، وأربعة أقدام خير من قدمين . . . ولا يغيبن عنك أن هذا البيت المظلم مخيف مرعب وسنحتاج فى سبيل اقتحامه إلى مايشد أعصابنا ويزيل مخاوفنا ، ولا يكلفك هـذا أكثر من أن تسمح لى بحمل جرة من النبيذ ، فإن جرعات منها أثناء الطريق تكفى ، بالنسبة لى على الأقل ، لمواجهة الأخطار فى شجاعة وإقدام !..

فقلت له ، منهيا هذه المناقشة : كفاك ثرثرة . وهات النبيذ كما تريد ، ولنبدأ العمل من الساعة ، والفرصة فيما أرى سانحة ، فالحراس مستغرقون الآن فى نوم عميق بتأثير المواد المخدرة التى خلطت بها النبيذ الذى شربوه .

وكان الحراس ، كما كان الكاهن ، نياما كالموتى فى تلك اللحظة . فتسللت

إلى بيت الكاهن ، وفى عجل تناولت المفتاح من الموضع الذى دلنى عليه « كاپتاح » ، ثم حملنا طبقا عليه جذوة من نار ، كما حملنا مشعلا لم نر إذ ذاك حاجة إلى إشعاله لأن القمر كان ساطعا ، وكان من السهل علينا بعد ذلك أن ندير المفتاح بالباب الصغير فينفتح ، ومنه دلفنا إلى بيت الإلـه بعد أن أحكمنا إغلاقه . وفى خلال الظلام الحالك كنت أسمع صوت أسنان « كاپتاح » وهى تصطك ارتجافا على فوهة جرة النبيذ !..

— ٥ —

وقال لى « كاپتاح » فى صوت خافت مرتعش : إن الظلمة هنا كظلمة القبور ، بل هى أشد منها تراكما وانطباقا ، وما نستطيع أن نخطو فيها خطوة دون أن نضل أو نتعثر ، وما دمنا قد دخلنا فيها بمحض اختيارنا ، فلا بد لنا من أن نستهدى بهذا المشعل ، فلنضئه يا سيدى ، ولا خوف من ذلك فإن ضوءه لن يظهر لمن فى الخارج .

وكان رأيه هو الوسيلة الوحيدة لمتابعة السير فى هذه المتاهة المخيفة ، فنفخت فى جذوة النار وأضأت منها المشعل . وهنا رأيت أننا فى سرداب كبير أغلق مدخله بالأبواب النحاسية ، ومن قبو هذا السرداب تتفرع عشر طرق مختلفة الاتجاهات يفصل كلا منها عن الآخر حائط سميك من الطوب ، ولم أستغرب هذا ، فقد سمعت من قبل أن إلـه « كريت » يقيم فى « بربى » !.. وكان كهنة بلاد ما بين النهرين يقولون لى إن « البربى » تقام على شكل أحشاء حيوانات القرابين ، واستنادا إلى هذه الفكرة بدا لى أنه من الممكن التعرف على طريقنا وسط هذا الأخطبوط المتشابك ، فإنى كثيراً ما شاهدت أحشاء الثيران التى كانت تقدم قربانا للآلهة ، ومن ثم اخترت ممراً يقع فى أحد الجوانب ، وقلت : فلنسر من هذا الطريق ...

ولكن « كاپتاح » قال : أظن أن التأنى والحيطة أجدى علينا من العجلة ، وقد لا نخسر شيئا إذا تجنبنا السير على غير هدى ، والرأى الصواب أن نفكر

بحذر وانتباه فى طريق عودتنا إذا كان مقدراً لنا أن نعود ... وأخرج من جيبه كرة ملفوفا عليها خيط طويل ، وثبت طرفها على قطعة من العظام كالمسمار ودسها فى فراغ بين طوبتين ، وكانت الفكرة على بساطتها بارعة فى ذاك الوقت ولكنها لم تخطر لى ببال ، وقد استحسنتها دون أن أشعره بذلك حتى لا أنبه غروره !..

وفى الطريق الذى اخترناه أخذنا نسير فى غمر من الحيرة والاضطراب ، فلسنا ندرى مصيرنا خلال ما يطبق علينا فيه من ظلمات قاتمة ، وكان يواجهنا أحيانا حائط معترض ، فنميل عنه إلى طريق آخر من الطرق المفتوحة ...

وبعد أن قطعنا شوطاً على هذا الحال ، توقف « كاپتاح » وهو يقول فى كثير من القلق : ما هذه الرائحة الكريهة ؟! ألا تشمها ياسيدى ؟! إن أنفى يكاد يثب من وجهى هربا منها .. إنها رائحة الثيران ! .

وفى اللحظة نفسها كنت مثله أشم هذه الرائحة المتطايرة علينا من الجدران وهى كرائحة الثيران بل أشد منها نتناً ، فكأنما المكان كله حظيرة كبيرة لمجموعة من هذا الحيوان ، ولكننى لم أر فيها سببا يدعو إلى التوقف فأمرت « كاپتاح » بمتابعة السير ، فرشف رشفة من جرة النبيذ مستجمعا بها نشاطه وأخذنا نستحث الخطى ، ولكن قدمى تعثرت بعد قليل فى شىء لم أتبينه ، فانحنيت لأراه ، فإذا به جمجمة لسيدة كان شعر الرأس لايزال لاصقا بها ، وهنا أصابنى فزع شديد ، فقد أدركت فيما يشبه اليقين أنى لن أرى « مينيا » حية بعد ... وكان هذا مثيراً لرغبتى الجنونية فى الإسراع لاكتشاف ماوراء ذلك من شر مجهول ... فمضينا قدما وأنا ألطم « كاپتاح » ليوسع خطاه ويمتنع عن الشكوى التى كان لايفتأ يرددها متذمراً ..

ومرة أخرى توقف « كاپتاح » وهو يشير إلى الأرض مذهولا متجهم الوجه فنظرت إلى حيث يشير ، فرأيت روثا جافا يعلو الأرض ويرتفع عنها كما لو كان تلاً فى مثل طول الرجل الفاره ، وأنه — كما يبدو — روث ثور ! .. ولكن كيف يكون هذا لثور واحد ؟! .. إنه إذن لثور عجيب تفوق ضخامته تصور أى إنسان

ولم يكن « كابتاح » بأقل دهشة واستغرابا ، فقال : إنه من المستحيل أن يكون هذا روث ثور ، ذلك لأن الثور لا يمكن أن يسير فى مثل هذا المر ، وأغلب ظنى أنها تجشؤ ثعبان فظيع تكاثر هكذا على مدى السنين الطوال . . .

وتمثلت هذا صحيحا ، فمن الجائز أن تكون هذه « البربى » قد صنعت لانسياب ذلك الثعبان الذى تخيله « كابتاح » ، وتحت تأثير هذا الخاطر المخيف نشأت عندى نية العودة ، ولكن رغبتى فى البحث عن « مينيا » جاشت فى نفسى هى الأخرى وكانت أقوى تأثيراً وأشد دفعا ، فتقدمت مدفوعا بها إلى الأمام ، ممسكا « بكابتاح » لأجرّه ورائى . وقد أخرجت سكينى وأشهرتها فى يدى المبتلة بالعرق المتفصد ، استعداداً لملاقاة الخطر المتوقع ، وإن كان الموقف — على ما شعرت به حينئذ — أكبر من أن تجدى فيه مشافر السيوف والسكاكين ...

وكنا كلما تقدمنا فى السير ازدادت الرائحة الكريهة انبعاثا وشدة ، حتى كدنا نختنق لفرط خبثها وتعفنها ، ولكننى رغم هذا كنت أشعر أننا نقترب من الهدف ، فتابعنا السير فى غير تلبث إلى أن لاح لنا من بعيد شعاع ضوء شاحب يتساقط على الممرات ، فرأينا إذ ذاك أننا صرنا فى ثنايا الجبل ، فقد ظهرت لنا الحوائط من الحجر لا من الطوب ، وأخذنا بعد ذلك نتعثر فى عظام أجسام بشرية وأكوام من الروث. وانحدر بنا الطريق حتى استشرفنا مغارة كبيرة ، فوقفنا هنالك على صخرة ناتئة كانت جزءاً من سلسلة صخور بارزة فى مياه البحر .

وكان الضوء ينعكس من البحر على هذه المغارة ، وهو ضوء باهت غريب يتلون بالخضرة ، ولكنه كان يكفينا لنرى ماحولنا ، وقد رأينا على سطح هذا البحر الذى كنا نسمع تلاطم أمواجه ، شيئاً ذا ضخامة ملحوظة يترنح عائما فى الماء ، وقد تخيلناه أول الأمر صفًّا متلاصقا من الأكياس الجلدية ، ولكننا بعد إنعام النظر اكتشفنا أنه حيوان هائل ميت !.. وقد روعنا الضخامته التى قلما يقع مثلها فى خيالنا.

ولم أشك فى أن الرائحة الكريهة التى ضقنا بشمها كانت تنبعث من هذه الجثة المتعفنة ، وكان رأسها متواريا فى الماء ، ولكننى تبينته كرأس ثور كبير الجرم ،

أما الجسم نفسه فقد بان شبيها بجسم ثعبان ، خف ثقله بالتحلل فتلاعبت به أمواج البحر . .

وتزاحمت الأفكار فى ذهنى ، ثم تجمعت كلها فى فكرة واحدة ، هى أنى الآن بإزاء إلـه « كريت » وأنه هو ذلك الحيوان القذر الذى تعاف النفس رؤيته ورائحته ، وتعبث به مياه البحر كأى حشرة تافهة ، وكيف لا وقد تنوقل من شهور خبر موته ؟! فهو إذن قد مات حقا ، وها هو ذا ملء أعيننا وليس هنا سواه . . . ولكن « مينيا » أين هى ؟! وكيف جيء بها إلى إلـه لاوجود له ؟! . .

وعندما ذكرت « مينيا » فى هذا الوقت ، ذكرت معها كذلك كل من سيقوا قبلها إلى هذا البيت المظلم ! . . ذكرت الفتيان الذين حرم عليهم الاقتراب من النساء ، والفتيات اللائى فرض عليهن أن يظللن عذارى ، ليدخلوا جميعاً فيما زعموا من رحمة هذا الإلـه وبركته . . . ذكرت المصير الذى تردوا فيه فلم يبق منهم إلا جماجمهم وعظامهم متناثرة فى ممرات هذا القبر الموحش المهجور الذى سموه بيت الإلـه !... وذكرت ذلك الوحش الضارى الذى قذف بهم هكذا إلى الموت الفظيع موصداً دونهم الأبواب إلى الأبد ! . . .

لاشك فى أن هذه الأجسام النضة الفياضة بالشباب والقوة ، كانت تساق إلى هذا الحيوان الضخم الصريع مرة فى كل شهر لتكون له طعاما وغذاءا . هذه هى الحقيقة المفزعة التى اتخذها حكام « كريت » شرعة مقدرة وسنة متبعة ، ليؤكدوا فى عقول الناس خرافة سيادتهم على البحار ! . .

أما هـذا الحيوان نفسه ، فهو فيما يظهر ، حوت مفترس ، دفع به من أعماق البحر إعصار شديد ، فارتمى فى أحضان هذه المغارة من عهد بعيد ، وحينئذ شاءت سياسة الحكام والكهنة أن تبتدع له صفة الإلـه ، حارس سيادتهم البحرية ، ومن ثم أقيم حاجز على منفذ المغارة حتى لايعود إلى البحر ، وأقيمت « البربى » متصلة بهذه المغارة ، وقدمت إليه فى مواعيد مقررة مترادفة ، هذه الضحايا الغالية لينهش لحومها ويفرى عظامها . . .

ولكنه ، وقد قضى نحبه ، وصار رمة كهذه الرمم ، فكيف ؟! ولمن جيء إلى هنا « بمينيا » ! ؟ فأين ، أين أنت يا « مينيا » ! ؟ . .

وفى مثل ثورة المجنون رحت أردد بأعلى صوتى هذا النداء ، وجدران المغارة تردد صداه ، ولا من يجيب ، إلى أن أشار « كاپتاح » إلى الصخرة التى نقف عليها فرأيت ، ويالهول مارأيت ! . . رأيت على الصخرة دما متجمداً يمتد أثره إلى الماء !. وفى نظرة سريعة رأيت على هذا الماء جسم « مينيا » أو بالأحرى مابقى من هذا الجسم ، وكانت مكبوبة على وجهها ، ولكن شبكة شعرها الفضية كانت إعلانا صارخا بأنها هى ، هى بعينها ! . . .

وهنا كانت الجريمة الشنعاء تتحدث عن نفسها فى وضوح تام . فهذا الجرح الدامى النافذ فى صدر « مينيا » هو الطعنة القاتلة التى أودت بحياتها ، وما كان وراءها حين أدخلت هذا المكان سوى « مينو توروس » فهو إذن الذى طعنها بسيفه من ظهرها وهى آمنة مسرورة بلقاء إلـهها ! . . وهو الذى دفعها بعد ذلك إلى الماء ... لقد فعلها هذا المجرم لالشىء سوى أن يظل الناس على اعتقادهم أن الإلـه المزعوم لايزال حيا لم يمت ! . . فما أفظع مافعل ، وما أشقانى بفعلته! . .

وانفجرت فى صدرى صرخة المفجوع اليائس ، ثم اعترتنى غشية سقطت فى إثرها وكدت أهوى إلى البحر لولا أن أمسك بى « كاپتاح » وحال بينى وبين ذلك ، وظللت فى غيبوبتى إلى أن أخبرنى « كاپتاح » فيما بعد أنه حسبنى قد فارقت الحياة ، فتعاظمه الأمر وأبكاه كثيرا ، وكان مصابه مزدوجا ، فإنه فى وقت واحد يفقد سيده وسيدته المحبوبين ، وقال إنه كان يؤثر أن يموت على أن يرى بعينه هذه الفاجعة، ولكنه رأى أن عليه واجبا هو أن يتحكم فى مشاعره وأعصابه لينقذ حياتى، وإن لم يكن بمستطيع أن يفعل شيئاً لإنقاذ « مينيا » فقد قتلها ذلك الجزار « مينوتوروس » كما قتل الكثيرين قبلها من الشبان والفتيات ، أولئك الضحايا الذين رأى بعينه بقايا أجسادهم فى الممر وفى قاع البحر الرملى ، ثم قال « كاپتاح » متمما القصة التى لم أشعر بها خلال إغمائى ، إنه قرر أن يعود بى ، فلو بقينا كلينا

ساعة فى هذا المكان لقضينا نحبنا اختناقا بالرائحة النتنة ، ولكن هذا كان يقتضيه أن يحملنى وليس فى وسعه أن يفعل ذلك ، وهو فى الوقت نفسه يحمل جرة النبيذ والشعل ، فلم يتردد فى أن يفرغ مابقى من النبيذ فى جوفه جملة ، ويلقى الجرة فى الماء فارغة ، وقد منحه النبيذ قوة أعانته على حملى . وعندما كان ينوء بى كاهله كان يكتفى بحمل نصفى الأعلى ويمضى بى مجروراً من نصفى الأدنى ، مسترشداً بحبال الخيط التى لم ينس أن يجمعها ويطويها حتى لاتترك أثراً يدل على دخولنا . وأثناء عودته كشف على ضوء المشاعل بعض علامات سرية فوق الجدران أدرك منها أن « مينوتورس » احتفرها ليتخذ منها معالم هادية فى طريق ذهابه وعودته ، ثم قال « كاپتاح » أيضاً إنه حين ألقى جرة النبيذ فى الماء تخففا من حملها ، خطر له كذلك أن يجعل من وجودها هناك شيئا يراه « مينوتوروس » فيبلبل فكره ويشغل خاطره عندما يذهب مرة أخرى بضحية جديدة .

وقد وصل بى « كاپتاح » إلى الأبواب النحاسية عند مطلع الفجر ففتح الباب بمفتاحه ثم أغلقه بعد خروجنا ، ومضى فوضع المفتاح فى موضعه ببيت الكاهن ، وكان لايزال ، هو ومن معه من الحراس ، يغطون فى نومهم بفعل المخدر الذى تناولوه مخلوطا بالنبيذ ، وحملنى « كاپتاح » بعيداً إلى غابة على غدير ماء ، فغسل وجهى وصب الماء على رأسى وأخذ يدلك يدى حتى أفقت من غيبوبتى التى لم أشعر خلالها بشىء من كل هذا الذى أخبرنى به !...

وحين أفقت كنت شارد الفكر لا أكاد أعى شيئاً واضح المعالم ، فأعطانى « كاپتاح » حبوبا منبهة ، فنشطت قليلا ونهضت لأسير مستنداً إلى ذراعيه قاصدين إلى المدينة ، فلما اقتربنا منها كنت قد استعدت شعورى وأفكارى تماما ، وتذكرت فى صورة واضحة ، المصير المفجع الذى انتهت إليه « مينيا » العزيزة ، وكان هذا أمراً لاتحتمله مشاعرى . ولكننى ذكرت أن هنالك أموراً خطيرة ينبغى أن أفرغ لها وأغالب عواطفى من أجلها ، ولهذا رأيت من الحكمة ألا أرسل نفسى فى التفجع على « مينيا » التى صارت طيفاً بعيداً وروحا هائما فى عالم آخر ،

ولم يكن يشغل فكرى بعد الذى عرفته من أسرار فى تلك المغامرة المخيفة سوى أن هؤلاء الناس من أهل « كريت » الذين استقبلونى فى غبطة وابتهاج لم يعد لهم إلـه ، أو أنهم على الأصح ليس لهم ذلك الإلـه الذى آمنوا به وقربوا له القرابين الغالية من زهرات شبابهم أمداً طويلا ، وكنت فى الوقت نفسه أشعر بغير قليل من الارتياح لأنى وجدت فيهم شعبا مخدوعا تتحكم فيه أكذوبة شريرة، فجزاؤه الحق على غفلته أن تتهاوى عظمته التى جعلت من إلـه لاوجود له مصدر وجودها ومصدر حمايتها ! .. وإنى لأنظر إلى مدينة « كريت » فأستشف فى ثنايا الغد القريب علامات نهايتها ، فهذه عماراتها الجميلة المتأنقة ستذهب طعاما للنيران ، وهؤلاء النساء المترفات الرشيقات ستذوب أجسادهن فى هذا الأتون المتسعر الذى لن يبقى ولن يذر ، وهذا أيضاً قناع « مينوتوروس » الذهبى الذى اختفت فيه الحقائق والجرائم ، سيصبح صفائح مصهورة تشوى جلد صاحبها ، وهكذا ينتهى كل شىء من مدنية « كريت » وترتد هذه الجزيرة إلى البحر لتغرق فيه ...

على أنى قطعت نفسى من هذا الخيال لأفكر فى « مينوتوروس » ... لقد قتل هذا الرجل « مينيا » ، ويكفى هذا لكى أبغضه بكل قلبى .. ولكن ماذا كان يمكن أن يفعله غير ذلك ؟! إن واجبه ثقيل وأسراره أشد ثقلا ، وقد كان يعلم أن الفتيان والفتيات لايذهبون لخدمة الإلـه وإنما يقذف بهم شهراً بعد شهر ، وسنة إثر أخرى ، ليأ كلهم حيوان البحر الحبيس فى المغارة ، ولكنه كان يعلم كذلك أن عظمة « كريت » البحرية لاتقوم إلا على أسناد من هذا السر المجهول أو هذا الاعتقاد الزائف ، فهل كان يستطيع أن يميط اللثام عن الحقيقة فتدول دولته ، وينهار وطنه ! ...

كنت أفكر فى مسئولية ذلك الرجل على هذا النحو ، ولا أدرى كيف كنت أجنح فى تفكيرى إلى التهوين من مسئوليته ، وهو الذى يتمرغ فى أقذار من جرائم متصلة لم تكن جريمته نحو « مينيا » أولها ولا ختامها ..

ولعلى أردت أن أخفف من نفسى شعور الحقد عليه لأستريح ، فقد كنت إذ ذاك فى حال أشبه ماتكون بكومة من هشيم ، تكفى شرارة صغيرة لإشعالها والإتيان عليها . وأنا أريد أن أعيش وألتمس أية فكرة للهرب من خطر جديد يدمر حياتى ..

واعترانى بعد ذلك شعور طائش ، فبدوت كالمجنون، أغنى وأضحك وأنا سائر فى الطريق متكئاً على « كاپتاح » ، وقد استغرب ذلك أولئك الذين يعرفوننى من أصدقاء « مينيا » ولكن « كاپتاح » أفهمهم أنى شربت كثيراً من النبيذ خلال انتظارى لعودة « مينيا » ، وأنى مازلت ثملا ! :.

ورأى « كاپتاح » أن يريح نفسه من عناء الاعتذار عن حالتى‌هذه التى تأباها عادات المدينة فى الطريق العام ، فاستأجر محفة حملتنا إلى الفندق ، وهناك استسلمت إلى نوم عميق .

فلما صحوت ، عدت إلى تذكر ما حدث بالأمس ، وعبثاً حاولت تنحية وجه « مينوتوروس » عن ذهنى . لقد كان هو الشخص الوحيد الذى حال بينى وبين « مينيا » إلى الأبد ، وهو الذى ساقها إلى المغارة ليقتلها ، وهو يعلم أن الحيوان الذى اتخذوه إلــها قد مات ، ومعنى ذلك أنه كان يستطيع ، وقد عرف مقدار حبى لها ، أن يبقى على حياتها بوسيلة من الوسائل ، لتعود فى الأجل الذى حددوه دون أن تهتز لذلك عقيدة الناس ، ولكنه لم يفعل وأباح لنفسه أن يهدر دمها فى غير ماداع إلى ذلك ، وإذن فلأذهب إليه لأقتله ، فذلك جزاؤه وهو أقل ما ينبغى أن أفعل وفاءًا بحق « مينيا » ، ثم إن قتله ثأراً لدمها المسفوك سيفتح من ناحية أخرى بابا لتخليص أرواح كثيرة بريئة يتسابق أصحابها إلى الموت وهم لايشعرون، اعتقاداً بأنهم ظافرون بالمجد والفخار إذا وقع عليهم الاختيار لدخول بيت الإلــه ، شأنهم فى ذلك شأن « مينيا » ومَن قبلها ! .. ولكنى ذكرت وأنا أرتجل قرار قتله أن الحق فى مثل هذه البلاد كالسيف فى يد طفل ، يريد أن يطعن به فيرتد إلى صدره ... ومن ثم أبعدت هذه الفكرة عن ذهنى الذى كان قد أخذ يصفو ،

وفى هدوء رأيت أن أمر « مينيا » قد انتهى بموتها وأن أمر إلـه « كريت » لايعنينى بعدها فى كثير أو قليل . . .

وملت على « كاپتاح » أستشيره ، فقال : ليس هذا أوان التفكير ، وإنما هو أوان الراحة ، وما أرى إلا أن تعتكف بعض الوقت وليكن بعد ذلك ما يكون . .

ثم قدم لى طعاما ودعانى فى إصرار إلى تناوله ، ولكنى لم أكن أشعر برغبة فى طعام، قدر ما أشعر بالظمأ إلى النبيذ ، فأخذت أشرب منه فى إفراط ، وكنت أحس فى شربه بالهدوء والنشوة ، فإن الحقائق كانت تختفى فى مفعوله أو تزدوج بجزئيات ذات ألوان شتى ، وفى هذه الفوضى الفكرية كان يضطرب العقل ويستغلق الفهم ! .. ولكن أليس هذا ، فى مثل حالتى ، أسلم عاقبة مما لو ترك العقل طليقا، فلا يكون إلاّ التفكير فى « مينيا » والحقد على الناس والآلهة جميعاً ؟ ! ..

وفى صباح اليوم التالى استيقظت فرأيت « كاپتاح » جالسا فى ركن من الحجرة وهو يبكى فى صمت معتمدا رأسه بيديه ، فتناولت جرة النبيذ وعببت منها مقداراً كبيراً أسكرنى ثم سألته : علام تبكى أيها الأحمق ؟ ! ..

قال : إنما أبكى ياسيدى لأن سفينة بالميناء تتهيأ للإبحار إلى سوريا وهى آخر السفن فى هذا الفصل ، ولن تأتى أخرى إلا فى الشتاء ، فإن لم نسافر عليها فسنبقى هنا كل هذا الوقت الطويل ، وهذا يخيفنى ومن أجله أبكى ! ..

قلت له مشتدا : أغرب عن وجهى ، وارحل بنفسك على السفينة التى يزعجك انتظار غيرها ، فمن الخير لى ألا أرى وجهك هذا الدائم الكآبة ، وألا أسمع صوتك هذا الدائم الشكوى والأنين ! ..

ولكنى عندما قلت هذا شعرت بالألم والخجل فألقيت بجرة النبيذ بعيداً ، لأن « كاپتاح » فى الواقع كان عزائى الوحيد فى هذه الغربة الطويلة الموحشة ، وقد أخلص لى إخلاصاً يندر أن يوجد مثله فى الخدم والأرقاء ، بل يندر أن يوجد فى الرجال الأحرار من الأصدقاء .

وقال « كاپتاح » بدوره : الحق معك يا سيدى ، ولكن يجب أن تضيف إلى هذا أننى كذلك سأستريح من تملك الذى لا ينقطع ... لقد فقدت خير ما فيك وأنت لا تدرى !.. وكأنى بك قد قذفت من النافذة بكل ما توافر لك فى رحلاتك من ذهب وفضة ، وما أراك — بعد — قادراً على علاج مريض واحد بيديك هاتين المرتعشتين ، وغداً قد لا تستطيع أن تمسك بهما جرة النبيذ ، فإن الخمر لا تفلت شاربها من هذا المصير المحزن .. وقد كنت أحسب الشراب شيئاً يضفى الراحة على العقل والنفس ، فوافقتك عليه من غير تدبر فى العاقبة ، وسرت أنا نفسى فى هذا الطريق ، وحينما كنت تسرف فى الشراب ، كنت أقول للناس — مفاخراً — إنك لا تحصى عدد جرات النبيذ التى تفتحها وتأتى عليها لكثرتها ، وإنك تشرب كما يشرب التمساح ، وتنفق الذهب والفضة بغير حساب فى شراء النبيذ .. ولكن لكل شىء حدود ، وقد تجاوزتها ، ولم يعد هناك محل للمفاخرة بما قد تفاقم شره وبان خطره ، وفرق كبير بين الاعتدال والإفراط ، فذلك الرجل الذى يشرب النبيذ ثم يذهب إلى الشوارع فيشاغب ويُضرب فتشج رأسه ، يهون أمره كثيراً عندما ينقلب إلى بيته فيتناول الجعة والسمك المملح وينهض مستأنفاً عمله على ما فرضته الآلهة وقضت به مطالب الحياة فى هدوء وكياسة ، ولكنك يا سيدى لست من هذا فى شىء ، فأنت تدمن الشراب فى كل يوم كما لو كان هو آخر يوم فى حياتك ، وقد يكون هذا حسناً لو أنك تتعجل به آخرتك !.. على أن الأفضل، إذا كنت تقصد إلى ذلك ، أن تغطس مرة واحدة فى حمام من النبيذ، فهذا أسرع الوسائل إلى ما تريد دون أن تتعرض إلى العيون الراصدة والألسنة الناقدة !..

واستقرت كلمات « كاپتاح » من نفسى فى مكانها من التقدير ، فلم يقل إلا الحق الذى لم أفطن إليه ، وتحسست يدىَّ المرتعشتين فإذا بى أفقد السيطرة عليهما ، وكانتا يدى طبيب ثابتتين قويتى الحركة ، فأصبحتا فى بدنى كجزء متهالك منفصل ، وأخذت أستعرض رحلاتى والمعرفة التى حصلتها فى بلاد كثيرة ، فأدركت أنى قد بلغت منها الكثير ، وأن الرغبة فى الاستزادة منها لا تخلو من

حماقة ، مثلها فى ذلك مثل الإفراط فى الطعام ، وفى المسرات ، وفى الأحزان .

وعلى هذا قال « الكاپتاح » : إن الأمر فى الحق كما تقول ، ومنذ هذه اللحظة سأدع هذا الشراب المهلك ، ولن أفتح بعد جرة من نبيذ أو أتناول كأسا من خمر ، فهذا ما يمليه العقل السليم وهو أصدق عندى من مشورتك ونصحك ، وأرى أخيراً أن نشد رحالنا إلى « أزمير » ، فحسبنا ما عانينا فى هذه البلاد ...

وفرح « كاپتاح » لهذا القرار فرحاً شديداً ، وراح يعدو هنا وهناك ليجمع أمتعتنا ويحزمها ، ولم تنقض ساعات حتى كنا على ظهر السفينة ، حيث أخذ ملاحوها يضربون بمجاديفهم فى البحر إلى أن جاوزوا بها منطقة الميناء ، ثم أمر الربان بنشر شراعها فانطلقت تمخر عباب الماء ، بينما كان الربان يقدم ، فى مقدمتها ، القرابين لإله البحر والآلهة الأخرى .

وشيئاً فشيئا ، أخذت « كريت » تغيب عن أبصارنا ، وعندئذ أحسست بالوحدة فى هذا الخضم الهائل .

ذَنب التمساح

— ١ —

لم يكن إحساسى بالوحدة شيئاً جديداً فى طبيعتى ، فقد جئت — من حيث لا أعلم — إلى هذه الدنيا وحيداً محمولا على قارب الغاب إلى شاطىء « طيبة » ، ولازمتنى الوحدة فى اسمى نفسه منذ سميت بالوحيد . فعندما عاودنى الإحساس بها على ظهر السفينة شعرت كأنى قد عدت إلى حقيقتى التى عشت عليها أكثر عمرى ، فلم أضق بها ، بل لعلى قد ارتحت إليها ، على أنها وإن لم تمنعنى من مخالطة رفاق السفر بالسفينة ومجاراتهم فى تناول الطعام والشراب وفيما لامعدى عنه من المشاركة الاجتماعية ، إلا أنها كانت تجنح بى أكثر الأحيان إلى قلة الكلام والقصد فى الحركة والتماس الهدوء بمبعدة منهم ...

وفى هدأة الانفراد والوحدة ، وفى نشوة الهواء اللطيف يملأ صدرى ، تراءت « مينيا » فى خيالى بعينيها الخضراوين كلون ضوء القمر منعكسا على ماء البحر ، وبضحكاتها المشعة ذات النغم الهادئ ، وبرقصها الرائع الأخاذ على أهراء الحقول فى طرق « بابل » ، وبلباسها الرقيق الشفيف على قوامها الرشيق الفاتن، هكذا ، وعلى هذه الصورة الجميلة ، تراءت « مينيا » فى خيالى ، وهى أصدق ما تكون صورة فى حقيقة حياتى ، ولكنها وقد توارت عنى خلف أستار الأبدية ، لم يبق لى منها غير هذا الخيال ، وهو خيال محزن حقا ، بيد أنه كان حزناً مشربا بالمتعة ؛ متعة الذى يستيقظ من حلم جميل ؛ فلا يجد منه فى دنيا الواقع غير الذكرى . .

وأخيراً عدت إلى « أزمير » بعد أن غبت عنها ثلاثة أعوام ، أحطت خلالها علما بالكثير من الخير والشر وتنقلت فيها بين ممالك وشعوب ذات عدد ، وكان شعورى الغالب حين بلغتها أنى صرت أنضج رجولة وعقلا وأوفى ثقافة وحكمة ، فلم أعد بعد شابا تنقصه المعرفة والتجربة ، ولهذا عددت نفسى رابحا من هذه الرحلة الطويلة الشاقة بالرغم مما لقيت فيها من عذاب وعناء .

ولكننا حين ذهبنا إلى بيتى فى « أزمير » لم نجد منه إلا قوائم أشبه ما تكون بآثار كاد يعفى عليها الزمن ، فأبوابه ونوافذه قد حطمها اللصوص الذين اقتحموه وجردوه من كل ذى قيمة فيه ، واستباح جيراننا حرمته فاتخذوا من الفضاء المحيط به مستودعا لمخلفات بيوتهم، فكان كالخرابة القذرة ومسرحا للجرذان ، ومثابة للأقذار ، ومهبا للروائح الكريهة التى تزكم الأنوف ، وبدا على جيراننا هؤلاء امتعاض شديد لعودتنا ، فكانوا يشيحون بوجوههم عنا ، ولا نسمع إلا أن يقول أحدهم للآخر : لقد عاد هذا المصرى ، ومن مصر يفد علينا كل الشر ! ...

وكان مستحيلا علينا أن ننزل فى البيت وهو على تلك الحال من التخريب والقذارة ؛ فأوينا إلى أحد الفنادق ؛ وأمرت « كابتاح » بأن يذهب إلى البيت ليشرف على ترميمه وتنظيمه حتى ننتقل إليه وأستأنف حياتى فيه ؛ وألمت بعد

ذلك بيوت التجار الذين استودعتهم ثروتى ؛ فقد كنت محتاجا إلى المال إذ أنفقت فى السنوات الثلاث كل ما كنت قد تزودت به منه ؛ حتى الهدايا التى تلقيتها من « حورمحب » قد اضطررت إلى إنفاقها هى الأخرى . وأكثر هذه الثروة أنفقته على الكهنة « ببابل » فى سبيل « مينيا » ومن أجلها ...

وتلقانى شركائى المساهمون فى السفن بكثير من الاستياء . ذلك لأنهم كانوا قد اعتقدوا لطول غيابى أن مالى الذى ساهمت به فى سفنهم قد أصبح ملكا لهم . ولكنهم تسليما بالأمر الواقع اضطروا إلى تقديم الحساب صحيحا . وعرفت منه أننى صرت أغنى منى وقت رحيلى منذ ثلاث سنوات . فإنه وإن كانت سفن معينة قد غرقت واندرجت فى قائمة الخسارة ، فإن بقية السفن أصابت ربحا طائلا . وهنا شاعت الطمأنينة فى نفسى . ولم يعد ثم شيء يقلقنى إذا ما فكرت فى البقاء « بأزمير » .

ودعانى أصحاب السفن لزيارتهم فى محال أعمالهم . وهناك قدموا لى نبيذا وخبزا مأدوما بالعسل . وتحدثوا فقالوا : أيها الطبيب .. إنك صديقنا وشريكنا فى أعمالنا . ونحن نحب مصارحتك بأننا لا نكره التعامل تجاريا مع « مصر » . ولكننا مع ذلك نكره أن نرى المصريين بيننا أو آخذين طريقهم إلينا . وينبغى أن تعلم أن هذا هو الشعور العام فى هذه البلاد . فالجميع هنا متذمرون حانقون لكثرة ما يفرض عليهم من ضرائب لحساب فرعون . وقد أصبحوا لا يضيقون بشيء مثلما يضيقون بهؤلاء المصريين الجباة يترصدونهم فى الشوارع ويلاحقونهم غادين ورائحين . وقد اشتدت كراهيتهم لمصر إلى حد أنهم يلقون بالخنازير الميتة فى المعابد المصرية ، وإلى حد أنهم يمتنعون عن الظهور مع أى مصرى فى المجتمعات العامة ، وهو أمر يقتضينا واجبنا أن نكاشفك به لتتصرف بحكمتك .

وأدهشنى حديثهم هذا . فقد كنت قبل رحيلى عن « أزمير » أرى أهلها يتنافسون فى مرضاة المصريين والتفتح لهم وكسب مودتهم حتى كانوا لا ينفكون يدعونهم إلى بيوتهم ويبالغون فى الحفاوة والترحيب بهم . ولم يكن هذا بغريب ، فذلك هو ما يلقاه السوريون من المصريين فى « طيبة » .

وعدت إلى الفندق مهموما لهذا التبدل فى شعور أهل « أزمير » ، ووافانى بعد قليل « كاپتاح » عائداً من جولة فى المدينة ، ولم يكد يرانى حتى قال : لاشك أن روحا خبيثا قد سرى فى أهل هذه المدينة ، فما لقيت منهم أحدا إلا تنكّر لى وأشاح بوجهه عنى ، وما تحدثت إلى إنسان إلا استغلق دونى متظاهرا بأنه يجهل لغتى المصرية ، وقد دخلت حانة لأتناول شراب النبيذ ، فما أن عرف الذين فيها أنى مصرى حتى تجهموا وامتعضوا وراحوا يرموننا نحن المصريين بالسيئات والمناكر ، فتركت هذه الحانة إلى أخرى ، فكان من فيها أشد نكيرا على المصريين وأقسى تَلَبُّاً لهم . وقد سمعتهم يقولون ، فيما يقولون ، إن مدينتهم كانت فيما مضى مدينة حرة غير مستذلة لبلد آخر ؛ ولا تؤدى جزية لأحد ؛ وكذلك كانت مدن «سوريا» كلها ؛ وهم الآن يثورون لحريتهم ويأبون أن يكونوا أتباعا للمصريين ، ويقولون إن هذا واجب الأحرار الذين لا يقبلون الضيم وإلا فما قيمة حياتهم . وما جدوى أن يتناسلوا لتكون ذريتهم عبيد أرض لفرعون؟!..

بهذا اللغو كانوا يتحدثون يا سيدى... ولا بد أن تكون قد أصابتهم جِنَّة . ففقدوا صوابهم ونسوا أن « مصر » فى حكمها لبلاد « سوريا » تحميها وتنظم حياتها ، وأن السوريين أكثر انتفاعا ، من «مصر» نفسها، بهذا الحكم. ولو أن « مصر » تخلت عن حماية بلادهم لكانوا أشبه بالقطط المتوحشة تحتشد داخل كيس مغلق ، فيضرب بعضها بعضا ، ويأكل أقواها أضعفها . وهكذا لا تكون إلا الفوضى والفساد والعبث بالزراعة والتجارة . وأمعن من ذلك فى اللغو أنهم يذكرون فى زهو ومفاخرة أن المدن السورية جميعها قد تحالفت على تحطيم ما يسمونه بأغلال الحكم المصرى . وهذا ما لا أجد فى عقلى متسعا لتصديقه !..

ولقد آلمنى حديث القوم وهراؤهم . فخرجت من حانتهم وهم ما يزالون معرضين عنى ، حتى صاحب الحانة نفسه كان يولينى ظهره . وكان هذا خيرا ، لأنى لم أجد أحداً أدفع له ثمن الشراب !..

وهذا الذى رواه « كاپتاح » مضافاً إلى ماسمعته من التجار ، قد ضاعف همى ،

ورأيت ؛ إلى أن تتضح الحقيقة تماما ، أن أقتصد فى التجوال بالمدينة ، وفى التكشف بعصريتى للناس ، فكنت أرتدى الملابس السورية حينما كان لا معدى لى من الاضطراب بينهم ؛ وكان الذين يعرفوننى كل المعرفة يديرون وجوههم عنى إذا ما رأونى . وفى هذا الوقت كان المصريون الآخرون بالمدينة لا يسيرون فيها إلا فى حراسة قوية ، ومع ذلك قد كانوا لا يسلمون من سخرية الناس وزرايتهم وسخطهم، فما أكثر ما كانوا يقذفونهم بالفواكه المعطوبة والسمك المتعفن .

وعلى أن الحالة كانت توحى وقتئذ بالخطر على علاقة المدينة بمصر ؛ فإننى كنت أشعر بأنها لا يمكن أن تستمر هكذا طويلا ، ذلك لأنها فيما أعتقد وليدة التذمر من الضرائب الجديدة ، وهذا أمر يستطاع علاجه ؛ هذا إلى أن « سوريا » فى مجموعها تفيد كثيراً بارتباطها بمصر ولا غنية لمدنها عن تلقى القمح المصرى .

وكان قد تم ترميم منزلى وتنظيمه ، فانتقلنا إليه ، واستقبلت فيه المرضى لعلاجهم كما كان الحال من قبل ، ولم يكن يحجزهم عنى جنسيتى التى كانت وقتذاك تبدو بغيضة بالمدينة ، ذلك لأن المرضى فى آلامهم ونشدانهم البرء منها لا تعنيهم جنسية الطبيب وإنما يعنيهم منه مهارته فى فنه . بيد أن أمرهم معى لم يكن يخلو من الجدل فيما كان يتردد صداه خارج عيادتى ، ففى بعض الأحيان كان بعضهم يقول : ألا ترى أيها المصرى ، أن من الظلم أن تقتضينا « مصر » هذه الضرائب المرهقة وتمتص فيها أرزاقنا، لنجوع وتشبع ، كما يمتص دود العلق غذاءه من الدماء ؟!.. ثم أليس من الجور والعسف والتحكم فى الحرية أن يمنعنا الحكم المصرى من ترميم أسوارنا وحصوننا عند ما نريد ذلك على نفقتنا الخاصة ؟!.. ولماذا تفرض علينا « مصر » حكاما ورجال قضاء ومن لا عدد لهم من الموظفين والعمال يتولون أمورنا ويتصرفون فى شتى شئوننا على هواهم أو على هوى سياسة بلادهم ، حتى أصابتنا الفاقة وشاع فينا الفقر ، وفى بلدنا من أبنائه أكفاء قادرون لو أنهم أقيموا على حكمنا لكانوا أرعى لمصالحنا ، وأوفر همة فى نشر العدل والرخاء فينا ... وبحق « بعل » لو أن أمورنا كانت إليهم لكنا أيسر حالا ولما عانينا ما نعانى الآن من حكم « مصر » ومن

قسوة رجالها ... وأخيرا ، أيها المصرى ، يقسرنا « فرعون مصر » على عبادة إلـه جديد ، ليحول بيننا وبين إلـهنا !..

كنت أسمع هـذا من بعض المرضى ، فأشفق على نفسى من مناقشتهم ، ولـكننى كنت أقول لهم فى غير انفعال مثير حينما كنت لا أستطيع صدّ نفسى عن الـكلام ، وما حاجتـكم إلى إقامة الأسوار والحصون إلا أن تـكونوا قد قررتم مناجزة « مصر » العداء ؟!. وذلك مالا تؤمن عاقبته ، ولا أحسبكم تـكسبون منه شيئا ، وقد يكون من الخير والإنصاف للحق أن تذكروا أن مدينتـكم وقت أن كانت حرة مستقلة ، كانت كذلك مسرح حروب عديدة متصلة مع جيرانـكم الذين لا زلتم تـكرهونهم ، وكنتم فى هذه الحروب تهدرون الدماء وتبذلون الـكثير من أرواحكم وأموالـكم حتى صرتم فى فاقة وقلة . وبينما كان حالـكم هكذا كان أمراؤكم وولاة أموركم يسومونـكم سوء العذاب ، ويفشون الظلم فى أغنيائـكم وفقرائـكم على السواء ، وليس الأمر كذلك الآن فإنـكم محميون من أعدائـكم بدروع « مصر » وحرابها ، والقوانين المصرية تحفظ الحقوق العامة وتـكفل الأمن والمساواة للجميع ، وها أنتم أولاء فى عامة مظاهركم ذوو بدانة ظاهرة تنم عن بسطة الرزق ورخاء الحال ولا تنم عن العبودية والحرمان ، وماأكثر ماسمعتكم تفاخرون بثرواتـكم التى كسبتموها فى ظل غباء المصريين ، فلو كنتم أحراراً بالمعنى الذى تقصدونه لتنافستم وطاول بعضـكم بعضا ، وصارت سفنكم وأموالـكم نهباً بينكم ، وعزّ عليكم فى تجوالـكم داخل بلادكم أن تجدوا الأمن والسلام .

وكانوا ، حين يسمعون هذا منى ، يثورون وتحمر عيونهم غضبا ، ويقولون :- إنك مصرى تدافع عن بلادك ، ولا نعرف فى المصريين إلا التلفيق والظلم . أما نحن فقد وقرت فى نفوسنا كراهية آلهتها ، وأصبحنا هنا على رأى جامع هو الخلاص منها ، وليكن الحـكام من أهلنا طغاة مستبدين ، كما تقول ، وهـذا مالانعتقده ، فإنهم على أى حال أحنى علينا منـكم ، لأنهم منا ونحن منهم ، والظلم فى بلد حر ، خير من العدل فى بلد مستعبد ...

يقولون هذا فى عصبية جامحة ، ثم يلقون باجر الملاح وينصرفون غضابا ..

ولم أعد ، وسط هذا الشعور الشعبي المتفجر فى كل ناحية ، أستطيب المقام فى « أزمير » ، فأخذت فى تهيئة نفسى للرحيل وجمع أموالى المودعة بالمدينة . وقد رأيت من واجبي أن أعجل بالعودة إلى « مصر » وفاءً بوعدى « لحورمحب » لأفضى إليه بنتائج المهمة التى عهد بها إلىّ فى رحلتى ، ولكن الذكريات التعسة التى خلفتها ورائى فى « مصر » لم تكن تستحثنى لسرعة العودة ، فأقعدتنى وقتاً آخر بهذه المدينة الساخطة ...

وذات مساء كنت عائداً من معبد « عشتروت » الذى كنت أتردد عليه من حين إلى حين تردد الصادى على أى ماء يلقاه ، فاعترض طريقى جماعة من الرجال وراحوا يتفحصون وجهى ويقول بعضهم لبعض : لاشك أنه مصرى ، فلا ينبغى أن نفلته من أيدينا ..

ورأيتهم يهمون بالاعتداء علىّ ، فقلت لهم : إننى طبيب أخدم الإنسانية التى تتساوى فيها الجنسيات والأوطان ، وأنتم باعتدائكم على رجل مثلى يعالج مرضاكم ترتكبون حماقة سوف تندمون عليها .

ولكنهم لم يأبهوا لقولى ، فوضعوا عباءآتهم على وجوههم وألقوا بأجسامهم جملة على جسمى ، فتهاوى على الأرض ، وانهالوا ضرباً على رأسى ثم خلعوا ملابسى وأداروا أيديهم فيها بحثاً عن النقود ليسرقوها . وفى هذه الأثناء تأمل أحدهم وجهى ثم صاح قائلا : ألست أنت « سنوحى » المصرى طبيب الملك « عزيرو » وصديقه ؟ ! .

وبدا لى أنهم توقفوا خوفاً من أن أكون ذلك الرجل الذى تبيَّن حقيقته رفيقهم ؛ فآمن هذا من خوفى ، ونهضت مصطنعا الشجاعة لأصرخ فيهم متوعدا ومقسما بأنى لن أدعهم حتى أجهز عليهم وألقى بجثثهم للكلاب . وقد أدهشنى أنهم على الفور أعادوا ملابسى وفروا هاربين ، وقد أخفوا وجوههم بأذيال عباءآتهم ، ذلك لأنهم بكثرتهم كانوا أقوى من أن يخيفهم فرد واحد بوعيد متكلف ، مهما

تسكن قوته ، فلست أدرى لماذا فعلوا ذلك ؟ !.

— ٢ —

وأقبل على منزلى ، بعد أيام قليلة ، رجل يمتطى صهوة جواد . وكان ذلك منظراً نادرا ، فلا المصريون ولا السوريون يركبون جياداً فى هذا البلد ، وقلما يرى الناس أحدا يركب مثل هذا الجواد إلا إذا كان حارساً من حراس الصحراء، وقد هتف بى هذا الفارس دون أن يحيّينى قائلا : عجل بإعداد محفتك ياسنوحى ، واتبعنى فإنى آت من أرض « عمورية » مبعوثاً إليك من ملكها « عزيرو » لتوافيه هناك مسرعاً ، ذلك لأن ابنه مريض ؛ وقد استعصى علاجه . وقد تركت الملك هائجا كالأسد لشدة ما ينتابه من قلق ولهفة على ولده ، ولا يكاد يقترب منه إنسان حتى يكسر عظامه . .

قال هذا ، مأخوذاً بالقلق الذى تنفعل به نفسه كرسول أوفده الملك فى طلب طبيب ينقذ ابنه من الموت ، وكان جواده يلهث ويقطر الدم من فمه ، مما يدل على أنه قطع به مسافة طويلة فى سرعة متصلة ، كما كان الرجل نفسه مغبر الوجه والملابس ، وقد بلغ من لهفته على إنفاذ أمر مليكه وفرط تأثره بالمهمة التى جاء من أجلها أنه كان يطلب منى الإسراع فى لهجة الآمر ، فقد قال لى وهو يستحثنى مهدداً : هيّا فعجل . وإلافإنى قاطع رأسك من فوق كتفيك وملقيه فى الطريق !.

فقلت له : قد تستطيع أيها الهمجى القادم من التلال ومراعى الأغنام أن تقطع رأسى ، ولكن ماذا تكون قد فعلت لخدمة مليكك الذى يطلب طبيباً لإنقاذ ولده ؟! . فلو أنك حملت إليه رأسى مقطوعا بدلا من أن تلقيه فى الطريق ، فإنه قاتلك لامحالة ، لأنه إنما يريد طبيباً حيًّا ؛ لا رأس طبيب مقطوعا ؟ .. وعلى أى حال فإنى متجاوز عن تهورك وحماقتك ، وسأمضى معك ، لا خوفا من وعيدك ، ولكن تلبية لرغبة الملك « عزيرو » لأنه صديق ومن حقه علىّ أن أسارع إلى نجدته ...

وأمرت « كابتاح » فجاء بمحفة وخرجت بها مع هذا الرسول شاعراً بشيء من راحة القلب ، فقد كنت إذ ذاك أشد ما أكون ضيقاً بالمقام بين هؤلاء القوم الذين يجاهرونني بالعداء كمصرى ، ورأيت فى مسيرى إلى الملك « عزيرو » متنفساً من هذا الضيق ، وتوقعت أن أجد عنده شيئا من العزاء والسلوى ، ولكننا عند ما بلغنا أول الطريق بظاهر المدينة بدأت أواجه سلسلة من متاعب الرحلة ومشقاتها ، حيث اضطررنا إلى الانتقال من المحفة إلى عربة تجرها جياد ، وهذه راحت تخب وتضع خلال أحجار وصخور متشابكة متراكمة ، وكانت أعصابنا فوقها ترتج وتتداعى ، وينال منها النصب كل منال ، فى حين كان رسول الملك يتبعنا بجواده ، وقد تمنيت وقتها لو أن جواده جمح به ودق عنقه لنعود من حيث جئنا هربا من عناء هذا السفر المجهد . وناءت بنا العربة بعد أن قطعنا بها مسافة طويلة من الطريق ، فانتقلنا إلى عربة أخرى بجياد جدد ، ولكننا لم نكن فيها أحسن حالا ، فإنها أيضا كانت تصعد حيناً وتهبط حينا ، وتتلوى فى سائر الأحيان ذات اليمين وذات اليسار حتى ما كنت أدرى ، وهى على تلك الحال ما إذا كنت جالساً فيها أو واقفاً على رأسى ، وإنما الذى كنت أدريه تماماً أننى شددت بيدى على طرف العربة متشبثا بها خشية السقوط . ومع أن صراخى لم يكن ينقطع لعناً فى السائق وسخطا عليه ، فإنه لم يكن يبدى أى اكتراث كأنه لايسمع ، بل لعل هذا كان يزيده إمعاناً فى السرعة فيلهب ظهور الجياد بضربات سوطه ، فتوغل فى الصخور والأحجار إيغالا عنيفا وتصطدم بها اصطداماً متصلا . وظللنا على هذه الحال المضطربة المخيفة إلى أن بلغنا قبيل غروب الشمس مدينة تحيط بها أسوار شاهقة شيدت حديثاً . وكان على هذه الأسوار جنود يحملون التروس لحراستها ، ولكن أبوابها كانت مفتوحة لنا فدخلنا منها إلى المدينة ، ولقينا أول ما لقينا فيها نساء وأطفالا يتصايحون ، وحميراً تنهق بأصواتها المنكرة ، وسلالاً من الفاكهة معلقة فى الهواء ، وجراراً لاحصر لها تضطرب فى الطريق ، بينما كانت عربتنا تمضى فى سرعتها نفسها ، لايبالى السائق المتهور أن يسحق بها كل مايصادفه .

وانتهينا أخيراً إلى بيت الملك ، فتوقفت العربة ولم أستطع لفرط ما نالنى من إجهاد أن أهبط منها إلا محمولا على ذراعى السائق ، وجاء الأرقاء فحملوا صندوق عقاقيرى ، وساروا خلفى حيث اجتزنا الحائط الخارجى الذى كان معلقاً عليه التروس والدروع والحراب ذات الأهداب ؛ فلما صرت فى حضرة الملك « عزرو » تلقانى وهو يبكى ويئن أنين الفيل المجروح ، وقد مزق ملابسه وعفر شعره بالتراب وأدمى وجهه بأظافر يديه ، وضمنى بحرارة إلى صدره وقال لى فيما يشبه الضراعة : ولدى ! . ولدى ! . أنقذه من الموت « ياسنوحى » ، ولك كل ما أملك ...

قلت له : ينبغى أن أراه فى الحال لأعرف مبلغ ما أستطيع أن أفعل له . . فقادنى معجلا إلى حجرة فسيحة أشعلوا فيها موقداً ينفث حرارة ملتهبة لا داعى لها إذ كنا فى فصل الصيف ، مما جعل جو الحجرة خانقاً ، ورأيت وسط الحجرة مهداً فى أرجوحة تمدد عليها طفل لمَّا يبلغ العام من عمره ، ملفوفا فى ملابس من صوف ، وهو يصرخ فى مشقة وعسر ، ووجهه مربد تعلوه زرقة المخنوق ، والعرق يتفصد من جبهته ، وكان شعر رأسه كثا كشعر رأس أبيه ، ولم أتبين أول الأمر مصدر علته ولكنى أدركت من صراخه أنه لم يدخل حتى هذه اللحظة فى دور الاحتضار خلافا لما يتصوره أبوه ..

وإلى جانب مهد الطفل ، وعلى أرض الحجرة ، كانت تربض « كيفتيو » المرأة التى كنت أعطيتها للملك « عزرو » ، وقد بدت أكثر بدانة وبياض وجه عما كانت من قبل ، وكان جسمها المكتنز باللحم يترجرج وهى تضع جبهتها على الأرض مُعولة باكية ، ومن أركان الحجرة الأربعة كانت تنبعث صيحات المراضع والرقيقات وهنَّ مسترسلات كذلك فى النحيب والبكاء ، وقد تورمت وجوههن من أثر اللكمات التى كان يصبها « عزرو » عليهن ، لأنهن عجزن عن شفاء ولده !..

والتفتُّ إلى « عزرو » وقلت له : لا تجزع ، فابنك لا يحتضر كما تتوهم ،

وشفاؤه مأمول ، فلا تيأس . . غير أن الأمر يتطلب ، قبل أن أعد نفسي لفحصه أن ترفعوا من الحجرة هـذا الموقد الملعون ، فإننا نوشك أن نختنق جميعا . وهنا رفعت « كيفتيو » رأسها وقالت فى فزع : ولـكننا إذا رفعنا الموقد فقد يصاب الطفل بالبرد ؟! . وقبل أن تتم عبارتهـا فوجئت بوجودى أمامها وجها لوجه ، فابتسمت واستوت فى جلستها وراحت تصلح من شعرها وملابسها ثم قالت : هذا أنت يا « سنوحى » ؟! . بينما كان « عزيرو » يضرب كفا بكف ويقول : ولـكن الطفل لا يتناول طعاماً إلا ردّه فى الحال ، وحرارة جسمه شديدة مستمرة لا تنفثىء ولا تنخفض ، ومنذ ثلاثة أيام استحال عليـه أن يتناول طعاما ولم يبق فيه من دلائل الحياة إلا هذا الصراخ الذى يفتت قلوبنا أسى عليه وحزنا ..

فأشرت عليـه بإخراج المراضع والرقيقات ، فأخرجهن على الفور ، وأقبلت على الطفل بعد أن نظفت يدى وأدواتى ، فرفعت عنه ملابسه الصوفية ، وفتحت نوافذ الحجرة المغلقة فشاع فيها نسيم المساء الرطب ، وعندئذ انقطع صراخ الطفل وهدأ اضطرابه ، وأخذ يدفع بساقيه فى حركة عادية ، وتحسست جسمه وبطنه فلم أجد بهما شيئا يمـكن أن يعزى إليه المرض ، فخطر لى أن أتحسس فمه أيضا فوضعت فيه أصبعى وكنت موفقا فى هـذا الخاطر ، فقد وجدت على جسر اللثة سناً ناتئة هى أولى أسنان الطفل ، أطلت من فـكه كأنها لؤلؤة صغيرة ، وعرفت أنها سر ما هوّلوا فيه من مرض الطفل ، ولم أتمالك نفسى من أن أقول «لعزيرو» فى غيظ : أمِنْ أجل هـذا العارض التافه تجرد خيلك ورجلك على أمهر أطباء « أزمير » ليساق إليك كالمقبوض عليه فى رحلة شاقه مضنية ؟! . إن هذه القطعة الصـغيرة من العظم فى فم ولدك هى التى أنشأت فى جسمه هـذا الانفعال الذى أجمعتم على أنه مرض مخيف . . وهى مع ذلك شىء طبيعى فى منطقة الفم لـكل الأطفال ؛ وهم جميعا يحسون الإحساس نفسه ويألمون الألم ذاته عندما تأخذ طريقها للظهور لأول مرة ؛ وربما كانت مضاعفات هـــذا الإحساس عنـد ولدك شبيهة بمضاعفات الحمى ؛ أو لعلها كانت الحمى نفسها ؛

ولكنها على أى حال فى طريق الزوال الآن ؛ أما الطعام الذى كان يخرجه فسببه فيما أرى أنكم تتخمون معدته بلبن دسم يجاوز طاقتها ويزيد على حاجتها فتلفظه بدافع الشعور الطبيعى الكامن ؛ ولا شىء فى هذا ؛ وأرى أن الوقت قد حان لفطامه ؛ وعلى « كيفتيو » أن تنظم له غذاءً خاصا خفيفا ؛ وتمنعه عن ثديها فإنه على ما يبدو طفل عصبى سريع الغضب كأبيه ؛ ولا يبعد أن يدمى ثديها بقرضات أسنانه !..

وما كاد « عزرو » يسمع هذا ويرى بعينه سنّ ولده حتى انفجر مبتهجا وأخذ يعدو فى الحجرة ويثب هنا وهناك وهو يرقص ويغنى ويصفق بيديه ؛ وكذلك كانت « كيفتيو » متهللة فرحة ؛ وهى تنظر إلى فم الطفل وتقول إنها لم ترا مثل جمال هذه اللؤلؤة فى فم طفل آخر ..ثم حاولت أن تعيد الملابس الصوفية لتلف الطفل فيها فمنعتها من ذلك ؛ وطلبت نسجا من الكتان فلففته فيه .

ولم ينقطع « عزرو » عن رقصه وغنائه ممعنا فيهما كما لو كان قد أصابه مس. واجتمع أفراد حاشيته وضباطه ؛ وتوافد فى إثرهم حراس الأسوار ؛ ليروا ماذا حدث لسيدهم حتى تبدل من حال إلى حال !.. وعندئذ دعاهم ، فى فرح بالغ ، إلى أن يروا بأعينهم اللؤلؤة التى نبتت فى ثغر ولده ؛ فالتفوا حول مهد الطفل بدروعهم وحرابهم متنافسين على شهود هذه اللؤلؤة الجديدة ؛ مظهرين سرورهم وإعجابهم. وقد حاولوا أن يضعوا أصابعهم على قذارتها فى فم الطفل ليلمسوها ؛ فوقفتُ فى وجوههم ومنعتهم من أن يفعلوا وأمرتهم أن يخرجوا فى الحال من الغرفة ؛ ونبهت « عزرو » إلى ما ينبغى أن يكون عليه فى مثل هذا الموقف من الاحتفاظ باتزانه ووقاره ؛ ولكنه قال فى سذاجة : قد أكون — حقا — نسيت نفسى، وأحدثت هرجا فوق المألوف ؛ ولكن ما أكثر ما قضيت من ليال ساهراً متوجع القلب بجانب طفلى هذا !..يجب أن تعلم يا «سنوحى» أنه ولدى الأول وولى عهدى، وجوهرة حياتى وقرة عينى ؛ وسيحمل فوق رأسه يوما ما تاج « عمورية » ويحكم أقواما كثيرين ؛ وإنى لأعمل جاهدا على أن تكون بلادى مملكة عظيمة ؛ فماذا

يكون أمرها إذا لم يكن لى ولد يلى حكمها ويخلفنى فى رئاستها ؛ ويعتد به ذكرى ومجدى فى مستقبل أيامها ؟! . ولهذا فإنى أراك قد أسديت لى فضلا سأحفظه لك ما حييت ، إذ أحييت فى نفسى أملا عزيزاً كان قد مات ... وإنك لترى أن ولدى هذا جدير بأن يكون خليفتى فى الملك .. أنظر إليه جيداً ؛ فهل رأيت فى كل ماطفت من بلادٍ طفلا فى مثل ظرفه وجماله ؟! وهل رأيت فيمن رأيت من أطفال العالم شعراً كثا كشعر رأسه وهو بعد لا يزال فى مهـده ؟! إن كل شىء فيـه ليدل على العظمة والسمو والجمال ووثاقة البدن ؛ حتى سنُّه الأولى لتبدو فى فمه نادرة المثال ليس كمثلها فى أفواه الأطفال سن !..

وضقت صدراً بهذه الثرثرة الحمقاء، ورغبت إليه فى أن يكف عنها لأنى مجهد من الرحلة الشاقة . . فربت بيده على كتفى ، ودعانى إلى حجرة أخرى حيث قُدِّم لنا طعام شهى ، مختلف الألوان ، فى أطباق من فضة ، وشربنا النبيذ فى أقداح من ذهب ، حتى شعرت بالراحة والانتعاش ، ومن ثم تجاوزت عن حماقته ، أولعلى قد نسيتها !.. .

وبقيت فى ضيافته بعد ذلك أياما ، كنت فيها موضع تكريمه وحفاوته . وقد أهدى لى الكثير من النفائس الذهبيـة والفضية . ومما أثار ملاحظتى أن ثروته زادت زيادة كبيرة عما كانت عليه عند مقابلتنا السابقة ، وعندما أردت استدراجه لمعرفة أسباب هذه الزيادة التى تبدلت بها حال بلاده من فقر إلى غنى ، لم يزد سبباً واحداً سوى الحظ ؛ الحظ السعيد الذى حالفه منذ أن تزوج من « كيفتيو » التى التى أهديتها إليه ... وكان يقول هذا وهو يتهلل ضحكاً ويشرق سروراً ؛ تعبيراً عن عواطف المحبة التى يختص بها فى نفسه هذه الزوجة مصدر الخير والنعمة دون زوجاته الأخريات من بنات زعماء القبائل؛ اللواتى كان زواجه منهن قائماً على ضرورة تحالفه مع آبائهن ! . .

وفى مبالغة ظاهرة ؛ كانت « كيفتيو » تبدى نحوى احتراماً وودّاً ؛ وتقبل علىَّ دائماً لتحيينى فى ابتسام وغبطة ؛ وتتحدث إلىَّ عما هى فيه من ثراء وعز ووافر

سعادة ؛ مما لم يكن يخطر من قبل على بالها ؛ داعية لى بالخير لأنى كنت السبب فى هذا ؛ وكنت مطمئناً إلى صدق شعورها ؛ وإن كنت فى شك من أنها قد نسيت عصاى التى طالما ألهبت ظهرها !. ولكن لا بأس عليها من تذكر عصاى ؛ فهذا خليق أن يشعرها بلذة ما صارت إليه بعد ذلك من متاع ورغادة ؛ وبضدها تتبين الأشياء . .

وكان « عزيرو » فيما عدا الحديث المفضل عنده عن ولده وزوجته « كيفتيو » لا يفتأ يحدثنى مفاخراً عن عظمته كملك على بلاد عظيمة ! . . مشبعاً بذلك غروره ومحاولا أن يرسم فى ذهنى — وقد علم أنى كثير الرحلات والأسفار — أنه خير من رأيت من ملوك ؛ وأن بلاده خير ما رأيت من بلاد . وفى غمرة زهوه وغروره ذكر لى أشياء كثيرة مما كان ينبغى أن يحرص على كتمانه ؛ ولا ريب فى أنه قد ندم على ذلك فيما بعد . وقد عرفت منه أن الرجال الذين اعتدوا علىّ فى « أزمير » وكادوا يقتلوننى إنما هم من رجاله الذين أرسلهم إلى هناك ، وأنه قد علم منهم أنى لم أبرح بعد « أزمير » ، فأرسل فى طلبى لإنقاذ ولده ، وأخذ يعرب لى عن أسفه لما حدث ، معتذراً بأنى لم أكن مقصوداً لشخصى ، ولهذا فإنهم نفضوا أيديهم منى عندما بان لهم أنى «سنوحى» صديقه.. واستطرد قائلا : فى الواقع إن رؤوس الكثير من المصريين تهتز الآن لتهوى عما قريب مهشمة ، وإن الكثير من الجنود المصريين سيجدون فى البحر متسعا لأجسادهم المتراكمة حينما يلقى بهم جميعا إليه ، وسيحدث هذا قبل أن تفرغ « أزمير » و « بابل » و « صيدا » و « غزة » من مشاوراتها ، ومن اعتقادها بأن المصريين ليسوا على ما يهول من البأس والشدة ، وأن أمرهم أهون من أن تخشاه هذه المدن مجتمعة ، ولا يحتاج الأمر إلا زعيما قويا يقود الثورة ، ويشعل الهمم ، ويؤجج المشاعر ، وينير الطريق أمام الناس . فالتجار السوريون أهل حرص وحذر ، يخافون على أموالهم ومتاجرهم ، وأمراؤهم مثلهم بل هم أشد حرصا وخوفا على سلطانهم ؛ ومن وراء هؤلاء وهؤلاء عامة الناس ، لهم مثل قوة الثيران ، ولكنهم كالثيران أيضا لا يتحركون إلا فى مقادة

ولا يخطون خطوة بغير زمام .. فلا مناص إذن من ذلك الزعيم المرتقب !..

قلت ، وقد عرفت مرماه : ولماذا لا يقع هذا يا « عزيرو » ؟ ! وكيف أصبح المصريون عندك بهذه المنزلة من البغض والكراهية ؟..

قال فى ابتسامة ماكرة : ومن قال إنى أكره المصريين يا « سنوحى » ؟ ! كلا ، إننى لا أكرههم ، وربما لا أستطيع أن أكرههم لأنى نشأت فى بيت فرعون الذهبى ، كما كان أبى ، وكما كان بقية الأمراء المصريين ، وهناك تعلمت أن الشعوب جميعاً سواسية فى طباع الشجاعة والجبن ، والقسوة والرحمة ، والفضائل والرذائل على وجه عام . وقد بدت هذه الطباع جلية أو صارخة ؛ فى مصر وسوريا على درجة سواء ، وكما يحدث فى غيرهما من الأمم ، فهما مستهدفتان حتما للقطيعة بعد وصل ، والعداوة بعد حب ، ولا يكون هذا بدعاً فى الحياة ، فالأيام دواليك ، يوم لك ويوم عليك .. وتسليما بهذه الحقيقة التى ينبغى أن تؤمن بها ، يصبح الوضع بالنسبة لى على غير ما تتصوره ، فأنا لا أكره المصريين ، وإنما أستخدم شعور الكراهية سلاحاً للوقيعة بين مصر وسوريا ، وإنه لسلاح أشد فعلا وفتكا من سائر الأسلحة الأخرى عندما يكون الأمر متصلا بتأليب الجماعات وتحويل قلوبها ودفعها إلى هدف معين ، وما غايتى التى تبررها هذه الوسيلة إلا تحرير سوريا من سيادة مصر ، وهى غاية كبيرة عظيمة ترخص فى سبيلها أية تضحية ، ولهذا فإنى عامل ، جهدى ، على إشعال الفتنة بين المملكتين ، وسوف لا أكف عن ذلك حتى يتحقق الانفصال بينهما ، أما عنصر هذه الفتنة ومساكها فهو تصوير المصريين فى كل مدن سوريا ومجتمعاتها بأنهم جبناء قساة ، طامعون مفسدون فى الأرض ، وهكذا حتى يهيج فى الجميع شعور الكراهية للمصريين فيتمردوا عليهم ، ويثوروا ضدهم . والكراهية دافع قوى يزحزح الجبال !..

قلت له ، وأنا أخفى استنكارى وضيقى : ولكن هذا الذى تصف به المصريين ليس حقًّا ، وأنت أكثر من غيرك علماً بذلك !..

ولكنه هز كتفيه استخفافا ، وزم شفتيه استياءاً ، وقال : اى حق يا سنوحى؟!

ومتى كان حقًا لمصر أن تحكم سوريا ؟! ومتى كان حقًا لها أن تمتص دماء السوريين !!
إنه ليس من الضروري أن يكون كل ما نصف المصريين به صحيحا ، فإنما هو ، كما قلت ، وسيلة إلى غاية تباح فى سبيلها كل الوسائل . والحق الذى لا يؤمن السوريون بحق سواه ، هو أنهم أحرار يحبون الحرية ، أكثر مما يخافون الموت والجوع ، وأنهم ليبذلون فى سبيلها أغلى مايملكون من مال وأرواح .. إن فكرة الحق الجديدة التى أدعو إليها وأجمع الناس عليها ولن أدعهم حتى يؤمنوا بها جميعا ، هى أن مصر احتلت سوريا بالحديد والنار والدماء ، وأن إجلاءها عنها لن يتحقق إلا بالوسيلة نفسها : الحديد والنار والدماء ؟!..

قلت له : ولكن ما هى تلك الحرية التى ستدعوهم إليها وتستحثهم للفناء فيها؟!

فرشقنى بابتسامة لطيفة ، وقال : الحرية كلمة مؤثرة ذات سحر ، ولكنها تختلف فى الناس أثراً ومعنى ، كاختلاف النغمة الواحدة فى آذان مستمعيها وأذواقهم ، وهى فى سائر الأحوال أمنية عزيزة محببة ينشدها الجميع ، ويسمون إليها ، ويتقاتلون من أجلها ، ولكنها حينما تخلص إليهم بعد الجهد لا تستطيع أن تحيا فيهم على أقدار متساوية ، فمن الخير لها أن يحتفظ بها أقواهم ، لتظل فى يده مصونة مكتملة عناصر القوة ، وإنى لواثق من أن أرض « عمورية » هذه ستسمى فى يوم قريب مهد الحرية ، فالعموريون بأسرهم يطلبونها ، ويتنافسون فى نيلها ، وهم وإن كانوا ، كغيرهم من الأمم التى تؤمن بكل كلام يقال لها ، أشباه قطيع من الأغنام يملأ الطريق متكاتفا ، إلا أنهم عندما يلى أمرهم قائد قوى بصير يصبحون قافلة من الأسود ، وأرى أنى أنا ذلك القائد المختار ...

قلت له : يا صديقى « عزيرو » .. إنك لا تدرى أى كلام خطير يدور على لسانك ! . فلو أن فرعون قد سمعه ، لأرسل على الفور جنده وحرابه وعجلاته الحربية لقتالكم وهدم أسواركم ، ثم تساق أنت وابنك إليه ليعلقكما ، ورأساكما إلى أسفل ، فى مقدمة سفينته الحربية وهو عائد إلى « طيبة » ..

قال « عزيرو » دون أن تفارق الابتسامة وجهه : أما من ناحية « فرعون »

فإنى لا أرى خطراً يتهددنى ، فقد تلقيت من يديه رمز الحياة ، وأقمت معبداً لإلهه وهو يثق بى أكثر مما يثق بأى شخص آخر فى سوريا ، بل أكثر من سفرائه وضباط حاميته الذين يعبدون « آمون » ... ومع هذا فإنى أريد أن أريك شيئا قد تجد فيه تسلية وترفيها !..

وقادنى إلى الأسوار حيث رأيت جثة آدمى عارية ، تيبست وهى معلقة فى الهواء من أعقابها وقد تهالك الذباب عليها ، وقال لى وهو يشير إلى الجثة مزهوًّا : أنظر من قريب ... فسترى من ختان هذا الرجل أنه مصرى !.. وقد كان جابيا من جباة فرعون سولت له نفسه أن يناقشنى فى أسباب تأخرى عاما أو عامين فى أداء « الجزية » ؛ وفاته — لفرط جهله وغروره — أن اللحوم ليست كلها صالحة للأكل !.. فكان جزاؤه كما ترى ، ولا يزال معلقا هكذا دليلا على أن المصريين لم يعد لهم هنا ذلك السلطان القديم . وصار محققا أنهم لا يستطيعون القدوم إلى بلاد « عمورية » ، حتى لو جاءوا فى جماعات قوية ، وقد شاع هذا الشعور فى الناس جميعا ، فالتجار أصبحوا لا يدفعون شيئا من الضرائب لجباة مصر ؛ وإنما يدفعونها لى أنا عن يد وهم صاغرون . ولعلك مدرك واقع الأمر حينما تعلم أن مدينة «مجدو» قد صارت تحت سلطانى ، تدين لى بالطاعة والخضوع ولم يعد لرجال الحامية المصرية فيها كلمة تطاع ، بل إنهم ليلوذون بحصونهم على خوف وترقب ، ولا يجترئون على الظهور فى شوارع المدينة ...

فقلت له فى فزع واستنكار : إن دم هذا الرجل المسكين ليقع على رأسك .. ولئن استطعت أن تنكل به على هذه الصورة الوحشية لأنه وحيد بين جندك وقومك ، فما أحسبك مستطيعا أن تدفع غداً عن نفسك الجزاء الحق الذى يعدل فعلتك النكراء ، فإن مصر قد تتسامح فى أى شىء إلا أن يقع الاعتداء على جباة ضرائبها !..

وكان الرجل مغروراً ، فأردتُ أن أنبهه إلى أن مصر بثرائها وقوتها أعز وأمنع من أن يطاولها مثله ، فما يزيد شأنه على القربة التى يملؤها الهواء فتبدو شيئاً ضخما :

ولـكن وخزة صغيرة فى أحد أطرافها تحيلها فى لحظة خاطفة إلى لا شىء ! . .

ولـكنه اشتط فى غروره عندما قطع الحديث ضاحكا ملء شدقيه وقد انحسرت شفتاه عن أسنانه الذهبية التى كان لا ينى عن إظهارها والإدلال بها ، ثم أمر بمزيد من الشواء فجىء به على أطباق الفضة ثقيلة الوزن .. وكأنما أراد أن يظهرنى بهذه الطريقة ، على مبلغ ثرائه وكفايته ! . .

وكانت الحجرة التى اتخذ منها ديوانا لإدارة أعماله محتشدة بالألواح الطينيـة ، ولم ألق لها بالا ولـكنه ، عامداً ، راح يذكر لى أنها ملآى بالمخابرات السرية عن جميع مدن سوريا ، ومن بينها رسائل من ملك الحيثيين ومن « بابل » فهو لا يجهل شيئاً من أسرار تلك البلاد ، وعيونه المنبثة هنا وهناك لا تخفى عليها خافية ، وقد بدت فى حديثه رغبة خاصة ليسمع منى كثيراً عن بلاد الحيثيين ولـكننى لاحظت أنه يعرف عنها أكثر مما أعرف ، فقد كان سفراء الحيثيين يزورونه وبينهم وبين ضباطه ورؤساء قبائله وشائج وصلات ..

وكان الموقف واضحاً . فهذا الملك يسير على سياسـة التحالف مع الآخرين لتـكون ثمة جبهة قوية منهم للتحرر — فيما يزعمون — من سلطان المصريين .

قلت له تعقيباً على هذه السياسة التى لم يعد ينقصها الانـكشاف والوضوح : من السهل أن يتحالف الأسد وابن آوى فى سبيل اقتناص فريسة . ولـكن ليس من السهل بعـد اقتناصها أن يقتسماها . وعلى افتراض أن الأسد سيرضى عندئذ بمقاسمة ابن آوى ، فهل تحسب أنه معطيه شيئاً أكثر مما يتفلت من بين شدقيه وهو يلتهم الفريسة ؟ !

وعاد « عزيرو » إلى ضحكاته ، وراح يداورنى ، مجريا الحديث معى فى مجرى المخادعة ، فقال : إن غايتى العظمى مما ترى إنما هى البحث عن كل جديد ، وهى فيما أعلم الغاية نفسها التى تجرى وراءها ! .. إنى أشعر دائماً بأن لذة الحياة ليست إلا فى الاستزادة من المعلومات والمعارف ، ولهـذا كان بى ظمأ شديد إلى الأحاطة بكل ما يقع فى العالم من أحداث وأمور ، على أنك أوفى منى فى هذه الناحية حظا .

فأنت حر طليق كالعصفور يتنقل خفيفاً من مكان إلى مكان ، ومن جو إلى جو ، متى أراد ووقتما شاء ، أما أنا فمثقل بأعباء الحكم ومسؤولياته الكبيرة ، وهي تقيدني وتستغرق كل وقتي .

واستطرد يقول : وأنت يا « سنوحى » قد علمت بالطبع أن لدى الحيثيين أسلحة حديثة ، إلى ما توافر لهم من مهارة وقوة تجربة ، أفلا ترى أنه من الخير أن نستفيد هنا بضباطهم فى تدريب زعماء قبائلنا على فنون الحرب ؟ !. . . وقال مستدركا : إننا حينئذ نستطيع أن نكون من القوة بحيث نؤدى لفرعون خدمات كثيرة إذا ما نشبت حرب ، وإنك لتعلم أن سوريا ، وهى بلاد قوية المراس ، تعدُّ درع مصر ، ومع ذلك فمالنا ولهذا الآن ! .. فلندعه إلى وقته ! ..

وأثارتنى عبارة : « إذا ما نشبت حرب » ، فذكرت لفورى « حورمحب » ووجوب عودتى لمصر ، فقلت : لقد استمتعت بضيافتك وقتاً طويلا ، وسأذكر دائماً أنه كان وقتا طيبا ، والآن أرجو أن تهيىء لى محفة تحملنى إلى « أزمير » ، فإنى لم أعد أقوى على السفر فوق هذه العجلات المزعجة التى أوثر أن أضرب بالهراوة والسوط على أن أركبها . ومن يدرى ، فقد لا نتلاقى قريبا ، أو ربما لا نتلاقى أبداً فإننى لن أبقى فى « أزمير » ، فقد أصبحت بالنسبة لى فى وحشة القفر ، وحسبى منها ذلك الزمن الذى قضيته فيها ، وحسبى من أهل سوريا ما أصبت من أموالهم ، فما أرانى محتاجا بعد إلى إطالة المكث بينهم ، ولهذا فإنى عندما أعود إلى «أزمير» سأبحر منها إلى مصر ، فقد استحرَّ شوقى إلى مياه النيل الحلوة ...

قال «عزيرو » : إن القلق البادى فى عينيك ينبىء بأنك لا يمكن أن تستطيب المقام فى مكان واحد ، وكم أود لك الاستقرار ، فإنه أجدى عليك من هذه الحركة الشتيتة المضطربة ، التى تشبه حجر الرحى ، يدور ويدور ، ولا يعلق به شىء مما يطحن ! ..

وأمر أتباعه فجاءوا بالمحفة ، وزودنى بهدايا كثيرة ، وودعنى وداع الصديق للصديق ، ورافقنى حراسه لحمايتى مما يتعرض له أى مصرى فى ذاك الوقت ، فلم

يدعونى حتى بلغت « أزمير » ..

على أنى وأنا أخطو من باب « أزمير » أُطلق فوق رأسى سهم لو أنه انحرف قليلا لأصاب منى مقتلا ، فاضطربت لهـذا اضطرابا شديدا ، وأسرعت إلى منزلى وقلت « لـكابتاح » أول ما وقع عليه نظرى : اجمع متاعنا ؛ وتصرف بالبيع فى هذا المنزل ؛ فإننا عائدان إلى مصر فى الحال ...

— ٣ —

وعلى ظهر السفينة التى تبحر بنا إلى « طيبة » ؛ أخذت أغدو وأروح بين أكوام من لفائف الأمتعة وأكياس البضائع ؛ لا يكاد يقر لى قرار ؛ فالحنين إلى « طيبة » — مهد طفولتى ومغنى صباى — كان يستبد بى حينذاك ؛ وشوقى إليها كان يعلو فى نفسى على كل ما سواه ؛ وكنت ما أزال أحس برائحة « أزمير » تختلط بأنفاسى كأنها تأبى إلا أن تلاحقنى وأنا مرتحل عنها ، ولـكنها كانت فى الواقع تهيج عندى ذكرى وطنى وتستحثنى على العودة إليه ؛ فما أشد ما سئمت هذه الشواطىء الصخرية الجرداء ؛ وما أكثر ما تمنيت أن تبدلنى بها الآلهة تلك الأرض الطيبة الممرعة التى ليس كمثلها فى بقاع الأرض خصبا وازدهاراً ونمـاء وزروع ...

كان تفـكيرى كله متجها إلى مصر ؛ وطنى الحبيب ؛ حتى أن السفينة حينما ألقت مراسيها على آخر ميناء فى الساحل السورى لم أجد فى نفسى أية رغبة فى التأمل والاستطلاع بغية الحصول على ما قد يكون هنالك من جديد أتزود به فى اللحظة الأخيرة من هاتيك البلاد ؛ ذلك على الرغم من أن مظاهر الحيـاة التى شهدناها فى وقفتنا بهذا الميناء كانت تغرى بإطالة النظر والذهاب بالفـكر فى أعماقها. فالربيع كان قد انعـكس على وديان سوريا فبدت التلال المتناثرة على مبعدة من الشاطىء فى لونها الأحمر الذى يشبه لون النبيذ ؛ وعلى مشارف الميناء كان زبد الماء يضطرب ويتدافع ثم ينحسر فى ألوان من الخضرة الشفافة ذات الجمال ، وخلال

هدير الموج كانت تترامى على آذاننا أصوات الجموع المتكاثفة على الشاطىء من بائعى الأسماك وتجار السلع الأخرى ومستقبلى الهابطين من السفينة ومودعى الصاعدين إليها ، ومع أصواتهم أخلاط من أصوات الحيوانات ومنها الحمير المتجمعة هنالك استعداداً للركوب وحمل الأثقال . وفى هذا الزحام ، وفى هذه الضوضاء ، كنا نسمع كذلك أصوات كهنة « بعل » مجلجلة فى الأزقة الضيقة ، حيث يخدشون وجوههم بالسكاكين حتى تسيل منهـا الدماء ، والنسوة يتبعنهم بعيونهن المتلهفة وشعورهن المسدولة وهن يدفعن أمامهن عربات يد خشبية ..

ولـكن أين أنا من كل هذا ؟ ! .. وما حاجتى إليه ؟ ! إنه لا جديد فيه ، وقد رأيته كثيراً حتى سئمته ، وإنى لأشعر بأن شيئاً مما عشت فيه من مختلف العادات والتقاليد والمعتقدات وبين مختلف الأقوام والأجناس والبلدان ، لم يعد يثير فى نفسى شيئاً من الاهتمام . لقد كان هدفى من هـذه الرحلة على طولها هو كشف الأسرار وجمع المعلومات والاستزادة من المعرفة ، وربما اقتضانى هذا الهدف أن أندمج فى الحياة الغريبة التى عاشرت فيها أقواما غرباء ، ولـكنه كان اندماج الذى يمثل دوراً فى قصة ، فإذا انتهى الدور عاد إلى حقيقته وأصالة عنصره ، وذلك هو شأنى وأنا أولى وجهى شطر بلادى ... فأفكارى وعواطفى كلها متعلقة بالأرض السوداء التى طال بعدى عنها ، واشتد شوقى إليها ، وكانت تلك الأفـكار والعواطف منصرفة إلى آفاق كثيرة حاشدة بالحقائق والأحلام والأمانى ، كانت تحلق بى إلى « طيبة » وأزقتها فأستروح فيهـا روائح الأسماك عند إقبال المساء تنبعث من النيران التى توقدها النسوة أمام أكواخهن الطينية ؛ وتذكرنى ؛ إلى هذا ؛ بالنـكهة الحلوة المذاق من نبيذ مصر ؛ ومياه النيل ممزوجة بطميها المخصب ؛ كما تذكرنى بالنسائم المعطارة تنفثها — خلال حفيف أوراق البردى — أزهار « اللوتس » المتفتحة على الشاطىء ؛ ثم شذا الطيب شائعاً فى الجو بين أعمدة المعابد المزينة بالصور الملونة ، ولهذا تجردت من كل فـكرة وكل عاطفة أجنبية ؛ ونضوت عن جسمى ملابس الغربة حتى أعود مصريا على حقيقتى . .

كان ذلك هو حالى وجماع شعورى ؛ ناسيا انى عائد إلى وطن ليس لى فيه دار ؛ حيث عانيت من الأهوال فيه ما عانيت ؛ حتى كنت أعيش فيه وكأنى غريب عنه؛ ولكن الزمن ؛ وأخطار الرحلة ومغامراتها فيما كنت أدعوه تحصيلا للمعرفة ، قد تراكمت كالرمال على ما يثقل قلبي من هموم قلبي الماضية ؛ فلم أعد أشعر من ذكراها بما هو خليق أن يثير فى نفسى الأسى والخجل .

وتابعت السفينة سيرها ؛ تستحثها المجاديف كأنها تستجيب إلى لهفة قلبي وفرط حنينه ؛ أو كأنها تمضى هى الأخرى هاربة من بلاد أكثر ما فيها البغض والقلق . وما كادت تقترب بنا من شواطىء « سينا » الحمراء ؛ حتى أحسسنا رياح الصحراء تهب علينا حارة على الرغم من جو الربيع الذى كان ينشر فيما عداها هواءاً لطيفاً ونسيما عطرا ؛ ولكنها الصحراء القوية الجبارة مرسلة دائماً على طبيعتها ؛ الثائرة ، غير مقيدة بنظام الفصول وأجوائها !..

وفى صباح يوم تال ، استيقظنا فرأينا مياه البحر قد اتشحت باللون الأصفر ، وعلى غير بعيد من الشاطىء بدا لنا شريط من الأرض مزركش بالخضرة والإيراق، وألقى البحارة فى الماء جرة ثم استعادوها ملآى فشربوا وشربنا منها ماءاً حلوا .. لقد كان من مياه النيل ، ولهذا كان فى فمى أحلى مذاقا من شراب النبيذ ! ..

واهتزت جوانحى غبطة واستبشارا لبلوغنا أرض الوطن العزيز . . . غير أن « كاپتاح » لم يكن يشاركنى هذا الشعور ، فقد قال فيما يشبه السخف والبلاهة : وماذا فى ماء النيل إلا أنه ماء ؟ ! والماء فى كل مكان وفى كل معدة ، هو الماء . . فدعنا يا سيدى من هذا الخيال وتريث حتى نعرج إلى حانة يكون صاحبها رجلا شريفاً ذا ضمير يقدم لنا الجعة صافية يتوجها الزبد اللطيف ، ولا تشوبها قشور الحب التى كثيراً ما كنا نريقها على الأرض ، تخلصاً منها، فى بعض حانات التجار غير الشرفاء !.. فإذا لم نشرب هذه الجعة الصافية فى حانة الرجل الشريف ، فلن نشعر بأننا ، حقيقة ؛ أصبحنا فى أرض الوطن ..

قلت له ، متضايقاً من سخفه وبلاهته : بل يجب أن تتريث أنت أيها الأحمق.

حتى أجد العصا لإقناعك ، فبغيرها لن تفهم أو تشعر ، ذلك لأن الرقيق هو الرقيق ، وإن ارتدى مثلما ترتدى أنت الآن من ملابس صوفية رقيقة .

فلم يزعجه منى هذا التهديد ، ولكنّ دموعا طفرت من عينيه فبادر إلى تجفيفها وقال وهو ينحنى أمامى : فى الواقع يا سيدى ، أنك أوتيت موهبة ممتازة تلهمك الكلام المناسب ، فى الوقت المناسب ... فلقد كدت أنسى لذة وقع العصىّ الرفيعة على الساق أو الظهر . وإنى إليها لفى شوق شديد . . وقد لا تعرف مدى لذتها إلا إذا تهيأت لك تجربتها عمليًّا ، ولهذا أنصح لك بهذه التجربة . . فسترى أنها أكثر إمتاعا من الماء ومن الجمة ومن شذا الأزهار ، ومن منظر البط البرى وسط حشائش البحيرات ، وسترى أنه ما دام مطلوبا من كل إنسان منا أن يلزم مكانه ويقف عند حده ، فإن الضرب بالعصىّ — إذن — أصدق تعبير عن حياتنا الواقعية ، وإلا فشت الفوضى واختلت الصفوف واضطرب النظام ! . . ولقد جددتَ عندى ذكرى هذه العصىّ ، فشرحت صدرى وأبهجت خاطرى ، فلك ثنائى وشكرى ، ومرحى بعصاك التى تردنى إلى الماضى الحبيب ، إلى حيث أعود إلى حياتى بمصر ، وطنى ، ومهوى فؤادى ، بعد الذى قاسيت فى غربتى الطويلة من غرائب ومزعجات !..

قال « كاپتاح » هذا وهو يصطنع الجد والتأثر ، ولكننى كنت موقناً من أنه ، على عادته ، يداجينى فى دهاء ، ويخلط السخرية بالسذاجة ، استدراراً للفكاهة والمرح ، فأشحت عنه غير معقب على حديثه ، بينما أخرج هو جعرانه لينظفه ويجلوه ، وقد لاحظت أنه لم يعد يستعمل فى ذلك ، الزيت الجيد الذى كان يستعمله من قبل ، فلم يدهشنى منه أنه أصبح لا يحتفل بالجعران المقدس ، فقد كان يقترب من أرض الوطن ، وهو إنما يحتاج إلى الجعران فى الغربة البعيدة ، ولهذا كانت عنايته به تضؤل وتقل بمقدار دنوّه من الساحل المصرى !..

وعندما رست السفينة على شاطىء المملكة السفلى ، وشهدنا من قرب عمال الميناء وحمّاليه المصريين بملابسهم التيلية ووجوههم السمراء وذقونهم الحليقة

وحركاتهم الخفيفة ، أحسست كأنى قد تخلصت من عبء ثقيل ، فالواقع أننى كنت قد ضقت صدراً بالملابس السورية ذات الألوان الزاهية وبوجوه السوريين المكسوة باللحى غزيرة الشعر ، وبأبدانهم المنبسطة المترهلة !..

وبعد أن أنجزت إجراءات الميناء ووقعت لموظفيه على كثير من الأوراق ، مضيت على عجل ، فاشتريت ملابس جديدة من نسيج الكتان وارتديتها ، إذ كانت أكثر ملاءمة لجسمى من بقايا الملابس السورية المنسوجة من الصوف ، وأبى « كاپتاح » إلا أن يظل مرتدياً ملابسه السورية لاعتقاده أن اسمه لا يزال مقيداً فى قائمة الأرقاء الهاربين ، وهو يخشى لو استبدل بملابسه ملابس مصرية أن تشى به وتدل عليه فيقع فى الشر الذى يفزع منه ، وعبثاً حاولت أن أنبهه إلى أنه لا موضع للخوف من ذلك بعد أن ظفرت له بشهادة مسجلة على أحد الألواح الطينية من سلطات « أزمير » بأنه من أرقاء سوريا المولودين بها ، ذلك لأن الخوف كان يركبه إلى حد بعيد !..

وانتقلنا بأمتعتنا إلى قارب صغير استأنفنا الرحلة به فى مياه النيل ، وقضينا أياما كنا نوغل خلالها فى صميم الحياة المصرية ، فعلى جانبى النهر كانت الأرض السوداء الطينية تتجمل بأشجار النخيل والجميز والتوت ممردة باسقة ، تتدلى ثمارها وأوراق غصونها ، وتنشر ظلالاً على الأكواخ فى القرى المتناثرة ، وهنا وهناك أنعام وثيران تجر المحاريث وتثير بها الأرض وتدور دوراناً متصلا على موارد الماء لتدفع به فى القنوات والمسارب ، والطيور محلقة فى الجو أو متعلقة بأغصان الشجر أو متجمعة على الأرض تلتقط غذاءها ، كانت إذ ذاك تغرد تغريداً تطرب له النفوس الحزينة ، وتنتشى القلوب الآسية ...

ومررنا فى رحلتنا النيلية هذه على كثير من البلاد ، وكنا نتلبث بها بعض الوقت ، ولكنها كانت خالية من الحانات التى كان يطمح « كاپتاح » فى أن يجد بها كأساً من الجعة المصرية التى اشتد ظمؤه إليها ، كما يطمح أن يجالس فيها ناساً على مائدة شراب ليقص عليهم شيئاً من قصصه الغريب . . . وقد ساءه ألا يجد

طوال أيام عدة ، حانات ولا جعة ولا رفاق شراب !..

ولاحت لنا أخيراً التلال الثلاثة التي تقوم مقام الحارس على مدينة « طيبة » من الناحية الشرقية ، ولاحت بعدها المساكن المتجاورة ، من القرى الفقيرة إلى الضواحي الغنية ، ثم بدت فى وضوح أسوار « طيبة » عالية شاهقة ، فرأيت سقف المعبد الكبير وأعمدته والمنازل المحيطة به التى لا تكاد تحصى عدداً ، وكذلك البحيرة المقدسة ومدينة الموتى فى الناحية الغربية ممتدة بعيداً إلى التلال ، ووسط منحدرات الرمال الصفراء كان يبدو المعبد الذى يثوى فيه الفراعين ، ساطعاً ببياض لونه . وخلال صفوف الأعمدة بمعبد الملكة العظيمة كانت تظهر الأشجار المزدهرة وارفة الظلال ، وقريباً من التلال كنت ألمح الوادى المحظور وأتخيله بحياته وأفاعيه . وإلى جوار قبر فرعون العظيم كانت ترقد إلى الأبد جثتا أبى « سنموت » وأمى « كيفا » ، وقد تمثلا فى خاطرى حينذاك كأنهما يهتفان بجرمى ويعلنان ما خفى من أثمى . . . وبعيداً إلى الجنوب على الشاطىء برز بيت فرعون الذهبى ، فخماً وسط أسواره وحدائقه .. وهنا ساءلت نفسى : أيكون صديقى « حورمحب » لا يزال مقيماً فيه ؟ !..

وخرجنا من القارب عند مرسى حجرى معروف ، ولم أجد شيئاً قد تغير ، وهذه هى الشوارع التى قضيت فيها طفولتى ما زالت على حالها . وقد جاشت حيالها ذكريات مؤلمة ، فما كان يخطر ببالى قط وأنا أمرح بين أفواف طفولتى أننى سأكون سبباً فى القضاء على حياة أبى وأمى ، ومن هذه الناحية تحركت أشجانى القديمة التى حسبت أن الزمن قد محاها من صدرى ، فإذا هى تنتفض قوية ، وتثور متقدة ، كأنها وليدة الأمس ، وخيل إلىّ ساعتئذ أن الدنيا بكل من فيها وما فيها أياد تشير إلىّ ، استنكاراً وسخطاً ، فتمنيت لو أن لوجهى غطاءاً أتخفى به عن الناس ، وأستتر به جريمتى وخجلى !..

وبدد هذا الشعور فى نفسى كلّ ما كنت أشعر به من غبطة لعودتى ، فلم يتفتح قلبى للمدينة الكبيرة ، التى كان ضجيجها يتردد فى أذنى ، كما لو كان دقات

مطارق على الحديد المصهور ...

ولم أكن قد رسمت خطًّا أسير عليه عند عودتى ، تاركا هذا إلى ما سوف يسفر عنه لقائى « لحورمحب » ومعرفة مركزه ومدى قوته فى القصر . غير أنى بعد وصولى إلى الميناء وبعد أن تزاحمت فى رأسى الذكريات والأفكار ، قررت أن يكون خط سيرى المرسوم متجهاً إلى خدمة المرضى الفقراء ، وأن تكون حياتى بينهم ألواناً من البساطة والسلامة واستخدام التجارب التى نضجت فى نفسى ، ولا يعنينى بعد هذا شىء مما كنت أفكر فيه من شهرة وثروة وهدايا سخية لقاء المعلومات الهامة التى ندبت لها واحتملت العناء فى سبيل جمعها .

وقلت « لكابتاح » ونحن لمّا نبرح الميناء بعد : دع متاعنا فى القارب ، وامض على عجل فاشتر لى منزلا قريبا من هذا الميناء ، وليكن بالذات فى حى الفقراء ، وعلى مقربة من دار أبى قبل هدمها .

وبدا على « كابتاح » أنه لم يفهم ماذا أعنى بهذه المفاجأة !.. فما معنى أن نحتجز الأمتعة بالقارب ، وأن أبقى أنا إلى جوارها ، بينما أرسله بمفرده ليشترى داراً فى مكان معين ؟ !..

فصرخت فى وجهه أستحثه على الذهاب قائلاً : لن أبرح مكانى حتى تعود ، وليكن هذا سريعاً ، لننتقل من هنا رأساً إلى الدار الجديدة ، وفيها — من الغداة — أباشر عملى كطبيب .

ولم يرُق هذا له ، لأنه كان يعتقد أننا لأول عودتنا إلى « طيبة » سنهبط على خير ما فيها من فنادق حيث يجد مقاما طيبا ، ومتاعا وفراً ، وخدما من الأرقاء يأتمرون بأمره . ولكنه ، وقد رآنى أنحو نحواً آخر ، وأقرر ، فى إصرار ، قراراً مضادًّا ، لم يستطع الاعتراض وذهب عنى وهو يكظم الغيظ وخيبة الأمل .

وعاد مع مغرب الشمس لينبئنى أنه اشترى منزلا كان يملكه تاجر نحاس ، فى حى الفقراء ، غير بعيد عن الميناء . فانتقلنا إليه بأمتعتنا ، ورأيت عن كثب ، النيران الموقدة أمام أكواخ الفقراء ، ورائحة السمك الذى ينضجونه على هذه

النيران تنتشر متكاثفة فى أجواء ذلك الحى البائس المريض . وبعد قليل أضيئت المصابيح فى واجهات دور المباذل ، وترامت على آذاننا نغمات الموسيقى السورية مختلطة بصراخ البحارة ، وتراءت السماء من فوق « طيبة » مشوبة بالاحمرار ، أو هكذا يخيل إلى الناظر ، لكثرة ما ينعكس هنا وهناك من الأضواء الكثيرة فى أحياء المدينة .

وهكذا ، عدت إلى وطنى وقومى ، بعد طواف طويل مضن فى أنحاء شتى من العالم ، جمعت فيه ما استطعت من معرفة .

— ٤ —

وقلت « لكابتاح » فى صباح اليوم التالى : نحن الآن فى حاجة إلى « لافتة » نضعها على باب المنزل معلنة عنى كطبيب ، فاذهب لشرائها ، ولتكن لوحة بسيطة بلا نقوش أو زخارف ، وإذا سألك أحد عنى فلا تذكر شيئا مما تعودت أن تغلو فيه عن قدرتى وشهرتى ، ولا تزد على قولك إن « سنوحى الطبيب » يستقبل المرضى ، وإن الفقراء والأغنياء عنده سواء ، ولا يتقبل الهدايا من أى منهم إلا على قدر ما يطيق .

ومرة أخرى اعتاده الضيق والبرم ، فالتعامل مع الفقراء وإظهار الزهد فى الهدايا ، أمر لا يرى فيه سوى خيبة أمل ، فقال : يا سيدى ، ما أراك إلا فى عافية ، فلم تشرب من مياه المستنقعات ولم يلدغك ثعبان . . فما هذا الذى لا يقوله إلا مريض مسموم تعبث برأسه الحمى ؟ !.

فقلت له فى حزم : لا تجادلنى !.. بل اصنع ما تؤمر إذا كنت تريد البقاء معى : وإذا كان هذا المنزل المتواضع ، والتعامل مع الفقراء ، يغضان من قدرك ، ويحدان من كبريائك السورى ، فأنت من الآن حر طليق ، تستطيع أن تذهب عنى إلى ما تراه أجدى عليك وأوفق لمكانتك العظيمة !.. وأظن أن فى مقدورك الآن أن تشترى منزلا وأن تتزوج ، فما أكثر ما سرقت من مالى !..

فأجاب « كاپتاح » متخاذلا : لا شك فى أنك يا سيدى على حق فيما تقول وفيما تأمر ، وكان يجب أن أفهم أن الرأى يصدر عن مثل عقلى لا بد أن يكون رأياً واهناً بالنسبة للرأى يصدر عن مثل عقلك الكبير ، ولكنى مع هذا لا أستسيغ منك يا صاحب العقل الكبير أن ترانى أهلا للزواج ! . . ربما كان صواباً أو قريباً من الصواب أن أشترى داراً ، ولكن مالا صواب فيه ، بل ما لا يستطاع تحقيقه أن تكون لى زوجة ! فما أحسب فى النساء امرأة تطيق معاشرة زوج مثلى يعيش يومه كله بالمدينة الصاخبة ، فإذا عاد إليها مع الليل متأخراً كما هى عادته ، فاحت عليها من فمه أنفاس هى أكره ما تكون إلى حاسة الشم عند المرأة ، وإذا آوى إلى فراشه آوى إليه مترنحاً مسلوب الإرادة ، فلا يكاد يلمسه حتى يسترسل فى نوم عميق ، فإذا كان الصباح استيقظ مصدوع الرأس متراخى الأعصاب ، متأوها كأنه مضروب بالسياط ! ! . . إن زوجته التى قضى عليها أن تكون عشيرته على تلك الحال لن تستقبله إلا بالعصا ، وبالمختار المنتقى من العبارات الفاحشة ! . . فدع هذه الفكرة يا سيدى ، وخاصة بعد الذى لقيته من المشقات والأهوال فى أسفارى معك ، ولكننى فى الوقت نفسه أرى أن مستقبلى قد ارتبط بمستقبلك ، وحياتى توثقت بحياتك ، فلست أستطيع البعد عنك ، ولهذا فسأبقى إلى جانبك ، مشتركا معك فيما تلقاه من حلو الحياة ومرها ، وخيرها وشرها . ولئن كان البؤس والكآبة يحيطان بنا ، فليس معنى هذا أن نفنى فيهما ، فإن لكل شىء فى هذا العالم مخرجاً ، وسنجد بلا ريب متنفساً من حالتنا هذه ، فى الحانات وبيوت الملذات القريبة منا . وهذه هى حانة « ذنب التمساح » منا غير بعيدة ، وأرجو أن تأذن لى فى أن أقضى بها يومى هذا لعلى أستعيد فيها نفسى التى فقدت أكثرها وأحسن ما فيها ، فيما مر بنا من أحداث ، وفيما احتملنا من شقاء ، ثم لعلى أجد فى هذه الحانة أيضاً عزاءاً عما يملأ قلبى من أسى وحزن لاختيارك حى الفقراء مركزاً لعيادتك ! . . فمن هو ذلك الإنسان العاقل الحصيف الذى يخفى الجوهرة وسط أكوام من القاذورات كما تفعل أنت الآن بدفن مهارتك وفنك فى هذا الحى التافه الحقير ؟ ! . . .

فقلت له : ما تزال يا « كاپتاح » بعيداً عن الحكمة ، محتاجاً إلى من يفرك لك أذنك ليقول لك : إن كل الناس سواء فى مصدر وجودهم ، وهم كذلك سواء فى نهايتهم على هذه الأرض ، فهل رأيت إنساناً لم يخرج إلى الدنيا عارياً ؟ وهل ثم من إنسان يخرج من دنياه بشىء ؟ ! فلماذا تكون التفرقة إذن ؟ ! على أنه فى المرض بنوع خاص لا فرق بين الغنى والفقير ، ولا بين المصرى والسورى ... هذا هو القانون الإنسانى الذى يجب أن يدين به الطبيب ! . .

قال « كاپتاح » فى شىء من الرزانة والأناة : الأمر كما تقول يا سيدى . . ولكن ما علاقة هذه الحكمة العالية بالهدايا التى يحملها المرضى إلى الطبيب ؟ ! إنهم يجيئون بها مختارين ، وهى تختلف طبعاً باختلاف مقدراتهم وإمكانياتهم ، غير أنهم حينما يرون فى طبيبهم هذا الزهد والتواضع والاستعداد للعلاج بغير أجر ، فإنهم جميعاً لن يفكروا فى تقديم هدايا ، والقليلون الذين يخجلون من العلاج بالمجان لن تكون هداياهم ذات قيمة . والواقع أن أفكارك تحمل طابعاً إنسانياً كريماً ، وقلما يستطيع الإنسان أن يعترض عليها ، ولكن الواقع أيضاً أن أحداً سواك من الأطباء لا يسير على هذا الطريق ، فلماذا تنفرد دونهم بهذه الأفكار الجديدة ، وفى استطاعتنا أن نتأرجح على أشجار من ذهب ؟ ! . .

قلت له : من العسير علينا فيما يظهر أن نتفق على الهدف الذى أرمى إليه بخطتى هذه ، ولن أفرغ من تعليقاتك وأسئلتك فيما يضيق عقلك عن إدراك كنهه من تصرفاتى ، فلست أدرى مثلا ماذا أنت قائل حينما أخبرك بأننى أشتهى أن أعثر على طفل ضال منبوذ ، فأحتضنه وأتبناه ؟ ! . .

ولم يتمالك « كاپتاح » نفسه فصاح متسائلا فى دهشة : ولماذا يكون هذا يا سيدى ؟ ! إن هناك فى المعبد بيتا لأمثال هذا الطفل الضال المنبوذ ؟ هناك كما تعلم بيت اللقطاء ، وفيه يجدون ما لم يكونوا بالغى شيئا منه فى بيوتهم التى نبذتهم ، ومنهم من يصيرون بالتنشئة الصالحة كهنة ، ومنهم من يخصى ليعيش عيش الرفاهية والترف فى حريم فرعون أو النبلاء . . . ومع ذلك ، فما أيسر

أن تجد الطفل الضال المنبوذ الذى تريده إن كنت جاداً فيما تقول . . . ولكنى لا أفهم ، واعذرنى إن كنت لا أفهم ، ما هو الخير فى أن تشغل نفسك بهذا الطفل الذى يجد مكانه دائما فى بيت اللقطاء بالمعبد ؟! فإن كنت قد ضقت بالوحدة ، فمن الممكن أن تشترى فتاة من الرقيقات ، وهى فى رأيى أجدى علينا من طفل يملأ البيت تعبا ، فالأطفال متعبون على أى حال ، والسعادة المتخيلة من وجودهم مبالغ فيها كثيراً ، ذلك فى حين أن فتاة تشتريها ، ستحمل فوق كتفيها الكثير من أعبائنا ، فهى ستضطلع بشؤون خدمتك ، وتطهو طعامك ، وترتب أثاث منزلك . وإننا فى الواقع لفى أشد حاجة إليها ، فقد أصبحتُ ، لفرط ما عانيت ، مجهد الساقين ، مختلج أعصاب اليدين ، وأشعر بأنى لم أعد أستطيع وحدى القيام بهذه الأعمال . فهذه الفتاة التى أرجو أن تشتريها من اليوم ، لن تخفف عنى عبء الخدمة فحسب ، بل إنها كذلك ستعطينى الفرصة لخدمتك فى مجال آخر أكثر أهمية ، وهو مجال عملك وتثمير أموالك .

قلت له : أما شراء هذه الفتاة التى تريدها فأمر لم يخطر لى على بال ، ولن أفعله . على أنى لا آبى عليك أن تستأجر خادماً يرفع عن كتفيك أعباء خدمتى ، فذلك حقك علىّ . وإذا شئت بعد هذا أن تبقى معى ، فأنت حر غير مقيد بتكليف معين ، تغدو وتروح كما يروق لك ، فأنت مخلص أمين . وأعتقد أنك عندئذ ستوافينى بمعلومات قيمة مما تسمعه من الناس فى اختلاطك بهم ، وإذن فلا تجادلنى فيما ليس لك به علم ! . . وكل الذى يجب أن تفهمه هو أننى إذا أمرتك أمراً فعليك أن تنفذه مستسلماً ، فإننى أصدر فيه عن دافع داخلى يند عليك إدراكه ، كما لا أستطيع أنا نفسى مقاومته ...

وتركت « كاپتاح » يضرب فى حدسه وتخمينه وفلسفته ، وخرجت لأبحث عن أصدقائى ورفاق صباى ، وألممت بحانة « الجرة السورية » لعلى ألقى فيها « تحوتمس » ، ولكن صاحب الحانة الجديد قال لى إنه لا يعرف شيئاً عن صاحبى الرسام الفقير البائس الذى يعيش من رسم القطط فى كتب لأطفال الأغنياء !.. .

فمضيت إلى الثكنات الحربية باحثاً عن « جور محب » ، ولكنى ألفيت المكان مقفراً وليس فى الساحة الأمامية مصارعون ولا أحد من حملة الحراب ، كما لم أجد شيئاً من القدور التى طالما رأيت البخار معقوداً عليها خلال طهو الطعام تحت السقيفة المعدة لذلك .

ولاح لى ، غير بعيد ، جندى من الشردانيين ، فدنوت منه فلم يتحرك ولم يتكلم ، ولكنه كان يأخذنى بنظرات جامدة وهو يضغط على مقدمة حذائه فى الرمل ، وكان ضامر الوجه بادى العظام ، فسألته عن « حور محب » قائد قوات فرعون ، والذى كانت له مقادة الحرب المشبوبة من سنوات على العبريين فى سوريا ، فما أن سمع باسمه حتى انحنى أمامى وأجابنى فى لهجة مصرية مشوبة باللكنة : إنه لا يزال على مكانه من قيادة القوات الحربية ، غير أنه منذ شهور فى رحلة إلى بلاد « الكوش » ، حيث يعمل هناك على تسريح الحاميات وإجلاء سرايا الفرسان من الخدمة ؛ ولا يعرف أحد متى يعود . . .

ورثيت لحال هذا الجندى الذى كان يخيم عليه البؤس ، فناولته قطعة من النقود الفضية ، فزال عنه عند ذاك كبرياء الشردانيين وومضت فى وجهه الباهت ابتسامة عريضة ، وأخذ يدعو لى بأسماء آلهة مجهولة ، واستوقفنى عندما هممت بالانصراف وأشار بيده المعروقة الواهنة إلى ساحة الثكنات وقال : إن « حور محب » قائد عظيم يفهم الجندية ويقدرها ، وهو شجاع بنفسه ، ويحب الشجاعة فى جنوده ، وقد عرفناه أسد العرين ، فى حين لم نعرف فى فرعون إلا أنه «تيس» بلا قرون ! . . ومن هنا استحالت الثكنات إلى ما ترى من الإقفار والخراب ، فلا جنود فيها ؛ لأنه لا أجر ولا طعام ؛ ورفاقى يجوبون البلاد الآن متسولين ؛ ولا أحد يدري ما سيكون بعد ذلك ؛ وليباركك « آمون » ويجزيك عنى خير الجزاء ، فإنك حقا لرجل كريم ؛ وهذه النقود التى منحتنيها قد هدهدت نفسى المثقلة بالكآبة والهم ، فإنى من شهور كثيرة لم أذق طعم الخمر ولم أجد سبيلا إلى جرعة واحدة منها تطفىء لهيب ظمأى .... لقد تركت وطنى موعوداً بالفضة والنساء والشراب ؛

فهكذا يعد المصريون أمثالنا ترغيبا فى الجندية ؛ فلما صرت جنديا ، صارت حالى إلى ما ترى ؛ فلا فضة ؛ ولا نساء ؛ ولا شراب ، ولا عمل !..

قال هذا وبصق على الأرض تعبيراً عن يأسه واشمئزازه ، وأدركت أنا من حديثه أن « فرعون » قد أبطل عمل الجنود ففصلهم من الخدمة ، وقرر تسريح جنود الحاميات المصرية التى كانت فى خارج البلاد لعهد أبيه .

واتجه فكرى فى هذه اللحظة إلى « بتاحور » العجوز ؛ ووددت لقاءه ؛ فاستجمعت شجاعتى وقصدت إلى « دار الحياة » فى معبد « آمون » لأعرف مكانه من سجلات المعبد ؛ ولكن كاتب السجلات هناك قال لى إن « بتاحور » لأكثر من عام مضى يرقد فى مدينة الموتى . وهنا شعرت بمرارة الوحدة فى « طيبة » ؛ فليس لى فيها الآن صديق ! . . وبدا لى وأنا فى المعبد أن أجول به متحسسا الحياة التى فارقته عليها من سنين بعيدة ؛ فمضيت إلى بهو الأعمدة الذى تشع منه أضواء « آمون » المقدسة ؛ ويفوح شذا البخور حول أحجار أعمدته الملونة متعددة النقوش ؛ والطيور الحومة ؛ تغدو وتروح بين فتحات النوافذ ؛ ولكن حال المعبد اليوم كان غير حاله بالأمس ؛ فإنى رأيته يكاد يكون خاليا . وكذلك كانت ساحته الأمامية ، حتى الحوانيت والمصانع التى تقوم فى أنحائه والتى كانت من الكثرة بحيث لا تحصى عدداً ، لم تعد تنبض إلا نبضا ضعيفاً خافتاً ، هو نبض المساومات القليلة فى البيع والشراء ، وهؤلاء الكهنة ذوو الرؤوس المقصوصة الشعر الملتمعة بالزيت بعباءاتهم البيضاء ، كانوا على غير المعهد بهم ، تعرو عيونهم وحركاتهم مسحة الخجل والحياء ، والقليلون من الناس الذين رأيتهم يضطربون فى الساحة الأمامية ، كانوا يتكلمون فى همس ، ويتبادلون النظرات الزائغة الحذرة كأنهم يتقون أمراً مخيفاً ، وعلى الجملة كان الصخب والضجيج والحركة الجهيرة ، التى ألفتها فى هذا المعبد لمهد الطلب والتى كانت كعصف الرياح خلال الغابات ، قد انقلبت الآن إلى ما يشبه سكون الموت . . .

وإنى وإن كنت لم أشعر فى دخيلة نفسى يوماً بحب « آمون » ، إلا أنى مع

ذلك أحسست بغير قليل من الأسى لهذا الذى يلوح من تبدل الحال فى معبده ، فلا شك أن أحداثاً كبيرة قد أدالت من قوة سلطانه ، والإنسان بطبعه مجتذب إلى ذكريات شبابه ، خيراً كانت أو شراً ! . .

وفى طريقى إلى الخارج — سائراً خلال الأعمدة وتماثيل الفراعنة الفخمة — وقع نظرى على معبد جديد ، أقيم ملاصقاً المعبد القديم ، وهو عجيب فى ضخامته وفى رسم بنائه ، لا تقوم حوله أسوار ، والأعمدة التى تحيط بفنائه مكشوفة ، وقد رأيت على مذبحه مجموعة من هدايا الحبوب والأزهار والفاكهة ،وضعت تحت أقدام تمثال منحوت يمثل « آتون » وهو يرسل أشعته على « فرعون » الذى يقدم له القرابين ، وكل شعاع ينتهى بيد البركة التى تمسك رمز الحياة ، وكهنة هذا المعبد يرتدون أيضاً اللابس البيضاء ولكن رؤوسهم لم تكن حليقة ، وأكثرهم من الشباب تفيض وجوههم بالبشر الروحى وهم ينشدون الأناشيد المقدسة التى كنت قد سمعتها فى المعبد الذى أقيم « لآتون » فى « أورشليم » وكان أكثر تأثيراً فى النفس والشعور ، من هؤلاء الكهنة والتماثيل والنقوش ، تلك الأعمدة الأربعون الضخمة التى صاغ النحت على كل منها صورة « فرعون » الجديد ، وقد بدا كأنه يحدق فى وجه الناظر إليه وذراعاه مضمومتان إلى صدره وإحدى يديه ممسكة بعصا الراعى والأخرى بصولجان الملك .

كان نحت صورة فرعون على هذه الأعمدة دقيقاً محكماً ينبىء بمهارة ذلك الناحت الفنان ، فإنه قد أبرز فرعون الجديد كما كنت قد رأيته بعينى رأسى ، بملامح وجهه الناطق وأردافه للعراض وساقيه الضامرين ، وذراعيه الرفيعتين ، بل لقد كانت هذه الأجزاء الظاهرة من جسم فرعون الجديد ، تلوح مجسمة على الأعمدة حتى ليحسب من يراها أنها عيوب صريحة فى تكوين الجسم المرسوم . ولا شك أن الفنان صانع هذه التماثيل قد أوتى الشىء الكثير من الحرية الجريئة فى إبراز هذه العيوب غير المتناسقة ، وهنا ذكرت صديقى « تحوتمس » ، فما أعرف فى صانعى التماثيل فناناً سواه له مثل هذه الجرأة فى تجهير الصور على حقائقها الأصلية ، حتى

لو كانت لفرعون العظيم ؟ !إنه لم يخف شيئاً مما كان مفروضاً أن يخفيه عن الأعين من صورة فرعون ؛ بل لعله قد غالى فى إظهار الفخذ المنتفخة على الساق الضامرة ، والقدم الضاوية كالملقة فى أسفل الساق ، والعنق ممتداً فى عصبية تحت وجه مستطيل ، والحاجبين على خط منحرف متعرج ، وعظام الخدين متكشفة ناتئة ، وعلى هذا الوجه العجيب أضفى ابتسامة غامضة تحلق على شفتيه الغليظتين تشبه ابتسامة الحالم المستغرق فى نومه !.. إنها فى الحقيقة دقة فنية رائعة تتجلى فيها الحرية والجرأة ، وهى من صفات « تحوتمس » وحده فيما كنت أعلم ؛ فأين هو الآن يا ترى ؟!..

ولقد كان اختلاف مظاهر المعبدين واضحا مستوقفا للنظر ؛ دافعا للتأمل ؛ ففى معبد « آمون » يرى الإنسان تماثيل الفراعنة على جانبى الأعمدة يحف بها الجلال الإلهى ؛ والعظمة الرهيبة . وفى معبد « آتون » يقوم تمثال فرعون الجديد مكرراً على أربعين عامودا ؟ وناظراً خلالها إلى مذابح «آتون » مطيلا فى النظر إليها كأنه ينفذ بعينيه إلى أعماق بعيدة لا تصل إليها عيون غيره من الناس ؛ وهذه التماثيل فى مجموعها ؛ وفى أوضاعها ؛ تنم عن مشاعر دينية مغرقة فى التعصب !..

وأثرت فى نفسى تماثيل فرعون الجديد « أمنحوتب الرابع » ؛ فقد كانت هذه أول مرة أراها فيها ؛ ولم أستغرب أن تقام بالمعبد على هذا النحو ؛ فهو يؤثر الحقيقة المجردة ويعزف عما يعتقد أنه أكثر أو أقل منها ؛ وما أراه إلا راضيا عن هذه التماثيل حين ينظر إليها لأنها تمثله على حقيقيه ؛ وتمثل إيمانه بالإله الجديد الذى يعبده ويدعو إليه ، ذلك لأنى لقيته وهو فتى صغير ؛ كان يومئذ مريضا منهكا ؛ ولكنه كان يرسل الحديث طويلا عن الإله الذى تكشف له ؛ فلم أنظر إليه حينذاك إلا نظرة الطبيب إلى مريض ؛ ولم ألق بالا إلى أشياء كثيرة كان يتحدث عنها ؛ فقد حسبته مخلوطا فى عقله يهذى هذيان المجنون ... فالذى أراه الآن من معبد جديد وتماثيل جديدة وطقوس دينية أخرى ؛ ليس إلا نتيجة لمقدمة شهدتها بنفسى من سنين طويلة .

على أن معبد « آتون» لم يكن يوجد فيه إلا قليل من الناس ،وبعضهم، كما تدل

ملابسهم الكتانية والجواهر التى يتزينون بها ، من النبلاء ورجال الحاشية الملكية ، أما سائرهم من عامة الناس فقد كانوا يسمعون أغانى الكهنة ولا يلوح عليهم أثر من فهم وإدراك ، فقد كانت عبارات الإنشاد غريبة على أسماعهم ، مختلفة اختلافا كبيراً عن التراتيل التى ألفوها وفقهوا معانيها ، والتى كانت ترتل بالمعابد طوال ألفى عام مضت ، أى منذ أن شيدت الأهرام .

وحدث بعد أن انتهت هذه التراتيل غير المفهومة ، أن تقدم رجل عجوز من القرويين إلى الكهنة وسألهم فى احترام أن يبيعوه تميمة تقيه الشر ، وعينا تدفع عنه الحسد ، أو ورقة مكتوبا عليها بعض عبارات السحر تصرف عنه السوء ! . . ولكنهم ردوه قائلين إن شيئاً مما يطلبه لايباع فى معبد « آتون » إذ أنه لايستخدم السحر ولا يقبل الهدايا أو القرابين ، وإنما هو يمنح البركة بلا مقابل لأولئك الذين يؤمنون به . ورأيت الرجل العجوز ينقبض لمقالتهم وينصرف مهمهما بكلمات تعبر عن عدم تصديقه لهم ، ثم يتجه إلى باب معبد « آمون » فيدخل إليه ...

وتقدَّمتْ إلى الكهنة كذلك امرأة متقدِّمة فى السن من بائعات السمك ، وسألتهم قائلة : ألا يمكن لأحد أن يتقدم بالقرابين من خراف وثيران إلى « آتون » لتطعموا من لحومها أيها الفتيان الضعاف المهازيل ؟! وإذا كان إلهكم أشد من « آمون » بأساً وقوة — وإن كنت أنا لا أعتقد ذلك — أفلا كان يجدر بكهنته أن يكونوا ذوى قوة وبدانة لتكون حياتهم سعيدة مرفهة ؟! . أقول هذا وأنا المرأة الساذجة التى لاتعرف مثلما تعرفون ، ولكنى أود من كل قلبى أن تتوافر لكم اللحوم والطعام الدسم لتكونوا أنضر عافية وأبسط أبدانا ! .

وتضاحك الكهنة من قولها ، وتهامسوا فيما بينهم ، ولكن كبيرهم اصطنع الوقار والاتزان وقال لها : إن « آتون » الرحيم يأبى أن يتقرب الناس إليه بالضحايا مسفوحة الدماء ، ولا يجوز لك أن تذكرى « آمون » فى هذا المعبد ، لأنه إله زائف ، وعرشه يتهاوى ، وعما قريب سيصبح معبده خرائب وأنقاضا ! ..

فتراجعت المرأة إلى الوراء مروعة فزعة ، وبصقت على الأرض مستنكرة ،

ثم رسمت بيديها صلوات الاستعاذة والتقديس « لآمون » وصاحت قائلة : إن آمون ليعلم أنكم أنتم الذين تقولون هذا ، ولست أنا ! .. فلتنزل عليكم لعنته .. وهرولت خارجة وتبعها آخرون كانوا يسمعون حوارها وهم ينظرون ، من فوق أكتافهم فى خيبة أمل ، إلى هؤلاء الكهنة .

وفى صوت عال هتف الكهنة بهم قائلين فى سخرية : اذهبوا — إذن — ياضعاف الإيمان ، ولكن اعلموا أن « آمون » إلـه زائف ، وسيزول سلطانه مثلما تزول الحشائش تحت المنجل الحاصد ، ولتعلمُنّ نبأه بعد حين ! . .

وعندئذ التقط أحد الذاهبين قطعة من حجر وقذف بها الكهنة ، فأصابت أحدهم فى وجهه وأسالت دمه فصرخ متأوهاً . وبينما كان الكهنة الآخرون يهتفون بالحراس ليقبضوا على المعتدى ، كان هذا يركض فارًّا بنفسه ثم غاب مختلطا بالزحام المتكاثر حول أعمدة معبد « آمون » ...

وأثار فكرى كل هذا الذى رأيت وسمعت ، فتقدمت إلى الكهنة وقلت لهم : إنى مصرى لحما ودما وروحا ، غير أنى كنت بعيداً عن مصر سنين طويلة عشتها فى سوريا ، وقدعدت أخيرا لأجد هنا هذا التحول فى العبادة ، من « آمون » إلى « آتون » ، فلست أعرف من قبل شيئا عن إلهكم الجديد ... ألا تتفضلون بإيضاح مالاينبغى أن أجهله من أمره ؟! فمن هو ؟! وما شريعته التى يريد أن يقيم الناس على جادتها ؟! وما هى طقوس عبادته ؟! .

ولعلهم حسبونى واحداً من أولئك الذين يسخرون منهم ، فترددوا فى الجواب ولكنهم بعد أن تأملوا فى وجهى طويلا ، أجابوا قائلين : إن « آتون » هوالإلـه الواحد الأحد ، خالق الأرض وكل مافيها وكل من عليها من نهر وإنسان وحيوان ، وهو مبدع الكون كله ، والوجود بأجمعه ، أبدىٌّ لايزول ولايحول ، وكان قبلاً يُعبد فى صورة « رع » ، ولكنه أخيرا تجلى على حقيقته وباسمه لابنه المختار « فرعون » الذى يحيا بالإيمان ويعيش بالحق والصدق ... إن « آتون » هو الإلـه الأوحد ، وليس غيره من الآلهة إلا خرافات وأوهاماً ! .. فهو لايصد عنه قاصدا

ولا يفرق بين إنسان وإنسان ، فالفقراء والأغنياء سواء عنده ، ونحن نحييه فى كل صباح ، وهو يتجلى فى قرص الشمس مرسلا أشعته المباركة على الأرض لتحيا بها وتزكو ، وبها يمنح الحياة لكل فرد ، وهو حى لايموت أبدا ، لايحد وجوده مكان ولا زمان ، فهو موجود فى كل مكان وفى كل زمان ، ولا شىء يقع فى هذا الوجود الواسع الفسيح بغير إرادته ، وبقوته وبركاته التى عمد بها « فرعون » يستطيع « فرعون » أن يرى ما فى قلوب الناس ويستشف ما خفى من أفكارهم .

قلت لهم معترضا ، دون أن أشعر : إن « فرعون » بهذا لا يكون من البشر .. فما يقع فى طوق بشرى أن يعرف ما فى صدور الناس ويطلع على المستتر فى قلوبهم ! ..

فتبادل الكهنة الرأى فيما بينهم ، وقال صاحب الحديث منهم : إن « فرعون » نفسه لايريد أن يكون أكثر من إنسان ، إلا أننا لانشك فى أنه قد صيغ من جوهر الألوهية ، فما أكثر الذين قد شهدوه فى أحلامهم موجوداً ، فى وقت واحد ، بأنحاء شتى من الأرض ، ولا يكون هذا إلا لمن يمتون للآلهة بأقوى الصلات ، ومن هنا صوره الفنانون على هذه الأعمدة فى شكل رجل وامرأة معاً ، رمزاً إلى أن « آتون » هو صانع النطفة فى أصلاب الرجال ، ليخلق بها الأجنة فى أرحام النساء .

فما أن سمعت هذا حتى رفعت يدى ووضعتها على رأسى وقلت لهم فيما يشبه اليأس الساخر : الحق أننى رجل بسيط ، فى مثل بساطة تلك المرأة التى كانت هنا منذ قليل ، ولهذا لم أستطع أن أفهم جيداً معلوماتكم الجليلة . وقد لاأعدو الحقيقة إذا قلت إنكم أنتم كذلك لاتفهمونها جيداً ! . فإنكم لاتعطون جوابا عن سؤال إلا إذا تقابلت رؤوسكم وتبادلتم الرأى والمشورة ! .

فأجابوا بحرارة قائلين : مهما يكن من أمر ، فالحقيقة التى لاينبغى الجدال فيها هى أن « آتون » مصدر الكمال ، وقد أوتى قرص الشمس هذا الكمال ، ولكن العقل البشرى مشوب بالنقص فهو كالضباب ، ومن أجل هذا فليس فى مقدورنا أن نوضح لك الحقيقة كاملة ، لأننا لا نعرفها كاملة ، وإنما نحن نتلقى إرادة

« آتون » يوماً بيوم ، وإرادته لاتنكشف ولا تتضح إلا لفرعون ، ابنه ، الذى يعيش فى الإيمان به . . .

واهتزت مشاعرى لهذه الكلمات ، فقد أحسست أن هؤلاء الكهنة يقررون بها الحقيقة التى تتقاصر دونها عقول البشر حتى لو كانوا كهنة ، وفى تقريرهم هذه الحقيقة تعبير عن إيمانهم وعن عجزهم أيضا ، فهم إذن لايمتازون فى هذا السبيل عن أىٍّ من الناس إلا بملابسهم الكتانية وشعورهم المدهونة بالزيت وبهذه المظاهر التى تضفى عليهم قداسة فى أعين الرجال والنساء . ولأول مرة أدركت أن عقل الإنسان ينقصه كمال الإحاطة والإبداع ، وأن من ورائه قوة لاتراها عين ، ولا تسمعها أذن ، ولا تمسها يد ، فهل ترى قد اكتشف « فرعون » وكهنته هذه القوة فسموها « آتون » ؟! ..

— ٥ —

وعدت إلى منزلى فى إقبال المساء ، وكانت تعلو بابه اللافتة البسيطة التى رغبت إلى « كاپتاح » صباحاً فى أن يشتريها . وفى فناء المنزل كان قليل من المرضى البؤساء يجلسون القرفصاء فى انتظار قدومى ، وكان « كاپتاح » ينقل نظره فيهم ، ضائق الصدر بهم وهو جالس تحت سقيفة الباب ، وفى يده غصن من النخيل يذود به عن وجهه الذباب المتكاثر الذى جاء مع المرضى متجمعاً على ملابسهم القذرة ، ولكنه لم يكن قد نسى نفسه ، فقد كانت أمامه جرة مفتوحة من الجعة ! ..

وكان بين هؤلاء المرضى امرأة تحمل على ذراعيها طفلا هزيلا ، فأومأت إلى « كاپتاح » أن يدخلها علىَّ قبل سواها ، ففعل . وكان خير دواء لها عندى هو تلك النقود النحاسية التى أعطيتها إياها لتشترى بها طعاماً يمدها بالغذاء ، ويؤتيها القوة لتغذية طفلها هذا الرضيع الواهن . وجاء بعدها أحد الأرقاء وكانت أصابعه قد تحطمت بين شقى رحى فأقمت ماانتثر من عظامها ورددتها إلى مواضعها ، وأحكمت لفها باللفائف والضمادات ، وأعطيته شراباً مرطباً يرفه عنه وينسيه آلامه . وفى

إثره دخل كاتب عجوز قد برز فى عنقه تورم ضخم كأنه رأس طفل ، وكان الرجل لشدة ما يعانيه من ذلك جاحظ العينين ، خافض الرأس ، عسير التنفس ، فأعطيته مزيجاً من عصارة أعشاب البحر ، وهو دواء عرفته فى « أزمير » علاجاً لمثل هذه الحالة ، وإن كنت لم أتبين بالتجربة أنه الدواء الناجع لها ، وأخرج الرجل العجوز من خرقة كان يحملها قطعتى نقود نحاسية ، وقدمهما لى فى خجل مستشفعا بفقره ، ولكنى لم آخذهما وأشفقت على شعوره فزعمت له أنى سأحتاج إليه فى بعض الخدمات الكتابية ، فخرج فرحاً بنقوده !.. وأخيرا جاءت فتاة تعمل فى بيت للملذات على مقربة من منزلى ، فسألتنى علاجا لعينيها المصابتين بقروح تضايقها فى عملها ، فنظفتهما ونفيت منهما القذى ، وأعددت لها سائلا عقاريا ، وأفهمتها طريقة استعماله غسيلا لعينيها إلى أن يزول آخر أثر من القروح . وهنا نهضت أمامى ناضية ثيابها عن جسدها كله ، فبدت عارية تماما ، ودنت منى لتعطينى من جسدها الشيء الوحيد الذى تملكه أجرا على علاجى . ولم أشأ أن أنكر عليها هذا العرض المبتذل ، حتى لا أزيد فى آلامها ، فاعتذرت لها فى رفق بأن علاجاً هاما يحجزنى الآن عن النساء !. وصدقتنى وحمدت لى الحرص على مقتضيات العلاج .. ورأيت على جسدها العارى زوائد جلدية متقرحة فى الخاصرة والبطن ، فدهنتها بالمرهم المخدر ، وبذلك لم تخل محاولتها من فائدة . ثم خرجت هى الأخرى مغتبطة سعيدة .

وانتهت عملية الكشف ووصف الدواء وتقديمه للمرضى دون أن أنال على ذلك شيئاً يكفى لشراء ملح الطعام ، وكان « كابتاح » يهز رأسه ساخراً ، وهو يضع أمامى أوزة سمينة مجهزة على الطريقة « الطيبية » ، وهى تملأ طبقاً قلما يكون له مثيل فى أى بلد من بلاد العالم ، وقد اشتراها من أفخم حانة بين حانات النبيذ بالمدينة ، وكان قد وضعها فى فرن المنزل ليحفظ حرارتها إلى وقت تقديمها للطعام ، فكانت ، لهذا ، شهية مغرية ، وخلال تناولى الطعام كان « كابتاح » لا يغفل عن متابعة تقديم شراب النبيذ لى مصبوبا فى دن زجاجية ملونة ، وكان شرابا ممتعاً لأنه من نبيذ

كروم « آمون » . ومن لحظة إلى أخرى كان « كاپتاح » يذكرنى متهكما بالربح العظيم الذى أصبناه فى يومنا المدبر !..

ولكنى لم أكن أفكر على طريقته من هذه الناحية ، فكم كنت فى الواقع سعيداً بعلاج أولئك الفقراء المساكين ولو لم أنل منهم شيئاً ، بل لقد كنت بذلك أكثر سعادة منى لو كنت قد عالجت الأغنياء وكوفئت منهم بالقلائد الذهبية ... على أن اليوم لم يمض خاويا فارغا كما تراءى فى عين « كاپتاح » ، فإن ذلك الرفيق الذى جاءنى مهشم الأصابع عاد إلينا بعد أيام ليبشرنى بأنه قد برىء من العلة وعادت إليه حركة يده الطبيعية ، حاملا إلينا فى الوقت نفسه جرة مليئة بالدقيق !..

وقال « كاپتاح » مسترسلا فى تهكمه : ما أشك يا سيدى فى أن شهرتك تسير الآن مهرولة فى كل مكان ، وتقرع أبواب كل بيت فى هذا الحى . وما إن يطلع الفجر حتى يكون فناء هذا المنزل قد امتلأ بالمرضى ، وكأنى أسمع فى هذه اللحظة صياح المتسولين قائلا بعضهم لبعض : هلموا إلى بيت تاجر النحاس فى زاوية الشارع ، فهناك طبيب يعالج المرضى بالمجان وبدون إيلام ، لعظيم مهارته ، ويعطيهم الدواء بلا ثمن ، لرقة قلبه ! . . وكذلك كأنى بنساء هذا الحى يتنادين ليأتينك مسرعات ، قائلة إحداهن للأخرى : ما أوفر حظنا من السعادة بهذا الطبيب الكريم ! . . إنه يمنح النقود فى سخاء للأمهات الفقيرات . . . ويجرى عمليات التجميل لفتيات دور الملذات ، ويصنع لهؤلاء وغيرهن الكثير من الخدمات ، ولا يتقاضى عن ذلك أجراً ! . . ولست أبعد عن الحقيقة إذا تخيلت الجميع من رجال ونساء يتراكضون إليك ، ويتعجلون المثول بين يديك ، لأنهم لا بد قد فطنوا إلى أنك ، أيها الطبيب الكريم المحسن ، لن تحبس أفضالك هذه على حى بعينه ، وعلى أناس بذواتهم ، وإنما أنت متنقل بحسناتك وصدقاتك بين الأحياء والمجتمعات ، ليعم خيرك ويشيع فضلك بين الناس جميعاً ، فأهل هذا الحى إذن يأتونك زرافات ويقبلون عليك جموعا متكاثرة فى وقت واحد ، ليظفروا منك بحظوظهم من الخير قبل أن ترتحل عن حيهم ! . . ولكنهم جميعاً أغبياء حين

يعتقدون أنك ستضيق بهم فى يوم قريب ، وسيحملك هذا الضيق على بيع المنزل وإخلاء العيادة والابتعاد عن حيهم إلى مكان آخر لا يعرفون السبيل إليه ، ذلك لأن الحقيقة التى لا يدركونها — لغبائهم — هى أن بينك وبين الحظ السعيد عهداً يحمل إليك به الذهب الذى تريد ، وربما زاد على ما تريد ، فخزائنه ملأى دائما ، فما أنت بمحتاج إلى طلب المال فى أيدى المرضى ، وبالتالى فأنت لن تفكر فى الهجرة من حى أولئك الفقراء المناكيد ، فليتهم عرفوا هذه الحقيقة وأراحوا أنفسهم من عناء التهافت عليك ، وأراحونا من هذا الزحام الذى قد يضجرنا منهم ، فتقل عنايتك بهم ! . . ومع ذلك فليكثروا أو يقلوا ، فهذا غير مهم عندنا ما دام الحظ السعيد سيعطينا المال الكثير حيث أتولى أنا استثماره لك بخبرتى وواسع حيلتى ، وسيكون فى استطاعتى أن أقدم لك فى كل يوم — إذا شئت — أوزة دسمة شهية ، ونبيذاً معتقاً نقياً من أفضل ما يتناوله العلية والأثرياء فى «طيبة» ، وما لنا لا نفعل ذلك والثراء لدينا مستفيض ، وينبوعه متدفق لا يغيض ؟ ! وليس بضائرنا بعد هذا أن يكون مقامنا فى هذه الدار المتواضعة ، وفى هذا الحى البئيس ، وبين هؤلاء القوم التاعيس ، أليس ذلك هو الواقع يا سيدى ؟ ! ألسنا فى الحق نحيا الآن على هذا الحظ السخى الكريم الذى لا تراه أعيننا ، ولا تلمسه أيدينا ؟ ! فإن كان ذلك وهما وخيالا وسبحا فى جو الأحلام ، وهو ما أفزع منه وأخشاه ، فسيأتى اليوم الذى ترانى فيه أحثو التراب على رأسى ، لأنك اضطررت إلى بيع المنزل ، وإلى بيعى معه ، وقد لا يكون هذا اليوم منا بعيداً !.. صدقنى يا سيدى ، إننى لشديد التطير من ذلك المصير الذى تتراقص نذره أمام عينى ، ومن أجل هذا أسألك أن تمنحنى الحرية التى وعدتنى بها ، امنحنيها مكتوبة على الورق وليست كلمات يدور بها اللسان ، ولا تلمنى على ذلك ، فإن كلمات اللسان ، يلحقها النسيان . أما الكلمات الموثقة بالأوراق ، والممهورة بخاتمك ، والمحفوظة بدار المحفوظات ، فهى الحجة التى أشعر فى ظلها بأنى ، حقا ، قد صرت حراً ، أغدو وأروح على ما أشاء وأشتهى . ثم إن ثمة سبباً خاصاً يبرر من ناحيتى هذا الطلب ، ولكنى لا أريد أن أثقل

عليك بذكره الآن ، فأنت مشغول ووقتك ضيق . . . فلندع هذا الأمر إلى فرصة أخرى !..

وكنت أستمع إلى حديث « كاپتاح » دون أن أقاطعه ، مسترسلا فى تناول طعامى من الأوزة الطيبة المذاق ، ومن شراب النبيذ ذى النشوة اللطيفة ، وكان جو هذا المساء ممتعاً حيث كانت تهب علينا من الميناء نسائم رقيقة نستنشى فيها عبق أشجار السدر ، وإن كان لم يخل من روائح شواء السمك الذى ينضجونه ، على مقربة منا ، فى النيران الموقدة هناك أمام أكواخ الفقراء .

وفى هدوء أومأت إلى « كاپتاح » ليصب لنفسه نبيذاً بكأسه الفخارية ، وقلت له : إنك حرٌّ يا « كاپتاح » ، فما كنت معى خلال زمن طويل إلا رفيقاً حرا ، وليس عبداً رقيقاً . ولم أكن أدرى أنك تجهل ذلك ، ولو أننى كنت أنزلك منى منزلة العبيد ، لما صبرت على ثرثرتك التى لا تخلو فى أكثر الأحيان من جرأة وتجاوز للحد ، بين السيد ومولاه ... لقد عاملتك دائما معاملة الصديق ، وعاملتنى أنت هذه المعاملة نفسها ، وقد أقرضتَنى يوما نقودك الفضية والنحاسية وأنت وقتئذ موقن بأنك لن تستردها ، ولا يكون هذا إلا بين صديقين . . . على أنى تحقيقا لرغبتك ، أؤكد لك منذ هذه اللحظة بأنك لم تعد رقيقا لى ، فكن طليقا يا « كاپتاح » ، وكن كما شئت حرًّا سعيداً بحريتك . ومن الغد سأسجل لك هذا العتق فى أوراق مختومة منى بخاتمين ، لا بخاتم واحد ، خاتمىَّ المصرى والسورى معاً ... والآن نخبرنى ، ما هى طريقتك التى ستسير عليها فى استثمار أموالى والتى ستجعلنى بها دائم الثراء ، غير مستهدف للحاجة فى يوم من الأيام ؟ ! ولقد كنت أمرتك بأن تودع الذهب بخزانة المعبد ، فهل فعلت ذلك ؟ !..

فحدق فى وجهى بعينه الواحدة وقال : لا . لم أفعل . فقد رأيت من الحماقة أن أودع الذهب بخزانة المعبد ، ولا غرابة فى ألا أطيعك فى هذا الأمر ، فإنك تعلم بأنى لم أطع لك من قبل أمراً يشوبه الخطل ، فى سائر الأمور لا أفعل إلا ما يمليه شعورى الطيب نحوك . وأنا أقول هذا الآن مطمئناً إلى أنك لن تغضب لصراحتى

بعــد أن أعطيتنى الحرية المؤكدة ، ذلك إلى أنك لم تسرف فى شراب النبيذ ، فضلا عن أنى أخفيت عصاك إتقاء غضبك ، واجتناباً لما تدفعك إليه طبيعتك التى كثيراً ما تثور لأوهى الأسباب ، وهو للأسف عيب لم يبرئك منــه الزمن .
ويبقى بعد هذا أن تسألنى لماذا لم أنفذ أمرك الأخير ! . . فأقول لك وأنا لا أخشى عصاك التى لن يجــديك البحث عنها : إن البلهاء هم الذين يودعون أموالهم فى خزانة المعبد ، ذلك لأن المعبـــــد لا يدفع عنها فائدة كما هو الحال فى بيوت المال ، ولا يكتفى بذلك فيقتضى أصحابها الهدايا مقابل إخفائها وإقامة الحراس عليها ! . .
ثم إن فى كلمة « إخفاء » هذه تجوزا ومخالفة للواقع ، فإدارة الضرائب تحاط علماً بالودائع التى تحفظ بالمعبد ، وعندما تتدخل إدارة الضرائب ، وهى تتدخل دائماً ، تصاب الوديعة بالانــكماش والتضاؤل على كرور الأيام ، إلى أن تستنزف آخر قطرة فيها ! .. وهنا الخطأ الذى شاب أمرك ،ورأيت أنا ألا أشاركك فيه ... أما الرأى الصواب الذى ينبغى أن تؤمن كما أؤمن أنا به ، فهو إطلاق المال ليتداول حرا فى الأعمال ، فيزداد ويربو ، لا أن يحبس هكذا حتى يتهلهل وتلقفه إدارة الضرائب .
ولهذا فقد اتجهت هذه الوجهة ، وجهة تثمير أموالك فى الأعمال الحرة ، ورحت أتجول فى أنحاء المدينة ، وأتصل بدوائر الأعمــال ، وأتحسس الوسائل لتحقيق هذا الغرض ، وأخيراً اهتديت إلى أن خيروسيلة لذلك هى أن نشترى أرضاً من أملاك « آمون » التى تقرر أن تباع لمن يشاء أن يبتاع !..

قلت له فى استــغراب : ما أراك إلا مرسلا فرية أخرى من مفترياتك التى لا تريد أن تــكف عنها ... فإن « آمون » لا يرضى أن تنقص أرضه شبراً ، بل هى تزداد بالشراء المتصل ، حتى أصبح يملك وحده ربع مساحة القطر المصرى كله !.. ومايدخل منها فى حوزته لايباح خروجه إلى أحد. فلست بمصدقك ياهذا !..

قال « كابتاح » وهو يملأ كأسه من قارورة النبيذ : كلا يا ســيدى .. إن ما أقوله لك لهو الحق الذى لا ريب فيه ، وستعرف غداً أننى الصادق الأمين الذى لا يــكذب ولا يفترى ، وقد يبدو غريبا عليــك وعلى كثير مثلك أن أرضا من

أملاك « آمون » تعرض للبيع كأى أرض مما يملكه عامة الناس . وأنا شخصيا قد ساورنى الشك حينما قيل لى ذلك ، ولكنى بوسائلى الخاصة المتميزة بالدقة والمهارة استطعت أن أكتشف أن هذا هو الواقع . ولك أن تثق تماما من أن « آمون » يبيع الآن من أراضيه ، يبيعها فى عجلة ، وبأثمان رخيصة . وكل ما فى الأمر أنه يتحرى السرية التامة فى إجراءات البيع ، ويؤثر ألا يبيع إلا الموثوق بهم من أصحاب المال . ولقد باع فعلا مساحات كبيرة ، وجمع أثمانها التى تمثل أغلب الذهب الموجود فى مصر ثم كدسها فى قبوه . ولما كان معروفا أن « آمون » يملك من أراضى مصر أكثرها خصبا ، فقد رأيت من الحكمة ، والمال فى أيدينا ، أن نشترى جزءاً منها ، فالأرض الخصبة هى أفضل مجال لإنماء الثروة ، والمال فيها غير معرض لتقلبات الأسواق واضطرابات التجارة ، ولا يغيب عنك ياسيدى أن الرجل العاقل يستطيع حينما تكون له أرض زراعية أن يلحق بها كل عام ، وعقب كل فيضان ، أجزاء أخرى ، ولا يكلفه ذلك سوى حسن التودد والتفاهم مع رجال المساحة ، ومعنى التودد والتفاهم هنا هو منحهم الهدايا ، وذلك أمر يسير !..

قلت له ساخراً : إنك تتحدث عن الأرض والزراعة كما لو كنت يوما تملك أرضا وتفلحها !..

فقال : لست غبيا حتى أزعم هذا ، فأنا لم أكن يوما صاحب أرض ، ولم أولد فى حقل ، وإنما ولدت ونشأت فى بيوت رفيعة العماد تطل على الشوارع المرصوفة . غير أن هذا لا يعنى أن كل من لم يكن له أرض زراعية أو يولد فى حقل ، لا يجوز له أن يشترى أرضا ليستغلها ، فما كل هؤلاء الذين يملكون الأراضى الزراعية بزراع أو فلاحين . فزراعة الأرض وفلاحتها ينهض بها الأجراء والأرقاء ومن هم فى حكمهم . وعلى هذا يمكنك أن تفكر فى الأمر باعتباره فرصة موانية من الخير اغتنامها ، ولعلك تريد أن تسأل عن السبب الذى يدفع « آمون » إلى بيع أراضيه ! . . ويمكننى أن أجيب على سؤالك بأن السبب هو الفزع الذى يركبه « آمون » من إلـه « فرعون » الجديد !..

واستطرد « كاپتــاح » قائلا : ومع هذا ففكرة شرائنا أرضا من أملاك « آمون » لم تزد عندى على مجرد خاطر من خواطر كثيرة تواردت على ذهنى خلال بحثى عن المشروعات التى نوظف فيها أموالك ، مطمئنين إلى أنها تؤدى ربحاً مكفولا ومستمراً ، وقد يسرك أن تعرف الآن أننى ، دون الرجوع إلى رأيك المتردد ، قد اشتريت لك عدداً من أبنيــة الاستغلال فى المدينة ، وهى تتألف من حوانيت تجارة وبيوت سكن ، تدر إيراداً ثابتا مطرداً . ولم يبق لإتمام هذه الصفقة الرابحة سوى توقيعــك على وثيقة شرائها . وســترى أننى كنت بارعا فى الاتفاق على ثمنها ، فهو ثمن ضئيل بالنسبة لقيمة الأبنية ، ولم يكن سواى ليستطيع ذلك . وكنت فى المساومة فى هــذه الصفقة أمثل دور الوسيط ، ولهــذا فإن أصحابها البائعين سيقدمون لى أجر الوساطة ، وهو حق وحدى وليس لك أن تشاركنى فيه ، وأنا أقول لك هذا لتكــون على بينة من الأمر فلا تتهمنى بأننى سرقت شيئا منك !.. ولا مانع من أن تمنحنى أنت أيضا هدية تكافىء المجهود الكبير الذى بذلته فى هذا السبيل لمصلحتك ! . .

فقلت له : أما أن أمنحك انا ايضا هدية ، فهــذا شىء غير معقول ، لسبب بسيط ، هو أنك الذى تتولى تحصيل الإيراد ، وسيتاح لك أن تنال جانباً منــه ، علمت أنا أولم أعلم ، وسيكون فى وسعك أن تتفق مع المقاولين ، من وراء ظهرى ، على نصيبك ، فى نفقات إصلاح المبــانى التى ترى أو يرون أنها ضرورية فى كل عام !..

وأحنى « كاپتاح » رأسه موافقا على هــذا الاستنتاج فى غير خجل وقال : لقد أحسنت التعبير يا سيدى عن وجهة نظرى فى هــذا الموضوع ، ولا أدرى — على أى حال — أن ثمة فرقا بيننا فى الناحية المالية ، فثروتك هى فى الواقع ثروتى ، وأنا أتصرف فيها على هذا الأساس ، ولقد أغرانى ما سمعته عن معاملات « آمون » الزراعية بالتفكير فى تجارة الغــلال فذهبت إلى سوقها وخالطت الكثيرين من المتعاملين فيها ، وأصغيت إليهم وتعقبت تصرفاتهم حتى عرفت الكثير

من أسرار هذه التجارة . ولهذا أرجو أن تأذن لى بشراء صفقة من الغلال من حصاد الصيف المقبل ، بجزء من الباقى من ذهبك ، وهذه طريقة مُثلى ومجزية فى تثمير المال ، والأسعار الآن معتدلة ، بل هى أدنى من مستواها العادى لأنها تدفع نسيئة عن بضاعة غير حاضرة . وعندما تسلم إلينا الصفقة نقوم بخزنها فلا نعرضها إلا إذا ارتفعت الأسعار . والرأى عندى أنها سترتفع وتمضى صعداً مع الزمن ، ذلك لأن « آمون » يبيع أراضيه ، وشيئا فشيئا ستصير إلى من لا يحذقون فنون الزراعة ، ويؤدى هذا إلى قلة فى الانتاج ، وقد أعددت لهذا الأمر عدته فساومت على شراء مخازن لحفظ الغلال ، جافة ووثيقة البناء . وحينما تنتهى حاجتنا منها نؤجرها لتجار الغلال فنفيد منها إيراداً حسناً ! .

وكان طبيعاً أن أقابل جهود « كابتاح » ومشروعاته هذه بالموافقة والارتياح ، معرباً عن تقديرى لإخلاصه الذى يحفزه إلى معاناة المتاعب بحثاً عما يحسبه محققاً لمصلحتى ، ولو أننى موقن بأنه يشعر باللذة والمتاع فى الاشتغال بهذه الخطط والمشروعات ، مهما تكن عواقبها . . .

وقد شجعه ارتياحى لذلك فمضى قائلا : وهناك مشروع آخر مثمر رأيت أن أتولاه نيابة عنك ، ذلك أن بيتاً من أكبر بيوت تجارة الرقيق معروض للبيع ، وأنا بحكم وضعى فى الرق طول حياتى أعرف مالا تعرفه عن هذه المهنة . فلو أنك وافقتنى على ابتياع هذا البيت ، وممارسة هذه التجارة ، فسأضمن لك من وراء ذلك مغنما كبيراً وموردا ثراً ، إذ سيكون بمستطاعى أن أخفى عيوب الأرقاء ، وأجملهم فى عيون الناس ، فنبيعهم بالأثمان الغالية ... إنه مشروع طيب للغاية ، ولكننى أخشى أن يغلبك طبعك فتأباه ! ...

قلت له : نعم أنا لا أقر مثل هذا المشروع ، ولا أرضى به ، ولا يمكن أن أفكر مجرد تفكير فى تجارة الرقيق ، لأنها عمل قذر ، ولا أدرى وهى كذلك من الانحطاط الإنسانى ، كيف أن الناس لا يكفون عن شراء العبيد والأرقاء ، كما لو كانوا أدوات تافهة تشترى من الأسواق وهم آدميون مثلهم ؟ !

قال « كاپتاح » : كنت أتوقع هذا ، ولذلك لم أشأ أن أبرم اتفاقا مع صاحب بيت الرقيق قبل مشاورتك ، وإنى أوافقك على ما ترى فيه من شر لا يليق بك ، وأشعر من جانبي بأن هذا المشروع سيلقى على كتفى أعمالا شاقة تنوء بها صحتى وسنى المتقدمة ، فمن الخير إذن ألا نفكر فيه . وأحب بهذه المناسبة أن أطمئنك إلى أن الدور التى اشتريتها لك ليس فيها بيت من بيوت اللذات التى تخدش الوقار .

وتوقف « كاپتاح » عن الكلام هنيهة ثم قال فى حياء مصطنع : شيئا واحداً أسألك إياه فى هذا المساء ، وقد يكون مما لا يجمل بى أن أعرضه عليك ، ولكنى أجترئ فى عرضه راجيا ألا تغضب ، ذلك أن تصاحبنى إلى حانة النبيذ التى كنت قد حدثتك عنها كثيراً ، وهى المعروفة فى حى الميناء بحانة «ذنب التمساح» لنستمتع فيها بشرب النبيذ الجيد ، فإن بى شوقا إليها ، وكانت ذكراها لا تفارقنى وأنا فى « سوريا » و « بابل » ! . .

وكان الشراب الذى تناولته إلى تلك اللحظة قد أشاع فى نفسى نشوة ومرحا ، فضحكت لرغبة « كاپتاح » ولم أنكرها ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه دعوة إلى حانة حقيرة ، أرافق فيها خادما ، وليس هناك إلا حثالة الرواد ، وقد يكون نبيذ هذه الحانة كما يقال جيداً ، وقد يزيد شرابه فى نشوتى ومرحى ، غير أنها بالنسبة لى مكان غير لائق ، فكدت لهذا أن أرفض دعوة « كاپتاح » ، ولكنى عدت فذكرت أنها رغبة ذلك الخادم الأمين الذى رافقنى يوما ، بمحض إرادته ، إلى بيت إلـه « كريت » المظلم ، حيث الخطر والتهلكة ، ومن ثم ربت بيدى على كتف « كاپتاح » وقلت له : هيا بنا إلى حانة « ذنب التمساح » .

— ٦ —

وحانة « ذنب التمساح » هذه تقوم وسط حى الميناء بين مستودعات البضائع فى زقاق مظلم ، وحوائطها عريضة مبنية باللبن فى وثاقة تمنع تسرب الحرارة إلى الداخل فيكون جوها فى الصيف رطبا ، وفى الشتاء دافئا ، وعلى بابها علقت جرتان ، ترمز إحداهما للجعة ، والثانية للنبيذ ، وبين الجرتين علق تمساح محنط بعينين

من زجاج لامع ، وفى فكيه المنفرجين صفان من الأسنان . وأرض الحانة مكسوة بألواح الخشب ، وكذلك حوائطها ، وعلى هذه الحوائط علقت الحراب ومحار جزر البحر وطاسات منقوشة من « كريت » . هكذا رأيتها حينما دلف بى إليها « كابتاح » وهو إذاك متحمس مزهو ، وكان معروفا فيها لكثرة تردده عليها ، فقادنى إلى ركن منها يمتاز بالمقاعد ذات الحشيات الوثيرة ، وهتف بصاحب الحانة وأسرّ فى أذنه كلاما ، بينما كان الرواد الذين يملأون الحانة يأخذوننى بنظراتهم المستغربة ، وقال لى « كابتاح » : لعلك تعجب إذ ترى هذه الحوائط مكسوة بالخشب كما هو الحال فى بيوت الأغنياء ؟ ! ولكنك لن تعجب حين تعلم أن ألواحها من مخلفات السفن القديمة المحطمة . وعلى كراهيتى للبحار وأسفارها وسفنها أيضا ، فإنى أعرف أن تلك الألواح الصفراء قد شهدت فى رحلتها أراضى « بنت » ، وهذه الحمراء الداكنة قد رحلت إلى موانىء جزر البحر ، وهكذا .

وأقبلت علينا فتاة حسناء تحمل إلينا الشراب المخلوط الذى عرفت أن « كابتاح » كان قد أسرّ لصاحب الحانة بأن يضعه خصيصا لنا . وكان الشراب مصبوبا فى كأس جميلة على شكل أصداف البحار . ولكن هذه الكأس الجميلة لم تصرف نظرى ولم تشغل بالى عن الفتاة الحسناء التى تقدمها . لقد كانت فى مقتبل العمر ، محتشمة فى ملابسها على خلاف مثيلاتها اللائى يختلطن برواد الحانات وهن نصف عاريات لإثارة الغرائز والشهوات ، وكان يتدلى بإحدى أذنيها قرط من الفضة ، وعلى معصميها سواران من الفضة كذلك ، وفى وجهها جمال يغالب حزنا دفينا . وحين نظرت إليها أحسست بقلبى يهفو نحوها مبتهجا . ومع أنها لم تقابل نظراتى باكتراث ، فقد رأيت نفسى مسوقا إلى محادثتها قائلا : ما اسمك أيتها الغادة المليحة ! ! فأجابت فى صوت خفيض : اسمى « ميريت » ، وأرى أنه لا يجمل بك أن تنادينى بالغادة المليحة ، فإنما يفعل هذا ، الشبان الفاليك الذين يغازلون الفتيات اللائى يخدمنهم ، ومن الخير أن تتذكر ذلك إذا ما بدا لك أن تزور هذه الحانة مرة أخرى ، ياسيدى « سنوحى المصرى الوحيد » .

وفى دهشة وخيبة أمل ، قلت لها : ما أردت مغازلتك كما تتوهمين ، وما بى من رغبة فى هذا الغزل غير اللائق . ولكن من أين لك العلم باسمى ، وما أذكر أننا تلاقينا من قبل ؟ ! . .

وتنضر وجهها بالابتسام وقالت بلهجة مشوبة بالسخرية : وهل كان ينبغى أن نتلاقى من قبل لأعرف اسمك ؟ ! ولم لا يكون ذلك عن طريق شهرتك التى سبقتك إلينا يا ابن الحمار الوحشى ؟ !

ولم تغضبنى منها هذه العبارات الساخرة ، فقد كنت ألمح فى عينيها أسى عميقاً ، وظننتها تحاول بهذا الأسلوب اجتذاب قلبى إليها ، وقلت لها : إذا كانت شهرتى قد تقدمتنى إليك على لسان « كاپتاح » ، ذلك الرقيق الذى أعتقته اليوم من الرق ، فاعلمى أنه لا يصدق فى حديث أبداً ، فهو لا يعرف طول حياته ، الفرق بين الصدق والكذب ، وكثيراً ما يؤثر الكذب استرسالا مع طبعه الخبيث ، وقد حاولت إبراءه من هذه النقيصة الخلقية ولكن الطب والعصا معاً عجزا عن ذلك ! . . .

قالت : ليس الكذب مكروهاً فى سائر الحالات ، فقد يكون أجمل من الصدق وقعاً وأحلى منه مذاقاً ، عند الإنسان الوحيد الذى جاوز ربيع حياته .. وإنى لأستعذب منك أن تصفنى بالجمال والملاحة ، وقد لا تكون فى هذا صادقاً ! . . فالمناسبات والظروف هى التى تسيطر على الأخلاق وتتحكم فى معانيها ، من غير ما تقيد بمصطلحات الألفاظ المعبرة .

وفى حركة لطيفة قالت : وما لنا ولهذا ياسيدى « سنوحى » ، فهلا ذقت هذا الشراب الذى جئتك به ؟ ! إنى لمشوقة أن أعرف رأيك فيه ، وفى أى درجة يقع من نفسك ، إذا قيس بما كنت تشربه هنالك فى البلاد الأجنبية التى طوفت فيها ؟ ! . .

فرفعتُ الكأس وأفرغته فى فى ، وأنا أطيل النظر فيها معجباً ، ولكنى ما لبثت أن شعرت كأن عاصفة قد ثارت فى بدنى ؛ وناراً قد اشتعلت فى حلقى ، ودار رأسى مشتعلا كأنما قد صعد إليه دم الجسم كله وتجمع فيه حاراً ، وكدت

أختنق ، غير أنى غالبت هذه الحالة حتى عاد هدوئى وتنفست مستريحاً ، فقلت لها : الآن أعترف بأنى لم أشهد شهادة حق حينما وصفت « كاپتاح » بنقيصة الكذب ! . . فليس أدل على أنه الصادق الذى لا يكذب ، من هـذا الشراب العجيب . فهو أقوى من أى شراب ذاقه لسانى . وإنه ليبعث فى البدن حرارة لا يستطيعها زيت بلاد ما بين النهرين ، الذى تشتعل به المصابيح هنالك ! . . ولست أشك فى أن شرابكم قادر على أن يصرع أقوى رجل كأنما تنهال عليه منه لطمات من ذنب تمساح ! .

كان جسمى يهتز مضطربا ، وكنت أحس فى فمى بقية من مذاق طعم غريب من التوابل ، وقلبى يكاد يثب من صدرى كأن له جناحى طائر ، فقلت مستطرداً : بحق «ست» وكل الشياطين الأخرى ، إنى لا أعرف كيف ومم صنع هذا الشراب !؟ أهو الذى سحرنى ، أم هما عيناك يا « ميرييت » ! . . لقد عاد قلبى شاباً مرة أخرى ، ولا يدهشنك أن أطوق خاصرتك بذراعى ! .. إنى لمسحور ، وكأسك هو الملوم ! . .

وفى تؤدة ورشاقة وافترار ثغر ، قالت : لا يدهشنى ذلك ، ولا ألومك عليه ، فهذه الحانة لطيفة حقاً ، وأنا لست عجوزاً ، وقد لا تصدق بأنى عذراء . وهذا الشراب كما رأيت ساحر عجيب ، وقد فعل فعله فى رأس عبدك « كاپتاح » ، فكلما جاء إلينا ، وما أكثر ما يجيء ، لا يكف عن مداخلتى ومراودتى عن نفسى ، ولا يخطر فى حسبان هذا الأعور العجوز البدين ، أن أية امرأة لا يمكن أن ترضى به رفيقاً . . . وقد دفعه تعلقه بهذه الحانة إلى محاولة شرائها ، وشراء سر تركيب هـذا الشراب معها . ولكنه لن يستطيع ذلك إلا بوزنات كثيرة من الذهب ! . .

وكان « كاپتاح » يستمع إلى حديثها قلقاً مغيظاً ، وبكل خلجات وجهه كان يتوسل إليها ألا تسترسل فى إذاعة أسراره ، ولكنها لم تحفل به ، ولم تتوقف ! . .

وكنت قد تجرعت كأساً أخرى ، ودبت فى أعصابى حرارتها ، فقلت لها : إنى واثق من أن « كاپتاح » يريد مخلصاً أن يكسر الجرة بينك وبينه ، من أجل هذا الشراب . ولا يضيره عندما تصبحين زوجته ، أن تلقى المياه فى أشد غليانها على قدميه ! . . وإلى حدٍّ كبير أراه معذوراً فى افتتانه بك . فإنى لمدرك شعوره جيداً كلما نظرت أنا فى عينيك الفاتنتين . . . . ولكن تذكرى أيتها الحسناء الرقيقة أننى أتكلم الآن بوحى شراب « ذنب التمساح » . وقد لا يكون هذا رأيى غداً ! . . ودعينى أسألك : هل صحيح أن « كاپتاح » يملك هذه الحانة ؟!..

كان السؤال مفاجأة « لكاپتاح » ، كما كان مفاجأة لى أنا نفسى فقد وقع فى خاطرى فجأة احتمال أن يكون قد اشترى الحانة فعلا ، فلم يكن هناك ما يمنعه من ذلك ، إذ كان المال موفوراً فى يده . وهو — كما يؤكد لى مثرثراً — يجوب أنحاء المدينة بحثاً عن الأعمال التى يتجر بها . وإذا كان قد اتجه تفكيره إلى شراء بيت لتجارة الرقيق ، فغير بعيد أن يتجه تفكيره كذلك إلى شراء حانة « ذنب التمساح » التى يهوى شرابها وفتاتها ! . .

وارتاع « كاپتاح » من السؤال وراح يقذف « ميرييت » بالشتائم قائلا لها : أغربى عنى أيتها الوقحة ... والتفت إلىَّ قائلا فى سرعة ، خوفاً من أن تسبقه « ميرييت » : إن هذا الموضوع ياسيدى عرض لى كمشروع من المشاريع التى أتقصاها لاستثمار مافى أيدينا من مال ، وقد تحققت من أنه مفيد رابح فاشتريت الحانة من صاحبها ، واتصالى بهذه الفتاة ليس إلا محاولة غامضة لاكتشاف سر تركيب الشراب الذى تعرفه ، فهو فى الواقع مصدر شهرة الحانة ، وبفضله صارت تهوى قلوب الكثيرين من طلاب المتعة والمرح . ولقد كنت طوال رحلتنا دائم الحنين إليه ، فمن يطعمه لاينساه ولا ينتهى شغفه به . وإذا كنت لم أكاشفك بهذه الصفقة فذاك لأنى خشيت ألا توافق عليها لأول وهلة . على أنى كنت سأخبرك بها حتما فى الوقت المناسب . والآن — وقد عرفتها — فإنى أرجو أن تقرها ، فهى أمنيتى المفضلة ، وأنا خادمك المخلص ، وقد أطلقتنى ، فهل يسخطك

أن يكون لى مثل هذا العمل الخاص الذى أستمتع فيه بشعور الحرية التى منحتنيها متفضلا ؟! ولا بأس عليك ياسيدى من ذلك ، فإنما قد اشتريت الحانة من مدخر مالى الذى جمعته بفضل ما تسميه أنت سرقة ، وأسميه أنا مهارة ! وكثيراً ما كان يؤلمنى ألا أجد عملا أستخدم فيه هذا المال لحسابى الخاص . وأخيراً وجدت فى هذه الحانة بغيتى المنشودة ، إذ تكفل لى بجوّها المنعش وشرابها الممتع ، راحة القلب وعافية البدن فى الأيام الأخيرة من حياتى . ولعلها العمل الذى قلما أحسن عملا سواه ، وطالما تمنيت أن أكون يوماً صاحب فندق أو حانة ، وما رأيت مرة واحدا من أصحاب الفنادق والحانات إلا نفست عليه حظه السعيد فى الحياة ، ذلك لأنه يستطيع أن يشرب النبيذ كلما أراد وبأية كمية شاء ، دون أن يجد من يطالبه بدفع الثمن ! .. ثم هو إلى هذا يستقبل الكثيرين من مختلف البلدان والطبقات ويتعرف إليهم وتتوثق علاقته بهم ، وبواسطتهم يستطيع أن يقف على ماجريات الأمور وتفصيلات الحوادث فى سائر أنحاء الدنيا . وقد يجد فيهم الأصدقاء النافعين فى أى وقت ، والناصرين له فى أية مشكلة . وسأكون فى هذه الحانة ألطف مدخلا وأرق حاشية وأدنى إلى قلوب رُوّادها من صاحبها القديم ، بل من أى إنسان آخر يتولى إدارتها . فلسانى — كما تعلم — مدرب على الأحاديث المنمقة ، ورأسى مشحون بالمعلومات والحوادث المثيرة ، فسأقص عليهم أغرب القصص ، وأستهويهم بالطرائف من الروايات ، وسيطيب لهم بذلك أن يطيلوا الجلوس ، وأن يكثروا من الشراب ، محلقين فى آفاق فسيحة من الخيال الممتع . وليس يخفى عليك ياسيدى ما يكون لهذا من أثر كبير فى زيادة دخل الحانة ، فهى إذن عمل مربح ، وقد أحسنت الاختيار . والواقع أننى خلقت لأكون مدير فندق أوحانة ، ولم أكن عبداً رقيقا إلا لخطأ لاأدرى كنهه ولا مأتاه ، ولا كيف وقع !

وكان « كابتاح » وهو يقول هذا لاينسى أن يعب من الشراب ، وقد بدت عليه النشوة ، فواصل الحديث قائلا : فإدارة هذه الحانة — كما ترى — أجدى الأعمال وأسلمها عاقبة بالنسبة لى ، وهى لا تتأثر بالأحداث مهما تكن . فلو حدث

مثلا أن انهار سلطان فرعون ، وتهاوت الآلهة عن عرشها ، فستبقى حانات النبيذ كما هي لايتطرق إليها وهن ولا يصيبها بوار ؛ ذلك لأن شراب النبيذ مطلب كل إنسان ، يقبل عليه إذا كان مسروراً ليستزيد من سروره ، ويهرع إليه إذا كان محزونا لينسى فيه أحزانه . ومن أجل هذا أقدمت على شراء الحانة مطمئناً متفائلا . وقد عهدت إلى صاحبها السابق ، بإدارتها فى الوقت الحاضر ، تساعده فى ذلك هذه الساحرة « ميريت » على أن تكون أرباحها قسمة بيننا إلى أن يحين الوقت الذى أفرغ فيه من الشؤون الأخرى فأمسك بزمامها وحدى ، حيث أقضى فيها شيخوختى ، ولست أخشى الآن على إدارتها فى يد هذا الرجل ، فقد عقدت بذلك اتفاقا معه وأقسمنا عليه بكل آلهة مصر ، ولا أحسبه ناقضاً هذا الاتفاق ، أو — فى القليل — لاأحسبه سيخون الأمانة أكثر من المعقول ! . . فإنى لأراه رجلا تقيا يرتاد المعبد ويقدم القرابين ، وبينه وبين الكهنة صلات ود ، حتى أنهم ليترددون على حانته الفينة بعد الفينة ...

وإلى هنا كان الشراب قد استبد بوعى « كابتاح » فاختلطت فى رأسه مسالك الحديث ، وثقل لسانه فلم يعد يبين أو يفصح أو يقول كلاما مقبولا ، وشعر هو بهذا فقال : فى أى شىء كنا نتكلم ؟! وماذا أريد أن أقول لك ؟ .. حقًّا لقد نسيت ... ولكنى على أى حال مسرور ، ومسرور إلى أقصى حد ... لأننى أصبحت صاحب حانة ، ولأنك لم تبد اعتراضاً على أن يصبح خادمك رجل أعمال حرًّا !..

وخارت قوى « كابتاح » لشدة ثمله ، ومال بجسمه المترنح على صدرى وهو يبكى ، فنحيته عنى فى رفق وأعدته إلى مقعده وقلت له : الحق يا « كابتاح » أنه مامن عمل هو أكثر ملاءمة لمواهبك من هذه الحانة ، وهى فضلا عن ذلك أفضل مأوى لشيخوختك . وقد صنعت — بلا شك — خيراً حين أقدمت على شرائها ، ولكن نقطة واحدة انبهمت على فكرى فى صفقتك الرابحة ، وأريد أن أستوضحك إياها ، فهلا أخبرتنى لماذا وافق صاحب الحانة على أن يبيعها لك

مادامت تربح الكثير ، ويملك فيها سر شراب «ذنب التمساح» الساحر العجيب ؟! أفلا يكون البدهي والمعقول أن يحتفظ بها لنفسه ؟ ! ..

وكأنما أعادت إليه هذه العبارة صحوه ومست شيئاً هاما يحرص عليه ، فسدد إليّ نظرة طويلة من عينه الواحدة ، وقال فى اهتمام : إن من عادتك ياسيدى أن تعكر صفوى بالملاحظات الدقيقة . على أنه ، إلى جانب مايخطر ببالك بشأن صاحب الحانة وكيف رضى ببيعها وهى التى تدر عليه ربحا كثيرا ، يحسن بك أن تدخل على هذا الخاطر احتمالين آخرين هما أقرب إلى واقع الحال من خاطرك المزعج ! .. أولهما أننى وصاحب الحانة صديقان ، ومن أيام شبابنا حتى الآن يحب كل منا صاحبه كما يحب الأخ أخاه تماما ، وهو يؤكد ذلك ويتحدث به . فهل يكون غريبا أن نتقاسم الخير ونتبادل المنفعة ؟ .. وقد يكون هذا فى تقديرك ، وربما كان فى تقديرى أيضاً ، احتمالا ضعيفا ، يكمن وراءه ابن آوى المخادع المحتال ، فلننظر إذن فى الاحتمال الثانى : إنه لم يعد خافيا على أحد أن صراعا شديدا يقوم بين « آمون» وإلـه فرعون الجديد . وهذا الصراع وإن كان الآن يتفاعل تفاعل النار خلال الرماد إلا أنه يوشك أن يصبح ناراً تلظى ، تلتهم القلوب وأتباعه وأنصاره والمؤمنين به . ومن هنا ركب الخوف سائر الذين يشعرون بأن الهزيمة ستلحق بهم ، وهم فى غالب الرأى أتباع « آمون » وصاحب الحانة منهم ، بل من أكثرهم ظهوراً لكثرة تردداه على المعبد ووثيق صلته بكهنته ، فهو يخشى ذلك اليوم ، الذى قد يكون أقرب مما يظن ، يوم تدور الدائرة على إلـهه فتتحطم حانته ويحرق كل مافيها ويجلد هو بالسياط ثم يلقى به فى النهر ، فسبيل النجاة فى تفكيره هو أن يبيع الحانة ويتخفف من الأعباء استعداداً للفرار بنفسه قبل أن يدهمه الخطر المتوقع فى كل لحظة . ولماذا لايبيع حانته وهو يرى « آمون » نفسه يبيع من أرضه ؟ ! أرأيت ياسيدى أن الصفقة تبررها ظروف واعتبارات تتفق مع العقل ، ومع الحكمة كذلك !.. ثم لاتنس ، فوق ذلك ، أن الجعران المقدس لايزال معنا ، وهو فى قوة سلطانه يستطيع أن يحمى الحانة فى الوقت نفسه ، الذى يضفى رعايته

وبركاته على المشروعات الأخرى التى تستثمر فيها أموالك ! ..

ولزمت الصمت قليلا ثم قلت له : مهما يكن من الأمر ، فإنه لايسعنى إلا الاعتراف بأنك فى يوم واحد قد صنعت أشياء كثيرة وهامة ! . .

فتظاهر « كاپتاح » بالخجل من هذا الذى يراه تنويها بمقدرته واعترافا بكفاءته ، ولكنه أراد أن يؤيد استحقاقه للإطراء ، فقال مضيفاً : ولا يغربن عن بالك أيضا أننا لم نصل إلى « طيبة » إلا أمس — أمس فقط — وكانت رحلتنا الطويلة جدا شاقة ومضنية ، وكنا أحوج ما نكون بعدها إلى الراحة الكاملة أياما ، ولكنى آثرت العمل المتواصل لأظفر بهذه النتائج فى أقل وقت ممكن ! . .

وكان لابد لنا بعد ذلك من الانصراف ، فنهضت ونهض « كاپتاح » متثاقلا ، وحيينا صاحب الحانة ، ورافقتنا « ميرييت » إلى الباب . وقبل أن نخطو إلى الخارج لاصقتها ووضعت يدى على خاصرتها ، ولكنها أزاحتها بهدوء قائلة : قد تكون ملامستك لى هكذا شيئاً لذيذا ، ولكننى لاأشعر بلذته لأنك تفعله متأثراً بشراب « ذنب التمساح » ! .. وأدركتُ ماذا تعنى . .

وأخذنا وجهتنا إلى المنزل من أقصر طريق ، وعلى فراشنا غير الرتيب استسلمنا إلى النوم العميق ...

— ٧ —

وفى هذا الحى الفقير « بطيبة » بدأت حياتى الجديدة كطبيب ، وصحت نبوءة « كاپتاح » فكان عدد المرضى الوافدين علينا كثيراً ، وما يقدمونه من أجور وهدايا قليلا تافها ، فى حين كنت مضطرا إلى شراء عقاقير غالية الثمن . ومن هنا كان ماأنفقه على هؤلاء المرضى أكثر مما أناله منهم ، ذلك عدا أن أثر العلاج فيهم كان ضعيفا ، لأنهم كانوا يعجزون عن شراء الطعام الذى يعين على رد العافية إلى أبدانهم ؛ ومع هذا كنت سعيدا بهم ، وأكثر ما كان يسرنى منهم أنهم أصبحوا يباركون اسمى ويدعون لى .

وجاءنى « كاپتاح » بامرأة عجوز لتدير شؤون منزلنا ، وقد استرحت إليها لأنها كانت تجيد طهو الطعام وتحسن القيام بالخدمة فى هدوء لايخالطه صخب ولا فضول . وعلى خلاف ما تعودت من « كاپتاح » لم أرها تقف على الباب لتسب المرضى وتلعنهم متقززة من رائحتهم الكريهة ، وإنما كانت تغدو وتروح بالمنزل كأنها شبح أو ظل ، مشغولة بعملها وحده دون أن تعترض طريقى كما لو كانت تتحامى لقائى ، ولهذا كنت لاأراها إلا نادرا ، وكان اسمها « مُوتى » . .

وعلى هذه الحال تعاقبت الشهور ، وكان القلق فى « طيبة » يتزايد يوما بعد يوم . وكنت خلال ذلك أرهف أذنى لأسمع شيئاً عن عودة « حورمحب » ، ولكن أحدا لم ينبئنى بعودته ، فكان ذلك يزيدنى لهفة على تسقط أخباره .

وكان الصيف قد أقبل ، وشاعت حرارة الشمس فى الجو ، وأرهقت أشجار الحدائق حتى صوحت زهورها وأحالت ألوانها المخضوضرة إلى اصفرار كالح ، فكنت ، التماسا للترفيه وطلبا للمتعة والتسلية ، أمضى من حين إلى حين إلى حانة « ذنب التمساح » مستصحبا « كاپتاح » . وفى كل مرة كنت أحدق فى وجه « ميرييت » وعينيها ، وأدعوها للجلوس معى ، ولكنها فى أكثر الأحيان كانت تنأى عنى ، وكان هذا يحزن قلبى .

وقد استرعى نظرى فى هذه الحانة أنها لم تكن مكانا مباحا لكل مرتاد ، فروادها لايختلفون فى كل ليلة ، وجُوهاً أو مقاعد ، فكأنما هى نادٍ خاص بهم ، لايؤذن لغيرهم بدخوله . ومع أن من بينهم اللصوص وتجار السوق السوداء ، فإنهم جميعا حينما يكونون بالحانة يحرصون على أن يبدوا سلوكهم مهذبا . وقد كنت أشعر بأننى غريب فيهم ، فلم يحدث أن تعرفت إلى أحد منهم ، كما لم يحاول أحد أن يتعرف إلىَّ ، فكل مايعرفونه عنى أننى صديق « كاپتاح » ، وهذا حسبهم .

وبين رواد الحانة تدور أحاديث مسموعة فى الأحوال الجارية ، ومنهم من كان يلعن « فرعون » ، ومنهم من كان يحمده . ولكنهم جميعا كانوا على اتفاق فى السخرية بإلهه الجديد . وذات مساء وفد إلى الحانة رجل من التجار ، مهلهل

الملابس ، أشعث شعر الرأس ، بادى الـكآبة، فطلب ـ وهو لهج ثائر الأعصاب ـ شرابا يخمد به ثورة نفسه ثم أخذ يقول : ألا فلتنصب لعنة الأبد على « فرعون » ، ذلك الـكاذب الأحمق الذى يتصرف فى شؤون النـاس بوحى نزواته وأفـكاره الخرقاء ، غير مبال بما ينالهم من ضر وسوء ، وتعطّـل منافع ونضوب موارد ، وإليـكم مثلا على ذلك : إن عملى ـ كتاجر ـ يقتضينى استيراد بعض المواد من أرض « بنت » ، وأنا وأمثالى من المستوردين نعتمد على السفن تروح وتغدو عبر البحر الشرقى . ورحلات هذا البحر ـ كما هو معروف ـ ليست معرضة للأخطار ، ولذلك فإن السفن فى رواحها وغدوها قلما تصاب بمكروه ، وبالتالى قلما تتخلف عن مواعيدها . على أنه يحدث فى القليل النادر أن يتأخر بعضها عن ميعاد العودة لسبب لا يعدو تقلبات الجو والأنواء ، ولا يـكون فى هذا التأخير ما يدعو إلى الخوف والقلق ، غير أن « فرعون » ذهب اليوم إلى الميناء على غير المألوف ، فرأى بعض النساء والأطفال يبكون لأن بعض السفن التى يعمل عليها أهلوهم قد تأخر وصوله عن الميناء ، فأصدر لفوره أمرا بوقوف إبحار السفن إلى أرض « بنت » ، ومعنى ذلك ، الإفلاس وخراب بيوت الذين تتوقف أعمالهم وأرباحهم على تجارة البحر ، وهم عـــدد كبير ، ومن بينهم هؤلاء الزوجات والأطفال الذين تظاهر « فرعون » بالشفقة عليهم ، فإنهم سيموتون جوعا حينما لا يجد أهلوهم عملا لتوقف السفن عن السفر بالبحر تنفيذا لأمر « فرعون » الرحيم !.

ولن يضار التجار والبحارة وحدهم بهذا الأمر الشاذ ، فهناك كذلك وكلاء الأعمال المصريون المقيمون فى أرض «بنت» ، فسيعضهم الفقر بنابه غدا ، وتغلق فى وجوههم أبواب العمل والرزق ، ومن وراء هؤلاء وأولئك عـدد لا يحصى من أبناء الشعب ، سيحرمون من البضائع والعقود الزجاجية والجرار وما إلى هذا من مختلف المواد التى ترد من تلك البلاد البعيدة ، وهكذا تجيء تصرفات «فرعون» مرتجلة طائشة خالية من البصر وتقدير العواقب !..

وظل هذا التاجر ثائرا متتابع الـكلام فى عيب « فرعون » وتسفيه أعمـاله ،

غير أنه بعد الكأس الثالثة من شراب « ذنب التمساح » أخذ يهدأ وتخبو ثورته، وعندئذ أدرك أنه جاوز فى حديثه الحد الذى ينبغى الوقوف عنده كلما ذكر « فرعون » ، كما أدرك أنه قد أساء إلى من يعتقدون الخير فى « فرعون » ويحمدونه عليه ، فراح يعتذر من ذلك متعللا بأنه فى غضبه ويأسه كان ثائراً لا يعى ، وأردف اعتذاره بقوله : إذا كان « فرعون » لحداثة سنه وقلة تجربته يتصرف على هذا النحو بحسن النية ، فإنى واثق أن الملكة « تايا » بحكمتها وسداد رأيها ستحسن مقادة ابنها وتوجيهه التوجيه الرشيد ، وأعتقد أنها ستجد فى هذا السبيل عوناً كبيراً من الكاهن « آى » ، ذلك الرجل الحصيف المتزن ! . .

وتوقف الرجل قليلا ثم عاد إلى الحديث قائلا : ولكن كل الذين إلى جوار « فرعون » لا يفكرون الآن إلا فى كيف يقضون على « آمون » ، ومن هنا تركوا « فرعون » مطلق العنان ، وأفسحوا الطريق أمام خبله وجنونه ! . . ومسكين أنت يا « آمون » ! . وهل فى القصر الملكى اليوم إلا العبث والاستهتار وفساد الأخلاق ؟ ! وهذه « نفرتيتى » الزوجة الملكية ، لا يعنيها من أمر الدولة إلا الزينة والتجميل وارتداء أجمل الملابس وأغلى الجواهر ، والبحث بعد ذلك عما يشبع هواها ، ويجرى معها فى هذا السباق الشائن سيدات القصر ، فهن يبدين زينتهن للرجال ويظهرن لهم من أجسادهن مالا يجوز أن يظهر ! . .

وعقب « كاپتاح » على مقالة هذا التاجر بقوله : هذا شىء غريب لم أجد مثله فى أى بلد من بلدان العالم التى طوفت بها وغشت فيها ، على الرغم من أنى رأيت هناك كثيراً من العجائب والغرائب ! . والتفت إلى الرجل المتحدث وقال : وهل رأيت بعينيك سيدات القصر ، ومعهن الملكة ، يكشفن للرجال عن أجسادهن على الصورة التى تذكرها ؟ ! .

وقال التاجر : إنى رجل ذو حياء ، وزوج ووالد أطفال ، ولا أسمح لنفسى أن أنظر إلى سيدة فى وضع من هذه الأوضاع السافرة التى لا حياء فيها ، ونصيحتى إليك ألا تفعل شيئاً غير لائق كهذا ! . .

وهنا تدخلت « ميريت » فى الحديث مغضبة فقالت : إن كان ثمة شىء غير لائق ، فهو هذا الذى يتنزى على لسانك من العبارات الفجة والتعبيرات السمجة ، وليس هو تلك الأزياء التى ترتديها سيدات القصر ويذهب بها خيالك المريض كل مذهب ! .. إنها ملابس خفيفة أعدت للصيف تلطيفا للحرارة واحتفاظا بما لاغناء عنه للجسم من الرطوبة ، وقد أحكم تفصيلها فى اعتدال بما يلائم أجسام السيدات ، ولو كنتم يا أصحاب الخيال قد دققتم النظر فى ملابس سيدات القصر التى تتخيلونها مكشوفة لرأيتم تحت الثوب الخارجى المتفتح من بعض جوانبه ثوبا آخر من الداخل يستر سائر أجزاء الجسم ويخفيها إخفاءً تاما عن أحدّ العيون وأنفذها ، فما ذنبهن إذا كانت ليست لكم عيون ؟ ! .

وحاول التاجر أن يدفع هذا الهجوم بمثله ، ولكن الشراب كان أقوى من لسانه ، فعقده عن الكلام ، فتهالك فى مقعده واعتمد رأسه بيديه وراح ينشج بالبكاء ، لأن سيدات القصر العابثات يجدن فى مثل هذه الحالة لسانا كلسان « ميريت » السليط يدافع عنهن ، ولأن سوء الحظ قد حل بالمصريين الذين قضى أمر « فرعون » أن يبقوا فى بلاد « بنت » مشردين جياعا ! . .

ولدى البـاب عند انصرافنا ، قلت « لميريت » : عيناك تقولان لى إنك وحيدة ، وأنت تعلمين أنى كذلك وحيد ، فنحن من حياتنا على حال واحدة ، وكلانا فى حاجة إلى الآخر ، فهلا بادلتنى هذا الشعور ؟ ! قولى نعم ، ولو لم يكن صحيحا ، فقد سمعت منك قبل هذه الليلة أن الكذب فى بعض الأحيان أحلى مذاقا من الصدق . وإنه ليكون أشد حلاوة وأعذب مذاقا بالنسبة لشخص وحيد انقضى ربيع شبابه . . . وإن كان ثمة ما أتمناه الآن فهو أن تلبسى ثوبا جديداً من أزياء الصيف التى كنت تتحدثين عنها منذ قليل بحماسة حارة ، فإنه أكثر ملاءمة لتكوين جسمك الجميل ، وأعتقد أنك لن تخجلى وأنت تسيرين به إلى جانبى بطول طريق « رامس » ؟ ! .

وفى هذه المرة لم تدفع يدى التى كانت تمسك بخاصرها ، ولكنها ضغطت عليها فى رقة ورفق ، وقالت : ربما فعلتُ ما تريد .

وافترقنا ، وصورتها لا تبرح خيالى ، وقلبى يخفق حنينا إليها .

وعاد « حور محب » فى اليوم التالى إلى « طيبة » على رأس القوات المسلحة ، والحديث عنه وعن موضوعات أخرى قريبة إليه أو بعيدة عنه ، مفصل فى القسم الثانى من هذا الكتاب . على أنى ، قبل أن أنتقل إليه ، أرى أن أسجل لنفسى فى هذه الفترة أننى أجريت عمليتين دقيقتين لفتح الجمجمة ، وكانت إحداهما لرجل غنى موفور ، وثانيتهما لامرأة فقيرة ، وقد نجحتا نجاحا باهراً وكنت سعيداً بذلك أوفى سعادة ، ولم يكن الرجل الغنى أقل منى سعادة بعد شفائه ، ولكن المرأة لم يكن لها مثل حظنا من هذه السعادة ، ذلك لأنها كانت قبل شفائها تظن ، لاختلاط عقلها ، أنها هى الملكة العظيمة « حاتشيبسوت » ، فلما عاد إليها عقلها عادت إلى الواقع وعاشت فى الحقيقة ، فإذا هى كما كانت من قبل ، المرأة الفقيرة ، التى لا شأن لها ولا سلطان .

اقرأ الجزء الثانى وهو الأخير